أنيس منصور

أوراق على شجر

دار الشروق

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الرابعة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL. 637 2743/4, TELEX· SHOROK 25779G

الغلاف
بريشة
الفنان
مصطفى
حسين

مقدمة

هكذا تقول الأسطورة !

لم يترك الريف أثراً فى حياتى الا الخوف ..

ولا أعرف أى نوع من الخوف .. ربما كان الخوف العام .. الخوف من اليوم والغد والناس والتجربة الجديدة .. والمغامرة ..

واتخذ الخوف شكل الخجل .. وأرتدى الخجل أثواب الدين .. وهدانى الدين الى القراءة .. وكنت قد حفظت القرآن الكريم دون أن أفهم حرفاً واحداً منه . فقد كنت فى التاسعة من عمرى . ولكن القرآن الكريم أعاد لى اعتبارى . واعطانى وزناً وحجماً .. بل أعطانى أكثر مما استحق .. فقد كان يكفى جدا أن يقال فى الريف : انه قد حفظ القرآن الكريم .

وعندما يسمع أى انسان هذه العبارة فانه يحملق بعينيه ويتراجع الى الوراء ليقول : ما شاء الله .. ما شاء الله كان .

ويكون التراجع إلى الوراء والنظرة المبهورة مزيجاً من الاعجاب والخوف من الحسد وأن يتمنى كل واحد أن يكون له ابن مثلى ..لتفاتيش عدلى باشا يكن رئيس الوزراء وكان جميل الوجه والصوت وكان شاعراً رقيقاً ومحدثاً

وأعاد لى القرآن حب القراءة وحب الكلام الجميل والأداء الجميل .. فأدخلنى القرآن الكريم بسهولة فى زمرة الناس الكبار .. وأفسح لى مكاناً بينهم .. أيا كان هؤلاء الناس .. ألست أحفظ القرآن الكريم ؟ .. ألست أعجوبة بين أبناء الافنديه ـ وقد كان أبى رحمه الله أفندى يلقى عظيم الاحترام من الناس .. كان رجلا مهيبا مأموراً بليغاً وحافظاً للقرآن الكريم ومرتلا له أيضا .. وكان يحب الناس حوله . فأحبه الناس وفتحوا له بيوتهم وقلوبهم .. وآلقوا عنده مشاكلهم وعادوا أكثر أطمئناناً وأماناً ..

وبوالدى ومعه وبسببه وحبا له وجدت نفسى أمام عشرات الكتب الدينية والأدبية وبدأت حياتى مع الورق .. مع الورق الأبيض والأصفر .. ومع الساعات الاولى من كل يوم أقرأ مع والدى واستمع له أكثر الوقت .. وارتبطت حياتى بالكلمة والورق .. بالكلمة الجميلة والصوت الجميل . وعشقت الفن والأدب . وتحددت حياتى تماما : استمع وأغمض عينى وأنتشى وأحلم..

وأعتدت أن أغمض عينى أكثر مما افتحها لقد أعتدت أن استمع الى الكلام الحا ـ وأحفظه قبل أن اتعلم القراءة والكتابة . ويوم حفظت القرآن الكريم والهمزية النبوية « ولامية » العرب للشاعر الطغرائى والبردة النبوية للبوصيرى ونهج البردة لشوقى ، لم أكن أكتب اسمى الا بصعوبة ..

ولذلك فأنا استعيد الأشياء بتذكرى لرنين حروفها ورنات نبراتها .. واتذكر الأشياء بروائحها . فأنا عندما أتذكر الآن قريه « نوب طريف » مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية ، فأنني اتذكر صوت وابور الطحين ، ورائحة البرك التى اختلط فيها الماء الراكد برائحه البترول وصوت كلب متقطع غليظ أجش قد تهجم على فى احدى المرات وكاد يفترسنى لولا أن عياراً نارياً قد أرداه قتيلا ، فقد أدركنى أبى فى آخر لحظة !

* * *

ولو عدت بذاكرتى الى أيام طفولتى التى أمضيتها فى الريف متنقلا بين القرى والمدن بين أمتعه أبى وأمى ، وكانت قليلة يضعونها فى جانب من السيارة : فأننى لا أذكر لون الأشجار ولا الأزهار ولا الطيور .. ولا أعرف كيف كانت تطلع الشمس على الريف .. ولا كيف كانت تغرب .. ولا لون الضباب صباحا .. ولا كيف تتسابق الديوك والعصافير والغربان والكلاب على رؤية الشمس .. ولا كيف تتسابق الخفافيش والقطط على رؤية النجوم .. لا شئ من ذلك .. فقد أعمانى الخوف عن رؤية جمال الطبيعة ..

أو أن الخوف العام قد جعلنى أتوارى من كل الذى أحبه ولا أعرفه ، فى قراءة الكتب من أى نوع ومن أى حجم ومن أى مصدر .. وأذكر عندما كنت طفلا أخذت أجمع الكتب من بيوت أقاربى ومن أى بيت ، وبمنتهى حسن النيه ، حتى نبهنى أبى الى أن الذى أعمله يجب أن أستأذن فيه .. وكنت قبلها أتصور أن الكتب كالشوارع مرافق عامة .. وخدمات عامة .. ومن حق كل راغب فيها أن يأخذها وبدون أذن من أحد .. .

وكنت قبل ذلك لا أعرف حدودى وحدود الآخرين ..

ولم أجد كتابا واحدا أقول عنه : كتابى .

فقط عندما جاء ترتيبى الأول فى الثانوية العامة .. فقط سافرت من المنصورة إلى القاهرة لأتسلم جائزتى من وزير المعارف فى ذلك الوقت ـ أحمد نجيب الهلالى باشا ـ وكانت الجائزة خمسة وعشرين جنيها وبعض الكتب من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر .. من بينها كتاب من تأليف اندريه موروا « دزرائيلى » من ترجمه حسن محمود . والكتاب عمل أدبى فنى سياسى فى المقام الأول .

وكتاب « فاوست » للشاعر الألمانى جيته وقد ترجمه شعرا ونثرا د . محمد عوض محمد .. وهو أيضا من عيون الأدب ..

ومسلسلة «قصة الفلسفة اليونانية» فى جزء واحد «وقصة الفلسفة الحديثة» فى جزءين . وهذه الكتب من تأليف أحمد أمين وزكى نجيب محمود . وهى من أمتع وأجمل ما قرأت وكانت فاتحة للشهية . ثم انها استدرجتنى الى الفلسفة حتى تخصصت فيها . وعرفت فيما بعد عندما التقيت بدكتور زكى نجيب محمود . أنه هو مؤلف هذه الكتب الثلاثة . وأن أحمد امين . وهو عالم جليل ، قد وضع اسمه أمامه لأنه هو صاحب المطبعة وهو الأكبر سنا ومكانه فى ذلك الوقت .. ثم أن هذا هو الشرط الأول لنشرها أن هذه الكتب شرف يجب أن يدعيه آخرون كثيرون ..

حتى هذه الكتب الثلاثة قد جاءت خلاصة جميلة لكتاب باسم «قصة الفلسفة» لكاتب امريكى عظيم اسمه ول ديورانت ..

وقد عرفت بعد ذلك ول ديورانت وزوجته اريل . وجلست اليهما . ولم أجد أمتع ولا أروع من حديث معهما الى الأبد ..

ورأيت فى زكى نجيب محمود وول ديورانت علامتين على طريق تفكرى وأسلوبى .. هكذا تكون القدرة على نقل المعانى الصعبة فى عبارة سهلة جميله . ووجدت متعتى الحقيقية فى تدريس الفلسفة فى الجامعة .. فقدكنت أحب ما قرأت وأحب ما قلت .. وكان هدفى ، ولا يزال ، وأملى ولا يزال : أن أكون واضحا سهل العبارة وجميلها ان استطعت . وإن كان فى متناول أقل الناس تخصصاً ..

وأصبحت الكتب هى حياتى ، والكتاب سبيلى وأسلوبى وأملى وشرفى .. وعذابى أيضا ..

فقد شغلت به عن الدنيا كلها .. فقد كان الكتاب دنياى .. وتبددت طاقتى فى القراءة ومن قبلها أموالى .. وأصبحت ثروتى المعروفة هى أكثر من أربعين ألف كتاب ــ هذا أن رأى أحد ان هذه الكتب ثروه .. ولكنها ثروتى وسدى العالى الذى يعطينى الطاقة والضوء ويحجب عنى الدنيا أيضا .

* * *

ومن الغريب أن أول قصة كتبتها كان عنوانها «لو كنت شجرة على ترعة» .

وبعد أن كتبت القصة لسنوات فكرة فى موضوعها وعنوانها ..

اننى لم أكن سعيدا حتى استعيد الحياة فى الريف . أو حتى أذكرها وإذا ذكرتها ان استعيدها ..

ولكنى . من شدة الألم والعذاب ، تمنيت أن أكون شجرة على ترعة .. ما الذى وجدته فى هذه الصورة . لا أعرف الآن بالضبط : ولكنى تمنيت أن أكون هناك وبعيدا قائما حياً لا انتقل فقد تعبت من التنقل . فقط أن أظل بلا حركة .. أن أنام واقفا وأن أموت واقفا وأن أدفن فى مكانى .. تماما كالانبياء يدفنون حيث يموتون .. ولابد أننى تصورت الترعة ضرورية ، كمصدر للحياة .. أى أعيش على مائها وأموت على شاطئها .. ومن الغريب أننى أخذت

الطيور التى تقف على أغصانى . والناس الذين يتمددون فى ظلى .. ولم أفكر طويلا فى المرض الذى سوف يأتينى بالموت . لانني لا أخاف الموت . فقد رأيته كثيرا وخطوة خطوة يزحف على أعز الناس : أبى وأمى ومن قبلها أختى وأخى وخالى وبعض طيورى وكلابى وقططى .. ورأيت صوراً من الموت فى فراق زملاء الدراسة وجيران البيت .. والدنيا كلها وهى تفر ورائى وأنا أنظر لها من نافذة السيارة وفى غبارها !

وعندما أصدرت الشاعرة الفرنسية الصغيرة مينو درويه ديوانها بعنوان « أيتها الشجرة أنت صديقتى » .. اقبلت عليه .. ولم اجدنى فيه نيه .. ربما لانها صغيرة . وربما لانها من المدينة وليست من الريف .. وربما لانه ليس من نظمها .

فقد افتضح أمر الفتاة الصغيرة . وعرف العالم أن أمها أديبة مغمورة فأرادت أن تكون مشهورة . فنظمت ديواناً نسبته الى أبنتها ..

ولم تهزنى أغنية مثل أغنية « أجعلنى شجرة فى غابتك » للمطربة الامريكية شارون تيت التى قتلها زوجها وآخرون هل لأنها جميلة .. هل لانني رأيتها مرة واحدة ووجدتها تقول كلاما . يمنعنى الحياء أن أقول أن هذه افكارى .. رغم أنها من امريكا وأنا من مصر..

والحقيقة أن الاغنية تقول : اجعلنى شجرة فى غابتك .. ثم أجعلنى بعد ذلك كل غابتك .. ثم اجعلنى شجرتك فى صحارى الحياة .. واتركنى أتمدد فى أمان ظلالك . ودفء حنانك .. اجعلنا شجرة واحدة .. أنت الفروع وأنا الورق .. أنت الزهور وأنا الطيور .. أجعلنى صورة لشجرة على حائط الابدية » .

أذكر عندما كنت تلميذا فى الجامعة كتبت مقالا فى مجلة كلية الآداب بعنوان :

ما الذى كنت تتمنى أن تكون .. جوابى : الا أكون !

وعندما قرأت ذلك المقال أزعجنى هذا التشأوم . ولكنى راجعت نفسى واصدقائى كيف كانت حياتنا فى الجامعة فى ذلك الوقت ـ ولما عرفت التفاصيل . وجدت أنه من الطبيعى أن أقول ذلك .. فلا كان طريقى على قدمى من مدينة امبابة الى الجامعة سهلا .. ولا كانت عودتى الى البيت ليلا وسط الحقول وبالقرب من أفران الفول المدمس حيث يلقون بالتراب الملتهب . فنمشى فوقه فينفجر بالشرار فتحترق ملابسنا .. ويكون للشرار شكل العفاريت أو الثعابين أو الكلاب .. ولا كان نومى تحت سقف يتحلل ثرايا طوال الليل .. ولا كان نومى هادئاً والصحف والكراريس على وجهى تتلقى التراب عنى .. ولا مخدتى لينه تغوص فيها أذنائى فلا اسمع انين اعز الناس : أمى وأبى ..

* * *

وأغرب من ذلك أننى كتبت فى نهاية المقال أقول : أه لوكنت شجرة .. بلا عينين ولا أذنين وانما اتغذى بالهواء وبالطين ولا اسمع الانين .. أه لو كنتها .. مع الاسف لن أكون .. فيا ليتنى لم أكن ! »

ولكن لم أنسى شجرة رأيتها فى غابات كيرالا فى جنوب الهند .. رأيت عند حافة إحدى الغابات أشجاراً ذات أحجام هائلة .. الجذوع ضخمه وفجأة يلتوى الجذع ثم يعود فترتفع مرة أخرى .. ثم يرتد على نفسه . لماذا ؟ لم أفهم أول الامر ..

ورأيت أشجارا تميل بجذوعها الضخمه حتى تلامس الارض . ثم لا تزال تنهض شامخة . وكأنها تستدرك ما فاتها . أو كأنها ثارت على هذا الهوان والانحطاط فعادت سامقه عالية واتجهت اغصانها الى أعلى ..

لماذا ؟

لا أدعى أننى اهتديت الى المعنى بسهولة . ولكن اهتديت . فهذه الاشجار ما كان ينبغى لها أن تكون كذلك .. فالطبيعى أن تكون الاشجار عمودية على الارض .. أى متوازنه مع جاذبيه الارض . وفى نفس الوقت يجب أن تتسابق فى الاتجاه نحو الشمس .. ولكن هذه الاشجار حاولت وهى صغيرة ان تفعل ذلك . او ان تنساق لقوانين الطبيعة فاعترضتها اشجار أخرى . وعطلت قوانين الطبيعة . ولذلك انحرفت الاشجار وحاولت أن تجد مخرجا من هذا الضيق . والتوت . ومضت سنون وهى تحاول . وعندما وجد نموها الفرصة . اعتدل واتجه فى مساره الطبيعى .

ولكن الذى يرى الاشجار بصورتها هذه يقول : مريضة .. منحلة .. منحرفة . ولكن الذى يعود الى تاريخها . فانه يجد لها العذر . لقد ارغمت على الألتواء والانحراف .. ففى تاريخها مقدمات انحرافها واسبابها . وهنا « تاريخ » الشجرة مثل « تاريخ الانسان » عذرا بعيدا او سببا معقولا خافيا عنا حتى نجده . فإذا وجدناه وضعناه فى مكانه من تسلسل الاحداث .

* * *

وكانت متعتى وانا طالب فى الجامعة أن اذهب الى حديقه الاسماك فى الزمالك .. وأن ارتمى على العشب تحت الشجر وأنام . ولا اعرف كيف كان يجئ النوم بهذه السهولة ــ انه لم يعد يفعل ذلك الآن .. كانني أخذت كل نصيبي من النوم فى وقت مبكر . سحبت رصيدى . وانا اليوم أعيش على « فوائد » هذا الرصيد !

وكنت اندهش كيف انني عندما أصحو من النوم أجدنى مغطى بأوراق الشجر وعدد لا يحصى من النمل الاسود . والذى يدهشنى حقا ان النمل لم يكن يلسعنى .. وكنت أحاول أن أجد له أثراً على جلدى أو على وجهى .. كأن النمل والشجر وأوراق الشجر تريد ان تعمق عندى شعورى بالندم .. لاننى لم أصادق الاشجار ولم أعرف ظلها منذ وقت طويل !

ولا أنسى ذلك المعنى الذى ظل يهزنى عن الماضى سنوات طويلة عندما سافرت الى مدينه تيبنجن بالمانيا الغربيه . فى هذه المدينه عاش الفيلسوف هيجل العظيم . وعاش الشعراء الألمان هيلدرلن .. وفى هذه المدينه حديقه اسمها

«حديقة التأوهات» . قرأت اسم الحديقه . ونظرت الى اشجارها . وهبت الريح قليلا . وتخيلت أن الاشجار تئن . وان الاوراق تتوجع . وان الطيور تتعانق .. هكذا تخليت . ووجدت لى مقعدا . وجلست انظر الى النهر الصغير .. نهر السافراخ .. وتركزت عيناى ، دون وعى منى الى بيت صغير .. وعاودنى حلمى القديم : لو كنت شجرة على ترعه .. أو عند هذا النهر .. بالقرب من هذا البيت .. أعيش واتساقط فى موضعى .. فلا رآنى أحد ولا رأيت ، ولا سمعنى أحد ولا سمعت ولا عايشت أحدا ولا عشت !

وعرفت فيما بعد أن هذه الحديقة سميت كذلك لأن روادها من طلبة الجامعة .. أى روادها من العشاق الذين يتأوهون . ورأيت العشاق ولم أجدهم يتأوهون . فقد مضى زمن العاشق الولهان المعذب . إن العاشق العشاق فى عصرنا ليس عندهم وقت للحب . وانما كل وقتهم للجنس . وليس الحب الا اسما مهذبا قديما . ولكنى وجدت الذين يتأوهون هم الآباء والأمهات الذين لا يعجبهم ما يفعل أبناؤهم .. أو الاجداد الذين يتأوهون لأوجاعهم الجسدية .. أو آهات لإناس مثلى جاءوا من العالم القديم ، يستكثرون على انفسهم أن يكونوا بشراً ، ويطلبون من الله أن يجعلهم شجراً أو حجراً !

اما البيت الذى تمنيت ان أنمو عنده وأذبل فهو بيت الشاعر العظيم هيلدرلن .. عاش فيه اربعين عاما ، ولما فقد عقله ، عاش الاربعين الأخرى فى مستشفى الامراض العقلية !

* * *

ولما سافرت الى اليابان ذهبت الى جزيرة اللؤلؤ التى يملكها ميكوموتو ، الذى ابتدع زراعة اللؤلؤ ــ أى وضع نوع من الحصى فى داخل حيوان اللؤلؤ لكى يفرز حولها مادة اللؤلؤ اللامعة ، وهذه الحصاة تساعد الحيوان الصغير على إنجاز عمله بسرعة .. رأيتهم يفتحون بطن اللؤلؤ ويضعون الحصاه .. ثم يعيدونه الى قاع المحيط الهادى وسط الشباك ويتركونه سنوات لكى يفرز هذا السائل النقى حول الحصاه ، لما رأيت ذلك صرخت من اعماقى قائلا : يا أنا .. يا أنا !

انا ذلك الحيوان .. انا الذى ألقوا به فى المحيط .. انا الذى فتحوا بطنى ووضعوا فيه ما لا أريد .. انا الذى أبكى دموعا نقيه .. انا ذلك الفنان الذى اجعل من دموعى فضة لامعه ، زينة بعد ذلك !

فهذا الحيوان يفرز مادة لامعه ، هذه الماده تعزل الحصاه التى أوجعته .. تعزلها عن بقيه جسمه .. فالذى يقوم به الحيوان هو نوع من العزل الصحى .. أى يعزل الحصاه بعيدا عن جسمه حتى لا تؤلمه .. وحتى يتفادى الوجع .. ولكن غيره يتاجرون فى دموعه ..

ان البكاء اللامع حياته .. ولكن حبات الدموع اللؤلؤية تجارة الآخرين ..

آه لو كنت هذا الحيوان .. ابكى على نفسى وعلى مهل ، بعيدا فى اعماق المحيط الهادئ .. فلا أنا اعرف ما الذى أفعله .. ولا يهمنى أن يعرف ذلك أحد .. المهم أن أكون هناك ، على راحتى على حريتى .. فى صمت أعيش وإلى

الصمت أعود .. ذرة حية فى كون لا أول ولا آخر .. يعيش فيه الذين يعلمون انهم حيوانات تفرز لؤلؤاً .. أو حيوانات تبيع لؤلؤاً .. فالكل يتسابق فى تصيد الآخرين .. ولكن الذى نصيده يصيدنا .. والذى نشتريه يبيعنا .. والذى يبيعنا يشتريه الآخرون !

* * *

ولما سئلت : وما الذى أعجبك فى استراليا ؟

لم أجد ما أقوله . فهى بلاد ككل البلاد . ليست لها مزايا خاصة . فدنها أوروبيه امريكيه ، ثم امريكية تماما . والبلاد واسعة والاخلاق الناس ضيقه . وقد اقفلوا أبوابهم فى وجه السود والصفر ..

ويوم ذهبت الى استراليا سنة ١٩٥٩ كنت المصرى الوحيد . وتمنيت أن يجئ المصريون اليها . وجاءوا بعشرات الألوف . وقد ساعدت مئات منهم على الهجرة اليها .. وهاجروا وهم سعداء ، وانا أيضا .

ورأيت فى حديقة الحيوان غرابا أبيض . وكان العرب يرون أن الغراب الابيض شئ مستحيل . ولذلك قال الشاعر القديم :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى — وصار الفار كاللبن الحليب .

وصار البر مرتع كل حوت . — وصار البحر مرتع كل ذيب ..

أى أن المستحيلات هى أن يكون الغراب أبيض ، وان يمشى السمك على الشاطئ وان يعوم الذئب فى البحر ، ولذلك فهو لن يعود الى أهله .. وصرخت من اعماق : لم يعد هناك مستحيل يا عرب !

وكانت صرخة سياسية ، ولم تكن صرخه وجودية ـ أى لم تعد صرختى وحزنى على نفسى وإنما على أهلى ووطنى . فقد كنت بعيدا وحيدا أرتاد القارات الخمس وليس معى الا جسم نحيل ، وقلب ثقيل !

حتى أصدرت الكاتبه الاستراليه كولين ماكيلو قصتها عن استراليا وتطور اهلها فى نصف قرن بعنوان «طيور الشوك» عن اسرة مغامره تعيش فى ظروف قاسية . وقد اغراها النجاح بالبقاء ، والبقاء اغرى احدى بناتها بالحب المستحيل الذى يضيف الى هذه الملحمه ناراً وشراراً وعذاباً ..

والصفحة الاولى من القصة الطويلة ترون تحكى عن اسطوره تقول ان طائرا يغرد مرة واحدة فى حياته ، وعندما يغرد هذه المرة يكون تغريده رائعا ساحراً حتى انه عندما يسمع نفسه وهو يغرد فان هذا يقربه بالموت .. كأنه أحس انه بلغ درجه الكمال وليس بعد ذلك الا الموت .. تماما كالثمره التى تسقط اذا نضجت .. ويجد هذا الطائر قوه خفيه تدفعه الى ان يهجر عشه .. ولا يزال يتنقل من شجرة الى شجرة ومن غابه الى غابة باحثا عن شئ لا يعرفه .. ولكنه مدفوع الى حيث لا يدرى .. واخيرا يجد ما يريد .. أو يجد ما قد اريد له .. لقد وجد شجرة الشوك .. ويطل

يتنقل من اغصانها ، حتى يعثر على أقوى وأطول شوكه فيها . ثم يلقى بنفسه عليها ـ أى يغمس الشوكة فى قلبه .. وينزف دما وهو يردد أحلى اغنياته .. حتى يتحول الصوت الى صدى . والجسم الرقيق الى رفات .. ولكن الكون كله يصغى اليه ، فقد دفع حياته ثمن لأروع أغانيه .. ما أفدح الثمن .. ولكن الطائر لا يسقط .. وإنما يموت ارفع موته .. فالشوكه التى قتلته ، ما تزال عاليه شامخة ترفعه علما للجمال والجلال معا ـ أو هكذا تقول الاسطورة !

ولم أعد أحلم بأن أكون ورقه علّى شجرة .. أو شجرة .. فان هذه الصورة الرائعه المروعة . قد اطارت ما تبقى من النوم فى عينى .. فلم اتخيل ان تكون الصورة هكذا شامخة . ولا أن يكون الفنان هكذا عاليا فى الحياة وفى الممات ..

آه لو كنت شجره بلا أشواك ..

ولكن شجرة بغير اشواك اشواك هى أعشاب مستباحه ..

ولكن شجرة بأشواك مقبرة عالية لنوع رائع من الطيور .. نوع فريد من الفنانين اختاروا الغناء عندما اختاروا الموت .. أو اختاروا الموت الرفيع . فاختارهم الغناء البديع ..

ولا أحد يعرف من الذى اختار للغناء بهذه الصورة . ولا من الذى اختار الغناء للموت على هذه القمة ..

اننى لا أعرف اينا : الشجرة .. واينا الشوكه واينا الطائر المغرد ..

اننا جميعا كل هؤلاء معاً .. أو هكذا أجدنى مضطرا لان أريح رأسى وأغرس فيها هذا القلم وارتمى عليه حتى انام .. وما النوم الا الموتة الصغرى كل يوم ـ هذا إذا جاء النوم !

أنيس منصور

عيون ترى أكثر وترحم أقل

هناك أنواع كثيرة من الظلم ، كما أن هناك أنواعاً كثيرة من العدل . . أشد أنواع الظلم أن أقرب الناس إليك أبعدهم عن العدل . . ولا شيء يدل على ذلك مثل « اليوميات » التي تركها أديب إيطاليا الذى انتحر «شيزاره بافيزه» . . ولا شيء فى كل ما كتبه يدل على أنه سوف يلقى هذه النهاية أو يتعجل هذه النهاية ولكن الانتحار قرار مفاجئ .

ولم أكن أعرف هذا الأديب المنتحر ، ولكن سمعت عنه من أديب أعظم هو (البرتومورافيا) . فقد أشار على أن أقلب فى صفحات هذا الأديب وأن أطيل النظر . فقد كان هذا الأديب متأنياً فيما يكتب ، رغم أن هذه النهاية كانت مفاجئة ومفاجأة للجميع .

فمن بين يومياته ربما نجد أسباباً معقولة لهذا الانتحار . فقد بدأ هذه اليوميات فى سن صغيرة جدًّا . ولم يشأ أن يغيرها عندما كبر . ولكنه احتفظ بها دليلاً على أعماقه السوداء ، ولماذا بقيت كذلك حتى الموت

فى أحد الأيام كان يلهو فى البيت عندما جاءت إحدى قريباته . وبسرعة بكت . واقترب منها أبوه وأمه . . ثم سحباه إلى غرفة وتشاجروا جميعاً وكانت والدته أعلاهم صوتاً ولم يفهم . يقول بافيزه :

« لم يكن غريباً أن أسمع أمى صارخة هكذا . إنها اعتادت على ذلك . وأصبحت أنام على هذا الصوت الذى لا أفهمه . وفجأة سمعت أبى يقول أنت السبب فترد عليه وتقول : أنت السبب . . من الذى كان يطاردنى فى كل مكان . . من الذى أوهمنى أنه شاعر وأنه مطرب . . إنك ظللت تحدثنى عن مستقبلك وعن المال والمجد والسعادة التى تنتظرها . . فماذا حدث ؟ لا مال ولا قيمة ولا شيء إلا التعاسة معك ! . . حتى هذا الولد . . أنت سببه . . كان من المفروض أن أرميه قبل أن يكتمل فى بطنى . . أنت السبب . . حاول أن تلقى به فى البحيرة . . ويصرخ أبى ويقول : اخرسى يا مجرمة . . وترد أمى قائلة «مجرمة أنا ! أنت المجرم أنت الذى جنيت على مستقبلى . . كنت طالبة فأخرجتنى . .

كنت سأتزوج سيدك وخدعتنى . . كنت سأعمل عارضة أزياء فأفسدت حياتى بالحمل والولادة والإجهاض حتى كانت هذه الكارثة . . هذا الابن المريض إلى الأبد . . » .

ولم يفهم الطفل بالضبط ما هو المقصود من هذا كله . . ولكنه سجله لكى يفكر فيه فيما بعد ويقول إنه فى تلك الليلة قد أدرك أن العلاقة بين أمه وأبيه سيئة جدًّا . وأنه هو السبب . ولذلك قرر أن يخرج من البيت فلا يعود . لعل السعادة تجمع بين الأبوين . .

وفى الليل عندما نام الجميع تسلل إلى غرفة أبويه . وزحف إلى القرب من أمه وقبلها على خدها . . ثم اتجه إلى أبيه وقبله على خده . . ولم يشعر به أحد . . ثم اتجه إلى الضيفة هذه فوجدها فى فراشها لم تنم . ولم تكد تراه حتى صرخت فقد وجدت الطفل قد جمع ملابسه كلها فى حقيبة كبيرة واستوقفته الضيفة ولكنه بادرها : انتهى كل شىء . أنا السبب . ولذلك يجب أن أرحل .

* * *

وحاولت القريبة أن تهدئ الطفل فقالت له : إن والديك لا يتحدثان عنك . . إنهما يتحدثان عن أخيك الأكبر أنه هارب إلى أستراليا . . وأنه قرر ألا يعود فقد كان أبوه قاسياً عليه . . وهما يحبانك جدًّا . وأنا جئت لكى آخذك لتعيش معنا . . فعندى أولاد صغار فى مثل سنك . . فهناك أدفأ . . والدفء يفيد صدرك . . فأنت تسعل لأن شمال إيطاليا بارد . . أما عندنا فى جزيرة صقلية فالدفء طول السنة . . وتستطيع أن تمشى عارياً طوال السنة إذا شئت . . ألا تلاحظ أننى سمراء بينما أمك بيضاء . إن أحداً لا يقصدك . . تعال يا حبيبى . . تعال ونم فى حضنى . . تعال . . ونام الطفل .

وفى الصباح تكهرب البيت . واشترك الطفل ببكائه فى المناقشات اليدوية بين أبيه وأمه . قال الأب : من الذى علم الطفل أن يحزم متاعه . . أنا لم أفعل ذلك . أنت ! لم تحاولى ذلك أبداً . . وإنما هو أخوك ذلك اللص . . كم مرة طلبت منك ألا يجىء إلى هنا . . كم مرة قلت إن هذا السكير الذئب يجب ألا يدخل هذا البيت وتقول الأم : أنا التى طلبت من أخى أن يجىء هنا ؟ . . أنت الذى قابلته فى الطريق وأنت الذى دعوته إلى البار . وأنت الذى أتيت له بالفتيات . . أنت الذى أفسدته ويقول الأب : أنا أفسدت رجلاً فاسداً . . ثم ما الذى نفعله نحن الاثنان فى هذه الدنيا نجلس إلى جوارك على فراش المرض الدائم . . نتفانى فى مسح بصقاتك من الأرض وسعالك من الهواء ، وبكائك الذى لا ينتهى على أمك التى ماتت فى حادث سيارة .

وتصرخ الأم : تسمى هذا حادث سيارة . . تسمى ما أصاب أمى حادث سيارة . . أنت الذى

كنت تقود السيارة وأنت مخمور ثم فتحت لها الباب الأمامى وألقيت بها . . وأنا سكت على ذلك طول هذه السنوات . . لقد كان فى استطاعتى أن أضعك فى السجن إلى الأبد . . ولكن من أجل ولدى المريض دفَنت أمى فى قلبى لا حبا لك ، ولكن رحمة بهذا المسكين . . ومع ذلك تسمىْ مصرع أمى حادث سيارة ؟

وبعد هذا اليوم الرهيب تتوقف يوميات الطفل الموهوب شيزاره بافيزه .

ثم يعود – لكتابتها بعد ذلك بسنوات . ويبدو أن هذه السنوات القليلة قد غيرته فهو يصفه هكذا : اعتدت على الوجوه الواجمة . وعلى الكآبة . وعلى أن أرى الطعام على المائدة . وعلى أن ينهض أبى بعد أن يأكل لقمة . وتنهض أمى دون أن تأكل . وفى نفس الوقت تحرص على أن آكل وأن آكل كثيراً . . وعندما كنت أرفع رأسى أجد نظراتهما قاسية ولكنها تتركز حولى فهما يتحدثان فى صمت . وموضوع الحديث أنا . . ولكن لماذا ؟ لا أعرف ولا أفهم . .

وفى يوم شجعته أمه على الكلام . وطلبت إليه أن يقرأ بعض الشعر الذى ينظمه ، فقال لها : إنها قصيدة فى جارتنا . . إنها لا تعجبنى .

فقالت أمه : ولماذا لا تنظم قصيدة فى فتاة أخرى تعجبك . وهل هناك فتاة تعجبنى . هناك كثيرات ولكنى لم أر واحدة . . أنت الذى لا ترى . . ولكن افتح عينيك فسوف تجد الكثيرات جدًّا . . ولكن إذا لم يجد الإنسان ما يعجبه فسوف يعجبه ما يجده . . هذه العبارة سمعتها من أبيك . . إنها عبارة سيئة . أنا لا أحب أن تستمع إلى مثل هذه العبارات . إن والدك هذا رجل يقول كثيراً . الذى يقوله لا معنى له . افتح عينيك خارج البيت وأطبق أذنيك داخل البيت . فليس هذا مكان تسمع فيه أحلى الكلام .

ويقول بافيزه : ومنذ ذلك اليوم أدركت لماذا تحرص أمى على أن تدفعنى إلى الذهاب إلى الأندية . . أو أن يكون لى أصدقاء . . أو صديقات . . إن الذى تراه من والدى ، لا تحب أن أراه . إنه صورة سيئة . . وقد ذكرت لى أكثر من مرة أننى صورة طبق الأصل منه . . وأنه يكفى جدًّا تعاسة أن أكون شبيهه جسمياً ، وهى تدعو الله أن يلطف بى وبها فأكون مختلفاً عنه عقلياً . .

واتجه الأديب الطفل إلى رصد حركات والده . . وكثيراً ما تظاهر بأنه نائم لكى يسمع كل ما يقوله أمه وأبوه . ولاحظ أن والده رجل معقول جدًّا . ولكنه عصبى المزاج . وأنه متحدث ممتاز ، ولكن إذا ناقشه أحد فهو سيئ . . إنه لا يصبر على أحد . ولا يقوى على أن يخالفه أحد فى رأيه . ويرى فى ذلك نوعاً من التحدى لا مبرر له . . ولذلك إذا جلس أبوه بين الرجال طلبوا إليه أن يقول . . وإذا جلس

الى أمه فإنها لا تطلب إليه أن يقول أو يسكت وإنما تدعه يقول وكأنها لا تسمعه وهذا يغيظه .

ويقول بافيزه : الخلاصة أن أبى هذا رجل لطيف أحياناً عنيف أحياناً ولكنى لا أحبه أبا وأكرهه زوجاً لوالدتى ! ولو كان الأمر فى يدى لاخترت لها زوجاً أفضل ، زوجا مثلى يحبها ويخاف عليها ويفضل أن يدعها هى التى تتكلم دون أن يفتح فمه إلا بالامتنان لها . فقد تعذبت أمى كثيراً جدًّا . . يكفى أنها كل ليلة تلقى هذا المخمور وتظل تحتال عليه حتى يفرغ ما فى جوفه ثم يخمد حتى الصباح .

فإذا صحا تعجل القهوة . وإذا شرب القهوة تعجل ملابسه . . فإذا ارتداها أكملها فى الشارع . وأمى تحاول أن تقفل الأبواب والنوافذ حتى لا يرانا أحد من الناس ، وحتى لا أرى أنا ذلك !

وعندما كبر وجد لأبيه ألف عذر . . يقول شيزاره بافيزه بعد ذلك بثلاث سنوات : إنه – أبى – مثل تمثال من الجبس أصابه شرخ . . ثم تحطم واستطاع التمثال أن يجمع بعضه فكان هذا الذى أراه . . إن هذا الرجل قد اشترك فى الحرب وفقد ذراعه . . أما عينه اليسرى الباقية ، فهى أضعف من أن يعتمد عليها فى الرؤية . . ثم إن عدداً كبيراً من أصدقائه أقوى وأذكى قد دفنهم بيديه . . ولا يزال يروى قصصهم ويذكر جمال الحياة معهم . . ويشرب ويشرب كل ليلة لعله ينساهم وينسى نفسه أيضاً . . ثم إن هذا الرجل هو الذى أنقذ أمى من الموت . . وهو أيضاً الذى خانها عشرات المرات وأتى بنساء أخريات فى فراشها . وانهارت أمى ولكنها لم تترك البيت .

وبعد ذلك بسنوات قرر الأديب الصغير شيئاً خطيراً . يقول : بلغت الخامسة عشرة من عمرى . وليس عندى شىء واضح فى هذه الدنيا . ولا أحد عندى أثق فيه . أبى ! إنه ذلك المحطم المخمور الذى يضرب أمى ويستحق لعنة الأرض والسماء . أمى ! إنها المهانة الإنسانية كيف تقبل هذا العذاب ؟ لا شىء فى الدنيا يساوى الحياة فى هذا البيت . إن كانت الشفقة هى التى أبقتها مع والدى . ففى استطاعتها أن تبيعه بيتاً من بيوتها وتتركه . فى استطاعتها أن تدخله أحد المستشفيات وأن تعيش حياتها .

إنه لم يفعل شيئاً من أجلها . إنه كان يريد المجد العسكرى فعاد مقهوراً . إنها معركة أخرى غير معركة الشرف والفضيلة . . إنها معركة الشرف القتالى . . ولكن الحرب لم تكد تنتهى حتى أصبح المقاتل قاتلاً ، وأصبح الشريف نذلاً ، وأصبح حب الوطن قسوة على الأهل والابن المريض . . إن أمى هذه لا أستطيع أن أحترم ضعفها بل إننى أكره هذا الشعور الذى ورثته عنها : الخوف من الناس . . وأكره هذا الشعور الذى ورثته عن أبى : التحدى لكل الناس دون أن تكون عندى قضية أو قدرة على فعل شىء آخر . .

ويقول أديب إيطاليا شيزاره بافيزه الذى انتحر بسبب فشله فى حب ممثلة أمريكية : « ما الذى كان يقوله الإغريق عن المرأة . . لا أعرف إن كان هذا الحيوان الذى اسمه (الخميرا) هو المرأة . . إنه وحش يخرج النار من ألسنة بين أنيابه . . له رأس أسد وذيل أفعى . . إن هذا الوحش قد أحرق الدنيا بلسانه وهدمها بذيله . . ثم جاء من هو أذكى منه فقتله بعد ذلك . . إننى لا أعرف لماذا اختار الإغريق لهذا الوحش أن يكون الصورة الملتهبة الدامية للمرأة وحدها . . إنها الرجل أيضاً . . أو هما معاً . . ولكن مع الأسف سوف أموت قبل أن أجرؤ على فعل شىء . ألم أقل لك إننى صورة طبق الأصل من أبى وأمى . . ولذلك فهذه لا أحبها وأفضل من أن تكون ، ألا تكون .

قال لى البرتو مورافيا يوم حدثنى عن هذا الأديب المنتحر : إذا أردت أن تجعل لهذه اليوميات هدفاً فى أدب . . وإذا أردت أن تجعل لها معنى أخلاقيا أو تربويا فليكن عنوانها : الأطفال يرون ويسمعون ويتعذبون أكثر مما يتصور الآباء ! فإذا حكموا على آبائهم كانوا بلا رحمة . . .

الذين يلعنون الأمراض لايعالجونها

لو كانت المرأة تكشف ساقيها أقل ، وعقلها أكثر ! لوكانت المرأة تهدأ بعض الشيء بدلاً من هذه الحيرة بين القصير والطويل والضيق والواسع وبين أن تتعرى تماماً وأن تتغطى نهائياً . . وعبارات أخرى كثيرة لها معنى واحد : أن الرجل لا يستطيع أن يفهم المرأة . مع أن كل موضوعات المرأة قد صممها رجل ودفع ثمنها رجل . . . والمقصود بالفرجة عليها والوقوع والركوع أمامها رجل : وهذا ما يضاعف صعوبة الموقف ، ويجعل فهمه شيئاً عسيراً ! .

ولكن لنحاول معاً أن نفهم موقفاً واحداً من مواقف الأناقة النسائية فى الخمسينات ففى ذلك الوقت وفى باريس عاصمة الأناقة والجمال وقفت مطربة على الضفة الغربية لنهر السين تقول للسكارى كل ليلة : واحد فقط هو الذى أريده . . واحد فقط هو الذى أحلم بأننى أقتله كل ليلة بقبلاتى وأحضانى . . ونموت بعد ذلك . . ويطلع علينا القمر ، أولا يطلع . . وتطلع علينا الشمس ! أولا تطلع . . ولكن المهم أن يهز رأسه ويقول : ما معنى الرجل ؟

ثم تعود فى ليلة أخرى فتقول : يا ناس . . يا أهل الهوى . . لو جاءكم واحد من بلاد بعيدة وقال لكم : إننا فى بلادنا نعبد المرأة ، فماذا تقولون ؟ يا ناس يا أهل الندم لو جاءكم رجل من بلاد بعيدة وقال لكم إننا فى بلادنا نعبد الله من دون المرأة فماذا تقولون ؟ لا أحد يرد ولكنى أقول : يا أيها القادم من بعيد ونحن هنا أيضاً نفعل نفس الشيء . . فهل فهمت شيئاً : هل نحن مؤمنون ؟ هل نحن كفرة ؟

هذه المطربة اسمها (جولييت جريكو) . . إنها مطربة خرجت من الوحل إذا كان المقصود بالوحل هو تلك المادة التى هى مزيج من التراب والمطر وأحذية المشاة . . إنها خرجت من تحت الأرض على الضفة الغربية لنهر السين . ثم ظلت تعلو حتى استقرت على أكتاف عشرات من الفنانين وأصحاب الملايين ، ولكنها لم تغير حيرتها : فهى لا تفهم . وتريد أن تفهم وهى تريد الملابس السوداء : البلوزة والجوب . . أو البلوزة والبنطلون . وشعرها أسود أيضا وكلامها عبارة عن قطع من الليل ونقط من المطر

مكتوبة على جدران مهدمة . . أما نفسها فهى العذاب والتمزق معاً . . وليست وحدها فى خمسينات هذا القرن التى رفضت أن تكون أنيقة . وسار وراءها الملايين من الشبان والشابات جميعاً بلا أناقة أو بلا موضة ! إذن هى ظاهرة عامة أن يكون الإنسان غير أنيق وغير مفهوم فى باريس فى ذلك الوقت وهنا ظهر أحد أصحاب الملايين من مدينة ليون . إنه يريد أن يبيع الأقمشة من كل نوع ولابد أن يجد لذلك أسلوباً فرنسيا باريسيا . فاتجه إلى مصمم الأزياء كريستيان ديور ووجد كريستيان ديور الأسلوب الذى يسحب وراءه ملايين الرجال والنساء وملايين الجنيهات من كل العواصم . فابتكر كريستيان ديور موضة « نيولوك » . وأذكر أننى كنت يوم ظهور هذه الموضة محرراً فى جريدة « الأهرام » . وكنت أترجم رسائل الموضة . وترجمت الموضة الجديدة باسم « الطلعة البهية » أو (الطلعة الجديدة) أو « المنظر الجديد » . ورغم حرصى الشديد على تكرار هذه الترجمة ، فإنها لم تلق أى رواج وفضلت النساء كلمتى « نيولوك » . وأحزننى ذلك على نفسى !

وقد انقلبت دنيا الأناقة فى ذلك الوقت . . فقد كانت الموضة ألا تكون هناك موضة وكانت جوليت جريكو وغيرها ثائرات على أن تمشى النساء أو الرجال وراء خط أو – خطوط . أو وراء نظام أو قواعد . . فقد انتهت الحرب العالمية الثانية وكره الناس ملابس الجنود اليونيفورم – الزى الواحد المشابه . اللون الواحد . الخطوة الواحدة . الطابور . الصف . الانضباط . ولذلك خرج الناس على كل خط وكل نظرية وكل مذهب . . ورأينا الشباب يطيلون شعورهم ، على عكس ما يفعل الجنود والبحارة بصفة خاصة ورأينا الشباب يضيقون بنطلوناتهم ويرتدون القمصان الملونة على عكس ما يفعل رجال الأعمال والمال . . ولا يغسلون أيديهم ولا يقصون أظافرهم ، على عكس ما يفعل رجال الأعمال والمال . . ولا يغسلون أيديهم ولا يقصون أظافرهم ، على عكس ما يطلب منهم الآباء والمدرسون ورجال الدين . . ثم يلغون هذه الفوارق الملونة بين ملابس الرجال والنساء .

فى ذلك الوقت كان هناك شبان آخرون قد ثاروا أو تمردوا على أوضاع أخرى . فظهر فى الأدب اللا رواية – أى ضد الرواية . . واللا مسرحية . . أى ضد المسرحية . . وظهر اللا معقول أى ما هو ضد المعقول المعروف فى كل تاريخ الأدب .

وفى إنجلترا ظهر الأدباء الساخطون على الأوضاع التى سبقتهم . . وفى أمريكا ظهر الأدباء الصاخبون أى الذين قرروا أن يعيشوا بعنف أبيض – أى يدقون الأرض – بأيديهم ولا يدقون باب أحد أو رأس أحد . . وظهرت فى بريطانيا فرق الخنافس أى هؤلاء الشبان الذين أطالوا شعور

رؤوسهم . والذين انفردوا بالغناء والرقص الإنجليزى دون أن يرددوا أغنيات ورقصات أمريكا . . وظهر شعراء سان فرانسيسكو ، هؤلاء البدائيون الذين أقاموا فى الكهوف ، ووضعوا على رؤوسهم ريش الطيور . وعلقوا فى رقابهم تلك التمائم . والذين رفضوا الأبوة والأمومة . ثم تزوجوا فى سن مبكرة ليكونوا آباء وأمهات فى هذه السن الصغيرة ، مخالفين كل تقاليد المجتمع . دون إراقة قطرة من الدماء . . وفى قصة كتبها الشاعر جنزبرج وهو واحد من الشعراء الصاخبين فى أمريكا يقول : اختلفنا . . إنهم من طراز غيرنا . . هم يريدون أن يكونوا فقراء . . ملابسهم وأحذيتهم . ولحاهم . يريدون أن يثيروا الشفقة . ولكنهم لا يمدون أيديهم إلى أحد . يريدون من الناس أن يقفوا ويتأملوا كيف استطاع عدد من الشبان أن يرفض الفراش الناعم ويفترش الأرض . أما نحن فمختلفون تماماً . إننا الفقراء . فعلاً نحن محتاجون إلى طعام وشراب . إننا لا نلعب دور الفقراء . ولكننا نحن هؤلاء الفقراء . لأن هذه حقيقة الإنسان . إنه فقير . ومع ذلك فنحن لا نرغم أحداً على أن يرق قلبه لنا . إننا فقراء نعرف طريقنا إلى الحد الأدنى من الطعام . . إلخ .

وهذان «مذهبان» من مذاهب هؤلاء الرافضين أو المتمردين . والفروق بينهما ضئيلة . ولكنهم جميعاً حريصون على أن يكونوا شيئاً مختلفاً ومخالفاً . المهم عندهم ألا يمشوا وراء أحد . لقد تعبوا من السير فى الطريق الواحد . تعبوا من الانتظام والنظام . . فخرجوا فى هدوء وسلام . ومن الغريب أنهم فى أوربا وأمريكا كان لهم شعار واحد : لا تصدق رجلاً أكبر من ثلاثين عاماً ! إنهم شبان . ولكن الشباب كالشيخوخة مرحلة . فالشيخ كان شابا ، والشاب سوف يكون شيخاً . ولكن هؤلاء الشباب ابتداء من الخمسينات يريدون أن يكون لهم وضع خاص . وهذا مألوف على نطاق ضيق ، فابن رجل الدين إذا تمرد فإنه لا يصوم . . وابن الطبيب يكون مهندساً باختياره . . وابن العالم يختار الجهل . . وابن الجاهل الفقير يتمرد على قيود الفقر وأغلال الجهل ليكون أفضل وأسمى .

والذى يحدث على نطاق الأسرة يعمم على نطاق الدولة أو القارة أو الجنس البشرى .

وأوضح صور الغضب أو السخط أو الرفض أو عدم الرضا : هو ما رأيناه فى أوربا فى أزياء الخمسينات . أن أديباً عظيماً هو بلزاك كان أسبق من كل الناس فى كل العصور فقد كان يحرص وهو يتحدث عن شخصياته أن يصف بدقة ما الذى ترتديه . إن هذه الأزياء ابتداء من الباروكة حتى الحناء : إنها كلمات . عبارات . . إنها رأى . . إنها ثرثرة نفسية . . إنها قدرة مالية . . إنها وضع اجتماعى . . إنه وقت ضائع فى عمل شىء . وكان النقاد يصفون هذا الكاتب العظيم بأنه تاجر

فساتين . . وأنه أمضى عمره كله تحت أسرّة النساء وفى دواليب ملابسهن . ولكن هذا العظيم بلزاك كان يدرك أوضح ، ويفهم أعمق ويرى فى هذه الألوان والأقمشة أشياء كثيرة ، وهى صحيحة .

وكأشياء كثيرة جدًّا تجىء إلينا من الخارج ننقلها دون تفكير، وننشرها دون فهم . جاءت الموضات وسرنا وراء باريس ، وسوف نمضى . حتى ظهرت موضة الفساتين فوق الركبة في لندن ومشينا وراء لندن . وبدأت موضة المينى والميكرو تتلاشى وظهرت خطوط الذيل : فوق الركبة وتحت وعلى الأرض كما فعلت باريس تماماً . وسوف ترفع ذيل الفستان مرة أخرى إلى منتصف الركبة أو فوقها أو فتح الفستان الطويل أو تضييق الفستان القصير . . وسوف نعرى الظهر ونغطى الصدر ، ونعرى الصدر والظهر . . تماماً كما فى باريس . ولكن الأسباب مختلفة . نحن ليست عندنا الأسباب النفسية أو الاقتصادية أو العسكرية . ولكننا ننقل والسلام . حتى لا نوصف بأننا منعزلون . أو متخلفون . أو أننا لسنا فى هذه الدنيا . والدنيا هى أوربا . وقلب دنيا الجمال والأناقة والرشاقة لا تزال باريس . ولذلك فلا يمكن أن نبتعد عن قلب الدنيا . والمسافة كبيرة جدًّا بين الأسباب التى جعلت أوربا ترفع وتنزل بخط الذيل ، والأسباب التى جعلتنا نفعل نفس الشىء !

وأعود إلى أغنيات چولييت جريكو. إن هذه المطربة قد ارتبطت بعض الوقت بالفلسفة الوجودية . وهى الفلسفة التى صورت عذاب الإنسان الأوربى الذى خاب أمله فى الإنسان . . والذى انهارت على رأسه الحضارة الإنسانية التى خرجت من رأسه والذى اخترع كل أساليب الدمار ليحطم نفسه . . والذى امتهن إرادته . أعطى إرادته للطغاة . . والذى يواجه كل يوم صوراً جديدة من الموت . . فالإنسان الحى عليه أن يختار كل يوم : كيف يموت غداً ! إن هذه الفلسفة الوجودية لم تغير طعم الحياة على لسان الإنسان ، إنما جعلت لسانه أكثر حساسية لطعم الحياة . فبدلاً من أن يكون طعم الدنيا مرًّا ، أصبح شديد المرارة ، وبدلاً من أن يكون الإنسان معذباً لأنه ليس حرًّا ، فهو شديد العذاب لأنه حر دائماً .

وفى إحدى الليالى وقفت مطربة الوجودية جولييت جريكو وقد ارتدت فستاناً مفتوحاً لتغنى وسط ألوف الشبان المثقفين الحائرين الدائخين معها ووراءها لتقول : الآن قد عرفت الطريق . . الآن شققت الطريق . . الآن شققت ثوبى . . فافعلوا كذلك أيها المثقفون . . وليس عبثاً ما يجرى فى كباريهات ومسارح باريس . . إن أعظم الأعمال الأدبية والفنية وبيانات الثورات كلها ولدت وتولدت فى هذه الاجتماعات الفنية الحزبية أيضاً ، إن السخط على المجتمعات هو من صميم المجتمعات نفسها . فمجتمع الأناقة والأزياء الأدبية والفكرية والسياسية ، لابد أن يجىء التمرد عليه من نفس النوع . .

ولذلك فهذه صور من الرفض أو الاحتجاج ، يجب أن نقف عندها وأن نحاول فهمها . . وليس من الحكمة أن نستنكر وألا نفهم . . ولكن الحكمة أن نتفهم وأن نوضح لأنفسنا ولغيرنا . ما الذى جعل هؤلاء الناس أو الشباب يفعلون ذلك . . لابد أن هناك شيئاً لو بدأنا فهم الظواهر بمثل هذه العبارة كانت هذه هى البداية الصحيحة . . فلا شىء تافه . . لا شىء لا يستحق الفهم . . إنه شىء هام جداً أن نفهم ونتفاهم وشئ خطير ضار أن نرفض ذلك .

ومنذ عشر سنوات كتب الأديب الأمريكى جاك كيرواك وهو أحد الأدباء الصاخبين يقول : أين نحن الآن من كل الناس ، نحن حيث كنا وأعتقد أن هذا هو الخطأ الكبير . فمن الواجب على الناس هناك أن يسألونا ماذا تفعلون لماذا لا تجيئون إلينا وتشاركوننا الطعام والرأى ، لماذا لا نختلف مرة أخرى ولأسباب أخرى ؟ .. إن الناس لم يحسنوا التصرف عندما تركونا وحدنا .. يجب أن يجئ أحد ويقول لنا : أنتم بعيدون عنا .. تعالوا معنا .. ونحن أقرب مما يتصور الناس . وأرق مما يتصور الناس .. إننا أطفال كبرنا ، بعد أن افتقدنا حنان الأب والأم ، إننا لا نجد أحداً إلى جوارنا فى الليل .. إننا ضائعون .. ولكن من السهل أن يهتدى إلينا الناس .وأن نهتدى إلى أنفسنا . لماذا طالت لحانا ؟ لماذا طالت أظافرنا ؟ لماذا ننام فى الأنفاق ومع ذلك فالناس يخافون منا كأننا شياطين أو كأننا غزاة ؟ إن الفشل الاجتماعى يبدأ بسوء الفهم ، فالذين يلعنون الأمراض لا يعالجونها وهذا ما يحتاج إليه الأصغر سنا ، فى كل مكان وفى كل وقت . إن الطريق مهما كان طويلا يبدأ بخطوة قصيرة جداً: هى أن نفهم ما الذى يجرى هناك بعيداً عنا !

حتى نتعلم اللغة العربية بالكرباج

وسيلة . . والتفاهم غاية .

اللغة

واللغة وسيلة مواصلات بين الناس : كالقطارات والسيارات والطائرات . . والمواصلات علم وفن . . مجموعة نظريات تنطبق على الحديد والزجاج والماء والهواء والنار وتركب كلها عجلات واضحة وتنطلق تحت أقدام الإنسان . . إنها أحذية فى قدمى الإنسان بين البلاد والقارات والكواكب وبين الماضى والمستقبل . .

وأمامنا مشكلة : الذين يتشعبطون على الأبواب . . والذين ينامون فيها . والذين يتشعبطون يتعلموا أين الباب ولا يحملون تذكرة . مع أن من حقهم أن يتعلموا ذلك . . والذين ينامون فى هذه المواصلات ينسون أن المواصلات وسيلة . أو يرون أن المواصلات هى الغاية . أى هى الغاية والوسيلة . . والذين لا يعرفون اللغة العربية يتشعبطون عليها . . والذين يعبدون اللغة العربية ينامون فيها ولا يبرحونها ويجعلون من المواصلات بيتاً ومعبداً وسجناً . . وهذا كله اكتشاف جديد . أو انكشاف جديد لنا أمام أنفسنا . . وأول ما اهتدينا إليه هو أننا لا نعرف اللغة العربية لأننا لا نتعلمها . فهل هى مشكلة الطالب أو المدرس ؟ الطالب يقول : المدرس . . والمدرس يقول : الطالب . . وأولياء الأمور يقولون : البرامج . . ونحن نقول : الجميع . بل نقول أكثر من ذلك : إن النظرية التى لا تنطبق على الصغار ، نظرية ليس لها مستقبل لأن الصغار هم المستقبل – وسواء كانت هذه النظرية فى السياسة أو فى التربية أو فى اللعب ، فمن الواجب أن تنطبق على التلميذ الصغير ، أى يجب أن نضعه فى المدار المناسب وأن نقوم بتعديل مداره ومساره دائماً وبذلك ينطلق الطفل إلى شبابه ورجولته ومستقبل أمته بسرعة صحيحة ، ولا يمكن أن تنطبق نظرية دون احترام تام للذين يتولون تعليمها وتطبيقها ولذلك فاحترام المدرسين ضرورى واحترام مادة تدريسهم ضرورى أيضاً . وهذا ما لا تلقاه اللغة العربية ولا مدرسوها ولا برامجها . . كما أن الصغار لا يجدون النموذج السليم . . فالصحف تخطئ فى اللغة العربية

بكل فروعها . وأجهزة التليفزيون والإذاعة أيضاً . ومعنى ذلك أنه من الممكن أن يكون الإنسان جاهلاً باللغة العربية وقواعدها . ومع ذلك يكون واسع الانتشار ناجحاً . محترماً أيضاً – وإن كان من العدل أن أعترف بأن اهتماماً واضحاً باللغة العربية وقواعدها قد ظهر على ألسنة مذيعى الشاشة والميكروفون وليس لهذا الاهتمام ما يقابله فى الصحف . . وبنفس الدرجة – ومع الأسف ! . .

ولم نشعر بضرورة تعلم اللغة العربية فى وقت من الأوقات كما شعرنا الآن . لا لأننا قد هبطنا بمستواها أكثر من أى وقت . ولكن لأن اللغة العربية هى من أهم أسس القومية العربية القائمة على وحدة اللغة : الأرض والعادات والتقاليد والتاريخ . . وأن هذه القاعدة قد اهتزت ولأننا فى حالة «مراجعة» عامة لكل مقومات الفكر وأدوات ونظم تطبيقه . .

ولكن مهما كان طعم هذه المراجعة فإن هناك جهلاً واضحاً وتهاوناً وتراخياً فى تعليم اللغة العربية . وإن أحسن نصيحة فى مثل هذه المواقف هى تلك التى قالها الرئيس ماو لشعبه فى الصين منذ ثلاثين عاماً : يجب أن نتعلم بلا ملل ، وأن نعلم غيرنا بلا كلل ! . . يجب . . ويجب . وما أصعب كل ما يجب ! حتى لا يتشعبط أحد على أبواب اللغة ونوافذ النحو وقواعد الصرف ! وقيل أيضاً إن عبادتنا للغة العربية هى التى أهلكتنا ، فنحن ضحايا كلامنا . ولكن من الذى ليس له ضحية لما يقول وبأية لغة ! من الذى لا نحاسبه على ما يقول . . بل كيف نحاسب أحداً إذا لم يقل شيئاً أو إذا لم يفعل شيئاً ؟ فالفعل هو قول عملى . . والكلمات ليست هى الأفعال .فالمسافة كبيرة بين أفواهنا وأيدينا . بين ما نقوله وما نفعله . . وحتى الكلمات نفسها ليست قماشاً من النايلون تتغطى بها أفكارنا وإنما الكلمات ريش قصير أو طويل ينمو من أفكار حية ، ويتغير هذا الريش حسب الظروف . ثم إن الكلمات ليست علاجاً لشىء . إنها روشتة للعلاج ، أما الذين داؤهم الكلام فهم مرضى العقول . وليسوا من العرب دائماً ، وإنما أحياء فى كل لغة يرزقون . فما عيب كلمة طائرة . . أو كلمة مدفع ؟ . لا عيب ولا خطأ . ولكن العيب يجىء من فهم هذه الكلمة ، والخطأ يجىء من سوء استخدامها . ونحن لم نحارب قاموساً بقاموس . ولا فاعلاً بمفعول . . وإنما نحن حاربنا عقلاً بعقل . . وعلماً بعلم وفنا بفن فالحرب موقف عقلى . . أى سلوك علمى . . فاللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وهى بعد ذلك أيضاً لغة حية غنية عبقرية . حملت الحضارة مئات السنين من الشرق إلى الغرب وهى أحد ينابيع الفكر العالمى . وإذا تعصب أحد للغة العربية فليس هذا بدعاً : فكل الناس متعصبون للغاتهم القومية . والإغريق كانوا يصفون من لا يعرف لغته بأنه (بربرى) . وهى كلمة معناها : همجى . . وجاهل . . وغريب وشاذ . . وفى اللغة السنسكريتية نجد أن كلمة بربرى معناها أيضاً : من يتلعثم . . والشعوب السلافية

كانت تصف الألمان الذين لا يعرفون لغتهم بأنهم : نمس . . ومعنى هذه الكلمة أنهم خرس . أى لا يتكلمون ما داموا لا ينطقون اللغة السلافية ! . . وكان السياسى ونستون تشرشل الفائز بجائزة نوبل فى الأدب ينصح المدرسين بالقسوة فى تعليم اللغة الإنجليزية وكان يرى أنها أكثر اللغات حيوية وحياة . . وكان يقول : يجب أن يتعلم التلميذ اللغة اليونانية مكافأة له على إتقانه اللغة اللاتينية . وأن يتعلم اللاتينية تقديراً لإتقانه الإنجليزية ، أما الذى لا يتقن الإنجليزية فيجب أن نضربه بالكرباج حتى تخرج اللغة من فمه على شكل صرخات ! والشاعر فيكتور هيجو يقول عن لغته الفرنسية : إنها لغة تعرفها فى ثلاثين دقيقة . . وأما الإنجليزية ففى ثلاثين يوماً . . والألمانية فى ثلاثين سنة !

وفى فرنسا الآن حملة عنيفة على اللغة الفرنسية المستخدمة فى الصحف ، وتوصف هذه اللغة بأنها لغة (فرنزية) – أى فرنسية إنجليزية . . وأن هذه إهانة للغة الفرنسية ، وهذه الحملة تدعو إلى تطهير الأقلام والألسنة من الكلمات الأجنبية السخيفة . ولكن ليس فى هذه الحملة ما يدل على أن الفرنسيين لا يتكلمون لغتهم . . أو أنهم يتباهون بجهلها ! فليست هى اللغة . . ليست السيارة ولا الطيارة . وإنما هو السائق . إنما هو الذى يستخدم اللغة . والذى لا يستخدم اللغة إنما هو الذى يتشعبط على أبوابها أو يفضل النوم على صدرها وتحتها ولا يتجه إلى هدف آخر . لأن كلمات اللغة رموز لمعنى فمثلاً عندما أقول القمر أو الطائرة فإن حروف كلمتى القمر والطائرة لا تشبه – من قريب أو من بعيد – شكل القمر أوشكل الطائرة . . فالحروف رموز فقط . . بينما خطوط الرسام ، وهو يصور القمر والطائرة ، هذه ليست رموزاً . إنها المعنى نفسه ، فالكلمات رموز . . والخطوط هى المعنى . . واللغة رموز . . والذى يجعل الرموز معنى هو الذى يعبد الحرف ليعبد الرمز . هو الذى ينام ويقوم ويصلى وينتحر فى الوسائل اللغوية ولا يهمه الوصول إلى الغاية .

أو بعبارة أوضح أقول : إن بعض الكتاب العرب هاجموا اللغة العربية وألقوا عليها كل أعباء التاريخ وحملوها وحدها مأساة النكسة فالمسئول عن النكسة العربية كلها إن وأخواتها وكان وأخواتها . . والفاعل ونائب الفاعل وأسماء الإشارة والطباق والجناس والتشطير والتضمين . . والجرجانى والزمخشرى والقلقشندى والجبرتى وابن النديم ولعنة الفراعنة كل شىء . . إلا نحن وكل التاريخ . . إلا عصرنا ! ! من مثل ذلك ما كتبه صحفى لبنانى هو إدوارد صعب فى كتاب بالفرنسية بعنوان (سوريا أو القوة فى سوريا الغضب) وهذا الكتاب ككل الكتب الغاضبة الساخطة مرتفع النبرة صارخ غامض ولكنه

واضح فى موقف واحد وهذا الموقف صار فى نهاية الكتاب وقد اتخذ عنواناً هو : عبادة اللغة العربية , ويعيب على العرب تقديسهم للغتهم . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد صدر فى عام النكسة ، فإنه ليس جديداً وهو ينقل سطوراً كثيرة عن المؤرخ اللبنانى فيليب حتى الذى يتغنى بعبقرية اللغة العربية ويرى أنها لغة غنية رقيقة راقية أيضاً . . ويرى المؤلف أن العرب إنما اعتزوا بلغتهم على سبيل التعصب فى مواجهة الاحتلال العثمانى . فكانوا ينصبون سدا عربيا فى وجه السيل التركى . ولكن الأتراك تطوروا وكتبوا لغتهم بالحروف اللاتينية . والعرب ظلوا فى مكانهم الذى كانوا عليه منذ القرن الخامس عشر . وهو يستعدى التاريخ كله على الذين أشادوا باللغة العربية وتوثيقها مثل عبد الله البستانى والأخوين إبراهيم ونصيف اليازجى !

والمؤلف — أيضاً — ينادى بأن نبدأ من البداية . . والبداية فى نظره أن نتحرر من تقديس اللغة العربية ولا أعرف كيف نتحرر من تقديس لغة . . وما هى اللغة التى نختارها بلا قداسة ولماذا نختارها ؟ . . إنه كلام . ومن حق كل إنسان أن يقول أى كلام فالمراجعة عامة ومن حق كل العرب .

وكل عربى يلتفت إلى جرحه ويشخص الداء والدواء . فلا أحد يعرف الآن أين الدواء وأين الداء . . ولا إن كان الداء هو اللغة أو هو استخدام اللغة . أو عبادة المعنى أو عبادة اللفظ . . ولكن من المؤكد أنها ليست مسألة لغوية . ولا مسألة فقهية . . ولو كانت كذلك ما احتاجت إلى كل هذه الأقوال والدماء . . إنها مشكلة ومأساة (الروح العامة) . . الروح الجادة فى دراسة ما هو ضرورى . ما هو نظرى وما هو عملى . . فى دراسة ما هو حيوى أن ندرسه ولا يمكن أن تكون اللغة العربية — لغتنا الحية هى أتفه من أن تكون موضوعاً للمراجعة . . ومبرراً للمناقشة . وسبباً من أسباب سوء الفهم وسوء التقدير ، ومن المؤكد أن هناك نوعين من الخطأ : عدم الاهتمام العام وعدم الجدية العامة . وخطأ سوء فهم اللغة العربية نفسه ، فنحن لا نعرف قدرها ولذلك لا ندرسها تدريساً علميا جادا . ومن أسوأ أنواع سوء الفهم أن نقع ضحاياها . ضحايا التراكيب اللفظية والبهلوانات الجمالية وأن نترك هذه التراكيب تنقض كعصا موسى تأكل المعانى الصغيرة . . أو نطلق الشعارات كالأفاعى تمتص بيض العصافير ، وهذا الانقضاض يخلق لنا هذه الأزمة المتجددة : إن هناك كلمات (مصاصة) وكلمات (ممصوصة) . . أما الكلمات المصاصة فهى التى تمتص المعانى والأفكار وتعيش هى وحدها . أما هذه المعانى الممصوصة فهى أيضاً علبة ورق وزجاجات فارغة . . أصداف ميتة . . قشر فاكهة . إفلاس .

وليس هذا الموقف لغويا . إنه موقف عقلى . ولا أقصد عقلى أنا . . وإنما عقل كل الناس . فما هى

المشكلة وما هو الحل : المشكلة أننا لا نعرف لغتنا العربية ولا نعرف أنها وسيلة لغاية هى التفاهم العام . وأن اللغة قطار بين محطات هى المعانى وليس القطار هو كل المعانى . . وإنما يجب أن نستعير كرباج تشرشل . . أو كرباج سائق الحنطور الذى يستخدمه من عشرات السنين . فسائق الحنطور يضرب الذين يتشعبطون لأنهم لصوص ولأن عملهم لا أخلاقى . وأن هناك شروطاً مشروعة لركوب الحنطور فالكرباج هو سيف سائق الحنطور وهو الضمان لتطبيق أية نظرية فى ركوب الحنطور أو القطار أو الميكروفون . فلا جريمة ارتكبتها اللغة . ولا خطيئة للكلمات . ولا ورق الصحف ولا أشرطة الإذاعة والتليفزيون ولكنها الأقلام والأفواه ، إنهم الناس كل الناس الذين يقولون والذين يسمعون !

شباب فوق البراكين : تحت العواصف

عندما تركب سيارة مسافة طويلة وتنزل منها فإنك تسمع صوت فرقعة صغيرة . هذه الفرقعة معناها أن جسمك كان مشحوناً بالكهرباء ثم لامست الأرض فانتقلت الكهرباء بسرعة إلى الأرض . . فكأن هذا الصوت نوع بسيط جدًّا من الرعد الذى يحدث فى السماء . ومعنى ذلك أن الشحنة الكهربية فى جسمك قد تم تفريغها تماماً . . ويحدث لكثير من سائقى السيارات أن تصاب أمعاؤهم ومعداتهم بآلام شديدة نتيجة لهذه الشحنات الكهربية . . ولذلك فأحسن طريقة للتخلص من ذلك هو أن تتدلى من السيارة سلسلة تلامس الأرض . . فهذه السلسلة تتولى عملية التفريغ أولاً بأول . . .

شيء من ذلك يحدث لأى إنسان سافر بالطائرة مسافات طويلة . . فأصوات المحركات فى أذنيه والخوف يملأ كل خلاياه . . ولكن لا يكاد يصل إلى الأرض سالماً تماماً . حتى ينسى كل ما حدث له فى هذه الرحلات الطويلة فوق السحاب والجبال والبحار . . ولقد سافرت عشرات المرات ، مئات الألوف من الأميال عبر الجبال والمحيطات ، ليلاً ونهاراً . . والسماء صافية ، والسماء عاصفة . . ولكن شيئاً تغير فى نفسى . . وقد لاحظت ذلك فى رحلتى فى الشرق الأقصى . . لقد تسلل فى الليل فوق السحاب ، شيء من الفزع والخوف أن أموت بعيداً عن الليل والأرض ! فى هذه اللحظة كانت الطائرة فى طريقها إلى بومباى . . الرحلة طويلة هادئة . . ونحن فوق السحاب . . والطائرة تهتز قليلاً . . طبيعى جدًّا أن يحدث ذلك ، فهى تتحرك فوق الهواء الثقيل والخفيف . . وتهب عليها رياح من كل اتجاه . . ولابد أن تتوازن فوق هذه المطبات . . أعرف ذلك وجربته وعانيته كثيراً وفجأة جاءت المضيفة تقول إن الكابتن مصطفى الشقنقيرى يدعوك إلى أن تجلس معه فى غرفة القيادة . وذهبت . . الغرفة مظلمة وعلى جدرانها عشرات العدادات ترتجف . . وأشار الكابتن إلى الرادار وهو

يقول : إننا نقترب من عاصفة وسوف ترى كيف نفلت منها . . إن هذا الجدار العالى على اليمين هو طبقات من السحب . . ولكن سوف نهرب منها إن شاء الله . . وسوف ترى . . إنها بسيطة جدًّا !

وكانت هذه أول مرة يدعونى فيها إنسان إلى مشاهدة عاصفة . . أو إلى مائدة عاصفة . . وبسرعة جدًّا بدأت الطائرة تهتز وبعنف . . وتعلو وتهبط . . وإذا حاولت أن أصف لك بالضبط ماذا حدث فإننى أقول : إن هناك ذراعاً عنيفة تحاول أن تعصر الطائرة أو تلويها ، أو تقذف بها من ارتفاع ٣٩ ألف قدم إلى أعماق المحيط الهندى ومن المؤكد أننى شعرت بالخوف . . وكان الخوف فريداً . . ولم يشعر أحد من الجالسين فى غرفة القيادة . . فكأننى كنت أخاف بالنيابة عنهم . . وأشار الكابتن إلى مقدمة الطائرة فقال ، لعلك تلاحظ النار . . إنها شحنات من الكهرباء ! ولم ألاحظ النار . ولا أردت . وبعد دقائق هدأ كل شيء . وعدت إلى مقعدى أربط الحزام استعداداً للهبوط . والحقيقة أننى خفت . ولم أتمن فى تلك اللحظة أن أموت . ولا استهنت بالموت . . شيء غريب . قد أتصور أننى فعلاً أريد أن أموت ولا يهمنى أن أعيش . ولا حياتى تهم أحداً من الناس . فإذا سقطت فى البحر . . فأنا واحد من بين ألفى مليون نسمة . فليست خسارة كبيرة أن تحذف واحداً من هذه الأرقام الهائلة !

ولكن قبل ذلك بربع قرن ركبت طائرة تابعة لشركة طيران جيبوتى . وكانت بمحركين . وسافرت فيها مع عدد من موظفى شركة شل . وكانت متجهة إلى اليونان وإيطاليا وسويسرا وفرنسا والسويد . . وكانت هى رحلتى الأولى بالطائرة . وهذه الطائرة كانت مخصصة لنقل الماشية من شرقى أفريقيا إلى وسطها . وكانت مقاعدها تشبه الدكك . . وكان الحزام الذى نلفه حولنا ليس إلا حبل غسيل مشدوداً من أول الطائرة إلى آخرها . . وكانت الطائرة بها فتحات يدخل منها الهواء . . ثم إننا كنا نجلس طول الوقت على أرضية الطائرة . وأكثرنا يلعب الكوتشينة . وأكثرنا يصنع لنفسه السندوتش . . ولا أذكر أننى شعرت بأن هذه الطائرة كانت تهتز . . أوكانت تطير على ارتفاع منخفض . . وأذكر أن بعض الركاب قد أعطوا المضيفة الواحدة سيجارة حشيش . . وظلت المضيفة ترقص على الواحدة من القاهرة إلى قرب مطار أثينا . . ولا ترد على نداءات الكابتن . . فضاق بها وبنا . وطلب إلينا أن نربط الحزام . وأن نلتزم أماكننا . . وراح يعلو ويهبط بالطائرة فوق البحر ، حتى دخنا جميعاً وتساقطنا من التعب . . ولما وصلنا إلى مطار أثينا ووضعوا السلالم لم يهبط أحد . . فقد سقطنا فى أرضية الطائرة . . وعاقبنا الكابتن بأن حرمنا من النزول . ولكننا واصلنا السير بهذه الطائرة الصغيرة إلى استوكهلم . . شيء عجيب . إننى لم أشعر بأنها صغيرة . ولا بأنها غير مريحة . . ولا بمجرد التفكير فى العدول عنها إلى طائرة أخرى أو بالعودة إلى القاهرة دون إكمال هذه الرحلة الخطرة ! وقد وقعت فى إحدى شركات السياحة

بمدينة سيول عاصمة كوريا الجنوبية لكى أختار نوع الطائرة التى أسافر بها . . ووقع الاختيار على واحدة كبيرة فخمة وفى الدرجة الأولى . . ولكنى عدلت عن ذلك وفضلت أن أركب طائرة جامبو . لماذا ؟ لأنها أسلم وأفخم وصعدت السلم الخارجى . . ثم صعدت السلم الداخلى للطائرة متجهاً إلى الطابق العلوى من الطائرة حيث الدرجة الأولى . . المكان فخم . . السجاجيد عالية الوبرة . إنها سجاجيد فخمة . والمقاعد واسعة . كأنها نصف سرير . . والمخدات ترامت عند قدمى . .

وجاءت المضيفة تسألنى :

ما الذى أحب أن أشرب ، أو ما الذى أحب أن آكل قبل الأكل وبعد الأكل . . وأنواع السجائر أو السيجار . . وكان فى استطاعتى أن أطلب منها شيئاً واحداً ومرة واحدة . ولكن هذا تجاهل لدورها . وإلغاء تام لواجب الضيافة فهى لابد أن تروح وتجىء وأن تشكرنى . وأن أشكرها . وأن تنحنى أمامى . وأن أهز لها رأسى . ثم يجب أن أتردد فى اختيار بعض الأطعمة . وأنا أناقشها فى ذلك فلا يزال عندنا وقت . ولو أنهيت الطعام والشراب فى ربع ساعة . . أو فى خمس دقائق كما أفعل فى بيتنا فما الذى عسانى وعساها أن نفعل فى الساعات الباقية إذ لابد أن أتروى وأن أتردد وأنه لا داعى لأن أقرر بهذه السرعة فالترف يقتضى ألا أنظر لعقرب الثوانى ولا حتى الدقائق . . المهم هو عقرب الساعات . .

وتشاغلت بالنظر إلى المجلات . . لم تشأ هى أن تقاطعنى مع أنها تستطيع ذلك . ولكن هناك ما يشبه الاتفاق بيننا هو أن نضيع الوقت . . وجاءت وعرضت الطعام والشراب . واخترت وقدمت وأقبلت وعادت . وأكلت وتمنت لى الهناء والشفاء . ثم تمنت لى السلامة . . وجاء بعد ذلك الكابتن يصافحنى فنحن جميعاً ضيوفه . . وإن كنا نسمح له بأنه يشعل سيجارة . وسمحنا له . ثم إن كنا نسمح له بأن يعود إلى عجلة القيادة لكى نهبط فى مطار طوكيو فرجوناه وشكرناه ! وهبطت الطائرة ، وتمنيت ألا يفعل شيئاً من ذلك وبهذه السرعة ! وقبل ذلك بستة عشر عاماً ! اشتعل فجأة بركان فى جزر هاواى . وكان البركان خامداً ثلاثة قرون . ولكن لأسباب لا نعرفها . جمع البركان دخانه وناره وأعصابه واهتز فارتجفت الأرض . وطالت ألسنة الدخان وسال لعاب النار . . وتحولت كل الطائرات المتجهة من اليابان إلى أمريكا تمر فوق البركان لعل ألوف المسافرين يفوزون بنظرة عين من فوق إلى هذه النار التى لم تفلح فى أن تحول المحيط الهادى إلى ماء يغلى ، كما أن المحيط لم يفلح فى أن يطفئ نار البركان . . إنها معركة بين النار والماء ، بين الهادى والهادر .

وقررت استئجار طائرة صغيرة وركبتها مع أحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم . الطائرة بمحرك

واحد ولها هدف واحد أن نقترب من البركان وأن نراه وأن نصوره ونتصوره وأن ننقله إلى قراء مصر ونكون أول اثنين فى الصحف العالمية . وكنا أول اثنين . وراحت الطائرة الصغيرة مثل عصفور يدور حول فرن أو روح قليلة الخطايا يشوونها فى نار جهنم . . وسألنا كابتن الطائرة إن كنا نحب أن نقترب أكثر . فقلت نعم . . وأن يهبط إلى مستوى منخفض فقلت : نعم . . وأحسسنا بدرجة الحرارة العالية فى داخل الطائرة . . والطائرة تدور . . والبركان يغلى . . والدخان يتصاعد والأرض تنزف دماً يغلى . . وفجأة اكتشفنا أن الرجل الواقف إلى جوارنا يحاول أن يلتقط صوراً للبركان ، وهو ليس إلا الكابتن نفسه . . وأنه ترك الطائرة تدور وحدها حول البركان وصرخنا من الفزع . . وعادت الطائرة إلى مدينة هونولولو . وعندما هبطت إلى أرض المطار . وجدنا قطعاً من أحجار البركان قد مزقت جناحى الطائرة وبطنها . وازداد فزعى . وعندما عرض علينا صديق أن نركب الطائرة الأكبر قليلاً لنرى البركان أوضح ، لم أتردد وكأن شيئاً بالأمس لم يحدث . . ولم أعرف الخوف الطويل فى ذلك الوقت . ولكنى عرفته منذ أيام . . يبدو أننى تغيرت . . ألا ترى أننى أخاف الآن أن أركب الطائرة أكثر من ستين ساعة ذهاباً وإياباً . من القاهرة إلى طوكيو وبالعكس ومنذ أكثر من عشرين عاماً كانت لى طريقة فى السفر . . فأنا أقرأ عن البلاد التى أتجه إليها . لكى تكون عندى بعض المعلومات العامة المفيدة أما الباقى فإننى أكمله أو أعرفه بعد ذلك . .

ومن أهم المعانى التى أحرص عليها أن أعرف : أين البوستة العمومية . . أين محطة السكة الحديدية . . أين المطار . . أين الصحف الرئيسية . . وأين حديقة الحيوانات والمكتبة العامة . فإذا عرفت ذلك لم أعد أخاف شيئاً . فلا خوف أن أضيع . أما الحقائب ، فهى واحدة خالية تماماً إلا من كتاب وبعض الملابس الداخلية وبعض الورق وقلمى . وفى هذا الكفاية . وكانت نكتة المطارات والجمارك ، فلا يكاد موظف الجمرك يسألنى أن أفتح الحقيبة حتى يضحك فليس فيها أى شىء ، ذهاباً وإياباً .

وفى مطار سيدنى بأستراليا سألنى موظف الجمرك : يا مستر منصور هل تستخدم هذه الحقيبة لأغراض أخرى . . كأنك تنام فيها مثلا ؟ وعندما عدت إلى مطار القاهرة سنة ١٩٦٠ بعد رحلة استغرقت فى الدوران حول الأرض أكثر من ٢٢٣ يوما سألنى موظف الجمرك : أين حقائبك ؟ قلت : هذه وحدها ! وسألنى : الباقى – لم يبق إلا أنا ! وفى السنوات الأخيرة لم أعد أجد لذة فى أن أكون نكتة المطارات العالمية والعربية . فقبل أن أسافر أعرف بالضبط موعد العودة وأعرف مقدما العناوين التى سوف أنزل فيها وأسماء الوزراء والشخصيات التى سوف أقابلها ومتى وأين وعلى غداء أو على عشاء

أو على شاى . . ولم تعد حقيبة واحدة تكفى لكى تتناسب مع اللقاءات الرسمية . . ولم تعد حقيبة واحدة تكفى لعشرات الكتب التى أختارها . . ولا الأسبرين وحده يكفى وإنما هناك عقاقير أخرى ضرورية للأرق والمغص وأوجاع المعدة والمصران الغليظ ! واضح جدا أن خمسة وعشرين عاما قد تركت آثارها العميقة فى كل جانب من جسمى ونفسى . . إننى أقوم بتعويض ما فاتنى من المقعد المريح والطائرة الكبيرة والتمهل فى السير والجرى والأكل والشرب والنوم ، وتضييق الهوة بين الخوف والموت إلى أبعد حد ممكن عبر القارات والمحيطات ! وعندما طلب منى ضابط الأمن أن أدخل فى الجهاز الإلكترونى ليعرف إن كنت أحمل سلاحا لأخطف به الطائرة . . تقدمت . . ولكنه بسرعة اعتذر عندما نظر إلى المرافقين الرسميين وشعرت بشىء من الأهمية وإن كنت أفضل أن يقوم بتفتيشى ، فهذه هى الأصول . . ولو فعل ذلك فى مطار القاهرة لتضايقت . إنه فتشنى مع أن هذا هو الواجب !

وحدث فى سنة ١٩٥٩ عندما كنت مسافرا من مدراس بالهند إلى كولمبو عاصمة سيلان . أن طلب منى ضابط الأمن أن أفتح حقائبى كلها وأن أخلع ملابسى تماما . . أو إلا قليلا . ولما حاولت أن أفهمه أننى كنت أمزح معه وأننى لم أقصد شيئا مما قلت . رفض الرجل تماما . وجاء آخرون يفتشون ملابسى فى الحقيبة وملابسى على كتفى . . فما الذى حدث ؟ لقد سألنى الرجل عن وظيفتى فقلت له مداعبا : إننى أعمل راقصا فى فرقة شعبية ! مع أن وظيفتى فى جواز السفر تقول إننى صحفى مصرى أما تفسير ما حدث فإن فرقة راقصة لبنانية قد مرت بهذا المطار ووجدوا معها كميات من الذهب والمخدرات ، الذهب فى ملابس الرجال وحول خصورهم ، والمخدرات أخفتها الراقصات فى أماكن أخرى . . واعتذر الرجل . واضطررت إلى المبيت جالسا فى مطار مدراس بعد أن فاتتنى الطائرات المتجهة إلى جزيرة سيلان . . ولاحظت بعد ذلك أننى لم أتوجع من النوم جالسا بلا طعام ولا شراب ولا احترام . . إن الشىء الذى تغير فى نفسى هو مدى احتمالى للألم . . أو مدى احتمالى للخوف . . فقد كنت كالسيارة التى لها سلسلة جديدة تزحف على الأرض فتقوم بتفريغ شحنات الكهرباء التى تهدد أمعاء الركاب ومعداتهم . . وكنت هذه السلسلة التى تشبه الذيل .. فهو يتدلى من جسمى ومن أعصابى فلا أشعر بتعب أو خوف أو جوع أو عطش .

أما الآن ، فإننى أفكر كثيرا : كيف أذهب وأين أنام وما الذى أشرب وما الذى أستطيع أن أهضم ؟ . كنت أدور حول البراكين ، أما اليوم فإننى أتفادى العواصف إنها السن يا سيدى ، وإنه القليل الذى تبقى فى هذه الحياة – أطال الله عمرك وجعل طريقك على البراكين وفراشك على الأعاصير إنها النعمة الكبرى التى لا يعرفها الشباب .

زمن تصبح فيه الدجاجة أغلى من الديك

أحد علماء النفس كان يزور مدينة تريستا ، ولاحظ أن عدداً كبيراً من الأطفال قد وضعوا الضمادات على جباههم وأنوفهم . . شيء غريب . نزل من السيارة ، ولم يشأ أن يسأل أحداً ، وعلى الحدود القديمة بين تريستا ويوغوسلافيا وجد علامات بيضاء على الأرض . وقال : هذا هو السبب ! . .

أما السبب الذى اهتدى إليه فهو أن الخلافات بين الإيطاليين واليوغوسلاف على ضم مدينة تريستا قد انتقلت إلى الأطفال . فخناقات الأطفال فوق هذه الحدود البيضاء المرسومة على الأرض ، نتقلت إلى نفوسهم . . فهناك حدود كانت بيضاء وأصبحت سوداء أو دموية فى لعب الأطفال . . فقد مزقتهم هذه البقع البيضاء . وأصبح من مفاخر الأطفال أن يبدو الواحد وقد أصيب فى وجهه أو فى أنفه . تماما كما يتباهى المحاربون القدماء بأنهم فقدوا أيديهم أو أرجلهم فى الحرب . ولما أزيلت العلامات البيضاء من الأرض لم يعد هناك مجال للمفاخرة فقد انحسم الخلاف وزالت الفواصل على الأرض وبين الرجال وبين الأطفال !

ومن عشر سنوات ، أرسلت إحدى المستعمرات الإسرائيلية شكوى غريبة : أن عددا من الأطفال يبللون الفراش رغم أن سنهم قد تجاوزت العاشرة . وتكررت هذه الشكوى أيضا ، وجاء عالم كبير اسمه برونو بتلهايم يبحث هذه المشكلة النفسية والتربوية أيضا . واكتشف أن طفل المستعمرات اليهودية ليس إلا حيوانا قد جردوه من أبويه فليس من حقه أن يكون له أب أو أم . . فإسرائيل هى أمه وأبوه . وأيقن أن هذه المعاملة الجافة سوف تؤدى إلى ظهور نوع من الوحوش الآدمية المعقدة . . وأن الحل هو أن يعاد الأطفال إلى أحضان أمهاتهم . وأن هذا التبول أثناء النوم ليس إلا نوعا من آثار الشفقة . . وإلا إنذارا بانحرافات أخرى دموية ، عندما يكبرون . وأن أول هذه الانحرافات أن يهرب الأطفال إذا كبروا من هذه الحظائر البشرية إلى الحياة فى المدن . . أو الهروب نهائيا من إسرائيل !

وفى سنة ١٩٤٨ اكتشف العالم التربوى الألمانى أوتوفوجل أن إحدى القرى المجاورة لمدينة اسن بحوض الرور تحترق فيها سلال القمامة لسبب غير واضح . فليس من عادة هذه المنطقة إحراق المهملات دون رعاية من أحد وسأل . ولم يجد إجابة مقنعة . وإنما قيل له : بعض الأطفال الأشقياء . ولكنه كعالم اجتماعى لا يريحه هذا الجواب بل إن هذا الجواب إعلان صريح عن مشكلة من الممكن أن تكون أكبر . أو أنه أحد أعراض مشكلة من الممكن أن تكون أعمق . ويقول أوتوفوجل فى كتاب (الأخطاء الصغيرة فى الحياة اليومية – بحث نفسى اجتماعى ميدانى) : لقد وجدت أن الذين يفعلون ذلك أربعة أطفال من أسرة واحدة . وبالدراسة القريبة جدا وجدت أن أحد إخوتهم قد سقط فى إحدى المداخن فمات . ومنذ ذلك الحين وهؤلاء الأطفال يريدون أن يحولوا القرية كلها إلى مدخنة لعل الناس جميعا أن يموتوا فيها . . وعثرت أيضا على طفل يقول إنه سمع هذه العبارة من أمه . . وطفل آخر يقول إنه سمع مثل هذا المعنى من والده وكان مخموراً !

وفى أحدث دراسة عن هتلر للكاتب الألمانى فريد لاندر يقول : لو استطاع هتلر أن يضع أصابع قدميه فى فمه وهو صغير ، لأنقذت البشرية من الحرب العالمية الثانية ! وهو يقصد فى كتابه (أعماق أعماق هتلر وآخرين) إن هتلر الطفل قد حرم من رعاية أمه . . وكان يجد كل شىء بعيداً ، ولكى يجعله قريبا كان لابد أن يكون عنيفا . ولو أدرك هتلر أصابع قدميه ، ما احتاج إلى عنف ليجعل أفواه الناس عند أصابع قدميه بالنار والحديد . . أى أن هذه الأشياء الصغيرة الضارة بالأطفال يجب أن نبحث عنها فى البيت . . عند الأم . ولا أقول عند الأب . فالأب بعيد عن الطفل وعن تربيته وعن حضانته . صحيح أن الأب ضرورى للأم والابن . ولكن أثر الأم فى الطفل أعمق . فالأم أيضا هى التى تقدم العالم كله للطفل . . تقدمه قطرة قطرة من ثدييها . . تقدمه ابتسامة ابتسامة وهى ترضعه وهى تحتضنه . . وكل تجارب الأطفال تبدأ فى حضن الأم . فالطفل الذى يعض ثدى الأم ، ولا يجدها تمنعه أو تحذره ، يمضى فى العض والضرب والشتم والاعتداء عليها . . وعلى الآخرين أيضا !

ولا أعرف إن كان أحد من علماء النفس عندنا قد لفت انتباهه نظرة بعنف طويلة جاءت من طفل فى الشارع أثناء مروره . . أو سقط فوق دماغه قرطاس من قشر اللب أو السودانى أو البطيخ . أو فردة شبشب . أو تساءل : ولماذا يكسر الأطفال زجاج البيوت والسيارات . . ويخربشون الأبواب والنوافذ . . ويحملون معهم أمواس الحلاقة ويفتحون بها بطون المقاعد فى دور السينما ؟ . لماذا يدوسون على الأشجار؟ . لماذا يقطفون الأزهار وبعد ذلك يسحقونها بأقدامهم ؟ . لماذا هذه النزعات العدوانية والإنسان هو أكثر الكائنات شاعرية . فهو محب ولهان ، وهو كاره مخترع ، فهو الذى اخترع

الشعر والغناء وهو الذى اخترع القنابل والمدافع . . هو الذى ابتدع مشاهد الغرام وهو الذى اخترع الحروب . والطفل فى سلوكه أقرب إلى الحيوانات . . فنى عالم الحيوانات نجد هذه النزعات العدوانية على أشدها ، لأنها غريزة . فالطيور تزقزق إذا اقترب منها حيوان غريب . . والقردة تصيح . . والذئاب تعوى . فما الذى تدافع عنه ؟ إنها تدافع عن (منطقة) لها أو . . أرضها وتكون هذه الأصوات العدائية إنذارا للجميع بأن خطرا يقترب . . بعض الحيوانات تصنع لنفسها حدودا . الكلاب تفعل ذلك عندما تتبول فى الشوارع . . إنها تتبول فى المناطق التى اعتادت عليها أو التى تعيش فيها ، وتجىء كلاب أخرى وتفعل نفس الشىء . أى أن هناك اتفاقا واضحا بارزا على أن هذه الحيوانات تسكن منطقة واحدة . وهذه هى الطريقة العلمية لإرساء حدود لها روائح نافذة إلى أنوف الكلاب — فى الريف يصنعون الحواجز والفواصل من مخلفات البهائم أيضا ! وهناك أنواع من الطيور عندما تشعر بالخطر فإنها تنقض على الغريب أو الأجنبى ، وتسقط عليه برازها ! وربما كان هذا الدفاع الإقليمى من الطيور والحيوانات هو الذى يعطيها فرصة للتكاثر ، فهى عندما تدفع الأعداء عن أرضها وأوكارها وأعشاشها توفر لنفسها الطعام والمأوى . . أى الجو المناسب للتكاثر والاستمرار .

ويحدث بين الحيوانات ما يحدث بين الإنسان أيضا : فهى تتجاور ولا تتقارب والإنسان حريص على أن يكون مع الآخرين . . وألا يعيش بمفرده ، بشرط أن يبقى الجار بعيدا . . أى بشرط أن تكون له حياته الخاصة وألا يجرحه الجار . . فاقتراب الجار من الجار (جرح) لا علاج له إلا بالابتعاد . . أى بأن تكون هناك مسافة بين الاثنين ! والحيوانات عندما تتشاجر على الطعام أو الجنس فإنها تختلف عن الإنسان . . فبعض هذه الحيوانات ينكش شعر جلده . . أو ينكش ريشه أو يكشر عن أنيابه . . وبعد ذلك يبتعد دون أن يكون هناك عراك دموى . . أو يستسلم وفى الاستسلام حسم النزاع القائم . فبين القردة نجد أن القوى يعلو الضعيف . . وينتهى الخلاف عند هذا الوضع وبهذه الصورة . دون أن يموت الصغار أو الإناث فى هذه المعارك الدموية دفاعا عن الأرض أو البقعة من الأرض . . وبعض الغزلان عندما تتعارك تتلاصق كتفاً إلى كتف . . تماماً كما يفعل المصارعون اليابانيون . وتظل الغزلان كذلك . . وفجأة يهرب أحدهما . . أو يشتبك أحدهما مع الآخر . . وبعض الغزلان لها قرون شديدة الالتفاف فإذا تشابكت القرون ظل التصارع حتى تجىء الوحوش المفترسة وتأكل الاثنين معا . . لأنهما لم يفلحا فى فك القرون بعضها من بعض ! وهناك أنواع من الغزلان تنقض على الذكر المتصارع وتقتله . وتظل إلى جوار الأنثى التى مات ذكرها وهو مشبوك بقرنيه مع قرنيها . . ويجىء بعض الوحوش وتأكل الذكر الميّت . . دون مساس بالأنثى ! والذئب عندما يستسلم لذئب آخر فإنه يدير له عنقه . . أى يدير له

جانبا ضعيفا منه . . وفى هذه الحالة يهجم عليه الذئب الآخر . . أو يتركه مكتفيا بهذا النصر . .

وسوف أمضى بعض الوقت فى الحديث عن معارك الحيوانات تمهيدا للكلام عن الأطفال الصغار ، وهم حيوانات ضالة فى العصر الحديث ، لأن الأمهات يعملن شيئا آخر غير الأمومة ويقدمن شيئا آخر غير الحنان ، صحيح أنه حنان بلا مقابل مباشر ولكن لا تستطيع الأم إلا أن تكون حنونا حتى لو أرادت غير ذلك . . ولا تستطيع إلا أن ترضع طفلها وإلا احتبس اللبن فى صدرها وأشعل النار فيها . وبسرعة أضرب مثلا بالفئران . . إن فأراً غريبا لو دخل جحرا به فئران أخرى لانقضت عليه وقتلته فورا ، إنه غريب . . إنه دخيل . . وكما أن (الحياة معا) بين الناس ليست دليلا على الحب ولا دليلا على نجاح العلاقات التى تربط الرجل بالمرأة ، وإنما على استمرارها وعلى الحرص على ذلك والصبر عليها ، فكذلك بين الطيور شىء من هذا . بل إننا نجد ذكرا وأنثى فى غاية النشاط فى جمع أوراق الشجر والأزهار الجافة وبعض نسيج القطن لتكوين العش . . ثم تبيض الأنثى . وينام الذكر فوق البيض . وتظهر الصغار ويحميانها . وليس بين الأب والأم أية عاطفة ولا حب . . ولو غاب أحدهما ما افتقده الآخر ولو جاءت أنثى أخرى لرعاية الصغار ما اعترض الذكر ، ولو جاء ذكر آخر لمشاركة الأم فى رعاية الصغار ما اعترضت الأم . . إنهما متجاوران متعايشان . وكما كان الأب والأم تكون الصغار أيضا ، تكبر ولا تعرف الأب والأم ، هذه غريزة بعض الطيور التى يفعلها الكثير من أبناء العصر الحديث – مما يحزن كل أب وكل أم ، وعلى الآباء أن يتعلموا من الطيور ! وفى عالم الأوز نجد شيئا مختلفا ، فذكر الأوز أقرب إلى الإنسان . فهو بطبعه مخلص لأنثاه ، ولكن هذا الإخلاص أو هذا الحب لا يتوالد إلا من كراهية . . فالذكر – كراهية منه لذكر آخر – يعانق أنثاه ويلف عنقه حول عنقها ، وبعد ذلك ينطلق نحو ذكر آخر وينقض عليه بشراسة . ثم يعود بسرعة إلى أنثاه . ففى عالم الأوز : لا عداوة إلا بعد حب !

وعند الإنسان نجد أن العدوان له أشكال كثيرة تبدأ من إلقاء طوبة إلى إلقاء قنبلة ومن كسر زجاج إلى التآمر . . ومن إطلاق الشائعات إلى القتل . . ومن الممكن أن يكره الإنسان من لا يعرف . . ولكن الإنسان أيضا يستطيع أن يتجاور وأن يسد بعضه إلى بعض سدا مانعا ضد الأجنبى وضد الغريب وضد الدخيل ، سدا من الخوف ضد ابن العم ، ومن أبناء العم ضد الغريب .

وكذلك تفعل بعض الأسماك إنها من الممكن أن تسير معاً فى اتجاه واحد . دون أن تعرف بعضها بعضا أو تكون من فصيلة واحدة ، ولكن الوجود معا هو صيانة وأمان لها ، ووسط هذا الزحام الذى يجهل أفراده بعضهم بعضا نجد الأسماك من فصيلة واحدة تتجاور ومن أحجام واحدة تتجاور . .

وتتباعد عن الأكبر سنا وحجما والأبعد فصيلة . . والجميع يمشى معا خوفا من أن تكون وحدها فتنفرد بها أسماك متوحشة !

والإنسان هو الحيوان الذى له أطول طفولة . فالطفل يحتاج من أبويه عشرين عاما ليكون قادرا على أن يعتمد على نفسه ، ومن مظاهر الاعتماد على النفس أن ينفصل بحياته وعواطفه عن والديه وأن ينشغل بأن يكون أبا له أولاد يرعاهم لينفصلوا عنه وهكذا . وكل هموم الدنيا تبدأ فى الشهور الأولى لحياة الطفل . بعض علماء النفس يقولون فى النصف الأول من السنة الأولى وبعضهم يقول فى النصف الثانى . وأنا من المؤمنين بأن هذه المشاكل تبدأ قبل ذلك بسنوات . . تبدأ بطفولة الأب وطفولة الأم . وبعد ذلك تبدأ بزواج الأب والأم : إنسانان غريبان التقيا فى ظروف غير عادية وفى درجات حرارة عالية وقررا أن يعيشا بعد ذلك معا ويكون لهما أولاد . . ثم لا يتسع وقت الأب للأم ولا يتسع وقت الأم للأطفال . . الذين يطلقون الطوب على النوافذ وعلى الأزهار والطيور ويمزقون المقاعد والأوراق ويهربون من الأب والأم فى أسرع وقت ممكن وينسون كلمة الشكر لكل من الأب والأم على ما قدماه من تعب وحب وسهر ورعاية وعناية ومال وصحة !

ويقول د . اسبوك أحسن من كتب عن أطفال العصر الحديث : إن مشكلة فيتنام نفسها تبدأ من الطفل الصغير الذى ألقى السم لكلب ووقف يتفرج عليه ما الذى يمكن أن يحدث له . ويقول د . اسبوك : إن جونسون نفسه قال لى فى التليفون إنه لن يكون هناك تصعيد لحرب فيتنام . وصدقته ولكنه كان طفلا أمريكيا فعل بالضبط ما توقعته وكرهته ! . . إلى آخر ما جاء فى كتابه الممتع وعنوانه (يليق ولا يليق) . . فما هى حكاية الأطفال فى هذا العصر إنها حكاية الآباء الذين كانوا أطفالا . . إنها حكاية هتلر الذى لم تمكنه أمه من أن يمسك أصابع قدميه ، إنها مشكلة العلامات البيضاء على الأرض . . والتى انتقلت مثل كريات الدم البيضاء لتفصل بين القلوب أيضا ، إنها الشهور الأولى من حياة الطفل عندما يعض الثدى الذى يرضعه فلا تعترض الأم . . فيضغط الطفل بفكيه ثم بأسنانه . . ثم يعض الأم . . ويعض اليد التى تطعمه . . الأب والأم . . فإذا حذراه قال : ولكن لم أطلب إلى أحد أن يلدنى . . وما دمت قد ولدت فلى نفس حقوق المواطن الحر . . فنحن نعيش فى عصر الديمقراطية . . وليست للأب إلا حقوق الاحترام المسموح به قانونا . . والأم أيضا ! وعندما يتعلم الطفل أن يذهب إلى دورة المياه – يقول د . اسبوك – فإنه يتلاعب بأعصاب أمه . . ويهددها بأن يلوث كل شىء ، إذا لم تجبه إلى مطالبه . وتقف الأم تجيبه إلى مطالبه وإلا . . لوث نفسه وملابسه والبيت ولا يزال الصغار والكبار يستخدمون الكلمات التى تصف ما يفعله الطفل فى دورة المياه فى

شتائمهم . . ويستخدمون نفس الأعضاء للدلالة على إهانة الآخرين ! .

وعندما عاد الخطيب الإغريقي ديموستين إلى بيت أحد أقاربه وجد طفلا ينهال ضربا على أبيه . . وكان الأب مريضا . . فقال عبارته المشهورة ويل للبيت إذا علت فيه أصوات الدجاج على صياح الديوك – ولم يكن صاحب الصوت العالي ديكا ولا دجاجة وإنما هو كتكوت ترك البيضة من وقت قصير : ويقال إن ديموستين ذهب بعيدا بعيدا . . وأمسك إناء من السم . وراح يغمس فيه قلمه . ثم يضع القلم في فمه ويقول : ذهب كل ما قلته للكبار والصغار – إن الفم الذي ينصح الناس ، ولم تنفع النصيحة يجب أن يتجرع السم ! حتى مات ديموستين ! وليس في استطاعة أحد الآن أن يقوم بدور (الزمار) المشهور الذي ظهر في مدينة هاملن بألمانيا في العصور الوسطى . . فيمسك مزماره ويمشي وراءه ألوف الأطفال . . ثم ينزل بهم إلى البحر فيغرقون جميعا . . وليس في استطاعة الأطفال الأشرار أنفسهم أن يفعلوا ما تقوم به الفئران في السويد عندما تنتحر معا بالملايين وتلقي بنفسها في البحر كل سنة . . وتحطم المزارع وكأنها تقول : لا حياة بعدنا . . أو يا نفس ما بعدك نفس ! وإذا قررنا أن نهلك الأطفال ، فمن هم هؤلاء الأطفال ؟ هل هم الآباء الذين كانوا أطفالاً ، أو الأبناء الذين سوف يصبحون آباء . . إن العصر كله يأكل نفسه ، ويهدم قيمه ، ويقتل الآباء بيد الأبناء وبيد الأبناء يقضي على الجميع إلا إذا ظهر من يفسر لنا : ولماذا يعض الأطفال الأثداء التي يرضعونها . . ولا تقول الأمهات شيئا ! ؟

الثوانى التى تسند الفريد نكسون أيضاً

طفل صغير استطاع أن يضع إصبعه فى قاع سفينة فمنعها من الغرق– هكذا تقول الأسطورة عن بطولة طفل. وفى نفس الوقت ، أن إصبعاً صغيرة تستطيع أن تنقذ سفينة كبيرة. فلا شيء يستهان به ! . . ويقال إن طفلاً آخر استطاع أن ينقذ بإصبعه إحدى المدن الهولندية عندما وضع إصبعه فى فتحة لأحد السدود التى تحمى هذه المدينة الهولندية من أمواج البحر. ومات الطفل فوق أصابعه وعاشت هولندا ولسبب ما– غير معروف– جاء طفل آخر وسحب جثة هذا الطفل واندفعت من ورائه المياه وغرقت السفينة وهذا الطفل !

فالأصابع التى تنقذها ، هى نفسها التى تغرقها. والمثل الذى يقول : إن النواة تسند الزير معناه أن سحب النواة من تحت الزير يوقع الزير أيضاً ! وكم من عمارات سقطت بسبب نقص فى خلطة الأسمنت . . أو بسبب أن الخوازيق عندما دقوها فى الأرض لم تبلغ الطبقة الصلبة . . ولكى تبلغ الطبقة الصلبة من الأرض كانت الخوازيق فى حاجة إلى أن ندقها بضعة سنتيمترات . . ولكن (واحداً) من الناس اكتفى بهذا القدر إهمالاً أوجهلاً أو عمداً ! كم من مصانع انهدمت عليها السقوف . . كم من أفران للحرارة العالية قد تشققت وتكلف إنشاؤها من جديد ملايين الجنيهات . . كم من قطار اصطدم بقطار آخر من أجل قروش يدفعها راكب للكمسارى . . كم من قروش دفعها سائق تحت التمرين (لواحد) آخر لكى يشهد أنه أصبح قادراً على قيادة أى أتوبيس . ثم نزل بالأتوبيس وركابه فى النيل ؟ .

وفى السنوات الأخيرة سحبت شركات السيارات العالمية ألوف السيارات التى عرضتها فى الأسواق لأنها اكتشفت بعد ذلك خللاً فيها . وكان هذا الخلل فى الفرامل . . أوفى المعادن التى صنعت منها الفرامل . وسبب ذلك أن (واحداً) تهاون فى نسبة خلط الحديد والصلب والنحاس والمعادن الأخرى ! وهناك صواريخ حاملة سفن الفضاء قد احترقت على الأرض بروادها . . وكم مرة تسرب الغاز فى

سفن الفضاء وكاد يهلك رواد الفضاء وتفشل الرحلات التى تكلفت ملايين الدولارات لأن (واحدا) فى قاعدة إطلاق السفن الفضائية قد نسى مسماراً، أونسي أن يراجع المسامير والمصابيح.. وعلى الرغم من استخدام العقول الإلكترونية فلابد من العقل الإنساني لكى يصوب أخطاء العقول الإلكترونية وربما كان السبب هو التعب أو الإهمال.. فهناك مئات الألوف من التوصيلات الكهربية فى سفينة الفضاء ولابد من مراجعتها واحدة واحدة.. ولكن (واحدا) من الخبراء قد أهمل أونسى أوتعمد ذلك.. وفى كل مكان فى الدنيا يوجد واحد على الأقل من هذا الطراز.. إذن هناك مئات الألوف أو ملايين يعملون بإهمال أو باستخفاف على خراب الهيئات والمنظمات وتبديد الطاقة الإنسانية.. والمثل الشعبى يقول: من أجل مليم ملح يفسدون الطبخة، أى أن أشياء صغيرة وتافهة جدًّا من الممكن أن تؤدى إلى فساد أعمال هامة وجليلة ولكن الناس يستهينون بالأشياء الصغيرة وأثرها على الأشياء الكبيرة. وفى حياتنا اليومية الخاصة نجد عشرات الأمثلة على ذلك. إن موظفاً واحدا قادر على أن يربك جهازاً كاملاً.. إن الرجل الذى يجيء إليك فى البيت ليصلح النور يفسده.. ويجيء غيره ويفسده أيضاً.. الذى يصلح لك التليفزيون والتليفون والسيفون.. كل هؤلاء يجيئون واحداً وراء واحد. وفى كل مرة تندهش إن كان أحد منهم قد رأى هذه الأشياء من قبل. وإذا كان قد رآها فما الذى صنعه فيها.. وأصحاب السيارات عندهم مغامرات مع كل شارع وعلى كل رصيف.. والذين يسافرون فى الطريق الزراعى والصحراوى كم من مرة يتوقف أحدهم فجأة لأن دخاناً يتصاعد من الموتور.. ماذا حدث؟ إن السيارة ليست بها قطرة ماء! كيف إن العامل فى محطة البنزين قد قال إنها لاتحتاج إلى ماء.. أى أنه كشف عليها فوجدها قد امتلأت بالماء والحقيقة أنه لم يفعل ذلك، وإنما هو الكسل أو الإهمال أو الحقد أو الضيق بأصحاب السيارات وأصحاب محطات البنزين وبكل من يملك شيئاً آخر لا يملكه هو.. وكم من مرة انفجرت عجلات السيارة، لأن صاحب السيارة قد ظل جالساً فى مقعده عندما تولى نفخها أحد موظفى محطة البنزين.. فنفخ العجل أكثر مما يجب.. أو طلمبات الهواء غير مضبوطة وأن عاملاً آخر قد تهاون فى ضبطها وهى بذلك تملأ العجل بأضعاف ما يحتاج اليه، والنتيجة يعرفها الكثيرون إلى مالا نهاية، فهناك (واحد ما) فى كل مكان يؤدى الى هذه الحوادث والمصائب والكوارث!

أما الذى يحدث فى الحروب وفى أزمنة المحن الكبرى فشيء مروع.. ففى سنة ١٩٤٨ كتب المفكر السياسى الإنجليزى ماكولى يصف البحرية البريطانية فقال: إن إدارتها نموذج للفساد والجهل والضياع والتبديد. فلاضوابط لشيء على شيء!. لا متابعة.. والبحارة يتقاضون أجورهم فى أوقات غير منتظمة.. ومعظم السفن العائمة، كان يجب أن تغرق من زمن طويل.. فكلما تلفت حولى وجدت على الأقل شخصاً واحداً من بين كل ثلاثين يجب اطلاق الرصاص عليه لأنه مصدر هذا الفساد

كله ! ! ثم من هذا الذى اختار هذه الحيوانات البرية لتعيش فى البحر؟ إن (واحداً) مجرما قد اختارهم واستراح وأقلق الجميع والقائد الكبير ولنجتون عندما استعرض فى آخر لحظة ضباط أركان حربه قبل حملته على البرتغال سنة ١٨١٠ اندهش وانزعج ولكن الوقت قد فات. وقال عبارته المشهورة : أملى الوحيد أن يرتجف الأعداء من هؤلاء الضباط كما ارتجفت أنا عندما قرأت أسماءهم وعرفت تاريخهم العسكرى . . أريد أن ألتقى بهذا المجرم الذى جمع هؤلاء فى سفينة واحدة ! وبعد معركة البرتغال اكتشف ولنجتون أن الصدفة وحدها هى التى جمعت هؤلاء الضباط فى القيادة . . وأن خطأ وقع فى عملية نقل بعضهم من سلاح إلى سلاح . . وإن هذه الغلطة التى ارتكبها أحد الإداريين قد كلفته الكثير من العتاد فى معارك البرتغال !

وفى الحرب الأهلية كتب الجنرال ريتشارد تايلور فى مذكراته عن حرب (الأيام السبعة) كانت مفاجأة عجيبة ، أن جنودى لا يعرفون الطريق إلى أقرب مدينة إلا كمعرفتهم لغابات وسط أفريقيا ، منتهى التوفيق فى اختيار ما يؤدى إلى الهزيمة ! ولكن أحد ضباط القيادة العامة هو الذى اختار هؤلاء الجنود الغرباء عن المنطقة ليقوموا بغزوها ! وفى الحرب العالمية الثانية اكتشف الإنجليز أن قنابل الألمان أشد احتراقا وتوهجاً . ولم يعرفوا السبب الحقيقى ولكن فى سنة ١٩٤٠ اهتدى العلماء الإنجليز إلى أن استخدام مزيد من مسحوق الألومنيوم يؤدى إلى أن تصبح القنابل البريطانية فى قوة قنابل ألمانيا . . وفى سنة ١٩٤٣ اكتشف البريطانيون أن أحد مديرى المصانع الحربية هو الذى أمر بإنقاص كمية الألومنيوم المسحوق . . فجاءت القنابل أقل توهجاً وأقل تدميراً ! وفى محاكمات نورمبرج سئل الجنرال أشتومبناجل عن حقيقة القنابل التى استخدمها الألمان . فقال إن تغييراً طرأ عليها أثناء الحرب فقد استولى الألمان على بعض القنابل البريطانية وبتحليل هذه القنابل عرف الألمان أنهم لو ضاعفوا نسبة مسحوق الألومنيوم ، فسوف تكون ذات فاعلية أكبر !

وفى الحرب العالمية الثانية اكتشف القائد الأسترالى دزموند باترسون قائد إحدى السفن التى استخدمت لعلاج الجرحى أن خزان الماء بها قد طلى بالرصاص الأحمر . وأن الجنود لو شربوا من هذا الخزان يوماً آخر لماتوا جميعاً . ولما سأل القائد الأسترالى عن ذلك عرف أن أحد عمال السفينة لم يجد أمامه غير هذا الطلاء . وأنه لم يشأ أن يسأل أحداً من كبار الضباط أو المهندسين أو الأطباء .

وفى محاكمات نورمبرج اتهامات لا عدد لها لكبار الضباط الذين ماتوا وانتحروا . . مثلاً من ضمن التهم أن القائد العسكرى فون باولوس فوجئ فى أحد الأيام أثناء زحفه على روسيا أن أمراً مباشراً وصل من هتلر يقول ما نصه إذا وصلت إلى المواقع كذا . . فعليك أن تزحف من ناحيتين وأن يكون جناحك

الأيمن بالمدرعات . . وأن يكون جناحك الأيسر بالطائرات . . المدفعية اجعلها متأخرة عند الموقع رقم كذا . . والإمضاء (هتلر) وعندما قرأ فون باولوس هذا الأمر وجد أن تنفيذه مستحيل . وان هذا بالضبط ما لا يجب القيام به . وأن الخطة معكوسة تماماً . وأنه من الأفضل أن تكون المدرعات فى الجناح الأيسر نظراً لموقع المدن . . ولم يكن عنده متسع من الوقت ليراجع هتلر إن كان فى استطاعة أحد أن يفعل ذلك . . وبدأت المعركة وعرف متأخراً جدًّا أن السكرتير الخاص الذى تلقى أمر هتلر قد أخطأ فى كتابته . . ولم يتمكن فون باولوس من تغيير هذا الأمر . . أو تعديله . . وقد هلك بسبب ذلك عشرات الألوف من الجنود والسبب هو أن (واحداً فوق جداً) هو الذى أصدر الأمر . وواحداً آخر قد أخطأ ، ومن المؤكد أن الأخطاء العسكرية فادحة التكاليف ولكن الأخطاء الصناعية والمعمارية والصحية غالية الثمن . ومنذ سنوات حدث فى إحدى البلاد العربية أن مات ألوف المواطنين والسبب أن جوالات القمح قد وزعت عليهم فطحنوها وعجنوها وأكلوها . مع أن هذه الجوالات كانت للبذور فقط – أى لبذرها فى الحقول . وكان هذا القمح قد أرسل إلى البلد العربى تنفيذاً لاتفاقية المساعدة فى رفع مستوى محصول القمح . وهذا النوع من القمح يغطى عادة بمادة سامة لحمايته من التسوس ومن الآفات الزراعية . والذى يبعث على الدهشة حقيقة أن كل هذه الجوالات المكتوب عليها تحذير باللغة الإسبانية – لأنها واردة من المكسيك – والتحذير يقول بوضوح تام : هذه العبوات مسمومة ! راح ضحيتها مئات المشوهين وألوف الموتى .

أما السبب فهو أن (واحداً) تطوع بترجمة التحذير عند ميناء الوصول وجاءت ترجمته مختلفة تماماً عن المعنى المقصود ولم يراجعه أحد فى ذلك . . ومات فى صمت أليم ! وفى حياتنا اليومية ومعاركنا القومية كثير من الأخطاء القاتلة ولكن الأخطاء لا تظهر عادة إلا بعد وقت طويل . . أى بعد أن يكون الفاعل الحقيقى قد مات وشبع موتاً . . ولكن عندما تكون الأخطاء حادة دموية فإننا بسرعة نعرف الفاعل الحقيقى . . تماماً كما ينسى الطبيب ، تعباً أو إهمالاً ، أدوات الجراحة فى بطن المريض . وبعد أن يتم إغلاق بطن المريض فإنه يصرخ ، وهنا فقط يجب أن يعاود فتح بطن المريض لإنقاذه من أخطاء السهو والنسيان . . وليس من السهل أن نجد مثل هذا المريض الذى يصرخ . . فليست كل العمارات ولا المصانع ولا السيارات ولا الطيارات ولا الصواريخ ولا الجيوش لها هذه القدرة على الصراخ لإنقاذها قبل أن تنهار على الجميع .

إنها حكمة الحياة المريرة ! حيث يوجد إنسان يضع إصبعه لإنقاذ الآخرين . يتقدم إنسان آخر ليرفع هذه الإصبع ليموت هو والآخرون .

أذنى على الأرض وعينى فى السماء

عندما يقول لك شخص : أنا عندى فكرة ! فمعنى ذلك أنه يريد أن يعرض أسلوباً فى تغيير أفكارك اوأفكار غيرك. وأنه يريدك أن تقف إلى جواره . . أنت اوألوف غيرك . فإذا استطاع فهو صاحب رسالة أو مذهب أو دين . .

والتاريخ يروى لنا ما فعله أصحاب الفكرة الواحدة القوية . إنهم الذين غيروا التاريخ وقد اندهش الناس فى لندن منذ سنوات عندما وقف أحد أبطال مسرحية (كله فى وقت واحد) وأعلن قبل نهاية المسرحية بدقيقة واحدة قائلاً : ولكن أنا عندى فكرة ! وفى هذه اللحظة قفز أحد الممثلين من صفوف المتفرجين وهو يقول : إنه شخص عنده فكرة . . هذا شيء خطير شخص عنده فكرة ويظل ساكتاً طول هذه المسرحية لا ينطق بكلمة . . ثم يجيء الآن ليقول إن لديه فكرة . . ! إن هذا الموقف الخطير لا يمكن السكوت عليه . . ولذلك باسم المؤلف وباسمكم جميعاً أطالب بإسدال الستار– وينزل الستار– ولكن هذا الموقف يدهشنى بضع لحظات . ولكنه بعد ذلك طبيعى جدًّا فصاحب الفكرة يريد أن يقنع الناس بشيء آخر . . المتفرجين والممثلين وهذا فى حاجة إلى مسرحية أخرى . . او إلى أن ينتقل الناس من المسرح إلى مكان آخر . . وإذا دخلنا دماغ الكاتب او الفنان او السياسى او الفيلسوف او المصلح الدينى فإننا أمام طراز واحد من الناس عندهم أمل واحد : هو أن ينقلوا الجبال من مكانها إلى مكان آخر . . وفن التفكير والإقناع بالفكرة هو فن تحريك الجبال . والعبارة الشهيرة تقول : إذا لم يأت الجبل إلى محمد ذهب محمد إلى الجبل . . وما من صاحب فكرة إلا يريد أن ينتقل إليه الجبل . . ولكن الجبل فى حاجة إلى قوة لتهده وتجعله وادياً ثم يتحرك هذا الوادى ليقف على (حيله) جبلاً من جديد . .

إن أصحاب الرسالات الكبرى حاولوا أن تنتقل إليهم الجبال؟ ولكن الجبال لم تتحرك فتحركوا هم

وانتقلوا من مكان إلى مكان وهاجروا. موسى هاجر إلى سيناء وعيسى هاجر إلى مصر ومحمد هاجر إلى المدينة.. وبعد ذلك سارت وراءهم الجبال! وليست الفكرة هى التى تنقل جبلاً ولكن صاحب الفكرة وطريقة عرض الفكرة واقتناع الناس بها والصمود معها ولها وحولها وانتقال عدواها إلى الملايين عاما بعد عام.. إلا إذا كان الإنسان إلهاً إغريقيًّا فهو قادر على أن يحول الجبال إلى نهر. والنهر إلى جبل.. والوديان إلى جبل.. والوديان إلى مزارع، والمزارع إلى حيوانات.. فقط هذا الطراز من الكائنات ليس عنده مشاكل.. بل ليس عنده أفكار.. فالمسافة بين الفكرة والعمل أو بين الرغبة وتحقيق الرغبة لا وجود لها. فالذى تريده يكون. ولكن الإنسان يقطع هذه المسافة الطويلة بين الذى يريده وبين الذى يستطيعه. او بين الذى يدور فى رأسه وبين الذى يدير رؤوس الآخرين فى سنوات عديدة، ويقول الكاتب الأمريكى فانس باكار: إنها ليست السلعة فقط هى التى تروق المشترى، ولكن.. طريقة لفها فى الورق، وهذا الفن تقدم فيه اليابانيون على كل الناس! وما يقال عن السلعة يقال عن الفكرة أيضاً.. وليست أفكار الإنسان شيئاً صعباً وإنما الإنسان هو أصعب وأعقد من كل الأفكار والمذاهب والأديان التى تدعو لها. ولذا كانت الأفكار الواضحة، ولكن عرض الأفكار ونقلها والإقناع بها– عبر الناس او عبر حقول الألغام العقلية– هى أصعب ما يواجه المفكر والفنان والسياسى ورجل الدين.. ولذلك ضاق أكثر الأنبياء بشعوبهم.. فنوح قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فهو يطلب من الله أن يحرق الأرض ومن عليها.. وجاء البحر يحمل سفينة نوح بركابها القليلين جدًّا!

وأكثر الأفكار وضوحاً ليست واضحة عند كل الناس. لذلك لا يمكن أن يكون هناك اتفاق على معنى واحد، او فهم واحد، او أسلوب واحد.. ولذلك فالتفاهم صعب. والاتفاق أصعب! مثلاً منذ سنوات ذهب مئات الألوف من الناس إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك لمشاهدة لوحة للفنان الهولندى رمبرانت اسمها (الفيلسوف أرسطو يتأمل الشاعر هوميروس). هذه اللوحة اشتراها المتحف بمليونى دولار وجاء الناس بالطائرات والسيارات والسفن لمشاهدة هذا العمل الفنى العظيم.. وجاء عشرات الألوف من طلبة المدارس والجمعيات الخيرية. كلهم جاءوا ليروا هذه اللوحة.. وليتساءلوا: ولكن لماذا ينظر الفيلسوف إلى الشاعر؟ ولماذا اختار الفنان للفيلسوف ملابس رجل هولندى غنى؟ وما هو المعنى؟ وما هو الهدف وما هى الفائدة، وهل تساوى هذا المبلغ؟ وهذه اللوحة التى هزت الحياة التجارية فى أمريكا قد استقرت الآن فى الدور الثانى بين عشرات اللوحات لنفس الفنان ولم يعد أحد يلتفت لها بهذا الجنون. ولكن الناس ذهبوا ليروا. وليتحدثوا بعد ذلك وليقضوا على

الملل والقرف والضيق اليومى فى حياتهم . . ولكن هذه اللوحة ليست إلا فكرة فنان عاش ومات منذ ثلاثة قرون يروى فيها كيف أن فيلسوفاً عاش ومات من ثلاثة وعشرين قرناً يتأمل شاعراً عظيماً مات قبله بخمسة قرون . . إنها فكرة رجل عن رجلين ورآها مئات الألوف وكل واحد خرج بالمعنى الذى يريده أو يريحه . . وأهم من ذلك أن رجلاً فى هذا المتحف استطاع أن يثير الناس بفكرة له هو . . هذه الفكرة لا علاقة لها بالفن او الشعر او الفلسفة . . إنها فكرة تجارية سياحية من الدرجة الأولى .

وليس ببعيد معرض توت عنخ آمون فى لندن . . فهذا الملك الذى حكم مصر ست سنوات ومات فى الثامنة عشرة من عمره كان حلم الملايين ، كل واحد يريد أن يرى شيئاً . . أو يرى نفس الشيء ليخرج بمعنى آخر . . وتوت عنخ آمون ليس شخصية هامة فى تاريخ مصر فهو ملك لا قيمة له . ولكن قيمته جاءت من أنه صاحب مقبرة سليمة وتابوت لم تمسه أيدى اللصوص . . فهو (عمل فنى) لحانوتى مجهول . . أو هو صورة رائعة لفن النحت والنجارة والتحنيط عند الفراعنة . . وهو فى نفس الوقت يدخل تاريخ الحضارة البريطانية التى تعاونت صحافتها مع علمائها على كشف هذا الأثر التاريخى الرائع . . والناس عندما ذهبوا لرؤية توت عنخ آمون ، لم يذهبوا للفرجة على الشخص ، وإنما على الفكرة الفنية . . على عكس الذين يذهبون للفرجة على جثمان لينين . . فهم ينسبون صناعة التحنيط السوفييتى لرجل مات سنة ١٩٢٤ ولا يذكر الناس إلا الشخص لأنهم يعشقون أفكاره الفلسفية السياسية والاقتصادية . .

وفى أحدث كتاب عن (رمبرانت) للكاتب الفرنسى روبير تاتوبزر جاءت هذه العبارة ، ولما سئل رجل يقف فى نهاية الطابور وقد حمل طعامه وعلبة صفيح بها كوكا باردة : وأنت لماذا جئت فقال : عندى سبع دقائق . . فقد تعطلت سيارتى وسوف تحضر ابنتى لانتشالى . ويقول الكاتب ولم أشأ أن أسأله عن رأيه فى الفيلسوف الفنان رمبرانت أو فى لوحة الفيلسوف أرسطو وهو يتأمل الشاعر الأعمى الخالد هوميروس !

أعود إلى مسرحية (كله فى وقت واحد) ففى الدقيقة الأولى من الفصل الأول يقول أحد الأبطال : (الذى يريح عينى هو الذى يريح عقلى . . الذى أراه بألوانه ومسافاته . . وألمسه بيدى . . او الذى أحاول أن ألمسه بلسانى كالطفل ، هو الشيء الصحيح . . لا أحب أن أسمع أحداً يقاطعنى فيقول إن الفيلسوف الفلانى قال كذا . . والعالم العلانى قال كذا . . مع احترامى للجميع . . هذا رأيهم . . ولكن رأيى هو ما أراه ، فرؤيتى هى رأيى ، والرؤية هى الرأى . . قولوا . . جاهل ، قولوا : ساذج ولكنى هكذا . . وليس من شأنى أن أوجع رأسى فليس عندى سوى رأس واحد . . ولكن هناك أناساً

لديهم هذه القدرة الهائلة على أن يغيروا رؤوسهم بنفس السرعة التى يغيرون بها الباروكة أو الحذاء . . إن المفكرين والفلاسفة والساسة لهم رؤوس الأخطبوط كلما حطمنا واحداً من هذه الرؤوس نبت رأس آخر . . وهكذا . . ولا أحسدهم على ذلك . . فرأس واحد قد أوجع قلبى ويكفينى هذا إلى نهاية الحياة أو نهاية هذه المسرحية . . ولو استعرضنا ما الذى قاله علماء الفلك عن هذه الأرض التى نعيش عليها ، لدارت رؤوسنا كالأرض نفسها . . لقد جعلوها طبقاً يسبح فيها الهواء . . وجعلوها نصف كرة . . وكرة . . وبيضة . . واستقر رأيهم على أنها فى شكل الكمثرى أو الجوافة . . ومهما قال الفلكيون مثل كومرنيوكس البولندى وبوراهه الدنمركى وكبلر الألمانى وجاليليو الإيطالى ونيوتن الإنجليزى فإنه أجمل وألطف وأريح للعين والعقل أن يقال لك : الشمس طلعت . نامت وصحيت . . الشمس طلعت . . ومع الغناء والموسيقى لا تتساءل ولا تفكر إن كانت الشمس تطلع حقيقة ، أو أن الأرض هى التى تدور حول الشمس وأمامها .

عندما سئل العالم اليوغسلافى الأصل بوپين : وأنت كيف فكرت فى تطوير التليفون والراديو؟ روى أنه عاش فى منطقة العرب وأنه كان يرعى الغنم ، وأنه لاحظ أن كل واحد من رعاة الغنم قد تسلح بسكين كبير له يد من خشب . وأن الراعى إذا أراد أن يتحدث إلى راع آخر . فإنه يغمد السكين فى الأرض ويظل يدق بالحجر على المقبض الخشبى . . وفى هذه اللحظة يكون راع آخر ، وعلى مسافة بعيدة فعل نفس الشىء . . ويتلقى هذه الطرقات التى انتقلت من الأرض إلى السكين الآخر . . وهكذا يتخاطب الرعاة فى الجبال . . ويقول بوپين : من هنا عرفت كيف يتصل الصوت . . وكيف أن (الملف الكهربى) من الممكن أن يضخم الصوت . . وفهمت معنى الدائرة الكهربية المغلقة ! ويقول بوپين لقد كان شعارى كواحد من العلماء هو أن أضع أذنى على الأرض وعينى فى السماء . . أسمع وأفكر وأتخيل . أرى وأفكر وأتخيل . . أتذوق وأفكر وأتخيل . . فالذى ليس على الأرض أراه فوق فى السماء ! ويقول : أصعب شىء هو الفكرة الأولى . . الفكرة الأولى الواضحة وبعد ذلك يمكن نقلها عبر الكلمات والرموز والإشارات إلى الآخرين ! ولو لم يسألنى طفل صغير : قل لى يا أونكل ما هى السماء ؟ ما أغرقتنى هذه الحيرة كلها . وما تشككت فى قدرتى على أن أقول شيئاً أو حتى أشير إلى أى شىء آخر ، ولكن هذا الطفل الصغير هو الذى انتشلنى عندما سألنى ورد على السؤال فقال : طيب يا أونكل من هو الله ؟ أنا أقول لك . . إنه هو الذى خلق السماء ! ولو كان يمكن ضغط السماء فى جملة مفيدة أو فى برشامة . أو فى حقنة لسارعت فأعطيتها لهذا الطفل أو لأى إنسان آخر . . ولكن المشكلة قديمة كيف يدخل الجمل فى عين الإبرة ! والجواب يدخل الجمل إذا سخطنا

الجمل فأصبح نملة . . أو إذا فتحنا عين الإبرة لتتسع للجمل وليس هذا ممكناً فى تعريف السماء او الله وخلق الله للسماء فى عقل طفل صغير . . ولا عذر للكاتب او المفكر او الفنان إذا لم يستطع ذلك . أليست هذه صناعة ؟ طبعاً صناعة . ولكن أحداً لا يسأل : ولكن أين حدود قدرته ؟ ولا تزال عبارة الأديب الفرنسى موباسان صادقة – مع الأسف – إنه يقول : إن القارئ يقول للكاتب دائماً أرحنى . . أسعدنى . . هزنى . . أنمنى . . أيقظنى . . اجعلنى أحلم . . أضحكنى . . إبكنى . . جفف دمعى وعرقى . . افعل شيئاً . . إنك تقدر على كل شىء .

ولكن الكاتب والفنان السياسى وصاحب الرسالة الدينية ليس قادراً إلا على أشياء صغيرة . . فهو يبكى وهو يحلم بأن يحرّك الجبال وأن يجعلها كالجمال تدخل فى عين الإبرة ! .

عندما كان دين « العشيقة » هو الذى يهم

فى أمريكا فضيحة وفى بريطانيا فضيحة . وفضيحة أمريكا هى أن حزب نيكسون استخدم الفلوس فى التجسس على الحزب المنافس أثناء المعركة الانتخابية . وفضيحة بريطانيا هى أن عدداً من الوزراء اشترك فى علاقات جنسية فيها خطورة على مركز الحكومة والأسرار التى لدى الوزراء .

والفرق بين المفضوح الأمريكى والمفضوح البريطانى . أن المفضوح البريطانى أنظف وأشرف . . فقد اعترف من أول لحظة أنه غبى . وأنه لا خوف على الأمانة التى تحملها وزيراً وعضواً فى مجلس العموم . فهو صحيح مغفل ، ولكن الجنس لم يجعله يفرط فى أسرار الدولة . وهو معترف بأنه غلط فى حق نفسه وأنه أسف أن يخيب أمل حزب المحافظين ومئات الألوف من الناخبين . . أما المفضوح الأمريكى فهو يحاول بكل الطرق غير الشريفة أن يتستر على هذه الفضيحة وأن يورط فيها غيره من الناس . كما أن الحكومة الأمريكية تحاول أن تهدد كل الذين اشتركوا فى الفضيحة . والمفضوح البريطانى رجل نبيل . . ويعترف بمنتهى الشرف أنه غلطان . وحتى زوجته إذا كانت قد سامحته فى أنه خانها ، فإنه لم يسامح نفسه فى أن يلطخ بالعار مركزه كوزير العموم . ومثل هذه القيم الرفيعة لا تجد لها نظيراً عند المفضوح الأمريكى . .

ومعنى ذلك أن الجنس والعلاقات خارج الحياة الزوجية لا يستنكرها الناس وإنما كل إنسان حر فى أن يحمل أعباء الخيانة وحده . فمن مئات السنين والرجال يخونون زوجاتهم ويتخذون صديقات وعشيقات وزوجات غير شرعيات ومحظيات وغانيات . . وفى التاريخ القديم كانت الزوجات يرين ذلك ممكناً ويسكتن عليه لأن القانون من صنع الرجل . . ولكن كان للمرأة حق واحد هو : ألا تنام هى والعشيقة تحت سقف واحد . فإذا أصر الزوج على السقف الواحد ، كان من حق الزوجة أن

تنفصل عن الزوج بتهمة الإهانة الشديدة لنفسها وجسمها . وحتى الوزير البريطانى لامبتون – الذى نزل عن لقبه من أجل أن يبقى فى مجلس العموم – لم يستنكر أحد أن تكون له صديقة : فتاة التليفون . وهى واحدة ضمن ألوف جلسن أمام التليفون فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا . حتى زوجته رأت فى ذلك غلطة يمكن قبولها مؤقتاً أوكل الوقت . ولكن الذى استنكره الناس أن يتصرف الوزير بعبارة تؤدى إلى فضيحة وزير ورجل سياسى وعضو فى مجلس عن دائرة واحدة لمدة عشرين عاماً . ويستنكر الناس أيضاً أن يكون هذا الرجل العملاق ضعيفاً لدرجة أن فتاة قد استغفلته واستدرجته إلى فراشها ضحية لمجموعة من المرايا بينها عدسة تلتقط له صوراً عارية ! كأن الشعب أراد من الوزير أن يتوارى من رذائله فقط . فلا أحد بلا رذيلة . ولكن إذا انكشفت رذيلته فهى غلطته . ويجب أن يلوم نفسه على ذلك .

مثلا سنة ١٦٧٥ – أى من ثلاثة قرون – وفى مدينة لندن بالذات كان الناس يمشون فى الشوارع فى هدوء عندما مرت بينهم عربة تجرها الخيول . إنهم يعرفون العربة . . إنها إحدى العربات الملكية .

وكان الملك فى ذلك الوقت هو تشارلز الثانى . ولكن الناس لم يعرفوا من الذى فى داخل العربة . فظنوا الراكب إحدى عشيقات الملك . هم يكرهون واحدة من عشيقات الملك اسمها الدوقةلويزكيروال التى أهداها ملك فرنسا لويس الرابع إلى الملك الإنجليزى . . فراح الناس يلعنون العربة وصاحب العربة وراكب العربة . واستخدموا كلمات نابية جدًّا ، حتى ضاقت الراكبة . وكانت هذه الراكبة اسمها نل جوين . ففتحت باب العربة وهى تقول للناس : ليكن عندكم أدب . لتكن عباراتكم مهذبة . فأنا العشيقة البروتستانتية وخجل الناس وسكتوا ، وكان الناس يضيقون بالعشيقة الفرنسية لأنها كاثوليكية ، ولم يضيقوا بالعشيقة الإنجليزية . لأنها مثلهم بروتستانتية ! ولكن أحداً لم يستنكر أن تكون للملك عشيقة . يكفى أنها بروتستانتية ! ولم تستخدم نيل جوين هذه ، كلمة أخرى نابية جدًّا وأعجب الناس بشجاعتها وصراحتها ! .

ويبدو أن تسامح الناس أمام هذه العلاقات غير الشرعية قد تغير . والذى يدرس التاريخ الأوربى يجد أن هناك تغيراً واضحاً فقد عاد الناس إلى التشدد واحتقار هذه العلاقة الشائنة . وعلى سبيل المثال أيضاً ماحدث فى نيويورك بعد ذلك ٢٣١ عاماً – أى فى أبريل سنة ١٩٠٦ .

فعلى رصيف ميناء نيويورك وقف عدد من كبار الأدباء الأمريكان والإنجليز يتقدمهم الأديب مارك توين وأديب بريطانيا هـ . ج . ولز فى انتظار سيدة ذكية مثقفة عبرت البحر ، قادمة من روسيا . ومع هذه السيدة عشيقها العظيم ماكسيم جوركى . هذه السيدة اسمها ماريا أندرييفا . والاهتمام الشديد

سببه أنها عشيقة الكاتب الروسى الكبير الذى جاء إلى أمريكا يجمع التبرعات للحركة الثورية فى روسيا . وقد تحمس الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت وأعلن أنه سوف يستقبله فى البيت الأبيض .

وحاولت السفارة الروسية أن تمنع ماكسيم جوركى من دخول أمريكا فلم تفلح . واهتدت إلى حيلة خبيثة قاتلة . فقد أعلنت أن هذه السيدة ليست زوجة ماكسيم جوركى وإنما هى عشيقته . أما زوجته فهى فى روسيا ، وهو قد انفصل عنها منذ خمس سنوات . . وأكثر من ذلك أنها وزعت على الصحف صورة الزوجة الحقيقية .

وفى سنة ١٦٧٥ صفق الناس عندما أعلنت نل جوين أنها عشيقة الملك . ولكن فى سنة ١٩٠٦ انقلبت الدنيا على رأس ماكسيم جوركى ، فقد أغلق البيت الأبيض فى وجهه ، وطردته الفنادق واحداً بعد واحد ، بل إن أحد الفنادق طرده هو وعشيقته عند منتصف الليل وكذلك المطاعم . . واعتذر عدد كبير من وجهاء المجتمع الأمريكى عن عدم استقبال مثل هذا الرجل «الدب الروسى المنحل الوقح» الذى عبر البحر ليهين ملايين الشرفاء . . وقد كتب ماكسيم جوركى عدداً من القصص فضح فيها أمريكا والأمريكان .

ومعنى ذلك أن القرن السابع عشر كان أكثر تسامحاً مع العشيقة من القرن العشرين ففى القرن العشرين لم يعد الرجل الأوربى أو الأمريكى فى حاجة إلى أن ترافقه العشيقة ولا أن تقيم معه ولا أن تكون له وحده ففى استطاعته كما فعل وزراء بريطانيا أن يستدعيها أو تستدعيه .

ولكن الجنس استخدم وسيلة للحصول على أسرار الدولة وأسرار الشركات والأحزاب ، ففى لحظات السرور أو الضعف عند الرجل تنفتح جيوبه وشفتاه المطبقتان على أسرار سياسية أو عسكرية . .

وبذلك تلتقى الفلوس والجنس والسلطة فى مكان واحد أو تحت سقف واحد أو أمام مرآة واحدة ، أو فوق فيلم فى داخل كاميرا بين ستائر شقة أنيقة فى أحد الأحياء الفخمة فى لندن أو باريس أو نيويورك أو برلين . وهى تجارة رائجة جدًّا . والمشتغلون بهذا الرقيق الأبيض من التجار ومن أجهزة المخابرات العالمية . .

وتاريخ استخدام الجنس فى الحصول على المال أو على الأسرار قديم جدًّا . إننا نجد فى التوراة حوادث كثيرة وروايات غريبة على استخدام النساء فى الحصول على أشياء كثيرة صعبة أو مستحيلة . .

وربما كان أول رجل استخدم المرأة بصورة منتظمة هو المستشار النمساوى كلمنس فون مترنيخ وذلك فى منتصف القرن التاسع عشر . وكان هذا الرجل سياسيا ذكيا ورجلاً سافلاً أنيقاً . وكان خائناً

بطبعه. وهو نفسه الذى قال : لا أذكر أننى أخلصت لواحدة فى حياتى ، ولا أرى لذلك ضرورة. ولكن كل امرأة عرفتها قد جعلتها تؤمن بأننى رجلها الأوحد وأنها امرأتى الوحيدة التى اخترتها على عرش قلبى. ولم تلاحظ امرأة واحدة أن قلبى تتزلق عليه النساء وأن واحدة منهن لم تدخله. وإذا دخلته من ناحية فلكى تخرج من الناحية الأخرى وتجربتى مع أى امرأة علمتنى أنها تفضل العلاقة الخطرة على العلاقة المضمونة ، فالرجل الذى تضمنه يسقط من عينيها والرجل الذى يخيفها لا تغمض عنه وأنا قد أصبت بالأرق. كل نساء فيينا وباريس.

وهو لم يبالغ فى سفالته.. ولكنه كان فى غاية اللباقة والأناقة معاً فهو قد كان عشيقاً لكارولين أخت نابليون وعشيقاً فى نفس الوقت لعدد من الأميرات. وكان من عادته أن يصحو من نومه مبكراً. ولكن لا يذهب إلى عمله إلا فى ساعة متأخرة. فإذا سأله أحد كان يقول : كنت أصلى. ولم يكن كاذباً ، فلديه قدرة فائقة على أن يصلى بين يدى كل معشوقة له. كان هذا هو عمله الوحيد أنه خائن بمنتهى الأمانة وكاذب بمنتهى الصدق. وعندما كان سفيراً للنمسا فى باريس اختار زوجة السفير الروسى عشيقة له. وظلت كذلك عشر سنوات واسمها الأميرة ليفين. والذى يقرأ رسائل هذه الأميرة إليه التى نشرت سنة ١٩٣٤ يجد أنها نقلت إليه كل أخبار البلاد والسلك الدبلوماسى. ولم تترك خبراً واحداً مثيراً لم تبعث به إلى فون مترنيخ الذى كان أول من استخدم بنات الليل ، بنات الهوى ، الغانيات البغايا فى خدمة البوليس.. ثم اختار من بينهن عدداً جميلاً ذكيا فى خدمته هو. وأطلق الفتيات على رجال السلك الدبلوماسى والزعماء وكان يتلقى منهن كل أسرار فيينا وباريس. وكان يدفع لهن أجراً غالياً : الأمن والأمان. فلا خوف عليهن من رجال البوليس.. كان هو الذى يحمى الجميع. يقال إن إحدى الغانيات ذهبت إليه ، وكانت مكلفة بمهمة خاصة ، وسألها : وكيف كان معك. قالت كان كريماً. دفع الكثير– وما هو نصيبى مما دفع – كان مخموراً فأعطانى الكثير من الذهب. ولم يفتح فمه حتى الصباح. ولاحظت أن المستشار قد تضايق منها ، فقد كان يتوقع بعض الأخبار الهامة ، ثم عادت تقول له ، ولكنى أخذت كل ما فى جيبه من أوراق. ثم قدمتها له. فتضايق جدًّا وقال لها : إنه لن يشعر معك بالأمان بعد اليوم كان يجب أن أعرف أنك لا تعرفين القراءة والكتابة.. إنها غلطتى. اخرجى فأنت شريفة ! أى أنها من هذه اللحظة لن تكون فى مأمن من رجال الشرطة. ونصحها بعض رجال الشرطة أن تهرب من فيينا. وهربت إلى باريس !

وإذا كانت العشيقة فى القرن السابع عشر أقوى من عشيقة القرن العشرين ، فسبب ذلك أن القيم الأخلاقية قد قويت. وأن المرأة الزوجة لم تعد (شيئاً محبوساً فى البيت). وإنما هى قادرة أيضاً على أن

يكون لها موقف خاص ، وأن القانون والأخلاق تساندها . ولوعاش وزير الطيران البريطانى لامبتون ووزير الدفاع الأسبق بروفيمو فى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ما استطاع أحد أن يرفع أصبعاً فى وجه أى منهما . ولكنه القرن العشرون . . فلا أحد ينسى تاريخ الدوقةمرجريت دبومنان التى كانت زوجة أحد كبار الضباط الفرنسيين . عرفت وزير الدفاع الجنرال بولانجيه وأحبته . . وظلت مرافقة له . فنى كل مرة يهرب من فرنسا إلى بلجيكا كانت هى إلى جواره . وفى سنة ١٨٨٧ أدى هذا الرجل إلى تمزق الشعب الفرنسى بينه وبين الأحزاب الأخرى . ثم ضيقوا عليه فهرب ومعه عشيقته أيضاً . . وفى آخر مرة هرب إلى بلجيكا ومعه خدمه العشرون وهربت معها فساتينها الستون . وعندما توفيت هذه العشيقة نقشت على قبرها هذه العبارة : مرجريت ، سألقاك قريباً : وبعدها بشهرين توفى هو . ونقشوا على قبره العبارة التى أوصى بها قبل وفاته بساعات : أنا جورج . . وهل حقاً أستطيع أن أعيش بعيداً عنك ! وحتى لو فكر أحد فى الزواج العرفى فإن المجتمع الحديث لا يقبله . فزواج شرعى ، أولا زواج ، ولا يزال القانون يحرم الزوجة (العرفية) وأولادها من الميراث . . وإن كانت بعض الدول الأوربية قد أعطت للابن الذى هو من زواج شرعى ، نفس حقوق الابن غير الشرعى أقرب نموذج لذلك جميع أولاد الفنان الكبير بيكاسو. فبيكاسو مات دون أن يعرف أن القانون الفرنسى قد تغير. وأن القانون أعطى للابن غير الشرعى كل الحق . لأنه فى جميع الأحوال ابن لبيكاسو ، سواء رضى الأب عن الزوجة أو لم يرض ! وفى سنة ١٨٦٩ عندما وقف الرئيس الفرنسى جاميتا يعلن سقوط نابليون الثالث وقيام نظام جمهورى جديد كانت هناك فتاة ترمق وجهه وعينه الواحدة واستطاع هو أن يراها بوضوح . وتلعثم فى كلمته فنظر الناس إلى الناحية الأخرى ، فوجدوا الفتاة الجميلة ، ورأوا جاميتا وهو يكتب لها ورق يطلب لقاءها فوراً . ورأوا الفتاة وهى تعتذر. . ولم تره بعد ذلك إلا بسنتين . وأحبها وأحبته ولكن الفتاة كانت تريد أن تكون زوجة وكان جاميتا يقود الحملة على الكنيسة فى ذلك الوقت . ولم يشأ أن يلجأ إلى الكنيسة لعقد زواجها . ولكن الفتاة واسمها ليونى ليون اكتفت بتبادل الخواتم دليلاً على الخطبة . واكتفت بأنه وعدها بالزواج عرفياً . وفى أحد الأيام كان ينظف بندقيته فانطلق فيه الرصاص خطأ فمات . وعاشت ليونى ليون فى أحد الأديرة . ثم خرجت من الدير ليعولها أصدقاء عشيقها أوزوجها العرفى . . حتى توفيت سنة ١٩٠٦ وهى تندم على أن عشيقها لم يشأ أن يحنى رأسه ولو مرة واحدة لرجال الكنيسة . ليكون زواجها شرعياً !

ومنذ أكثر من عشر سنوات عندما اهتزت بريطانيا بسبب الفضيحة الجنسية لوزير الدفاع بروفيمو قيل فى ذلك الوقت : إن أزمة السويس أدت إلى أن يذهب رئيس الوزراء إيدن ويأتى ماكميلان . .

ولكن فضيحة بروفيمو سوف تؤدى إلى زعزعة حزب المحافظين وحكومة المحافظين التى حكمت بريطانيا ١٣ عاماً ، وتجىء من بعدها حكومة العمال . . وليس سبب ذلك الجنس أو الفضيحة الجنسية ، فالمجتمع البريطانى مجتمع متسامح فى الجنس وفى الشذوذ الجنسى أيضاً ولكن بسبب الأسرار التى يكون الوزير قد أفشاها فى ساعات ضعفه. وإذا كانت هذه الحوادث قد فضحت بعض الوزراء ، فإن القانون قد ظهر أقوى من كل الناس. ولوضعف القانون ، لكانت هذه هى الفضيحة أو المرض الذى لا علاج له . فالأفراد يروحون ويجيئون ولا يهم من يروح ومن لا يروح . . ولكن يبقى القانون والدستور أعلى من الجميع . . ولذلك كانت فضيحة بريطانيا هى فضيحة شخص وفضيحة أمريكى ، فضيحة حكومة . . !

عصر الصوامع والقواقع واليتامى والفقراء

ليس فى الدنيا أتعس من أغنى رجل فى العالم – قالها أغنى أغنياء العالم : هيواردهيوز. وهو لا يريد أن يثير شفقة أحد عليه. فليس هذا ممكناً . فالقلوب التى اهتزت بالحقد عليه لن تلين بالعطف عليه . ولكنه يريد أن يجعل العالم كله شاهداً على عجزه عن إنقاذه من مرض خطير اسمه الثراء الفاحش . .

فهذا الرجل لا يجد شيئاً . . لأن كل شيء موجود فالذى يجد هو الذى يبحث ، هو الذى يطلب ، هو الذى يتأمل ويشتاق ويحن. وكل هذه الكلمات لا معنى لها. لأنه يملك كل ما يريد. ولأنه ليس فى حاجة إلى أن يقول أو يشير. فرغباته معطلة وأطرافه مقطوعة ، أوكأنها مقطوعة لأنها بلا ضرورة. وهو لا يجد الصدق ولا يجد الكذب ولا يجد الحب ولا يجد الكراهية. فكل شيء رهن إشارته . . أو أنه ليس فى حاجة إلى إشارة . . ولم يكن كاذباً هواردهيوز عندما قال فى إحدى المرات : إن كلماتى التى لها معنى هى التى أوجهها لكلبى فى الصباح . . إنه فى بعض الأحيان يحتاج إلى أن أشرح له !

وكما فى الدنيا درجات من الثراء والفقر ، فهناك درجات من هذا الشعور بالوحدة أو الوحشة ، أوالعزلة أو الانقطاع عن العالم حولنا . . وقد أطلقنا على عصرنا هذا عشرات الأسماء. ولكن من بين أصدق هذه الأسماء نقول : إنه عصر الإنسان الوحيد. أى الإنسان الذى يجد نفسه وحيداً بعيداً عن كل أحد . . أوأنه مع الناس ، ولكن الناس فى ناحية وهو فى الناحية الأخرى. ولكن لماذا ؟ لأن الناس كثيرون. ولأن هموم الناس كثيرة . . ولأن كل واحد يستطيع أن يحمل إناءه على رأسه وأن ينشغل بمتى ينكسر الإناء أو يطير من فوق رأسه . . أو يطير رأسه أيضاً . . انظر إلى الناس عند محطة الأتوبيس . . كثيرون . . وهدفهم واضح . ولكن وضوح الهدف . لم يعطهم شيئاً من الارتياح ورغبتهم الموحدة لم تجعل ملامحهم واحدة. ولا التعبير عنها واحداً . . انظر إلى هذه التعاسة على وجوه الناس الواقفين معاً . الجالسين معاً . المنتظرين معاً . كأنهم عندما يصعدون الأتوبيس ينتقلون من رصيف منخفض إلى رصيف مرتفع. وكأنهم عندما حققوا رغبة الركوب ، لم يصدقوا ما حدث .

فلا شيء من الارتياح على وجه واحد . وكأنهم وهم فى داخل الأتوبيس ينتظرون أوتوبيساً آخر ، كأن كل واحد يشعر بالوحدة ويريد أن يكون مع أحد من الناس . ولا يدرى أن هذا (الوجود مع) الغير لم يسحب منه شيئاً من القلق . . انظر إلى الناس وقد جلسوا أمام التليفزيون . . إلى الأسرة الواحدة– لا كلام. لا علاقة. كأنهم يجلسون متجاورين وبينهم جدران من الزجاج تفصل إحساسهم ومشاعرهم . . ولذلك لا يسمع أحدهم الآخر. أو لا يريد ولا يشعر به. أو يزهد فى ذلك . .

وعندما كتب أديب فرنسا يونسكو يقول : إن الناس يفضلون أن يظهروا على المسرح حيث الناس كثيرون ، ويرفضون الجلوس فى الصالة حيث لا أحد– هذه العبارة كان يعنى بها أن الناس على المسرح معاً ، لأنهم فى حوار مترابط ويشعر بعضهم ببعض . . أما المتفرجون وهم كثيرون فلا يشعر أحدهم بالآخر ، إنهم معاً فى المكان . . ولكن كل واحد فى حاله . . كل واحد مثل (بيضة امتلأت واكتفت بذاتها) .

وعندما يبلغ الإنسان أقصى درجات العلم الحديث ، ما الذى فعله؟ إنه أطلق الصواريخ والسفن إلى الفضاء . ولكن من الذين أطلقهم ؟ إنه أطلق عدداً من الرجال . . هؤلاء الرجال ينطلقون وحدهم . . ويندفعون بسرعة هائلة نحو الظلام والصمت والموت . . إنها أقسى أنواع الوحدة والوحشة التى عرفها الإنسان . . ويكفى أن تتصور أن رائد الفضاء هذا ليس إلا جنيناً وضعوه فى بطن أم من المعادن . . هذا الجنين لا حول له ولا قوة . . وإنما هو يستمد طعامه وشرابه وسمعه وبصره من الأرض . إن سفينة الفضاء هى هذا السجن الأنيق . . هى هذا (الرحم الإليكترونى) . . وعلى رائد الفضاء أن يقطع الليل والنهار وحدة تماماً . . وحده يطلع ووحده يهبط إلى المحيط . . ووحده يهبط على القمر . . إن على الأرض مائة ألف من العلماء يعملون من أجل أن يكون الإنسان واحداً وحيداً وحدة مطلقة . . إنهم يعملون من أجل تجريده من الإنسانية والحياة الاجتماعية . . فهم يضعونه فى الماء البارد والساخن والضغوط العالية والمنخفضة . . وفى مجالات جاذبية بلا جاذبية . . ويسلطون على عقله وقلبه ومعدته وأحشائه آلاف العيون . . فإذا أصبح حيواناً آليًّا تماماً ، أطلقوه لخدمة الإنسان ، ككل حيوانات المعامل مثل الكلاب والقطط والفئران . . وأكثر رواد الفضاء مات قتيلاً . . أو انسحب أو أصيب بالجنون . لأن هناك درجات لاحتمال الوحدة الموحشة . ولكن رواد الفضاء تجاوزوا قدرات الإنسان ، الذى هو (حيوان اجتماعى بطبعه) – كما قال الفيلسوف من ألوف السنين ! ويوصف هذا العصر الذى نعيش فيه بأنه عصر الطفل اليتيم أو الابن اللقيط . أى الذى لا يجد والديه عندما يحتاج إليهما . أو إذا وجدهما فإنهما مشغولان عنه . فليس اليتيم هو الذى مات أبوه ، ولا اللقيط هو الذى عرف أمه ولم

يعرف أباه أو الذى احتضنته الملاجئ . . فقامت المدرسات والمدرسون بدور الأب ، وأعطوه اسماً طبيعياً. وحذفوا من شهادة ميلاده أنه بلا أب ولا أم . . وإنما اللقيط هو الذى يشعر أنه غريب فى بيته . وأنه غريب بين إخوته . وأنه غريب بين غرباء . .

فنى العصر الذى يعمل فيه الرجل والمرأة ، وفى لحظات الحظ يولد الأطفال ، ليس هناك وقت كثير لتربية الأطفال . وقد يظهر فى البيت أكثر من خادم وخادمة ، ولكن الأب ليس هناك ، والأم مشغولة بالبحث عن الأب أو عن بديل عن الأب . . أوشعور بالقرب من كل شيء اشتركت فى إنتاجه مع الأب . والمجتمع الأمريكى أحسن نموذج لذلك ، فالأطفال يفتقدون الأبوة والأمومة . ولذلك يهربون من البيت . وينشغلون مع الأولاد والبنات من سن واحدة لتكوين أسر جديدة . يقوم فيها الابن بدور الأب ، فيعطى لابنه الصغير ما افتقده أو يقوم فيها الزوج الشاب بدور لزوجته الشابة ، وتقوم هى بدور الأم له . . إنهم يحاولون أن يعوضوا هذا النقص الهائل فى الموارد الطبيعية لقلبى الأب والأم معاً . .

وليست أساليب الهروب المختلفة فى أوربا إلا محاولة للعثور على الحنان خارج البيت . . وليست هذه المخدرات إلا وسائل كيميائية لابتكار جنات مزيفة . فالولد الذى لم يجد الجنة فى بيته . فإنه يبحث عنها خارج البيت . وإذا لم يجدها فى زوجته . فإنه لا يكف بحثاً عنها . . حتى يجدها أو يموت وهو يحلم بها . . والذى يقرأ شعراء شباب الهيبيز أو الأدباء الصاخبين فى أمريكا ، والأدباء الساخطين فى أوربا فإنه يجد طريقاً واحداً وهدفاً واحداً : أين الجنة وأين بابها؟ ولن تعود المرأة إلى البيت . ولذلك سوف تحاول أن تكون أماً . وفى نفس الوقت سوف تعجز عن القيام بدور الحضانة أو بدور الحنان– والحنان هو الحرارة الطبيعية التى ينضج فيها الطفل . ولا يغنى الطفل عن أمه ألف مربية وألف زجاجة لبن وألف لعبة ومليون قبلة من مئات الشفاه . . ولذلك سوف تكون هناك أمهات دائماً ، وسوف تكون الأمهات محرومات من الطفل . . فنحن فى عصر الذى يولد من أبوين لا يجدهما . وإذا وجدهما فليس عندهما وقت كثير له . . وعلى الطفل أن يقفز من الطفولة إلى الرجولة بسرعة . أى يجب أن ينمو ، ويظل طفلاً فى أعماق أعماقه .

إن أحد علماء النفس عندما درس تاريخ هتلر– وهو ابن غير شرعى– قال إنه لو عرف اللعب وهو صغير، ماكانت لعبته ملايين الأجساد البشرية ، إن عدداً كبيراً من المجرمين العاديين قد حرموا من الأب والأم ، ولذلك كان عدوانهم على كل أب وكل أم ، أو كل طفل له أب وأم . صحيح أن عدداً من اليتامى واللقطاء والأبناء غير الشرعيين قد تفوقوا على غيرهم من الملايين ، ولكن الشعور الطبيعى عند الطفل المحروم أن يخطف ما فى يد الآخرين . إلا إذا أدركته المبادئ الأخلاقية والدينية فمنعته من أن

يكون مجرماً . . وعدد قليل من الممتازين أحسوا بهذا الحرمان فارتفعوا فوقه . وكأنهم أرادوا أن يكون ملايين المعجبين بهم ، هم ملايين الآباء والأمهات والإخوة ، ولا يمكن حصر اللقطاء والأبناء غير الشرعيين الذين لمعوا فى تاريخ الإنسانية ، ففى عالم الأدب والفن ألكسندر ديماس الصغير وبوكاتشيو وأبو لونير ولوى اراجون وجان جينيه والموسيقار فاجنروزوجته ابنة الموسيقار ليست ودافنشى وسارة برنار وصوفيا لورين وفرانسواز هاردى وفى السياسة : هتلر وفيلى برانت وإرنست بيفن وإيفا براون . . وكثيرون غيرهم فى الطب والفلك والهندسة ، إنهم جميعاً أحسوا بهذا الشىء الأليم : إنه لا أحد إلى جوارهم . ولا حق لهم فى أب أو أم ، وأنهم « دون » الناس جميعاً . فليست لهم بيوت وحرمات . وأبواب ونوافذ . ولا يستطيع الواحد منهم أن يقول : عمى وخالى وخالتى . ولكنهم بعيدون عن الناس وحرموا من أن تكون لهم قرابة أو شجرة إنسان . . أو بيت العائلة . . ولكن غريزة حب البقاء إلى ينبوع عبقرى ارتفع بهم من مجرد البقاء إلى التفوق على الآخرين . . أى إلى البقاء أطول وأعرض وأعلى من الآخرين . . وفى العصر الحديث لم يعد المجتمع الأوربى يستنكر الابن الذى جاء من غير زواج . . فلا يفرق بين ابن الحلال وابن الحرام فكلاهما ابن . . ولذلك فله نفس الحقوق ، ثم الذى له أم وليس يعرف أباه . . فنحن جميعاً نعيش فى عصر لا يجد فيه أحد أباً أو أماً . . أو أحدهما فهما غائبان بالروح حاضران بالجسد . . فكل الناس سواء : يتامى أو لقطاء وهذه هى الحياة الحديثة ، ولا رجوع عنها !

وفى هذا العصر الذى تقدم فيه العلم النظرى والتطبيقى انتشرت على أطراف الصحارى الرملية فى أمريكا والجليدية فى روسيا وعلى قمم الجبال الأوربية وفى كهوفها ، تلك الصوامع البيضاء المكيفة الهواء– تلك المعامل التى يعيش فيها العلماء يبحثون . إن هذه المعامل أشبه بصوامع وأديرة الرهبان والمتصوفين . إن هؤلاء الممتازين من أبناء العصر الحديث يعيشون فى رهبانية عملية . . أو يعيشون فى هذه السجون المكيفة الهواء والضوء والضغط . وتحرسهم الدول كأشد الناس شراسة فى الإجرام . . أو كأنهم أعداء الدولة ! .

فنحن فى عصر الصوامع الإلكترونية . . وفى العالم مئات الألوف . . بل ملايين الممتازين يعيشون فى هذه السجون الانفرادية من أجل البحث عن الحقيقة . . إنهم يعيشون فى أقفاص من حديد تشبه أقفاص الأسود والنمور فى حديقة الحيوان . . ولهم أرقام ولهم علامات مميزة . وممنوع الاقتراب منهم والذى يقترب منهم تراقبه الدولة . وتجسس حركاته . .

ولكن هذه العزلة إرادية . . أى أن الإنسان أرادها لكى يصبح قادراً على العمل أفضل . ولن يتمكن من ذلك إلا إذا انعزل عن الناس . . وهو أشد ما يكون شوقاً إليهم . ولكن المعادلة صعبة :

الكثير من الناس يساوى القليل من العلم ، والقليل من الناس يساوى الكثير من العلم . وقد اختار هؤلاء السجناء (الممتازون) العلم . ولذلك عاشوا بعيداً عن متناول الناس . . ليس الواحد منهم مطروداً ، ولكنه كالمطرود ، ليس منفياً ولكنه كالمنفى . ثم إن هذه العزلة هى الشرط الوحيد لضمان استمرار البحث واستمرار الحياة . . ففى عالم الحيوان تجد الأنثى تنعزل عن بقية القطيع لكى تلد . . فإذا ولدت ظلت إلى جوار وليدها حتى يكبر . . ثم عاودت حياة القطيع . . فالعزلة مقدمة الولادة وشرط لبقاء المولود .

والذى يفعله العلماء ، يفعله الفنانون أيضاً . إنهم ينزلون إلى بحر الحياة الصاخب يغتسلون وتمتلئ عقولهم وقلوبهم . . فإذا جاءت لحظات الإبداع انزووا وانعزلوا . . وأقفلوا الأبواب والنوافذ . . وباعدوا بينهم وبين الناس . . إنهم يختارون عذاب الوحدة ، لأنه شرط الولادة . . مع أنهم فى نفس الوقت يحبون الآخرين ويحبون الناس . . فهم اجتماعيون وهم أزواج وآباء وأبناء أسرة واحدة . . ولكن لابد من الصومعة . . لابد من الحياة عند أطراف الصمت وكهوف الهدوء . . إن المثل الأعلى هو حيوان اللؤلؤ . . ذلك الكائن الضعيف جسماً الذى احتمى تحت شفتين من المحار أى من الكالسيوم اللامع . . إن هذا الحيوان عندما يتفتح ليتغذى . . تدخل الأشياء الصغيرة جداً العالقة فى الماء إلى جسمه الناعم الرقيق فى داخل هذه القوقعة . . وهو لا يقوى عليها . . فترتفع درجة حرارته ويمرض . . وينطوى على ألمه . . ويظل يبكى . . فهو يفرز مادة اللؤلؤ البيضاء اللامعة حول هذا الجسم الصغير الغريب الذى دخل إليه من البحر . ثم يبعد عن الشاطئ . . وعن سطح الماء . . ويظل معلقاً كأنه مشنوق . . وتمضى الأيام والشهور والسنوات وهو يفرز ألمه الأبيض الشفاف . . وبعد ذلك تمتد إليه يد إنسان تفتح شفتيه وتستخرج من أحشائه حبة اللؤلؤ . . هذه الحبة الجميلة ، التى قال أجدادنا إنها دموع الملائكة . وتحسده عليها كل حيوانات البحر . .

تحسده على حبة اللؤلؤ وتنسى مرضه ووخدته فى الماء . . وعجزه عن أن يعيش مثل سمكة أو ينطلق مثل حوت . .

وكلنا هذا الحيوان المسكين ، الذى لا ينظر الناس إلا إلى الحبة اللامعة التى تخرج من أحشائه وأحشائنا . . أما كيف تكونت ومن أى شيء تكونت ، وإنها من حيوان أفرزها ليموت بعدها ، فليس هذا مما يشغل الناس ! . . كل هذا العذاب من أجل أن يموت محسوداً من الجميع ، دون شفقة من أحد . ولو خيروه وخيرونى – بين أن أكون مثيراً للشفقة أو مثيراً للحقد ، لمددت يدى وأرجلى أستدفئ على أحقاد الآخرين !

هل هم « عمال تراحيل » من نوع جديد ! ؟

واحد سورى ذهب إلى أستراليا وعلى رأسه شوال به مناديل من الحرير وأخذ يدق الأبواب يبيع مصنوعات دمشقية . . وهو اليوم مليونير ! واحد سورى آخر ذهب إلى الفلبين يبيع الحرير اليابانى والهندى والصينى ويركب زورقا بين ألوف الجزر الصغيرة وتزوج ، وأنجب خمسة من الأولاد . . وكل واحد من أولاده عنده مصنع للزجاج . . وهم جميعا من أصحاب الملايين !

واحد سورى ذهب إلى أمريكا لزيارة بعض أقاربه . وبسرعة اشترى حصانا . . وحصانا ثانيا وثالثا ورابعا وأخذ يتنقل بين المزارع يبيع الصابون والسكر والشاى والسجائر . . وهو الآن يملك مصنعا للصلب ومزرعة طولها وعرضها مائتا ألف فدان ! رجل سورى اخترع نوعاً من المراهم . . ثم قدمه هدية لأحد رجال الدين . وشفى رجل الدين من أوجاعه الجلدية . . ولم يشأ التاجر السورى أن يتقاضى أجراً . . وإنما طلب من رجل الدين أن يتحدث عنه أمام الناس فى المعبد . . وبعد أن استمع التاجر السورى للدعاية التى قام بها رجل الدين اختفى . وراح الناس يسألون عنه . . وبعد فترة عاد ومعه كميات كبيرة من المراهم . وأصبح الرجل يملك مئات الملايين من الجنيهات ! طالب لبنانى ذهب إلى أمريكا . وفى رأسه فكرة لا يعرف كيف يعالجها أو يطبقها . ذهب إلى الجامعة وتعلم أكثر . ونجح فى تعديل فكرته . وهو الآن يملك أكبر مصنع لصناعة سدادات الزجاجات الرخيصة المحكمة . ويملك عشرات الملايين من الدولارات ! رجل لبنانى فى أستراليا من عائلة معروفة اسمها عائلة اسكيف . . ومن قرية صغيرة جدا فى لبنان استطاع فى مدى ثلاثين عاما أن يشجع على الهجرة إلى أستراليا أكثر من ألف شخص . وهؤلاء (الأستراليون) الجدد كما يسمونهم الآن من أشهر التجار وأنجحهم . أما أسرة اسكيف فمن أغنى العائلات فى أستراليا وقابلت عددا منهم فى سيدنى وملبورن !

وقصص أخرى كثيرة جدا عن النجاح فى التجارة . . أو عن المغامرات الصابرة التى أدت بكثير من العرب والهنود والصينيين إلى أن يكونوا أغنى الناس وأنجحهم . . وأهم ما فى هذه القصص أنها نماذج رفيقة من الصبر والاستمرار والإيمان بالنجاح ، وقد استمعت إلى مئات من القصص أتمنى أن أنشرها ولكن أهم ما فى هذه القصص أن النجاح ممكن . أو أصبح ممكنا بعد أن أفلح كثيرون . لم يكونوا شيئا فى بلادهم ، فأصبحوا من أهم الناس فى البلاد الأخرى . . أو فى الدنيا الجديدة التى اختاروها لأنفسهم ، ولذلك فنجاحهم يعتبر دعوة مفتوحة لكل الشباب أن يحاولوا . ولا خوف من الصعوبات . إنها شرط النجاح . . وكان رأسى يدور وأنا أستمع إلى هذه القصص . . وكنت أتمنى أن أجد قصة واحدة عن مصرى ذهب وبقى هناك . . ثم مد يده عبر البحار والمحيطات يدعو آخرين إلى الذهاب والبقاء حتى القمة ! ولكننا فى أولى مراحل الحياة فى الخارج . والمصريون الذين يعملون بعيدا عن بلادهم بضعة آلاف . والذين قرروا الهجرة قليلون . والذين حصلوا على جنسيات أخرى – مع احتفاظهم بجنسيتهم المصرية – ليسوا كثيرين . ولكن سوف يتضاعف المصريون فى الخارج . وهذه ضرورة . وسوف تكون لهم حياة مستقرة . وسوف تكون لهم زوجات أجنبيات وسوف ينسى أحفادهم اللغة العربية ثم يتعلمونها . . وسوف تتضاعف ملايينهم فى مصر . أو سوف يساندونها كما فعل السوريون واللبنانيون . . أو كما فعل يهود العالم ليهود إسرائيل . . كل ذلك سوف يحدث . ويسعدنا أن يتحقق كله يوما ما . . ولكن الموقف عندنا ليس واضحا . أى أن موقف الدولة ليس مشجعا تماما . ويجب ألا نكون متفرجين على كل ما يحدث . فلا يمضى يوم دون أن نجد مصريا قد قرر العودة واستئناف الحياة فى مصر . ومعنى ذلك أنه ذهب وحاول وفشل . فإذا عاد إلى مصر فإنه سوف يبدأ من جديد . بديهى ألا يجد المقعد الذى كان يجلس عليه خاليا أو فى انتظاره . فمصر بها مئات الألوف مثله يريدون أن يعملوا ومن الواجب أن يفعلوا ذلك ، فكأن ذهابه بعيدا عن مصر ، عقوبة له أنه قرر ذلك . . ولابد أن نهتم بهؤلاء الذين خرجوا أو عادوا . وإن كان الأفضل أن نهتم بهم قبل أن يخرجوا ، وحتى لا يعدوا فاشلين . يجب أن نعرف لماذا خرج ! ولماذا فشل ! وكيف ينجح أى مواطن آخر فى حياته الجديدة فى البلاد الغربية . . وقد جاءنى مواطن مصرى قرر أن يهاجر إلى أستراليا . وكنت قد ساعدته كما ساعدت المئات على الهجرة . واعترف لى بأنه لا يعرف اللغة الإنجليزية . ثم إن دراسته أدبية . أى أنه مرتبط باللغة العربية . . وحاول أن يقوم بأعمال يدوية وإدارية . ولكنه وجد صعوبة هائلة هذه الصعوبة كان من الممكن أن تواجهه لو قرر الحياة فى مصر حاول وفشل . ونصحوه بأن يعود ويتعلم الإنجليزية وأى عمل فنى يساعده على الحياة فى مجتمع صناعى متطور جداً ! وجاء إلى مصر ، ولن

يعود ، لأن الفشل قد صدمه فى كبريائه ، وفى موسم الزيارة إلى مصر ، قابلت أبوين فى محنة . وطلباً منى أن أفصل فى قضية هامة : الأب والأم يريدان للابن أن يتزوج فتاة مصرية . . والابن يريد أن يتزوج فتاة كندية ، فما رأيى أنا [صعب أن يكون لى رأى فى هذا الموقف وفى مواجهة الأبوين والابن .

فالأبوان يحتكمان إلى القلب ، والابن يدبر أمره بالعقل ما دام قد قرر أن يعيش فى كندا . الأبوان أعدا للابن فتاة قريبة له ولو عاش فى مصر لتردد فى الزواج منها ، رغم أنها مثقفة وجميلة . والابن يبدو أنه اتفق مع فتاة من كندا تعرف الإنجليزية والفرنسية . وتكون بداية صحيحة لشاب قرر أن يعيش فى كندا . وأن تعاونه مع زوجته فى العمل وفى الحياة . وفى أن يكون له أولاد ليست لهم مشاكل تربوية أو دينية أو عصرية فى هذا الوطن الجديد ! وسوف تكون مشاكل أخرى كثيرة ومعقدة . ودموع للأبوين عند كل لحظة يقرر فيها الأبناء أن يسافروا بلا عودة . ولكن سيذهب الأبناء ولن يعودوا ونحن نتمنى ذلك وحتى إذا لم نتمن لهم الحياة والعمل بعيداً فهذا ما سوف يحدث . ولابد أن يكون !

وسمعت عن قصة خلاف بين زوجين فى أستراليا . وطلاق . وقضايا عن تنازع على الأولاد بينهما . وعاد الاثنان الى مصر . وهذا طبيعى . ولكن الغريب أن هذه الأسرة الصغيرة لم تدرك أن المسافة كبيرة بين مصر وأستراليا . فكأنهما نسيا أنهما قررا الحياة . وأنهما ليسا فى رحلة سياحية . وكان من الضرورى أن يتولى الإثنان حل مشاكلها بعيداً عن مصر . . ولكنهما لم يتعودا الحياة بعيداً . ولم يألفا الهجرة . وأنهما شجرتان زرعتا فى أرض بعيدة . . وأن من الواجب أن يسقيا وأن يتغذيا وأن يزهوا ويثمرا هناك . . والعجيب أيضاً أن بعض أفراد هذه الأسرة فى القاهرة قد بدأ يفكر – جاداً – أن يسافر إلى أستراليا لحل هذه المشكلة العادية . وواضح جداً أننا نتخبط فى حياتنا خارج مصر. وأن هؤلاء المهاجرين أو المستوطنين لا يعرفون الكثير عن الهجرة وعن تاريخ الشعوب العربية الأخرى التى سبقتنا وتقدمت علينا . ولكن هذه خطوات قصيرة متعثرة فى طريق طويل . مضمون النجاح . لاشك فى ذلك ! وأوضح من ذلك أن الدولة ليست واضحة فى موقفها من المصريين الذين يسافرون للعمل فى الخارج ، لبعض الوقت أو كل الوقت . أو الذين قرروا الهجرة والإقامة فى بلاد عربية أو أجنبية . ويكفى أن يقرأ هؤلاء المصريون تصريحاً لأحد المسئولين يقول فيه نشكل لجنة . . أو طلبنا تقريراً عن هذا الموضوع . . أو ليست لدينا إحصائيات محددة . . أو هذه فوضى . . أو يجب إغلاق الأبواب . . أو فتحها بحساب . . أو الباب الذى يجىء منه الريح ، علينا أن نسده لنستريح . . إلخ . . مثل هذا التضارب فى موقف الدولة يؤدى إلى ارتباك المصريين فى الخارج وفى الداخل . لأن مثل هذه الآراء تشبه اللعب فى عرض الملعب . . أى أنها حركة ليس وراءها أى تقدم . . ومعنى ذلك أن الموقف الرسمى يهز أعصاب

المصريين ولا يساعدهم على أى شىء وأهم مايحتاج إليه المصريون . هناك وهنا ، أن الدولة تساندهم وتقف معهم فى محاولاتهم الفردية الصعبة من أجل نجاح جماعى وانتصار قومى ! وعندما نذكر أسماء الناجحين المصريين فى الخارج ، لا نجد عدداً كبيراً من التجار والمدرسين والمهندسين والأطباء . إن عددهم لا يتناسب مع الأعداد الهائلة التى تخرج من المعاهد والجامعات . . ثم إن هؤلاء العاملين فى الخارج شديدو الحساسية لمايحدث لهم . . وهم معذورون . فمصر كلها تمر بمراحل قاسية علينا وعليهم . . ثم إن حركة المصريين فى الخارج لا تمر من مياه هادئة وإنما فى مياه مضطربة قاسية على الجميع . . وقد قيل عن المصريين فى الخارج ، وفى البلاد العربية بصفة خاصة : الأشقاء المصريون . . ثم الخبراء المصريون . . ثم الخبراء الأجانب . وهذا مفهوم ومقبول . . ولكن ليس سبباً وجيهاً لأن يعود المصريون إلى بلادهم . . ولا أن تتخلى مصر عن (تصدير) الخبرات إلى الخارج . . أو (زرعها) فى التربة الغريبة . ولن تتمكن مصر من رعاية رعاياها إلا إذا كانت هناك هيئات كبرى تحميهم إذا خرجوا وإذا عادوا ، وإذا أقاموا وإذا قرروا أن يتكاثروا هناك . . لابد أن تكون هناك (وزارة للهجرة) أو وزارة للمغتربين . . تحل مشاكلهم هنا وهناك . . وتجعل انتقالهم واشتغالهم أمراً سهلاً . . فإن شكل المصريين المسافرين إلى الخارج يشبه (عمال التراحيل) فى الشقاء والعناء والخوف والهوان واليأس .

ولا يمكن أن نتوقع لهم احتراماً من الآخرين إذا لم نبادر باحترامهم . . ولا أن يكونوا ناجحين إذا نظرنا إليهم على أنهم هاربون ، وهم هاربون لأنهم فاشلون أو سيفشلون . . إن أشياء كثيرة يجب أن نغيرها وأن نتغير فى أنفسنا ، ما دمنا قد قررنا أن تتسع حدود مصر وخبرات مصر فتشمل الدنيا كلها .

هذه الطبيعة التى تعالج بالكيمياء

أنت مثقف . . إذن أنت متشائم والجهلة هم المتفائلون لماذا ؟ لأن الذين يعرفون يرون أنه لا أمل فى علاج آلام الإنسانية . فهم يعرفون أنه لا علاج . . ولذلك اسودت الدنيا فى وجوههم . أما الذين لا يعرفون فيرون الدنيا ، ويسمعونها سارحة ، ويلمسونها ناعمة ، وينامون على صدرها حتى الموت وهم سعداء . .

والعلم الحديث يريد أن يجعل الدنيا وردية فى عيون المثقفين ، دون أن يكون لهم دخل أو تدخل فى هذه العملية . أى تحويلهم إلى سعداء واحتفاظهم بالعلم والمعرفة ، كيف ؟ العلاج هو الكيمياء ، فكل شىء فى الدنيا وفى نفسك : كيمياء . تماماً كما تضيف ذرتين من الهيدروجين إلى ذرة واحدة من الأوكسجين فيتكون الماء . . تماماً كما نضع قطعة من السكر فى فنجان البن المر ومع سيجارة بين أصابعك وفى لحظة يخرج الدخان من فمك وأنفك ويتغير لون الدنيا وطعمها ووزنها . وفى هذه اللحظة يمكنك أن تغنى ولن يلومك أحد على ذلك– إنها الكيمياء يا سيدى . . ساحرة العصر الحديث !

وفى إحدى قصص الأديب الإنجليزى أرثر كيسلر التى عنوانها « السبح فى الآلة » يقول : إن هناك صراعاً فى داخل كل واحد منا . بين العقل « القديم » وبين العقل « الجديد » الأول يحرك عواطفك . والثانى ينظم أفكارك . وأنت حائر مسدود مسحوق مطحون بين الاثنين . . أو بعبارة أخرى : فى داخل كل إنسان حيوان أو إنسان . الحيوان هو غرائزك . . والإنسان هو تدبير وتبرير هذه الغرائز وضبطها وإطلاقها وربطها بحساب . . ولكن الكيمياء وجدت لها حلا . . إنها أعطت الإنسان فرامل على عواطفه . . إنها أعطت لانفعالاته الشديدة مصابيح ترى بها طريقاً تمشى فيه ، وعلقت لها غاية نبيلة فى النهاية ، كيف ؟ هذا هو السؤال ، لقد اخترع العلماء أقراصاً وحبوباً . هى التى تقوم بكل العمل بالنيابة عن الإنسان ، إنها تذيبه بعضه فى داخله ، كالسكر فى مرارة البن فى دخان السيجارة ، وبعد ذلك تجىء البهجة النفسية كل صباح . .

انظر إلى مريض حملوه إلى مستشفى الأمراض العقلية . فى حالة هياج عنيف . ثور إسبانى لا ينقصه إلا قرنان لا يكاد يرى الناس حتى يصرخ ويهجم فإذا لم يجد أحداً انقضّ على نفسه ومزّقها : ملابسه وشعره ووجهه !

وبسرعة يتكاثر عليه الممرضون والأطباء ويضعون فى فمه الأقراص والقليل من الماء . . وبعد لحظات تنطفئ النار ويتحول الثور الهائج إلى أرنب . . ويتحول الأرنب إلى فأر فى ركن ويجىء مريض آخر . وألف مريض وتختفى الحبوب وتقوم الكيمياء بتحويل الوحش المجنون إلى كائن حى هادئ .

وكانت مستشفيات الأمراض العقلية طريقاً مفتوحاً على الهاوية أو إلى جهنم يدخله المريض ولا يخرج إلى الأبد . . يدخله ليخرج من هذه الدنيا . وكانت المستشفيات العقلية قريبة النسبة من جهنم التى وصفها الشاعر الإيطالى دانتى . وكتب على بابها يقول : أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة ! وأصبح هناك أمل فى العلاج والشفاء والهناء . والسبب : كيمّياء . ! ولو وقف إنسان عند باب مستشفى الأمراض العقلية ونظر إلى الداخل وإلى الخارج لتحير طويلا ، أين العقلاء وأين المجانين إنهم فى المستشفيات أهدأ . وخارجها أكثر صخبا . إنهم فى المستشفيات يتقاتلون ويقتلون دون وعى . وخارجها يقتلون ويقاتلون بوعى وعلم عظيم !

فى الخمسينات ابتكر العلماء نوعين من العقاقير المسكنة هما : كلورميرمازين وروزرين ودخلت الإنسانية بهما عالماً هادئاً ساكناً هانئاً وقال العلماء والأطباء : نحن على أبواب الجنة ! ولكن الجنة فى هذه الدنيا من أوهامنا الكبرى . نحن نظن النارجنة ونظن الحرب سلاما . . ونتوهم أن أول الطريق هو آخره . . فذهب مفعول هذين العقارين واستعصت المشاكل على العلاج ، واحتاج الإنسان إلى مزيد من علم الكيمياء . . وكان شيخ الجبل الشهير فى التاريخ الإسلامى يأتى برجاله ويطعمهم الحشيش ويعرض عليهم البنات الجميلات وأنهار اللبن وأنهار الخُمر . . ثم يدير رؤوسهم بالدخان الأزرق . وقبل أن يفيقوا يلقى بهم فى العراء . ويعيدهم إليه قائلا : لقد رأيتم الجنة وأنا مستعد أن أجعل الدنيا جنات تجرى من تحتها الأنهار إذا قتلتم فلانا وأحرقتم بستان فلان . . واعتديتم على فلانة !

وكانوا يفعلون . . فالإنسان يريد أن يشترى أوهامه وأن يشترى السعادة بحياته وتطورت أشكال وألوان وأحجام الحشيش وبقية المخدرات . وقام العالم الكبير الدوس هكسلى بتجربته المشهورة عندما تناول عقار المسكالين المستخرج من الصبار . وطلب إلى زوجته أن تراقب حركات وجهه وأمسك هو الميكروفون وراح يسجل ما يشعر به . وفى أحد الأشرطة يقول تحت تأثير عقار المسكالين : نار . . يخرج منها نبات أخضر . ومن هذا النبات تخرج فتيات عاريات لهن صدور من التفاح . . ومن هذه الصدور

تخرج ألسنة النار . . وهذه الألسنة كأنها موجات فى بحر يتقلب . . وهذه الموجات فتيات عاريات يتقلبن فى كأس من الشمبانيا . . الكل يحترق . . وأنا لوح من الثلج التفت من حوله موجات دامية ملتهبة تعتصرنى وتمتصنى وأتلاشى . . إلخ وظهرت عقاقير الهلوسة المشهورة باسم : ل .س.د. واستسلم لها الشباب فى بلاد كثيرة يهربون إليها من متاعب هذه الدنيا . ويدخلون بها إلى جنات وهمية . وهم سعداء بأوهامهم وفى عزلة تامة عن هذا العالم . . وعاش هؤلاء الشبان فى عالمين فى وقت واحد . أحدهما يهدم الآخر ويحطم الشباب فى النهاية . إنها الكيمياء أيضاً . .

وأخيراً اكتشف العلماء أن المصابين بأمراض الانفصام أو الفصام أو ازدواج الشخصية عندهم شىء ما فى بلازما الدم . أى أن المرض يجىء من خلل فى تركيب دمه . فهناك شىء فى بلازما (ألفا) وهذا الشىء موجود بكثرة فى دم مرضى ازدواج الشخصية . وهذا يؤدى إلى نوع من انقطاع التيار أو نوع من (الماس الكهربى) أو (المس الكهربى) إن صح هذا التعبير . ولاحظ العلماء أنه يوجد فى بول هؤلاء المرضى مادة الادرنالين كالذى تفرزه الغدة – فوق – الكلية عند القلق والاضطرابات النفسية العنيفة . وهذه المادة تشبه تمامًا مادة المسكالين الذى كان يتعاطاه الهنود الحمر من نبات ويصابون بأنواع عجيبة من الهلوسة . وأثبت العلماء أن هذا السائل الموجود فى البول هو الذى يؤدى إلى نوع من «السموم العقلية» . . أو إلى هذا الصرع أو «الازدواج النفسى» . وهناك نظرية معروفة للأستاذ باولينج الحائز على جائزة نوبل . هذه النظرية اسمها «عضوية الاضطرابات العقلية» أن هناك علاقة بين نقص فيتامينات ب . ج – وبعض الحوامض ومواد أخرى موجودة فى المخ وبين كل الاضطرابات العقلية عند الإنسان والذى يحصل على هذه المواد ويستهلكها بسرعة يرتبك ويضطرب وكذلك الذى يعجز عن الحصول عليها . والصحة العقلية هى التصحيح المستمر لنقص هذه المواد وتوريدها للمخ بالنسبة المطلوبة ومرض «الصرع» وهو اضطراب فى المخ ، بسبب نشاط زائد، أو انفجار كبير فى المخ – إن صح هذا التعبير – يؤدى إلى استعمال واحتراق وإظلام تام بعد ذلك . وهناك كثيرون فى العالم يصابون بهذا المرض . ويوليوس قيصر نفسه كان مصابًا بالصرع . . ولولا مادة اسمها ديلانتين . لزاد عدد المصابين فى العالم إلى ملايين ولكن تعاطى هذه المادة بانتظام أدى إلى تصحيح التوازن النفسى والعقلى والمادى – أى التوازن الكيميائى فى الجسم كله !

والكيمياء هى التى جعلت الإنسان لا يخاف من أن تؤدى العلاقات الجنسية إلى الحمل والولادة . . فلأول مرة فى تاريخ الإنسان يكون هناك انفصال بين الجنس والحمل . . فالإنسان يستطيع أن يستمتع دون خوف . والسبب هو الحبوب . . حبوب منع الحمل تتعاطاها المرأة واحداً وعشرين يوماً فى كل

شهر وتتوقف ثمانية أيام . . أو تضع حبة تحت جلدها فلا تحمل عشرين عاماً . . وإذا أرادت أن تحمل أخذت حقنة فتعود دورتها الشهرية وإفراز البويضة الناضجة وتحمل . . وكذلك من الممكن أن يتعاطى الرجل بعض الحبوب ، لولا أن حبوب منع الإخصاب عند الرجل تصبح باطلة المفعول إذا شرب الرجل خمراً . . على كل حال إنها الكيمياء !

فإذا أراد الإنسان أن ينام ، فهى الكيمياء تعمل فى داخله . ومن المعروف أن فى داخل المخ مركزين ، إذا أزيل أحدهما نام الإنسان حتى الموت . . وإذا أزيل الآخر صحا الإنسان حتى الموت . . وإذا أزيل الاثنان معاً أغمى عليه حتى النهاية . . وكما أن الإنسان يبتلع أقراصاً لينام ، فإن هناك أقراصاً أخرى من أجل أن يسهر بلا نوم . . فنومه ويقظته فى يديه ، وهو يختار كل يوم ما يعجبه وما يريحه . . ولا شك أن حرص الأطباء فى العالم على أن يكتبوا للمريض الحبوب التى تنيمه والتى توقظه ، سببه أن الناس قد أسرفوا فى تعاطى النوعين . وكان لابد أن يشرف الأطباء على ذلك . . وقد أدمن الناس كل أنواع الحبوب حتى لم يعد لها أثر . . أو حتى احتاج الناس إلى كميات انتحارية لكى تأتى لهم بالنتيجة المطلوبة ، ولو توقفت مصانع الأدوية عن إنتاج هذين النوعين ، لضاع مئات الملايين بالجنون !

وهناك حبوب السعادة ، وحبوب الأحلام الوردية– وكلها أنواع من المواد تدخل الدم وتلعب بالأعصاب وتحول المخ إلى سيرك . . ويستمع الإنسان إلى موسيقى سحرية ترقص لها أحشاؤه وأطرافه ويكون فى دنيا أخرى . . إنها كيمياء . وكان ملوك المغول ينامون ثلاث ساعات فى اليوم الواحد ، ولا أحد يعرف بالضبط هل هى عادة ملكية ؟ . أو أن لديهم عقاقير للسهر . ولكن أحداً منهم لم يكن يشكو من تعب أو مرض ، ولا أحد يعرف بالضبط هل النوم شىء حديث على الإنسان . وهل كان الإنسان القديم ينام كثيراً هكذا ؟

هناك نظرية تقول بأن الإنسان البدائى كان يهيم على وجهه فى الغابات ، وكانت الحياة فى الغابة قاسية ، حتى كان النوم معناه الموت . يكفى أن يغمض الإنسان عينيه ليستقر فى بطن أحد الوحوش ، وكذلك كانت اليقظة حياة وعمراً متجدداً كل يوم . ولابد أن الإنسان قد عرف النوم عندما اكتشف الكهف وتعلم أنه سيد الكهف فى وجه الوحوش . . ولابد أن الإنسان قد تعلم مع النوم الراحة واللعب والمرح . فهو لم يعد يخاف وهو فى الكهف من الوحوش والأفاعى . . ولذلك حرص الإنسان على أن يغمض عينيه ، وأن يقفل الباب . . وكأن الباب جفن كبير يطبقه على نفسه كل ليلة لينام وورثنا النوم عن أجدادنا . .

ولكن الإنسان لابد أن ينام ثلث عمره على الأقل . وفى أثناء النوم يتخلص الجسم من كثير من متاعبه وتوتراته . . وإذا لم يستطع الجسم أن يفعل ذلك وحده . فإننا نساعد الجسم على أن يقوم بهذه المهمة ، كيف ؟ إنها الحبوب . . إنها الكيمياء أيضاً !

ولابد أن تمضى الكيمياء الحديثة فى البحث عن (الينبوع الدائم للشباب) وهذا الينبوع الدائم هو إضافة مادة جديدة إلى الدم . . إلى وظائف المخ . هذه المادة سوف تجدد خلاياه أو توقف شيخوخة الخلايا التى تبدأ تتلاشى بعد السابعة والثلاثين من عمره . . ويؤكد العلماء أنهم على وشك أن يهتدوا إلى «الذى» يطيل عمر الإنسان . . لقد نجحت التجارب التى أطالت عمر الفئران والأرانب بنسبة ٢٠٪ وغداً بنسبة ٥٠٪ أو ١٠٠٪ . . وسوف يقبل الناس على تعاطى هذه الحبوب بجنون ، وسوف يتعاطاها المريض ليحصل على الشفاء ، ويطول عمره ولا يجىء الشفاء وسوف يسرقها المجرمون واللصوص ويعجز عنها الطيبون والعقلاء . . وسوف تتدخل الدول فى توزيع هذه الحبوب . إلى من تعطيها ؟ إلى الأصدقاء والمحاسيب ؟ إنها مشكلة أو سوف تكون مشكلة خلقتها الكيمياء وسوف تجد الكيمياء لها حلا أيضاً .

وأنت وأنا وكل الناس : هدف يومى لغارات جوية مكثفة . وكلها (تغير) الدم و (تحرق) الدم . . وتجعله (يغلى) . . هذه كلمات دقيقة تنطبق على ما يجرى فى داخل أى إنسان . . على التفاعلات الكيماوية فى داخلك . . وليس من الضرورى أن يرغمك أحد أن تبلع حبة أو قرصاً لا تريد . . وإنما «كلمة واحدة . . .» نظرة . . وقفة على سلم الأتوبيس . . كل هذه لها سحر الحبوب الكيماوية التى تقلب كيانك ألف مرة كل يوم . . وعلاجها : شىء تضعه فى الماء أو فى الشاى أو فى البن . . أو فى الدم . وأنت معذور فنحن فى حرب مع الطبيعة الإنسانية ، ونحن نعالج هذه الطبيعة بالكيمياء . فالحياة اليومية أقسى وأصعب من أن يواجهها الإنسان منزوع السلاح وليس عندنا إلا سلاح الكيمياء !

كل حاجة ولا حاجة ، نصيحة

نشرت وصية الكاتب الإنجليزى نوبل كوارد (٧٣ سنة) وقد طلب من أصدقائه أن يكتبوا على قبره هذه العبارة ، عاش ومات . . ولا حاجة ! .

ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى كان يقصده ، هل يريد أن يقول إنه عاش ومات وليس فى حاجة إلى أن يعرف الناس ذلك . . أو ليس فى حاجة أن يعرف الناس أكثر مما عرفوا ؟ . هل يريد أن يقول إنه (ولا حاجة) ، أى لا شىء حى ولا شىء ميت ؟

إنه بهذه العبارة يدخل فى السلسلة المعروفة لأدباء وعلماء كثيرين قرروا أن يتركوا على قبورهم عبارات ذات معنى . كأن الذين ماتوا أرادوا أن يضيفوا ولو جملة واحدة إلى كل ما قالوه وكتبوه . . هذه الجملة لا يراها إلا من يزورهم فى قبورهم . . كأن الميت أراد أن يترك وراءه شيئاً . . شيئاً ما ، يضحك الناس إذا رأوه ، أو يجعلهم يفكرون فيه كأنه لا يزال يتحدث إليهم . .

فعندما مات الزعيم الهندى غاندى طلب أن يدفن فى نهاية شبه القارة الهندية عند ملتقى البحور الثلاثة فى أقصى الجنوب . . وأوصى بأن يوضع الرماد الذى تبقى من جسمه الضئيل فى نهاية الأراضى الهندية . . كأنه أراد أن يضيف إلى بلاده ولو حفنة تراب ولم يطلب غاندى شيئاً يكتبونه على قبره وإنما اختار هذه الكلمات من ملايين الذرات التى تبقت من لحمه ودمه !

واختار الكاتب الإنجليزى نوبل كوارد عبارات كتبت على قبور الآخرين وطلب إلى من يعنيه الأمر أن يكتبها على قبره — قبره هو . .

مثلا ، تحتى والتراب ، فوق لم أحقق فى هذه الدنيا أعمالا جليلة . ولكنى جاهدت !

لا تحزن لأنك لم تصل إلى كل ما تريده ، ولكن افرح بما عندك . . فأنا مت هنا ، لأننى لم أستطع أن أبقى طويلا هناك !

هنا أنام تحت تراب ثقيل ، فقد كنت ثقيلا على التراب !

أما الإمبراطور فريدريش الأكبر فطلب أن تنقش على قبره هذه العبارات . عندما أكون تحت التراب فلا عذاب !

* * *

يؤسفني أنني لا أستطيع أن أعتذر عن التراب الذى علق بقدميك . !

* * *

أحد القواد العسكريين أوصى بهذه العبارة . قل لهم إننى مت تنفيذاً لأوامرهم !

* * *

دفنوه . . نسوه !

* * *

فهنا حيث لا احتقار لأحد أو من أحد !

* * *

أنا قورش العظيم ملك الفرس . . لا تحسدوا هذه الأرض الصغيرة التى انحشرت فيها !

* * *

وعلى قبر الإمبراطورة ماريا تريزا : من الناحية الجنسية . امرأة . . من الناحية العقلية ، رجل !

* * *

كتب أحد اللصوص . . يا من تقرأ هذه السطور . . إن عينى على جيبك إن كنت رجلا . . وعلى قلبك إن كنت امرأة .

* * *

وقد توفى نوبل كوارد فى مارس الماضى وهو مجموعة من المواهب الفنية : فهو روائى ومؤلف مسرحى ومن أشهر مؤلفى الأغانى والموسيقى . وهو ممثل لمعظم أعماله المسرحية وهو مخرج ومنتج . . وهو قبل ذلك أعزب عن إصرار . وقد بدأ حياته من قاع المجتمع الإنجليزى فقيراً وابن فقير . ولذلك قالوا إنه نقطة سوداء . وسخريته موجعة . وهو أقدر الكتاب الإنجليز على أن يضحكك ويوجعك فى نفس الوقت . وهو الذى يقول : لا أعتبر نفسى من مؤلفى الضحك . . وإنما أنا من الذين يمزقون البطون ويحرقون العيون ويوجعون القلب من شدة الضحك !

وهو لم يبالغ فى وصف نفسه . . ويمكن أن تضيف إلى الضحك عبارات نابية وأحياناً (مواقف قذرة) . وهو لا يضيع هذه الفرصة دون أن يقول : إذا نظرت فى المرآة ورأيت قرداً . فلا تلعن المرآة .

وقد بدأ كوارد يمثل فى نفس الوقت الذى تعلم فيه الكلام . فهو ممثل من يومه . أو بعبارة أخرى . لقد تعلم أن يكذب قبل أن يتعلم الصدق ، أو ما هو الفرق بين الكذب والصدق . . أو بين الواقع والخيال . . أو بين الذى على لسانه وبين الذى على قلم غيره من الناس . . ولسبب لا يعرفه سقط من فوق إحدى الأشجار . وانكسرت ساقه . ولكن سرعان ما اعتدلت الساق . . وفى سنة ١٩١٤ التحق بالجيش . . ولكنه سقط مرة أخرى من فوق إحدى العربات وأطلق الجيش سراحه لأنه غير لائق جسميا . ولكن كوارد انضم إلى إحدى الفرق المسرحية التى ترفه عن الجنود ثم ترك الخدمة العسكرية نهائيا ، مع عظيم الامتنان لروحه الفنية وموهبته على تفجير الضحك بأدائه أو بقلمه . .

وعاش كوارد على أعصابه ، وعلى الصداقات الطويلة . وهو صاحب العبارة المشهورة التى تقول :

ما الذى يحدث من امرأة واحدة أصبحت زوجتك ؟ أنت لاتستطيع أن تجد فيها الصديقة والعشيقة والزميلة ، فأنا رجل أهوى الكثير من الصفات جدًّا ، ولا يمكن أن أجدها فى امرأة واحدة ولا فى رجل واحد . ولا فى مجتمع واحد . . ولا دولة واحدة . . أنا إنجليزى قررت أن أعيش وأموت فى سويسرا . وأستريح من الناس مع أناس آخرين فى جامايكا . . لا يكفينى إلا الكثير ولا يملأ عينى ومعدتى وقلبى وجيوبى إلا الكثير جدًّا . . وليست هذه سفالة رجل . . وإنما هى حقيقة كل رجل . ولست مسئولاً عن أية خلافات تقع بين رجل وامرأة . . فهذا رأيى عندما أواجه الناس وهذا رأى كل رجل عندما يكون مع نفسه ، ولذلك ترى فى الوصية التى نشرت أخيراً ، أنه قد وزع كل ما يملك على أكثر من أربعين من الرجال والنساء . . أما بيوته الأربعة فقد أعطاها لاثنين : أحدهما كول لسلى (٥٩) وكان خادمه لمدة ٣٧ عامًا . أعطاه بيتاً فى سويسرا وبيتاً آخر فى جامايكا . . وأما المطرب الممثل جراهام بن (٤٥ سنة) فقد أعطاه بيتاً فى سويسرا وبيتاً فى جامايكا . . وأما جيرانه فى سويسرا فقد أوصى لكل واحد بألف جنيه لما سببه لهم من مضايقات فى بعض الأحيان . هذه المضايقات كانت على هذا الشكل : كثيراً ما صحا الجيران ليجدوا رجلا قد ارتدى ملابس سوداء وجلس فى الحديقة فإذا صرخ الناس قفز لهم معتذراً . أما سبب ذلك فهو يريد أن يعرف بالضبط ما الذى يقوله الناس أو يفعلونه إذا خافوا !

ثم ترك لهذين الرجلين مبلغاً يصل إلى أربعين ألفاً من الجنيهات تمكنهما من الاحتفاظ بهذه البيوت فى حالة جيدة .

ثم ترك فى الوصية أربعين اسماً كتب أمام كل واحد منهم هدية . من بين هذه الأسماء : فرانك سيناترا واليزابث تايلور ودافيد نيڤين ومارلين ديتريش والممثل البريطانى الكبير جيلجود . .

وقد أوصى لكل واحد منهم بإحدى لوحاته الفنية ، اللوحات التى أهديت له من فنانين عالميين أما التمثال النصفى له فقد أهداه للمتحف البريطانى .

وكذلك ملابسه قد أحصاها جميعاً وأهداها لأصدقائه أيضاً . وترك عشرات الرسائل الموجهة إلى الأصدقاء فى جميع أنحاء العالم ووافق مقدماً على بيع هذه الرسائل فى مزاد علنى . .

وأوصى بعصاه إلى سيدة كانت قد ساعدته وهو مريض فى أحد المستشفيات وقال : فى داخل هذه العصا عدد لا أعرفه من الجنيهات الذهبية النادرة هى هدية لك . . وأنت حرة فى أن تبيعى كل شىء ! وفى رسالة تركها للممثلة مارلين ديتريش يقول : هناك شىء غامض فى الحياة الإنسانية وفى روح الفنان . . جسمك وقلمى . . فى جسمك حيوية ونضارة ، لأنك تتمتعين بشباب عشرين امرأة فى واحدة . . وفى قلمى ضحكات عشرين فناناً وفيه مرارة مليون فقير ومريض . . فأنت شباب يملأ عيون الشباب . . أنت وأنا كلانا شاب إلى غير نهاية . . وإذا كنت قد سبقتك إلى حيث أنا ، فلأننى سوف أعيش بعدك أضعاف عمرى وعمرك . . معذرة يا أصغر وأجمل من عانق خيالى ، وقد ترك كوارد حقوق نشر وترجمة كل أعماله الأدبية إلى عدد من الأصدقاء أيضاً . حتى قبره قد أوصى به إلى خادمه الذى عاش رفيقاً له نصف عمره . وكتب له يقول : لن تتعب بعد اليوم فلا زائر ولا مرض ولا حاجة . . وإياك أن تبكى على الذين أمامك وتحت قدميك إلا إذا كان البكاء يريحك . . وهو شىء يريح . . فابك يطل عمرك .

وهذه حقيقة لم أعرفها إلا أخيراً عندما كنت مريضاً . فقد أطلت النظر إلى زوارى . . وتمنيت أن أبكى عليهم . . وبكيت وشعرت أن الدموع هى أعظم دواء لم يصفه طبيب لأحد . . إذا كان ذلك يجعل فراقنا أطول . حاول أن تجعله أطول . . فليس تحت قدميك شىء يستحق أن تتعجل رؤيته !

وعندما كان النقاد يسألون نوبل كوارد عن أهم أعماله المسرحية كان يشير إلى مسرحية (أكثر من حياة خاصة) هذه المسرحية قام هو ببطولتها أيضاً ، فقد ألفها سنة ١٩٣٠ وظهرت على مسارح لندن وباريس فى ذلك الوقت . وهى تحكى قصة وقعت أحداثها فى فرنسا . . أو يمكن أن تقع أحداثها فى أى مكان فى العالم ، إنها قصة رجل وامرأة . . تزوجا عن حب وانفصلا . . ثم استأنف كل منهما حياة جديدة ، واتخذ له زوجاً ، وتشاء الصدف أن يذهب الأربعة لقضاء شهر العسل فى فندق واحد . . ويلتقى الزوجان القديمان ويتعاتبان ويقرر كل منهما أنه مازال يحب الآخر ، ويفكران فى الهرب إلى بعيد ويهربان ويعودان . وكل واحد له مشكلة مع زوجه . وينكشف أمرهما . وتدور المعارك بين الجميع . . العار والخجل والندم !

والمعنى الذى يريد كوارد أن يضغط عليه بلسانه : لا توجد هذه الفواصل القاطعة بين الخير والشر . . ولا بين الرذيلة والفضيلة . . فكل إنسان يمكن أن يكون سافلا إذا تغيرت ظروفه . . وهات لى أعظم الناس وأنا أستطيع أن أجعله لكم أحطهم وأحقرهم . . تماما كما يفعل الماكياج بالوجوه ، من الممكن أن تفعل لتجارب الإنسانية العتيقة التشوهات فى داخل النفس الإنسانية . . ضع أى إنسان على أرض ساخنة وتفرج عليه . . إنه مثل الذى يرقص من الألم . . هات الفيلسوف سقراط وأنا أجعله لك قرداً أفريقيا . . هات لى المليونير روتشيلد وأنا أجعله لك فقيراً هنديا . . كل ذلك سهل . . صحيح أن هناك درجات من الصبر على الألم ، وهناك درجات من التضحية والاستشهاد . . ولكن كم من الناس يقدر على ذلك ؟ . إن القديسين والأبطال والمجانين ينفردون بأكبر نسبة بين هؤلاء القادرين على امتصاص الألم ، أما لماذا أوصى نوبل كوارد بكل ما يملك لأصدقائه . . فلأن أحداً فى الدنيا لا يستحق شيئاً منه . . أما الضرائب فى بريطانيا فقد هرب منها إلى سويسرا وليس من العدل أن يتعذب الإنسان ليلا ونهاراً لتشاركه الدولة فى القليل جدًّا الذى يكسبه ، بينما يستطيع الجزار والبقال والمهرب أن يفلت من الضرائب ، أما الأديب أو الفنان فلا يستطيع شيئاً من ذلك !

وهو قد أوصى بكل ما عنده لأصدقائه ، لأنى عشت طول عمرى أعمل من أجل الآخرين . . من أجل العلاقات الحلوة بين الناس . . من أجل أن أجد الصدق أحياناً بلا مقابل ، وقد وجدت الراحة فى زيارة عابرة ، ووجدتها فى مكالمة تليفونية خالصة . . ووجدتها فى كلابى التى ماتت . . ولو عاشت لتركت لها الكثير . . ولكن جاء موتها إهانة لى ولذكائى . . فقد كان من الواجب أن أعرف أنها سوف تموت قبلى ، ولكن يعزينى عن ذلك أننى شيعتها فى جنازة فخمة وتمنيت لنفسى شيئاً من ذلك !

ولم يشأ نوبل كوارد ذلك الساخر الكبير أن يهمس فى كل أذن فيقول : والآن سيداتى وسادتى . . انتهى العرض المسرحى ونزل الستار وأضىء المسرح . . وبدأ كل واحد يتعجل الخروج من الكذب الفنى إلى الواقع الأليم . .

سيداتى وسادتى : اسمحوا لى أن أقول كلمة أخيرة بعد أن قلت كل شىء أستطيعه . . استمعوا جيداً . . عندى آخر كلام . . آخر ما يخرج من فمى مرة واحدة وإلى الأبد . . تريدون أن تعرفوا ماذا قلت . . وماذا قصدت وماذا سوف يبقى بعد ذلك . . وبصراحة ودون أن أطيل عليكم . . خذوها منى كلمة مفيدة . . ماذا جرى لى ولكم وسوف يجرى لأى أحد ؟ . والكلمة الباقية لى بعد ذلك هى : ولا حاجة !

يحلمون بالشموع فلايجدون إلا الصواعق

هناك أسطورة يهودية تقول : إن الله خلق سبعين شعبًا وجعل لكل شعب ملاكًا يعنى بشئونه ويتحدث بلسانه . وعندما تختلف هذه الشعوب تختلف الملائكة فى حضرة الرب . . ولكن الرب نفسه جعل لليهود سبعين ملاكًا للعناية بهم . . لأنهم سبعون شعبًا . فلا اتفاق بينهم على شيء وهناك خلاف بين اليهود فى السياسة وفى الدين . . هناك خلاف بينهم فى اللون واللغة . . وهناك تمزق بين الجيل القديم والجيل الذى ولد فى إسرائيل والجيل الجديد . .

ولم يتفق اليهود على : هل من الضرورى أن يهاجر كل اليهود إلى إسرائيل ؟ أو هل من الواجب أن يفعلوا ذلك ؟ أو هل من المحتم على الدولة اليهودية أن تمكنهم من الهجرة والبقاء مهما كانت الظروف . . ثم هل من الضرورى أن تكون فى إسرائيل دولتان : الأغنياء جدًا من البيض . . والفقراء جداً من الملونين أيمكن أن نجد بسهولة كل هذه الخلافات فى صورتها الحادة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين . . اليهود الشرقيون أكثر من نصف الشعب اليهودى فى إسرائيل . . ولكنهم ليسوا على وجه المجتمع ولا من معالمه لأن نسبة التعليم بينهم منخفضة جدًا ولأن مستواهم المعيشى منحط . . ولأنهم متخلفون من الناحية الثقافية والفنية ولذلك فكل مصادر الثروة فى إسرائيل فى أيدى البيض . . فهم الذين يملكون مزارع الموالح وهم الذين يملكون صناعة الماس – وهى أكبر مصادر الثروة القومية فى إسرائيل . . أما اليهود الشرقيون (الملونون والآسيويون والعرب) فهم البقالون والنجارون والكناسون وسائقو العربات والسيارات . . هم أصحاب الحرف المتوسطة أو الأعمال الحقيرة فى إسرائيل . .

ومن مظاهر الاحتجاج على هذه التفرقة العنصرية ظهور « الفهود السود » . . وهم جماعة من زنوج أمريكا قد عانوا التفرقة العنصرية فى أمريكا . . وعرفوا العزلة والذل والهوان بسبب الدين . فلما هاجروا إلى إسرائيل وجدوا أن إسرائيل ليست أحسن حالا من أمريكا أو من نيويورك . . فإسرائيل إذن ليست الجنة الموعودة . . . أو هى الجنة الموعودة للبيض وجهنم الموعودة للسود . . وأن السود فى جهنم أينما

ذهبوا . . فلماذا لا يهدمون الجنة على من فيها ، أو لماذا لا يتحدون مع الشيطان الذى هو العرب وأن يكون ذلك ضد الرأسمالية الأمريكية الإسرائيلية . إن واحداً من الفهود السود اسمه «سعدى مارشيانو» يروى دائماً كيف أن يهود إسرائيل – حتى فى الكوارث – يفرقون بين يهودى شرقى ويهودى غربى . . مثلا : ما الذى حدث عندما تسلل اليهود إلى مدينة الخليل ليضعوا الحكومة أمام الأمر الواقع ! إنهم اتفقوا سرًّا وتسللوا . . ودخلوا وأقاموا . . وإذا استعرضت وجوه هؤلاء المتسللين فإنك تجدهم من اليهود الغربيين . . وليس من بينهم يهودى شرقى . لماذا ؟ إنها التفرقة العنصرية . . وهذه المدينة قديمة . وكان يسكنها اليهود الشرقيون أولا . . ومعظم الوقت . . ومن الأساطير اليهودية القديمة أن إبراهيم عليه السلام قد اشترى بها كهفاً بأربعمائة قطعة من الفضة منذ أربعة آلاف سنة . . يقال . . ثم دفن فيها زوجته . . ودفن هو فيها . . ومن بعده ابنه وأحفاده فهذه المغارة أو المقبرة العائلية ملك لإبراهيم . . أو كانت ملكاً له .

ومنذ ثلاثة آلاف سنة جعلها الملك داود عاصمة له . وبعد سبع سنوات استولى داود على القدس وحدث فى سنة ١٢٦٨ أن أصدر المماليك قراراً بألا يدخل اليهود مدينة الخليل . . ثم عدلوه إلى أن يدخل اليهود إلى هذه المدينة . . ولا يدخلوا ضريح إبراهيم . . وبعد ذلك أن يقفوا عند العتبة رقم ١٣ من هذه الضريح . . ويصلوا عندها وعليها ويبكوا من بعيد – وظل هذا حال اليهود حتى دخلوها فى حرب سنة ١٩٦٧ .

وفى سنة ١٤٥٠ استطاعت عشر عائلات يقودها الحاخام ماكيل اشكنازى أن يشتروا مساحة من الأرض وأن يقيموا عليها . . وأصبحت هذه الأرض «حارة يهود» . . وأقام فيها هذا الحاخام والأسرة الإيطالية التى جاءت معه . . وعكفوا على صناعة الزجاج الملون المعروف باسم «زجاج الخليل» . . وبقى اليهود فى هذه المدينة . ولكنهم ظهروا واختفوا كثيراً فى مدينة الخليل منذ أيام (السبى البابلى) فى القرن السادس قبل الميلاد . حتى كانت سنة ١٩٢٩ عندما أسيلت دماء يهودية وعربية فى كل مكان واختفى اليهود من مدينة الخليل بعد ذلك تماماً .

ومن المعروف أن مذبحة سنة١٩٢٩ قد بدأها اليهود فى مدينة القدس . . وهى حادثة مشهورة جدا . ودارت معارك ومذابح وقتل فيها يهود وعرب فى مدينتى القدس والخليل . . وهرب اليهود إلى ألمانيا بعد الحرب الثانية . . ولكن حدث شيء غريب فى سنة ١٩٦٨ . . وهذا هو الذى أوجع قلوب اليهود الملونين . فقد ذهب الحاخام موسى لفنجر ومعه ثمانون من اليهود إلى مدينة الخليل . . واحتلوا «فندق بارك» . . وكان ذلك فى ليلة عيد الفصح . . وكان شعار هؤلاء اليهود ، إذا لم يكن هناك

واقع يعجبنا ، فنحن قادرون على أن نصنع واقعاً جديدًا . . ونظرية خلق « الواقع الجديد » هى أن يحتلوا أى مكان وأن يقيموا فيه وعلى الحكومة أن تختار بين أن تطرد اليهود وبين أن تنافق العرب والعالم . ولم تتردد الحكومة فى إرضاء اليهود الذين أقاموا لهم مستعمرة جديدة اسمها « كبريات عزيه » . . وقد حاول اليهود الملونون أن يندسوا بين اليهود البيض ، ولكن البيض رفضوا !

ولابد أن نعيد النظر فى نوعيات اليهود فى إسرائيل . . إن أوضح هذه النوعيات هى : اليهود المهاجرون الأوائل أو المؤسسون لإسرائيل . .

واليهود الذين ولدوا فى إسرائيل من خمسين أو ستين عاماً – أى الصابرا أى أشجار الصبار التى نبتت فى الصحراء . .

ثم الجيل الجديد ، الذين ولدوا بعد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ . ولهم رأى مختلف .

أما الفئة الأولى أو الطبقة الأولى فهى التى كان همها الأول والأخير هو أن تجيب عن هذا السؤال : هل نعيش على هذه الأرض ؟

وكان جوابهم بالإيجاب . . أى يجب أن يعيشوا وأن يعودوا . وأن يكون لهم مكان . . وأن تكون لهم أرض . . هم المتطرفون من دعاة الصهيونية . . وقد حدث فى سنة ١٩٣٩ أن أرسل الفيلسوف الإسرائيلى مارتن بوبر رسالة إلى الزعيم غاندى يقول له فيها : إن اليهود يجبُ أن يعودوا إلى أرض صهيون . . لا لأنهم يبحثون عن وطن . . ولكن لأن هذا هو الوطن . . لقد حكم الرب على اليهود أن يتفرقوا فى كل مكان ، ثم ليتجمعوا بعد ذلك . . وحكم عليهم بالضياع ليجدوا أنفسهمْ بعد ذلك . . كان من رأى غاندى أن يجدوا لهم أى مكان فى أية قارة ، وأنه ليس من الضرورى تاريخيًّا أن تكون فلسطين هى الأرض الموعودة ! والفئة الثانية هى التى كان شاغلها الأول والأخير هو الإجابة عن هذا السؤال ، بأى شىء نعيش ؟

فهم قد ولدوا على أرض تنكرهم . . وتكرههم . وتتحفز لطردهم . . وعليهم أن يتشبثوا بالأرض . . وأن يكونوا والأرض قطعة واحدة باليدين والسلاح . . ويجب أيضاً أن يكملوا الرسالة الدنيا التى بدأها آباؤهم وأجدادهم من المهاجرين من الشرق والغرب ولأسباب دينية وسياسية مختلفة . . إن هذا هو جيل موسى ديان وإسحاق رابين وغيرهما . .

أما الفئة الثالثة أو الجيل الثالث فهم الذين ولدوا بعد قيام الدولة أى الذين بين الخامسة والعشرين والثلاثين . فهذا هو الجيل الجديد . . وهذا الجيل مشغول بالإجابة عن هذا السؤال ولكن كيف نعيش ؟

إن هذا الجيل الشاب الذى اشترك فى حرب الاستنزاف ضد مصر .. وهو الذى حارب وانهزم فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. هذا الجيل بين نارين .. إن تقدم مات ، وإن تراجع مات أيضاً .. لأن هذا الجيل لا يقر الحياة التى اختارها آباؤه .. ولا التى ارتضاها أجداده .. إن هؤلاء الأجداد قد ضاقوا « بالحياة معاً » فى حارات اليهود والمعابد فى أوربا .. ولذلك عندما هربوا إلى إسرائيل كانوا ساخطين على « الحياة معاً » .. وإنما كانوا يريدون أن تكون لهم حياة قروية مثالية واسعة .. فقد تعبوا من الحارات ومن الحياة السرية .. وتعبوا من أن يعملوا باعة متجولين فى كل أوربا .. ولذلك قرروا أن يزرعوا الأرض .. وأن يسكنوا الأرض . وأن تكون لهم نوافذ واسعة وأبواب مفتوحة .. وإن الظروف الاجتماعية والعسكرية اضطرتهم إلى الحياة فى المستعمرات معاً .. وأن يوزعوا القليل الذى يملكونه بينهم بالتساوى .. فهم قد تعبوا من التفرقة ولذلك كانت حياتهم الجديدة بلا تفرقة .. بلا تمييز .. بلا ملكية ، ثم جاءت الحياة العسكرية توفر لهم : المسكن والمأكل والانتقال .. فالجيش أرحم من حياة المستعمرات ، ثم خرج « الصابرا » من المستعمرات وكانت حياته قاسية جافة .. لا إنسانية .. وكانوا قادرين فقط على أن ينقلوا من المستعمرات إلى المعسكرات .. ولكنهم عاجزون أن تكون لهم حياة مدنية عادية .. يحبون ويكرهون . ويكون لهم أولاد وزوجة .. وأن تكون لهم حياة ككل يهود العالم الذين يجيئون من الخارج يتفرجون عليهم كالحيوانات الغريبة فى الأقفاص .

وأخيراً هذا الجيل الجديد الذى عنده سبب واحد معقول لكى يبكى أمام حائط المبكى لقد كان أحد أجداده يبكى عندما انهدم المعبد . . وضاعت القدس ، الآن عاد حائط المعبد . . ويمكن بناء واحد أعظم وأكبر من هذا . . فلماذا البكاء ؟ كانوا يبكون أيام كان الموت والفقر والذل أهم معالمهم . . والآن لم يبق من كل شىء سوى الخوف . . فلماذا لا يتوقفون عن محاربة العرب إذا كانوا يريدون السلام حقيقة . . إن ابن موسى ديان واسمه عساف ديان قد أرسل خطابًا إلى جولدا مائير سنة ١٩٧٠ يقول لها ، لابد أن ننسحب من سيناء والجولان والضفة الغربية . . وهذا هو الثمن الحقيقى للسلام مع العرب . .

* * *

ولاتزال هناك اتجاهات صهيونية عنيفة . . هذه الصهيونية ، ترى أن كل يهودى يجب أن يعود إلى إسرائيل . . وأن كل يهودى يجب أن يذهب إلى إسرائيل لكى يكون يهوديًّا حقا ، ولكن الجيل الجديد يرى أنه من الممكن أن يكون الإنسان يهوديا مخلصا فى أى مكان .

ولكن هناك ردًّا على ذلك بين اليهود أيضًا . . فقد حدثت مناقشات بين عدد من المثقفين فى

فرنسا ، كان من بينهم الفيلسوف الفرنسى اليهودى ريون أرون . . قيل فى حضوره :

– إننى فرنسى أولا ويهودى ثانياً – فقال أرون ، ولكن ليس هذا رأى الفرنسيين . . إنهم يرون أنك يهودى أولا وفرنسى ثانيًا . .

وقال واحد من المثقفين أيضاً . . لماذا يطالبنا اليهود أن نعود إلى إسرائيل مع أننا لم نولد فيها ، لماذا نهجر أوطاننا الحقيقية ، ونذهب إلى إسرائيل وهى وطن عاطفى .

وقال مثقف آخر إن اليهود المتطرفين هم المسئولون عن انتشار العداء لليهود فى كل مكان فى العالم . . لماذا نكون مختلفين عن كل الناس . . لماذا لا تكون لنا حياتنا وولاؤنا حيث نعيش هنا . . لماذا نجعل الشعوب كلها تقول : اذهبوا لإسرائيل وأريحونا من مشاكلكم الدينية ؟

وفى نهاية كتاب «الإسرائيليون الجدد» للمؤلف «دافيد شوينبرن» يقول :

قابلت عدداً كبيراً من الشبان دون الثلاثين وكان رأيهم أن المؤسسة العسكرية فى إسرائيل لا تريد السلام حقيقة . . إنهم يرغمون الشباب على أن يصدقوا أن هناك أبطالاً . . . وأننا فى عصر الأبطال . . مع أن الشباب مؤمن بأن زمن البطولة قد ذهب . . وأن الأبطال قد ينتصرون ولكنهم عاجزون عن بناء الشعوب . . إنهم يستطيعون أن يخلقوا الأضواء الباهرة التى تعمى الأبصار ، ولكنهم عاجزون عن إشعال شمعة يجلس فى ضوئها الخافت رجل وامرأته وطفلها يتناولون الطعام على صدى أغنية هادئة عن السلام والحب ! .

وعلى الرغم من أن هذا الجيل الجديد لا يتمسك بحرفية التوراة . . فإن التوراة نفسها تقول فى «المزمور» ٧٨ الآية الثامنة وما بعدها :

(ولا يكونون مثل آبائهم : جيلاً زائغاً ومارداً جيلاً لم يثبت قلبه ولم تكن روحه أمينة لله) .

والشباب الإسرائيلى تعب من الحرب ولكن الأكبر سنًّا يفتشون عن البطولة على أشلائهم . . إن هذا الجيل الجديد يريد أن يكون إنساناً عاديًّا لا خائفاً ولا مخيفاً ، لا كارهاً ولا مكروهاً ، إنه يريد أن يعيش فى سلام . . ولكن هذا السلام بعيد ، ما دامت الأيدى التى تمتد إليه من سبعين طولاً وعرضاً ولوناً .

إن الأسطورة اليهودية تقول إن هناك سبعين ملاكاً . . كل واحد يحرس شعباً . . وأن لليهود وحدهم سبعين ملاكاً يحرسونهم . . ولكن الحقيقة الآن أن سبعين يهوديا يحاربون ملاكاً واحدا . يحاصرونه ويضيقون عليه حتى لا يكون سلام !

أيتها الكلمات «قفى من أنت ؟»

كنت طالب الامتياز الوحيد فى «قسم فلسفة» وكان طالب الامتياز ينفرد بعلوم أخرى غير التى يدرسها الطلبة الآخرون . من بين هذه العلوم : فلسفة الفن أو علم الجمال . وكان أستاذى فى هذه المادة د. منصور باشا فهمى . أما غرفتنا فكانت صغيرة تضيق بنا وأضيق بها . فقد كان رحمه الله يدخن بشدة . . وقد لاحظ ذلك فاقترح أن أذهب إليه فى بيته . وتوالت المحاضرات . ولم أشعر فيها بلذة . واقترحت عليه أن أترجم أحد الكتب الصغيرة . . وأن نناقشها معاً وترجمت كتاباً عنوانه : خلاصة علم الجمال .

وجعلنا هذا الكتاب أساساً للدراسة بعد ذلك وبدأ منصور باشا فهمى يدخل فى أعماق الفلسفة ومعانى الفن والمدارس المختلفة . وفجأة توقفنا عند كلمة (الجمال) هذه الكلمة من أين جاءت ؟ ما أصلها ؟ وكان من رأيه أن نعرف هذه الكلمة قبل أن نمضى فى تاريخ حياتها على أقلام الشعراء والفنانين والمؤرخين والفلاسفة . وكانت هذه لفتة هزتنى . فلم أكن أعرف معنى (أصل) كلمة من الكلمات ، ومنذ ذلك الوقت وأنا مشغول ، ضمن أشياء كثيرة ، بأصول الكلمات . . من أية لغة جاءت . . وكيف سارت وانحرفت واستقامت وانكسرت وتطورت وتدهورت حتى وصلت إلى وضعها الحالى . .

وهو الذى اقترح أن أذهب للدكتور فؤاد حسنين أستاذ اللغات الشرقية وأسأله من أين جاءت كلمة (الجمال) . . أو كلمة (الجميل) . .

وسألت عن د. فؤاد حسنين ووجدته . إنه لا يعرفنى وليس عندى استعداد لذلك . فهو رجل أسمر نحيف سريع الخطوة وواسعها . ويضغط على الكلمات بلهجة صعيدية أجنبية . . أى أن نطقه للغة العربية يعطيك انطباعًا أنه صعيدى ألمانى يهودى . فهو يعتقل الحروف والكلمات ويحبسها ويشدها . . وفمه يتزلزل وهو ينطق أية كلمة ، ومن خوف طالب فى السنة الثالثة بقسم الفلسفة أمام أستاذ يعرف

عشر لغات من بينها خمس لغات أوربية الباقية : عبرية وآرامية وأكادية وسنسكريتية وحيثية ولا أعرف بالضبط كيف كانت حالتى أمامه . ولكنى سمعت منه أن كلمة (الجمال) جاءت من الجمل ، وهو ذلك الحيوان الذى يعتمد عليه العرب فى تنقلاتهم . . ثم إن هذه الكلمة عبرية الأصل . . وربما آرامية . .

وعدت إلى د. منصور فهمى أنقل إليه ما فهمت من الكلام الكثير الذى سمعته . ويبدو أننا لم نستفد شيئاً كثيراً . وعدلنا عن البحث فى معنى كلمة الجمل والجمال والجميل واتجهنا إلى بقية المفردات الفلسفية . .

ولكن لم أتوقف منذ ذلك اليوم عن البحث فى أصول الكلمات . وهى متعة سياحية ومغامرة . أحياناً تصيب وكثيراً ما تخيب . ولكن البحث عن أصل الكلمات ومطاردتها فى كل لغة وفى كل عصر عمل بوليسى مثير . .

وأذكر أن المرحوم د. باول كرواس كان يدرس لنا اللغة اليونانية واللاتينية . وكان ككل المستشرقين– يقارن بين الكلمات فى كل اللغات التى يعرفها . وقد ألف قاموسًا قبل انتحاره بسنوات ، عن أصل الكلمات العربية التى جاءت فى كتاب (كليلة ودمنة) ، ترجمة ابن المقفع . . وكانت هذه المحاولة رحلة إلى كنز من الذهب والفضة وكل الأحجار الكريمة . . لم تذهب متعتى بهذا النوع من الدراسة حتى الآن بل إنها زادت ، فعندى مئات القواميس بلغات مختلفة . كلها من أجل أن أبحث عن أصل كلمة فى لغات أخرى . .

وفى الصفحة الأولى من كتاب (شمس الله على الغرب) للمستشرقة الألمانية سيجفريد هونكه . نجد مئات الكلمات الأوربية التى جاءت من اللغة العربية . . وفى كتب المستشرقين ألوف النماذج لذلك . . وآخر هذه الكتب التى استمتعت بها جداً ولا أطيق صبراً على السكوت عليها كتاب الباحث العراقى المقيم فى المغرب عبد الحق فاضل . الكتاب بعنوان «مغامرات لغوية» . وقد كان موفقاً فى اختيار كلمة «مغامرات» لأنها بالفعل كذلك . فهو يقتفى أثر الكلمات ويحاول أن يردها إلى أصولها العربية أو الأجنبية . . ولكنه يهتم كثيراً بأن يضع أعيننا على الأصل المادى أو الحيوانى لكثير من الكلمات المعنوية أو الفلسفية أو الفكرية . . فالأصل فى استخدام الكلمات هو المادى اليدوى . .

وبعد ذلك تطورت الكلمات حتى أصبحت ذات دلالة معنوية . مثل : العقل والعقال . أصل هذه الكلمة أن العرب كانوا يعقلون الحيوان أى يربطونه . والعقال هو الرباط . والعقل هو الذى يربط بين الأشياء وبين معانيها أو أسبابها ومقدماتها ونتائجها . . والعقل هو هذا الخيط الذى ينظم الأشياء

والأفكار . . أو هو الذى يضبع الخيط . . مثلا . .

والمؤلف مثل « قصاصى الأثر » عند البدو . . فهذا الطراز من الناس يستطيعون أن يتابعوا جملا من مكان إلى مكان وذلك لمعرفة آثار أقدامه حتى يهتدوا إليه . . وفى استطاعة الواحد منهم إذا رأى حصاناً أن يقول لك إنه ابن الحصان الفلانى وابن المهرة الفلانية . . ويستطيع أن يقول لك إن هذا الحصان مسروق من فلان . ويؤكد ذلك وهو صادق . . وبعض البدو ينظر إلى آثار الجمال أو الخيول ويقول لك . هذا الحصان مريض . . عنده أوجاع فى معدته . . أو فى عنقه . . أو أنه ضعيف النظر . . أو أنه كان يحمل على ظهره حملاً ثقيلا . . وأنه لم يأكل منذ أيام . . يقولون ذلك عن الحيوانات وعن الإنسان أيضاً . وفى استطاعة الواحد من مجرد النظر إلى أصابع إنسان أن يقول لك : هذا ابن فلان . . أو إذا نظر إلى مشيته أن يقول لك : إنه من الجنوب . . من مدينة كذا ومن عائلة كذا وأبوه فلان بالذات . . وعندهم لذلك أسباب وتفسيرات مقنعة جداً .

ومع الأستاذ عبد الحق فاضل فى مغامراته تلمح هذه القدرة اللغوية على إدراك التشابه والاختلاف فى الوصول إلى الأصول اللغوية . .

وأول ما لفت نظرى فى هذا البحث القديم عن أصل الجمال والجميل . . يقول الأستاذ عبد الحق فاضل إنها من الجمل أيضاً . ولكنه يعود بك إلى كلمات أخرى كثيرة أصلها حيوانى :

وأول كلمة . . الجمال والجميل . . طبعاً أصلها من الجمل عند العرب . وكانوا يرونه أجمل الحيوانات ولذلك اعتبروا أى شبه بين الإنسان والحيوان فى الصبر والاحتمال هو جمال أيضاً : والله يقول : صبر جميل . . كلمة « النير » نستخدمها بمعنى العبودية فتقول : تحت نير الظلم والاستبداد . . والتحرر من نير القرون الوسطى . . هذه الكلمة معناها الأصلى : تلك الخشبة التى يضعونها على رقبة الثور وهو يدور فى المحراث . . ورفع النير . أو التحرر من النير هو أن يكون الحيوان حر فى حركته . . وأن يتوقف عن الدوران والدوخة التى أرهقته . .

كلمة « الكرّة » بتشديد الراء . فنحن نقول : أعاد الكرّة . وأصلها أن الحصان يتراجع إلى الوراء أثناء المعارك أو المبارزة . والحرب كرٌّ وفرٌّ . . أى أن الحصان يتحفز ويهجم ثم يتراجع ثم يفر . .

ويقال إن على بن أبى طالب كانت له بغلة . وقد اقترح عليه بعض أصحابه أن يستبدل بها حصاناً . ولكنه قال : « أنا لا أكر على من فر ، ولا أفر ممن كر ، فهذه البغلة تكفينى » — أى أنه لا يحارب أحداً ولا يحاربه أحد . فلا داعى للحصان . .

وكلمة (يحدوه) بمعنى يدفعه إلى فعل شيء أو يشجعه على ذلك . . فهذه الكلمة جاءت من أن

راعى الغنم أو الجمال عند العرب كان يغنى وراءها . وكان هذا الغناء مناجاة للإبل وهى تمشى . والرجل يسمونه الحادى . . وصوته وهو يغنى يسمونه الحداء . .

وكلمة (قصب) السبق . . فنحن نقول إن فلانًا قد أحرز قصب السبق فى الشعر أو فى الأدب أو فى السياسة . وهذه الكلمة مصدرها : أن العرب كانت لهم مسابقات فى ركوب الخيل . وكانوا يحددون مسافة ينطلق نحوها المتسابقون . وفى نهاية الشوط يضعون (قصبة) أو عصا . . وعلى المتسابقين أن ينطلقوا حتى يبلغوا هذه القصبة . والذى يعود بها هو الذى يعتبر الفائز الأول والوحيد . .

وكلمة (الشكيمة) . . ونحن نقول إن فلانًا قوى الشكيمة . أى أنه صعب . وصلب والشكيمة هى حديدة فى لجام الحصان . (لتشكمه) أى لتوقفه عن الحركة أو التمرد . . وكلما كان الحصان شرسًا كانت أكبر وأغلظ . . ومعنى ذلك أن الرجل (القوى) الشكيمة ، هو الرجل العظيم الذى يحتاج إلى قوة هائلة لتوقفه أو لتضعفه .

كلمة (كبح) جماح الحصان . . أو الإنسان . . ومعناه أن نوقفه عند حده . . ومعناها أن العرب كانوا يستخدمون اللجام فى كبح الحصان حتى لا يجمح . والمجمع اللغوى عندما حاول أن يجد مرادفا لكلمة (فرامل) السيارة فإنه استخدم كلمة (مكبح) . .

وكلمة (الزمام) وأصل هذه الكلمة ، أن العرب كانوا يستخدمون الكلمة ، أن (القربة) يضعون فيها الماء أو اللبن . . وكانوا يضمون فتحة القربة بخيط . . أى (يزمون) القربة . .

ونحن نقول فلان يزم شفتيه أى يضمها . ويقول العرب (زم) أنف الحصان لتسهل قيادته .

والحبل الذى يربط أنف الحصان اسمه : الزمام : وبعد ذلك تطورت هذه الكلمة وأصبحت لها مدلولات مختلفة تمامًا : زمام الأمور . . وزمام الطائرة . . وزمام سفينة الفضاء . . وزمام الكهرباء !

وكلمة (العنان) . ونحن نقول : أطلق لخياله العنان . . ونقول : دع الأمور تجرى فى أعنتها . .

وأصل هذه الكلمة أن العنان هو ذلك السير الجلدى الذى نمسك به الحيوان . وإذا مسكنا عنان الحيوان فهو يتحرك كما نشاء ، فإذا أطلقنا له العنان راح يتحرك كما يشاء .

ونقول تركنا له الحبل على (الغارب) . والغارب هو الكاهل . والحصان الذى نترك حبله على غاربه ، أى الذى ندعه يفعل ما يشاء . ولكن الحصان الذى نشده بالحبال ، ونربطه فهو الذى نسيطر عليه تمامًا .

ونقول (مضمار) السباق والمضمار كلمة كان العرب يطلقونها على المكان الذى يضمرون فيه الخيول . . أى يروضونها ويدلكونها . . والمضمار معناه المجال . . ونقول فى مضمار السباق والسياسة

ومضمار الحب . . وأصبح للكلمة معنى آخر أوسع وأكثر تحديداً عن المعنى العربى البدوى القديم . .

كلمة (النتيجة) – أى نهاية شىء . . أو الذى يسفر عنه شىء . . فنقول المقدمات والنتائج . . والنتيجة تعنى الغاية من أى شىء . . ولكن العرب كانوا يقولون . . الناتج ، أى الإنسان الذى يقوم بتوليد الناقة ، أنثى الجمل . والنتيجة : هى المولود . ونحن نقول : فلان زميلى ونحن زملاء . . وأنا سعيد بهذه الزمالة أو هذا التزامل فى العمل وفى السكنى . والعرب كانوا يقولون : إن الزميل هو الشخص الذى يركب معى الجمل . . هو فى ناحية وأنا فى ناحية أخرى . . فالزمالة هى أن يركب اثنان حصانا واحدًا كل منهما فى ناحية !

وأنت «عظيم» أو . . من «أعاظم» الناس . . وهذا معنى عظيم ، ونبى عظيم . . هذه الكلمة استخدمها العرب للدلالة على أن حيوانًا امتلأ بالعظام . . أى عظامه كثيرة . وهم يقولون : حيوان لحيم أى كثير اللحم . . وحيوان عظيم أى كثير العظام . . وتغير معنى العظام والعظمة والتعظيم والتعاظم والتلاحم وأصبحنا نطلقها على معان أخرى لم تخطر للعرب على بال . .

وكثيراً ما نكتب عن «فحول» الشعراء . . وفحول السياسة . . ونقصد بذلك عدداً من الرجال الذين تفوقوا فى العلم والفن والحكم . ولكن أصل هذه الكلمة : الفحل هو ذكر أى حيوان . . والفحل الكريم هو أعظم شىء عند العرب ، ونقول استفحل : أى أصبح كبيراً لدرجة أننا لا نقدر على كبح جماحه والإمساك بزمامه . . ويقول العرب : امرأة فحلة أى امرأة مسترجلة . وهذا المعنى نستخدمه عندنا فى ريف المنصورة أيضا !

وفى المعاملات التجارية نقول «الوارد» و«الصادر» . وأصل هاتين الكلمتين أن العرب يقولون : الحيوانات وردت الماء ، أى ذهبت لتشرب . . وصدرت عن الماء أى عادت بعد أن شربت . وكلمة «صدر» أى ظهر منها صدرها عندما تعود .

ونقول إن فلانا عثر على «ضالته» . . ونقول ضالته «المنشودة» . والضالة عند العرب هى الناقة إذا انقطع حبلها وهربت . . وهذه خسارة فادحة للرجل البدوى .

وكان عند العرب أناس «ينشدون» الناقة الضالة . . أى يعلنون عنها فى كل مكان . . وأحياناً كانوا يجعلون «النشيد» شعراً ويتغنون . كما يحدث عندنا فى مصر ، أن نجد المنادى يقول : يا ولاد الحلال . . حلاوة مائة ريال لمن يجد كذا وكذا . .

والعرب يفرقون بين رجل «نشاد» وبين رجل «ناشد» . . «النشاد» هو الذى يبحث عن هذه الحيوانات الضالة مقابل مبلغ من المال . فهذه حرفته المعترف بها . أما «الناشد» فهو الذى يدعى ذلك

فإذا عثر على الضالة أخذها لنفسه . .

وأصبح الإنشاد . . والنشيد . . كلمات لها دلالة التغنى بشىء أو الغناء . ونقول : الشاعر أنشد قصيدة . . أو أنشدنا مما عندك . . وفى التوراة سفر كامل اسمه «نشيد الإنشاد» وهو قصة فتاة تبحث عن حبيبها الراعى . . الفتاة اسمها شالوميت ، وكان الملك قد اختارها لنفسه وأكرهها على الحياة معه . ولكنها لا تريد سوى راعيها الأسمر الفقير . . وهى تبحث عن ضالتها وتغنى «نشيد الإنشاد» . .

* * *

وكلمات أخرى كثيرة كلها مأخوذة من علاقة الإنسان بالحيوان مثل : العقال والعقل والتعقل . . ومثل الحكمة المأخوذة من كلمة «الحكمة» بفتح الكاف أى وضع اللجام على فم الحصان والتحكم فيه . . ومثلا كلمة السبب . . والأسباب . . ومعناها الحبال . . وكلمة «السياسة» أصلها أنه ساس الحصان . . فهو سائس . . ولاتزال تستخدم كلمة «السائس» للخيل و «السائس» للسيارات . . والسياسة تعنى فن أو علم تنظيم العلاقات بين الناس . .

ونقول الخندق– وهى كلمة دخلت اللغة العربية أيام موقعة الخندق فى المدينة . وكانت فكرة الخنادق لرجل فارسى أسلم . . وكلمة «الخندق» أصلها : كنده الفارسية . . ثم أعطاها العرب هذا الشكل الأخير . . ومعناها : حفرة فى الأرض . .

ونقول : ترسانة . . وهى كلمة إيطالية : دارسنا . . وهى مأخوذة عن العربية : دار الصناعة . . ثم عدنا فأخذناها عن الإيطالية وجعلناها ترسانة– مع أنها عربية الأصل !

وعشرات من الكلمات والتعبيرات والحروف وأسماء الإشارة والضمائر.

وكان يتابعها الأستاذ عبد الحق فاضل ويعتقلها ويوقفها فى مكانها ويسألها عن أصولها . ولكنه لا ينتظر حتى تنطق فينسبها هو إلى منابعها فى البادية أو فى اللغات الأخرى . . وهو يؤكد أن الكلمات لها حياة . . والذى له حياة ، له تاريخ . والتاريخ –كما يقول كيسنجر– هو سجل المحاولات الفاشلة فى أن يعيش الناس بعيدين عن الناس . .

وهى لذة مثيرة ، فلعلكَ تجدها مثلى !

وكانت هذه آخر أنفاسه ؟

إذا كانت المرأة لا تملك إلا دموعها ، فإن الرجل يملك الكلام عن هذه الدموع . ولو كان الرجل يملك سلاحا أقوى من ذلك ضد المرأة لأطلقه عليها ، ولكن من حين إلى آخر يصدر كتابا يضم عبارات شائكة ويحاول أن يلقيها تحت فستان المرأة . . أو تحت جلدها . . ولكن الذى يدهش الرجل ويغيظه أيضا ، أن تشترى المرأة هذا الكتاب ، ويكون الإقبال على الكتاب تحية من المرأة لكل من يحرجها . . وفى نفس الوقت يكون دليلا جديدا على أن المرأة تشجع الرجل على أن يقول . . لأنه مثلها لا يملك إلا أن يقول . . ولكن النصر فى النهاية تفوز به المرأة .

وأحدث كتاب صدر للكاتب الأمريكى شين كنان . الكتاب عنوانه : (لعبة الحب) هذا الرجل من أشهر (العزاب) فى أمريكا . يقول المؤلف : لم أتزوج إلا منذ أيام . بعد أربعين عاما من الحياة الجميلة طائرا خفيفا وصديقا لعشرات الفتيات . ويبدو أن هؤلاء الفتيات . قد دربننى على أكون زوجا صالحاً ، أما هذه الصفحات التى أنشرها فليست إلا أوراقاً قديمة فى أحد أدراج مكتبى . . لم تشأ زوجتى أن تقرأها . . إنها امرأة ذكية . دعونى أقول إنها خبيثة جداً . . لأنها تعلم أن هذه الكلمات هى آخر أنفاسى . . !

ويقول المؤلف : لابد أنها غزيرة فى أن يجد الإنسان أنواعا من الصدف أو الزلط الملون أو الأشواك على الأرض . . فيجمعها ويحاول أن يصنع منها عقدا – فى أواسط أفريقيا يفعلون ذلك – ثم يعلقها فى رقبة من يحب . . . أما أنا فأعرف أين أضعها . . أما أنت فحر فى اختيار العنق الذى تلف حوله هذه الأشواك . . أو أنت حر فى اختيار الشفتين المصبوغتين اللتين تلعنانك بإخلاص . .

أما أنا فأعرف من الذى سوف يلعننى بعد أن أفرغ من هذا الكتاب . . إنه أنت !

لا شيء أعذب من الحب أى أكثر عذوبة وعذابا .

* * *

الحب سحر يلخبط عقل الإنسان من أجل إنسان آخر !

* * *

من النظرة الأولى يولد الحب ، وفى الثانية يموت !

* * *

الحب مرحلة من حياة الرجل ، ولكنه كل حياة المرأة !

* * *

كل الناس يحبون المحبين !

* * *

الحب الحقيقى لا يظهر فى الصفحات الأولى من الصحف !

* * *

إن كان قصرا أو سجنا لا يهم : فالمحبون يجعلون كل الأماكن متشابهة !

* * *

إذا كانت الحياة زهرة فالحب رحيقها !

* * *

الحب : فترة استراحة لذيذة بين رؤيتك لفتاة جميلة واكتشافك أنها قبيحة !

* * *

الحب صياد ولكنه أعمى !

* * *

بلغة الأطباء : الحب مرض تحت الجلد . . أو هو تخدير كامل للجهاز العصبى !

* * *

إذا انتصر خيالك على عقلك : فأنت فى حالة حب !

* * *

الحب رد فعل اليأس

أعطيه صورتك الجميلة ، واعطها أنت صورتك الجميلة : وبعد ذلك يجىء الوهم الجميل !

* * *

لا علاقة للحب بالزواج . فأنت تتزوج مرة وتحب ألف مرة . فالزواج قانون والحب غريزة !

* * *

لا يصبح الحب ساحرا ، إذا عرفه الناس !

* * *

طبيعة المرأة : أن تحبك عندما لا تحبها ، ولا تحبك إذا أحببتها !

* * *

إذا أردت من امرأة أن تحبك فكن مجنونا . . فالمرأة لا تحب العقلاء !

* * *

من الضرورى أن تكون حريصا . . إلا فى الحب . . فإن الحرص يقتل الحب !

* * *

إننى أفضل هذا الرجل لأنه كذا وكذا . . وإننى أحب هذا الرجل رغم أنه كذا وكذا !

* * *

خير لى أن يكون حبى فاشلا ؛ من أن يكون فشلى بلا حب !

* * *

كل ما تريده أنت هو الحب : غلط : ! . . كل ما يريده الحب هو أنت : صح !

* * *

تقدمت للزواج من فتاة وكنت فى الرابعة من عمرى ، ثم قابلتها بعد عشرين عاما ، فهنأت نفسى على ذوق الجميل !

* * *

الرجل يخطف القبلة الأولى . . ويتوسل من أجل الثانية . . ويطلب الثالثة . . ويأخذ الرابعة ينتظر الخامسة . . والباقى يجىء من تلقاء نفسه !

* * *

المرأة لاتزال تذكر القبلة الأولى ، بينما ينسى الرجل القبلة الأخيرة !

فى هذه الأيام : يعيش الأعزب كالمتزوج ، ويعيش المتزوج كالأعزب .

* * *

الأعزب هو الرجل الذى ينظر أمامه قبل أن يخطو . . ثم يقف فى مكانه !

يجب أن تشعر المرأة بالامتنان لكل هؤلاء العزاب ، فلو كان الناس متزوجين جميعا فمن أين يأتى لها العريس ؟ !

* * *

قررت ألا أتزوج حتى أجد المرأة المثالية ، ثم وجدتها ، ولكنها كانت تبحث عن الرجل المثالى !

* * *

إذا سألتك إن كنت تحب تسريحتها هذه فاحترس ! . . لقد قررت أن تفاتحك فى الزواج بعد ذلك .

* * *

أسعد النساء مثل أسعد الشعوب : ليس لها تاريخ !

* * *

أن تتزوج : هذه مسألة خطيرة . . ألا تتزوج : هذه أخطر !

* * *

قرأت للعالم الكبير فرويد هذه العبارات : بعد ثلاثين عاما من الدراسة والبحث والفحص والتأمل لم أستطع أن أجد جوابا عن هذا السؤال : بالضبط ما الذى تريده المرأة ؟ !

* * *

الاشتباك فى الحرب : معركة . . وفى الحب : استسلام !

* * *

الحب قبل الزواج : مثل مقدمة موسيقية للحن ردىء !

* * *

كلما سافر إنسان وتعلم وتألم فى الخارج كان ذلك أكبر دليل على أنه سوف يتزوج فتاة من أعماق الريف .

* * *

ارتفاع نسبة الزواج بين مضيفات الطيران سببه : أن الرجال مربوطون فى مقاعدهم

الأذن عفيفة ولكن العين جريئة !

– هل تستطيع أن تغسل الأطباق ! !

– نعم بشرط أن تجففها !

* * *

الزواج : اعتراف برغبة شخصية جدا !

* * *

الزواج : كالفلوس فى جيبك . . ولكن سعرك فى النازل دائما !

* * *

الزواج : كورقة اليانصيب . . ولكنك لا تستطيع أن تمزق الورقة الخاسرة !

* * *

الزواج : معجزة تحول القبلة إلى واجب ، والحياة إلى عيشة والسلام !

* * *

كل امرأة : أم فى الصميم . . وكل رجل : أعزب فى الصميم !

* * *

كثيرون يقولون : كان نجاحى بسبب زوجتى الأولى وكانت زوجتى الثانية بسبب نجاحى !

* * *

خير لك أن تحب زوجتك من ألا تحب مطلقا !

* * *

زوجى لا يعاكس امرأة أخرى : إنه عاقل . . رقيق . . رقيق . . مهذب وعجوز أيضاً !

* * *

الزوجة المثالية لا تكون ، إلا إذا كان زوجها مثاليا !

* * *

لا تجر وراء المرأة ولا الأتوبيس : ستكون هناك كثيرات !

* * *

مع رجل تحبه كل النساء : إنها فى حالة شك . . ومع رجل تكرهه كل النساء : أنت تعيسة !

بعد الثلاثين تكون لك أفكار عن المرأة ، قبل الثلاثين تكون عندك مشاعر !

* * *

المرأة انتصار للمادة على العقل . والرجل انتصار للعقل على الأخلاق !

* * *

فى جلسة النساء : أحب جمالهن وأناقتهن وزينتهن . . وصحتهن !

* * *

أحب شاعرية الرجل ، ولا أحب الشعراء .

* * *

لم أسمع عن فتاة وقعت فى غرام شاب فقير !

* * *

لا أحب الرجل الذى أستلطفه ، ولا أستلطف الرجل الذى أحبه !

* * *

إذا رجل أتى لزوجته بهدية من غير سبب ، فلأن هناك سبباً !

* * *

نصيحة امرأة تزوجت غنيا ثم تزوجت مشهورا ثم تزوجت أحد رجال الدين : اجعلى زوجك فى حالة شك دائما !

* * *

وجه المرأة رأسمالها : ولكن الأرباح تعود على بقية الجسم !

* * *

المصائب مثل الجنس : إذا تحدثت عنها كثيرا ، فلن يحدث شىء بعد ذلك !

* * *

العشرة الطويلة تلد البرود والأطفال !

* * *

أول سؤال يجب أن يخطر على بالك إذا قبلت أرملة مرحة : ولكن لماذا أنت مرحة ؟

* * *

المرأة تمر بست مراحل من عمرها : طفلة وطفلة صغيرة وآنسة وسيدة شابة وسيدة شابة !

تحتاج الأم إلى عشرين عاما لتجعل من طفلها رجلا عاقلا ، وتحتاج امرأة أخرى إلى عشرين دقيقة لتجعل منه مغفلا !

* * *

إن الرجل وزوجته لا يعيشان معا : إنهما يتناولان طعام الإفطار معا ، ويتناولان الغذاء والعشاء معا . . ثم ينامان فى نفس الغرفة.. أما الرجل الذى يشعر بالألفة مع زوجته ، كما يشعر القاضى وكاتب الجلسة ، ورئيس الوزراء وزعيم المعارضة ، فهذه حالة نادرة ! .

كلمة واحدة غيرت الدنيا ! ممكن ؟

لو عرف الذين يكتبون أين تقع كلماتهم من نفوس الناس ، لارتجفت الأقلام فى أيديهم وترددوا كثيراً قبل أن يقولوا شيئاً . ولكن هذا لا يحدث إلا قليلاً . . عندما تواجهنا الحقيقة فجأة : فنعرف أن كلماتنا أحجاراً سقطت فى ماء ساكن فهزته ، ثم سكن كل شيء . . أوكانت بذوراً استقرت فى أرض واسعة مسطحة كأنها أكف متعطشة تنتظر . . أوكانت سموماً جاءت بعدها النهاية . .

وقد فزعت من نفسى . فقد قابلت شاباً قدم لى نفسه قائلاً : إنها كلمات إهداء بقلمك غيرت مجرى حياتى .

ونظرت إلى وجهه . . وإلى بشرته الناعمة ، وعينيه اللامعتين ، وملابسه المهندمة ، وإلى أصابع يديه . هناك دبلة من ذهب وأخرى من فضة . إنه ناجح سعيد . .

وقلت له وأنا أتوقع كلاماً كثيراً يضاعف سعادتى ، ويضيف رصيداً لحسابى عنده . قلت له : مبسوط ؟

قال : مبسوط . .

– ولكنك تقولها وكأنك لا تعنيها .

– فعلاً . فلم تكن عندى أية اهتمامات أدبية . . وإنما كنت أريد أن أكون طبيباً . . وعندما قدمت لك مجموعة من قصصى ، شجعتنى على الاستمرار ، وتمنيت لى مستقبلاً أدبياً . .

وعدت أنظر إليه مرة أخرى ، فوجدت الحزن عميقاً فى عينيه . . بل وجدت أن الحزن ملء عينيه . وندمت على أننى قلت وأسرفت فى التمنى له . ولم أكن إلا مجاملاً ومشجعاً . ولم أتصور – لحظة واحدة – أن كلماتى قضاء وقدر ! وتذكرت أنا أيضاً عندما عرضت قصيدة من نظمى على أستاذ اللغة العربية فى مدرسة المنصورة الثانوية ووجدت أنه يقلب فى أبياتها ويستعيدها ويزنها فى أذنيه . . وازداد احمرار وجهى وخجلى وقبل أن يسألنى قلت له : إن هذه القصيدة قد نظمها أخى الأصغر . .

وكأنني أعتذر عنها . مع أنني لم أسمع رأيه فيها . . وهز الرجل رأسه وقال : فعلاً كلام موزون ولكنه ليس شعراً . . قل لأخيك يلعب فى الحارة أحسن !

ومن يومها وأنا لم أنظم قصيدة واحدة ! ولما عرضت هذه القصيدة على الأستاذ عباس العقاد قال عبارة لم أنسها : هذا شعر شاب صغير . . يرى ولكنه لا يستطيع أن يلمس ما يراه . . ولكن سوف تصبح ذراعاه قادرتين على لمس الوصف والغناء ! ولكن جاءت هذه العبارة بعد أن أحيلت أوراق كلها إلى المفتى وحكم الإعدام . . أما عبارات العقاد فكانت باقة من الورود على قبر الشاعر الشهيد . . أو جاءت وساماً على مدفع يمشى فى مقدمة جنازة أحد المقاتلين فى غابة الأدب !

ومرة أخرى نشرت مقالاً عن «معنى الفن عند تولستوى» فى جريدة الأساس سنة ١٩٤٨ . وفوجئت فى ندوة الأستاذ العقاد بأنه اتجه ناحيتى يقول : قرأت مقالك . وأعجبنى أسلوبك !

وتحيرت بين السعادة والحزن : هل كل الذى أعجب الأستاذ العقاد هو أسلوبى ؟ ألم تعجبه الفكرة ؟ ألم يعجبه تناولى لمعنى الفن عند الأديب الروسى العظيم . . وفى نفس الوقت أسعدنى العقاد عندما قرأ لى ، وأسعدنى العقاد عندما قال ذلك أمام زملائى الشبان . . ولكن ضايقنى أن يكون إعجاب الأستاذ بأسلوبى فقط !

وعدت إلى البيت أقرأ المقال مرة أخرى . ولاحظت أن عباراتى كانت ضخمة ، وأن تراكيبى كانت فخمة وأن حفاوتى بالكلمات الطنانة الرنانة كانت أكثر من أى شىء آخر . فهل هذا هو الذى أعجب الأستاذ العقاد ؟

إن العقاد نفسه له أسلوب صعب وليس من السهل على كثيرين أن يدركوه . وإذا أدركوه ، أن يعجبوا به .

وأذكر أننى توقفت عن الكتابة تماماً . وقررت أن أكتب بطريقة مختلفة . وأن تكون عباراتى أسهل . وموسيقى مقالاتى أهدأ . وأن تكون أفكارى على وجه الألفاظ . أو قريبة من أصابع الناس وأن تكون ألفاظى فساتين قصيرة شفافة . . على قدر المعنى . وأن تكون (محزقة) أو ملتصقة . . فلا يتعب القارئ فى أن يفهم . ولا يحتاج إلى ثقافة كبيرة لكى يدرك ما أقول . .

وظللت أكتب نفس المقال فى البيت مائة مرة . . ولا أزال أحتفظ بالصورة المائة لهذه المقالة . ثم نشرت المقالة من جديد وباسم آخر . ولم أشأ أن أسأل الأستاذ العقاد . . فقد قررت أن أكون مختلفاً . لأننى مختلف ولأن السهولة من طبعى . والبساطة فى خلقى . والوضوح طريقى وأملى . ولم يدرك الأستاذ العقاد أين وقعت كلماته الطيبة من أعماقى ! لقد زلزلتها . . وحمدت الله أنها لم تحطمنى أو تصنع منى

صورة منه أو من أى أحد !

وحدث أيضاً عندما ذهب الأديبان العظيمان ماكسيم جوركى وتشيخوف لمقابلة الأديب الأكبر تولستوى . اتفق الاثنان على الموضوعات التى سيناقشانه فيها .

ولقياه ساعات . . وخرجا . وأمام قصر تولستوى وقف الرجلان يتساءلان : هل صحيح ما قاله !

فأجاب جوركى : إنه أكبر مما تصورت .

قال تشيخوف : وأكثر إنسانية . . ولكنه . .

فعاجله جوركى : لا تحاول أن تفسد هذه المعانى الجميلة التى استقرت فى نفسى . . دعنى سعيداً حتى الغد .

واعتذر تشيخوف . لن أفسد عليك وإنما أريد فقط أن أعلق على كلمة واحدة .

قال جوركى : أعرفها . دعنا إلى الغد .

والتقيا فى اليوم التالى . . قال جوركى أعرف الذى أوجعك منه وأوجعنى عندما سألنا : هل من الضرورى أن يكون الطريق إلى الأمل يمر بكل مستنقعات اليأس وحشرات الهوان وجفاف الجوع . . ألا يريان أن ضوء النهار يهدى إلى الشمس . . شمس اليوم وشمس الغد . . لماذا أنتما يائسان هكذا ! أليست هذه هى العبارة الأخرى .

وكانت هذه العبارة الأخيرة هى التى أوجعت الأديبين الشابين . لقد نبهها تولستوى إلى ضرورة التغلب على اليأس . وأن يتعاونا على إخراج الشمس والعمل فى حماس وأكثر ثورية !

وكانت هذه العبارة مصباحاً هادياً ، وسلماً امتد أمامهما لكى يتسلقاه إلى ما هو أرفع وأشمل وأكثر ثورية .

وعندما ذهب الفيلسوف الألمانى شوبنهور إلى أمير الشعراء فى عصره : جيته . قدم له عملاً فلسفياً . وطلب إليه أن يبدى رأيه . وفى اليوم التالى عاد الشاعر يقول له : قرأت كتابك . فكيف وجدته ؟

– أعجبنى لولا . .

– لولا ماذا ؟

– لولا أن شيئاً هاماً ينقصك ؟

– كل إنسان ينقصه شىء هام .

– أنت بالذات ينقصك أهم شىء فى حياتك كلها .

– إذا كان هذا رأى أمى أيضاً . فلابد أن أسمعه . إنها سيدة تافهة تحقد على . . لن تكون لها فى

هذه الدنيا أية قيمة . ولن يعرفها أحد إلا على أنها أمى . ولكن لن يقول أحد إننى ابنها ! ولم يشأ أن يكمل الشاعر الكبير جملته . فقد تركه الفيلسوف الصغير . . واختفى غاضباً .

فقد كان لأمه صالون أدبى . . وكانت تدعو إليه كل الشعراء والموسيقيين والفلاسفة . وكانت لا تؤمن بعبقرية ابنها ولذلك خشى الفيلسوف أن يكون أمير الشعراء قد تأثر برأى أمه فيه . .

أما الذى قاله أمير الشعراء جيته لرواد الصالون الأدبى فهو : هذا الشاب فيلسوف ما فى ذلك شك . ولكن ينقصه هذا المعنى : إذا أردت أن يكون لأى شىء فى هذه الدنيا معنى ، فاجعل لنفسك معنى !

فالفيلسوف شوبنهور متشائم ، ورأيه فى الدنيا أنها لا شىء ، ورأيه يساوى ما يعانيه الإنسان . والحياة تخدع الإنسان لكى يعيش . وتسخره عن طريق الجنس لكى يكون له أولاد ، هؤلاء الأولاد هم امتداد له . ولكن هؤلاء الأولاد هم عذاب الدنيا ومرارة الحياة . ولكن الحياة إذا أرادت أن تستمر خدعت الإنسان باسم الحب . والحب ليس إلا الجنس . والجنس ليس إلا حيوانية الإنسان . فكأن الإنسان لابد أن يكون حيواناً لكى تكون هناك حياة . . فهو لعبة الحياة باسم الحب والزواج . . فالإنسان لا قيمة له . وكذلك هذه الحياة . . هذه الدنيا !

بعد ذلك بسنوات قال جيته : ارتكبت غلطة شنيعة . فلو قلت لهذا الفيلسوف رأيى فى مكان آخر ، لتغيرت نظرته إلى الدنيا . . ولكن ليست كلماتى هى التى أوجعته ، وإنما المكان الذى قلتها فيه ! إنها الكلمة أو الكلمات . .

والتوراة تبدأ بهذه الآية : فى البدء كانت الكلمة . وكانت الكلمة هى الله . . والقرآن يقول (. . إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون) ! وفى التاريخ الطويل للسحر عند الإنسان ، نجد الساحر يستخدم كلمات معينة . . هذه الكلمات لها قوة الأشياء المادية . . لها الحديد والنار . .

وفى عالم الحب ، وهو أيضاً عالم السحر . . فكل ما فى الحب يبدأ بالكلمات وينتهى بها . . مثلاً وأولاً وآخراً كلمة : الحب . . كيف يقولها المحبون . ومتى وكيف يقولها أى شىء إلا هذه الكلمة وكيف يحرصون على أن يقولوها بسرعة ، وكيف يترددون فى نطقها ، خوفاً عليها ، وخوفاً منها على أنفسهم . . وخوفاً من أنها إذا قيلت نقص وزنها وطولها وعرضها . . وكيف يجعلونها خاتمة كل شىء . . مع أنها كلمة صغيرة . ولكنها قوة كلمة : كن . . أو عظمة عبارة كن فيكون !

وأذكر قصة جميلة للكاتب الإيطالى البرتومورافيا اسمها (آخر حرف) . . القصة عن واحد من الذين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم . . وهذا الرجل يحب الأسماء ذات الدلالة الجميلة الخيرة ، ولذلك اختار زوجة اسمها : طيبة . . وجعل أسماء أولاده هكذا : نور وكنز ومحبة وسلام وربما كان ذلك هو

السر فى أن يرى ويختار أسماء أحسن من اسمه . أو أن يرى الناس فى اختياره للأسماء الأخرى نوعاً من الاعتذار عن اسمه القبيح . . أو لعله يريد أن يقول إنه خير من أبويه اللذين اختارا له هذا الاسم الذى يختلف تماماً عن طبيعته وخلقه ، فى إحدى المرات رأى أن يتخذ قراراً هامًّا . . ولكنه لم يجد أحداً يناقشه فهو فى كل مرة يتجه إلى أحد الأصدقاء . . يجد شيئاً يضايقه ، كأن يكون اسم الشارع الذى يسكن فيه يبعث على التشاؤم . . أو اسم الكلب أو أحد الأولاد . . ولم يجد أحداً تنطبق عليه هذه المواصفات المتفائلة التى يريدها . . وأمسك دفتر التليفون وقرر أن يضع يده على عشرة أسماء وأن يختار الحرف الأول من كل اسم ويكون من هذه الحروف كلمة أو عبارة ، ويستوحى من هذه العبارة القرار الذى يريد : هل يترك عمله أو لا يتركه ؟ ولم يسعفه دفتر التليفون . . فذهب إلى ملاعب سباق الخيل . واختار الحروف الأولى من أسماء الخيل . . ولم تفلح هذه الحيلة . . وعاد إلى البيت فى حالة ضيق شديد . . وقبل أن يدخل البيت ، رآه أحد أصدقائه ضاحكاً . . فسأله الرجل عن الذى يضحكه ، فقال : لأنك ارتديت البالطو بالمقلوب . . صحيح أن لهذا البالطو وجهين . ولكن الوجه الآخر هو الذى يناسب هذا الفصل من السنة . . اقلب البالطو ! ونبهته هذه الكلمات إلى شىء يبحث عنه . . وخبطته هذه العبارة فى رأسه فبدلاً من أن يقلب البالطو قلب الحروف التى جمعها من أسماء الخيل . . فوجد أمامه كلمة تشجعه على اتخاذ قراره . . واكتشف فجأة أن اسمه هو ، إذا انقلب كان معناه دليلاً على الخير ، ولم يكن قد تنبه إلى ذلك من قبل . . لقد تغير كل شىء . . وانهارت مخاوفه ومتاعبه فجأة وأشرقت دنياه . . وتغير لون الحياة وطعمها : إن كلمة قد صنعت له ومنه شيئاً جديداً سعيداً !

ومن عجائب عادات الحيوان ، ما يفعله الثعلب إذا امتلأ جسمه بالبراغيث . . فهو لا يعرف كيف يتخلص منها ، ولكن الغريزة تهديه إلى حيلة بارعة ، فالثعلب ينطلق فى الحقول يجمع بقايا القطن أو القش ثم يلفها بلسانه حتى يجعل منها كرة صغيرة يضعها فى فمه . . ثم يذهب إلى إحدى الترع . . ويهبط إلى الماء بذيله تدريجاً . . وكلما دخل فى الماء هربت البراغيث إلى المناطق التى لم يمسها الماء . . ومايزال الثعلب يفعل ذلك حتى تتجمع البراغيث والحشرات الأخرى فى رأسه . . ثم يغمس رأسه قليلاً حتى تذهب البراغيث فى القطن والقش . . وبسرعة يلقى بها الثعلب فى الماء !

كأن هذه (الكرة) التى اهتدى إليها الثعلب (كلمة) طيبة جاءت فى حينها ، فغيرت حياة إنسان أو غيرت الدنيا كلها . . إن كلمة واحدة ليست شيئاً قليلاً . . وما من أحد إلا فى حياته كلمة أو عبارة كانت سبباً فى امتلاء جسمه ونفسه بالأوجاع ، أو كانت سبباً فى شفائه من كل ألم !

كالحوت يموت ويعيش على أذنيه !

في أساطير الشعوب : قصة ثعبان يحمل فى فمه جوهرة تضيء له . الثعبان أعمى ولذلك يلقى بالجوهرة على الأرض . ويسعى فى نورها بحثاً عن الفريسة . . وهذه الجوهرة التى تضيء لا تستطيع أن تتحرك . . ولكن لابد أن يحملها ثعبان وينقلها من مكان إلى مكان . . ويقال إن الفنان أو الكاتب أو صاحب الرسالة الدينية أو الاجتماعية هو هذه الجوهرة التى يحملها حيوان خطر من أرض إلى أرض !

وفى قصص ألف ليلة وليلة . . أن أحد العفاريت قد نام على ساق فتاة جميلة على حافة بئر عميقة تطل منها رؤوس عدد من الأفاعى . . ويقال إن هذا العفريت أعمى . . وهو فى حاجة إلى هذه الفتاة لكى تدله على مكان آخر يستريح فيه العفريت لتظل الفتاة فى حالة من الخوف . . ومعنى ذلك أن الذى يقدر على الحركة لا يستطيع أن يرى . . والتى تستطيع أن ترى لا تقوى على الحركة . .

ويقال إن الفنان أو صاحب الرسالة الاجتماعية أو السياسية هو هذه الفتاة ، التى تعيش فى خطر دائم .

والكاتب أو الفنان يعيش بين الناس . . ويعيش من الناس ويعيش ضدهم أيضاً . فهو لابد أن ينقل عنهم مالا يقدرون على التعبير عنه ، وهو لابد أن يقول ذلك للناس . . فالناس هم هدفه ، وهم طريقه إلى الخير والسعادة والحق والعدل والجمال . . ولكنه إلى حد ما ، ضاق بالناس لأنهم يقيدون حريته . . وكثيراً ما ثار عليهم . . ولكن لابد أن يكون على صلة بهم وأن يكون طريقه عليهم وإليهم وبعيداً عنهم . . ولكنهم هناك دائماً : فى حياته وفى خياله وفى أحلامه لا يستطيع أن يتخلص منهم . .

وعندما يصور الفيلسوف الفرنسى البيركامى علاقة الفنان بالناس ، جاءت إلى قلمه صورة النبى يونس عليه السلام فى بطن الحوت . . فالحوت هائل . . حيوان مخيف . وفى داخل الحوت صمت رهيب وظلام عميق . . ووحدة مفزعة . . ويونس هو الفنان . أى فنان . لابد له من عزلة . ولابد له

من خلوة ومن هدوء رهيب . . وبعد هذا الهدوء يخرج من بطن الحوت ولكن لا يذهب بعيداً عن الحوت . . فهو قد خرج من بطنه ليتحدث إليه . . وليصف له أعماق هذا الحوت . . ويصف له طعامه وشرابه . . وأوجاعه . . فالحوت نفسه لا يعرف ذلك . . وأنه هو فى حاجة إلى إنسان يحبسه فى داخله . . ثم يطلقه بعد ذلك . . والنبي يونس هو الفنان الذى يعيش فى وحدة وفى وحشة خطيرة أليمه .

وإذا ظل الفنان فى داخل الحوت لا يخرج منه ، مات مختفياً . وإذا ظل بعيداً عن بطن الحوت مات من شدة البرودة وأرهقه الضياء . . فلابد أن يعيش الفنان ذهاباً وإياباً بين بطن الحوت والشاطئ . . أو بين أعماق الحوت وسطح الحوت . . فالفنان يخاف من الحوت . ولكن لا حياة له بغير هذا الخوف . أو الابتعاد عنه قليلاً ليعود إليه . .

أو بلغة حديثة : فإن العالم حول الفنان ليس إلا قنبلة زمنية ناعمة . . دقيقة هادئة . ولكنها قاتلة . فالانفجار ممكن فى أى وقت . وهى لا تنفجر إلا فيه بعيداً عن الناس .

وهذه العزلة المظلمة أو الباردة أو الساخنة . كثيراً ما جعلها الفنان ورجال الدين بعيداً عن الناس . فالرهبان يجعلون صوامعهم فى الصحارى . . أو فوق الجبال . . وبعض القديسين كانوا يجلسون فوق الأعمدة فى الصحارى . . فهى أماكن عالية جافة . . ولكن هذا هو (الجو) الذى تصفو فيه النفس وتقترب من معانى الحقيقة . . أو من الله . .

والعلماء لهم صوامع مثل رجال الدين . . وهذه الصوامع عليها حراسة مشددة مخيفة . والذى يقرأ كيف يعيش علماء الذرة أو الفضاء فى أمريكا أو فى روسيا ، يجد أن الدولة تعاملهم كما لو كانوا مجرمين . فالحراسة حولهم ليلاً ونهاراً . ولا أحد يقترب منهم . ثم إنهم جميعاً يخضعون لرقابة مخيفة . فلا حرية لهم . . وإنما أبوابهم وجيوبهم وتليفوناتهم وطعامهم وشرابهم كل ذلك يراقبه رجال الأمن . . إن هؤلاء العلماء يقيمون فى سجون أنيقة ونظيفة . . إنهم جميعاً يسكنون عدداً من الحيتان الضخمة المرعبة . . ولولا ذلك ما تحقق على أيديهم شيء . . إن الدول حريصة عليهم . . ولكن هؤلاء العلماء لا حرية لهم ، فهم يعيشون فى عزلة تكنولوجية موجعة !

إن العالم الأمريكى جنزبرج أحد علماء القمر يروى فى حديث تليفزيونى أنه لا يستطيع أن يرتدى البدلة التى تعجبه . . إنه يرتدى أنواعاً خاصة من الأقمشة . هذه الأقمشة فيها خيوط معدنية لتستطيع الأجهزة الإلكترونية متابعة أدنى حركاته فى بيته . . إن بدلته إذن سجن معدنى . . إن بدلته سجن انفرادى مدى الحياة . وكل جريمته أنه أحد العلماء الكبار .

ولما ذهبت إلى اليابان رأيت جزيرة ميكوموتو . . الرجل الذى اخترع اللؤلؤ المزروع . أو اللؤلؤ الصناعى . . فهذا الرجل يعلم أن حيوان اللؤلؤ يحتاج إلى سنتين أو أكثر لكى (يفرز) حبة كاملة الاستدارة . ولكن هذا الرجل يريد أن يعاون حيوان اللؤلؤ على إنتاج هذه الحبة فى وقت أقصر . . فكان يأتى بأنواع من المحار . . ثم يجعل هذا المحار على شكل كرات صغيرة . . ويأتى بحيوان اللؤلؤ ويضعها فى داخل جسمه . . ويقوم حيوان اللؤلؤ بعزل هذه الحبة عن بقية الجسم . . وعملية العزل هذه هى بأن يفرز سائلاً لامعاً . . هذا السائل هو الذى تتكون منه حبة اللؤلؤ وفى وقت أقصر . .

وأحسست أن حيوان اللؤلؤ هو الفنان الحقيقى . . أو هو مثل الأنبياء . . فهو يعيش فى مكان هادئ من البحر . . على ارتفاع من سطح البحر . . ومن قاع البحر . . وبالقرب من الشاطئ . . وفجأة نجد شيئاً قد تسلل إلى جسم حيوان اللؤلؤ . . هذا الشىء قد يكون ذرة من الرمل . . أو يكون كائناً ميكروبيًّا . . هذا الشىء الضئيل جدًّا يؤلمه . . ويوجعه . . فيهرب حيوان اللؤلؤ بعيداً . . ويظل يعزل هذا الشىء عن طريق المادة التى يفرزها . . حتى تكون حبة اللؤلؤ . . إنه إذن فنان انطوى على جرحه وعلى وجيعته . . وراح ينظم هذه اللآلئ . . بلا ضوضاء ولا أضواء . . فهو حيوان جريح ، تحيط به كائنات كثيرة مخيفة . ورغم الخوف حوله ، فإن هذا العمل الفنى الجميل قد عزله عن الموت الذى يهدده . . وانطوى بعيداً أو انطوى يعيش حياته كلها فى حبة لامعة لا يعرف أين تذهب !

وفى كتاب من أكثر من سنتين عن (الرجل الذى طوق أعناق النساء ميكوموتو) يقول المؤلف الفرنسى جاك ليفر : إن ميكوموتو يعترف بأنه تعلم صناعة اللؤلؤ من حياة الرهبان فقد كان له قريب تفرغ للعبادة . . وكان يزوره من حين إلى آخر . . ويندهش كيف أن هذا الراهب قد ارتضى لنفسه هذه الحياة القاسية . . فلا ملابس ولا شراب ولا صحة تقوى على التعذيب المستمر لجسمه ولأهله من الأغنياء . . ولكن الذى يجعله يتحمل مشقة هذه الزيارة ، هو أن الراهب كان يتلو عليه قصائد من أجمل الشعر وأرقه !

وينظر ميكوموتو إلى الصومعة التى يعيش فيها الرجل فيجدها ضيقة خافتة غليظة الأحجار لا ضوء ولا هواء . . ويتساءل : من أين يتسلل هذا الكلام الجميل . . إن كل شىء حول الرجل جامد بليد ضيق مميت . . فكيف تولد هذه الحياة ؟ شىء عجيب ! ويقول ميكوموتو إن هذا الراهب رغم احتقاره للحياة ، فإنه لا يستطيع أن يتجاهل وجودها . . بل إنه حريص أشد الحرص على أن يتلو أشعاره على الناس . فبغير هؤلاء الناس لا يشعر . . وبغير إعجاب الناس بشعره ، لا يكون هذا الشعور بالسعادة . . فالراهب يستمد سعادته من إعجاب الناس به . . مع أن هؤلاء الناس الذين هو منهم

أشد احتقاراً لحياتهم ، ولكنه محتاج إلى إعجابهم ، لكى يرضى عن نفسه فناناً قد اعتزل الحياة !

أما هذه القواقع أو حيوانات اللؤلؤ فإن هناك حشرات صغيرة تتسلل إلى داخلها وتأكلها . ويتحول «المحار» أو الغطاء الصلب لحيوان اللؤلؤ إلى قبر عائم ويموت، ذلك الفنان المبدع .

ومنذ فترة نشرت صحيفة (هيرالدتريبيون) الأمريكية . . أن أحد الحيتان قد وجدوه ميتاً على الشاطئ . . وبعد يوم آخر وجدوا حوتاً ثانياً . . وكلاهما فى غاية الضخامة والشباب . ولكن كيف مات الحوت . . وقبل ذلك ماتت على الشاطئ مئات الحيتان ؟

يقول العلماء إن هذه الحيتان أخطأت الطريق إلى الشاطئ . . أو أنها – مثل السفن – قد جنحت . . أى أن المحيط قد هاج فألقى بها على الشاطئ فحاولت أن ترتد إلى البحر فلم تستطع وقبل ذلك كان يقال إن الحيتان لها قلوب الأطفال . فكثيراً ما انتحر الحوت بعد أن وقع صغاره فى شباك الصيادين ، ويقال : إن أنثى الحوت إذا مات زوجها انتحرت من بعده ، وقد عثر الصيادون على إناث كثيرة على الشاطئ .

وقد استدعت احدى الولايات عدداً من العلماء لفحص اثنين من الحيتان ، وقرر العلماء ان الحيتان فى صحة جيدة ، ولذلك قاموا بتعويم الحيتان فى المحيط وانطلقت الحيتان تستأنف حياتها من جديد .

ولكن نظرية جديدة تقول : إن هناك أنواعاً من الديدان كثيرة وضخمة . تعيش فى داخل أذنى الحوت . وهذه الديدان تجعل الحوت عاجزاً عن سماع شيء . والحوت يعيش من أذنيه .

وهو يغوص تحت الماء ليسمع صوت وحركة الأسماك الأخرى ويهتدى إليها ويبتلعها . فإذا انسدت أذنا الحوت لم يعرف طريقه إلى طعامه . ومات جوعاً . . ولذلك فإن الحيتان إذا ذهبت إلى الشاطئ فهى تهتدى بالأصوات المنبعثة من الشاطئ . . وفى نفس الوقت تصاب بما يشبه الجنون . ولذلك فصاحب هذه النظرية الجديدة قد فحص عدداً من الحيتان التى وقعت حية فى شباك الصيادين فوجد فى أذنيها أكداساً هائلة من الديدان . . وأجرى عليها تجارب صوتية فلاحظ أنها لا تستجيب . . وعندما نظف آذانها كانت تستجيب لصوت سمكة لا تتجاوز طول الأصبع وتبعد عنها عشرات الأمتار !

ويبدو أن الحيتان ، مثل كثير من الكائنات البشرية الكبرى التى تحكم والتى حكمت العالم ، تعيش على أذنيها . . وتموت بها أيضاً !

وهذا هو الفرق بين الحوت وبين الذين يسكنون بطون الحيتان . . فساكن بطن الحوت يموت بلسانه . . يموت بقلمه إذا قال شيئاً يغضب الحوت ! .

كانت معلومات أحذية من حديد !

نصيحة من الكاتب الساخر جورج ميكش لكل من يسافر إلى بلد غريب ، ألا يبدو غريبا . لماذا ؟ لأن الناس لا يساعدون الغرباء . ولكن إذا حاولت أن تكون ابن بلد . فإن أحدا لن يلتفت إليك . لأن الناس عادة لا يساعد بعضهم البعض .

ولكن هناك إصرارا من كل مسافر أن (يتوطن) فى أولى لحظات نزوله إلى الأرض الغريبة . . وبسرعة يدخل فى حوار ودى مع الناس . . وهو بذلك لا يستفيد شيئاً . إذ يتركه الناس يتصرف على أنه عارف بكل شيء . وقد جربنا ذلك . وكانت نتائج عجيبة – وهذه هى المتعة !

وكل واحد عنده معلومات عن البلد الذى يسافر إليه . عادة قليلة . . ولكنه يتوقع أن يعرف الكثير بنفسه . أنا أذكر عندما ذهبت إلى لندن لأول مرة من عشرين عاما ، تجمعت كل معلوماتى فى حقائق قليلة من بينها أن الإنجليز أ.س فى حالهم . . وأنه إذا لم تحدث أحداً فإنه لا يحدثك . ثم إنهم منظمون ولأنهم شعوب متعلمة فيكفى أن يقرأ الإنسان التعليمات وينفذها . وبذلك لا يحتاج أحد إلى أن يكلم أحداً. ولما وقفت الطائرة فى مطار بلاك بوش ، نزلنا جميعا فى هدوء . أو فى طوابير ، أو توهمت ذلك . . وجاء دور الحقائب وقرأت لافتة تقول : من فضلك افتح الشنطة . وبسرعة وبمنتهى الطاعة فتحت الشنطة الكبيرة والصغيرة وأخرجت منها الكتب ووضعتها إلى جوارها . . وانتظرت . . الناس يروحون ويجيئون . . ويحملون حقائبهم وطال انتظارى . . ورجال الجمارك يتجاوزوننى ذهابا وإيابا أن أخرج ككل ركاب الطائرة . فقال أجدهم اخرج . . قلت : وحقيبتى المفتوحة ؟ فقال : اقفلها . .

ولم أفهم . . وسألته إن كان لا يريد أن يفتشها . فسألنى : لماذا ؟ قلت التعليمات تقول ذلك .

وسألنى : أية تعليمات ؟ قلت : المكتوبة على الحائط . فهز الرجل رأسه وقال إنها تعليمات للجنود منذ الحرب العالمية الثانية . . وأقفلت حقيبتى وحملتها . . وخرجت . لأن أحداً لم يطلب منى أن أفتح حقيبتى . . وإنما أنا تطوعت بذلك . . ولم يكن عندى وقت لأشعر بالخجل مما فعلت . . وفى زحمة

الناس وفرحتي بالخروج نسيت ما حدث . واندهشت كيف انى قروى إلى هذه الدرجة . وقلت لنفسى : هل لو وجدت إعلانا على الحائط يقول : اشرب شاى ليبتون ، هل أهجم على الحائط أو هل لو وجدت لافتة صغيرة تقول : اطفئ السيجارة هنا ، ولم أكن مدخنا ، فهل أشترى علبة سجائر وأخرج وأشعلها وأطفئها فى المكان المشار إليه ! وأول مرة ذهبت إلى باريس . . لا أعرف بالضبط ما الذى كان يدور فى رأسى . . أو يجعل رأسى يدور . . فمعلوماتى عن فرنسا كانت من الكتب أو من الشعر والفن وبعض الأفلام . ولم تكن لى حياة اجتماعية أناقش فيها أحداً عن معنى باريس بالضبط . وفجأة وجدتنى فى مطار أورلى بباريس . . ولا شىء فى رأسى أجده أمام عينى . . فقد تصورت أن كل الناس ، كل الفرنسيين فى حالة هيام دائم . . قبلات وأحضان وغرام . حتى الطيور فوق الأشجار بل الأشجار نفسها فى حالة هيام دائم . . ولم أفكر طبعاً أن الذين يتعانقون فى حاجة إلى وسائل مواصلات تنقلهم أو فى حاجة إلى شوارع مضاءة وإلى صحف ومجلات ومستشفيات وقبل ذلك إلى مدارس — وكل هذه الخدمات العامة لا يمكن أن يقوم بها ناس فى حالة سكر وعربدة دائمة . . لم يخطر على بالى هذا المعنى . . ولما نزلت المطار وجدت أناسا ككل الناس . . حركة سريعة . . وكل واحد مشغول بهمومه . . صحيح بين الحين والآخر نجد فتاة جميلة ووراءها واحدة نجدها أجمل منها . . ويمكن أن تجيد تحيات . . وسلامات وقبلات . . ولكن الحركة لا تتوقف والطائرة تحرق البنزين وتخرم الآذان وتتعجل المسافرين . . أشياء عجيبة . وبدأت حيرتى فى البحث عن شنطتى . . وكان لابد أن أجد إحدى المضيفات أسألها . . وسألتها ، ورأيت فيما يرى النائم ، فقد كنت كالنائم ، إن لها أسناناً ذهبية أى أن أسنانها الأصلية تآكلت . . وإنها لم تعطنى من وقتها إلا نصف دقيقة ثم اتجهت إلى غيرى . . ولم أستفد شيئاً . وجلست على مقعدى حتى أفيق . ولما أفقت لم أجد فارقاً بين مطار باريس وأى مطار أوربى آخر . . وإنه خير لى أن أنهض حتى لا أضيع بين الأذرع والسيقان . . وخرجت من المطار وأنا أريد أن أفتح دماغى وألقى بما فيه من معلومات عن باريس ، لا أدرى من أين جمعتها . .

ولأسباب كثيرة كانت عندى معلومات عن روما عندما رأيتها لأول مرة إن الإنسان إذا مشى فى شوارعها يستطيع أن يضحك مع أى أحد . . إن الإيطاليين مثل أولاد البحر الأبيض . . أناس طيبون يحبون الهيصة . . وقليل من اللغة الإيطالية تنفعك فى حياتك اليومية . . وإذا لم تكن تعرف اللغة الإيطالية فهم أيضا لا يعرفونها . . إنهم يتكلمون لهجات عديدة . . وبعضهم لا يفهم ما يقوله البعض الآخر . ومن الغريب أن أهل الشمال فى إيطاليا كانوا يظنوننى من أهل الجنوب . . ولم أكن أجد حرجا فى ذلك . وإنما كنت أجد فى ذلك تفسيراً لعجزهم عن فهم ما أقول . . وهم يجدون ذلك معقولا —

لأننا – نحن فى الجنوب نتكلم لغة بها مفردات من لغات أخرى . . بعضها من اللغة العربية ؟

وفى الصباح الباكر نزلت إلى الشوارع . . وجدت كناسا فخما ضخما يمسك مقشة ويغنى وكان يكتسح جانبى الشارع . ودون أن أقول له صباح الخير قلت : ماذا تصنع يا قومندان ؟ ولم يتوقف الرجل عن الغناء أو الكنس . فاقتربت منه أكثر . فإذا به يقول لى ما الذى ترانى أصنعه أرضع الأطفال ؟ . أطعم الخنازير ؟ إننى أغسل وجه الأرض قبل أن تفكر أنت فى غسل وجهك ! ولم أعرف إن كان يداعبنى أو يشتمنى . . ولكن لم تطاوعنى نفسى أن أسكت . . فقلت له بعد تفكير : بل غسلت وجهى منذ ساعة وأريد أن أعاونك على كنسك وجهك ! واستدار الرجل ليطاردنى بالمقشة . وجريت وهو ورائى . . وعندما توقفت فى نهاية الشارع تساءلت : ولكن أين حب النكتة والهيصة والضحك . وكان ذلك أول إيطالى تحدثت إليه فى حياتى !

وفى مدينة سالزبورج بالنمسا ذهبت لأتفرج على أول مهرجان موسيقى بعد الحرب الثانية . المدينة ولد فيها الموسيقار موتسارت . . والشوارع والميادين ودار الأوبرا والمقاهى تحمل اسم هذا الرجل . . والراديوهات المفتوحة كلها تذيع موسيقاه . . الناس يأكلون ويشربون وينامون ويحلمون على موسيقاه . . الجو كله غنائى . . ويقال إن الموضوع الذى تبدأ به الكلام مع أى أو أية واحدة هو موتسارت . . هو الموسيقى . . إنهم لا يفهمون من الدنيا إلا هذا الفن – هذه معلوماتى وذهبت وقد حفظت حياة هذا الرجل . . وأريد أن أدخل بالقوة فى أية مناقشة أستعرض فيها معلومات أؤكد لأى أحد أننى أعرف عن بلاده شيئاً هامًّا . وفى محطة سكك حديد سالزبورج جاء شيال . وقلت مداعبا : إن لك ملامح موتسارت فقال : إنه أخى ! ولم أفهم ! كيف يكون أخاه . . إن الموسيقار قد مات من مائتى سنة وزيادة . . فقلت إنه أخوكم كلكم وأبوكم طبعا . فقال الشيال : لم أفهم . . ولم أعرف كيف أوضح المعنى . . وتظاهرت بأننى أنظر إلى أشياء بعيدة أحاول أن أخفى حيرتى وأخرج يبدى وأظافرى من الحفرة التى وقعت فيها !

وفى السيارة شعرت بالارتياح قليلا وقلت للسائق : ليت موتسارت كان يعرف السيارات إذن لاستراح من العربات التى تجرها الخيول ، فقال الرجل : ولكنه بدأ حياته سائق تاكسى . . إنها بداية طبيعية وسكت تماما . وحاولت أن أغنى ، ونظر الرجل فى المرآة يسألنى إن كنت أشكو من شيء . . قلت إننى أغنى ألحانا معروفة عندنا فى بلادنا . . وسألنى إن كنت فى إحدى الفرق الموسيقية فقلت له نعم . . وسألنى عن دورى فى الغناء فقلت : أنا من طبقة الباريتون . . وسألنى : ما هى الأوبرات التى اشتركت فيها فقلت : الناى السحرى لموتسارت طبعا ! وسألنى عن الدور الذى أؤديه فقلت : سائق

تاكسى وتعجب الرجل من هذه المداعبة السخيفة . . أما تفسير الارتباك الذى حدث فى المحطة فهو أن الشيال له أخ اسمه موتسارت ولذلك فهو شبيه به . . أما سائق التاكسى فهو يقول : إن موتسارت بدأ حياته سائق تاكسى . . فهو يقصد صاحب شركة التاكسيات وليس الموسيقار . . والآن فقط عرفت أنه يمكن لأى إنسان أن يسمى نفسه أو ابنه على اسم الموسيقار العظيم . وكنت أتصور أن هذا غير ممكن !

يقول الفيلسوف الفرنسى سارتر إنه من ضمن الأخطاء الكبرى التى يقع فيها الأفراد والشعوب أن تضع معلوماتها فى قوالب من حديد – معلومات عن الشعوب الأخرى . وتظل هذه المعلومات جامدة تعوق التفاهم والتعايش . . ويقول سارتر إن الفرنسيين كانت معلوماتهم عن الصين مضحكة . . إنهم أتوا بمجموعة صور فوتوغرافية ووضعوها الواحدة إلى جوار الأخرى واكتفوا بهذا القدر . فلما ذهبوا إلى الصين اندهشوا كيف أن الصين مختلفة عن الصور وأعجب من ذلك أنهم لم يصدقوا ما رأت عيونهم . . وكأنهم يطالبون الصين بأن تكون مثل الصور . . ولم يطالبوا أنفسهم بتمزيق هذه الصور !

يقول سارتر أيضا : إن أهل الصين القدامى كانوا يضعون أقدام الأطفال فى قوالب من الحديد حتى لا تكبر القدم . . لأن القدم الصغيرة رمز الجمال . وبذلك يوقفون نمو الحياة باسم الجمال الكاذب وقد أخذ الفرنسيون هذه العادة الغريبة عن الصين فحبسوا معلوماتهم فى أحذية من حديد !

وفى مسرحية (هبط الملاك فى بابل) لأديب سويسرا فريدريش ديرنمات نجد أن ملاكا من السماء يهبط فى بابل ومعه تعليمات محددة والتعليمات تقول له إن أفقر رجل هو شحاذ مشهور اسمه (عاقى) ولكن الملاك ينزل فى اللحظة التى يجد فيها اثنين من الشحاذين يدخلان فى رهان أحدهما يقول للآخر : أنا أقدر على أن أشحذ أكثر منك . أما المتراهنان فهما الشحاذ (عاقى) والملك الذى ارتدى ملابس الشحاذين . . ويلاحظ الملاك أن الملك لا يعرف كيف يمد يده إلى الناس وكيف يرغم الناس على أن يعطوه . . أما الشحاذ المحترف فهو أقدر على الحصول على المال ، ومعنى ذلك أن ملك بابل هو أفقر رجل فى العالم .

وهذه هى البداية للنكتة : فالتعليمات التى عند الملاك تختلف عن الواقع . ولا يستطيع الملاك أن يتصرف فى هذه التعليمات . . إذن لابد من أن يساعد الملك ويترك الشحاذ الحقيقى ! !

وهذا بالضبط ما يقع فيه المسافرون إلى بلاد غريبة . . فعندهم معلومات وعندهم خريطة ولا يريدون أن يغيروا ما لديهم . وإنما يلتزمون بما عندهم ويغمضون عيونهم عن الواقع . .

وفى الحرب العالمية الثانية الكثير من قصص الجواسيس تسقطهم الطائرات ويهبطون إلى الأرض سالمين . . ويفتحون الخرائط التى فى جيوبهم فيجدونها مضبوطة واضحة . ولكن الطائرات أخطأت

وأنزلتهم فى أماكن أخرى . ويبقى أن يتصرف الجاسوس بذكاء . . أو يظل عبداً للتعليمات والمعلومات التى عنده ويضيع !

يقول الكاتب الساخر جورج ميكش فى كتاب له عن إسرائيل عنوانه (بلد اللبن والعسل) : لم أكن فى حاجة إلى أن أبدو أجنبيًّا . وإنما وجدت مشكلة فريدة أمامى . . فكلهم أجانب ولا أحد يعرف ما يقوله الآخرون ، عشرات اللغات واللهجات . . فمشيت بظهرى . . لم يسألنى أحد . . تكلمت بأصوات لا علاقة لها باللغة . فوجدت من يفعل ذلك . . وأحسست كأننى أنظر فى مرآة . . وجلست على مقعد فوجدت أناسا كثيرين قد فعلوا ذلك . . قررت أن أنام فوجدت من سبق إلى التمدد على العشب . . وكان فى جيبى كتاب عن إسرائيل . . فألقيت به فى الشارع لأن الذى أراه يطابق تماماً ما عندى !

ولم أشعر مثل جورج ميكش هذا إلا مرتين . مرة عندما كنت فى مدينة (الحديدة) فى اليمن . مشيت فى الشارع ومعى يوسف السباعى ونجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل . . الناس كلهم مدججون بالسلاح . . كلهم . . كأنهم خرجوا من كتاب عن الحياة قبل الإسلام أو قبل ذلك بقرون . . الوجوه شاحبة صفراء . . والعيون زائغة . ولا نعرف فى وجوههم صداقة أو عداوة . . إن عيونهم تعبرنا إلى شىء على الأرض أخضر هو أكوام أعواد القات . .

ومرة أخرى عندما ذهبت إلى المقابر فى مدينة جنوة ، هذه المقابر المسماة (كامبو سانتو) ، تحفة فنية . فكلها مصنوعة من الرخام إنها متحف عظيم . لا شىء إلا الفن وإلا الورود والظلال والأشجار — كل شىء يغرى الإنسان بأن يموت !

ولم أعد أضحك على المطبات الصغيرة والمقالب العابرة التى يعانيها المسافرون الجدد إلى أرض غريبة !

تفسير طبي جديد لشفتي كليوباترا !

الحب

(فى) حياة الرجل . . ولكن الحب (هو) حياة المرأة . . وعلى ضوء الحب يتخذ الرجل قرارات هامة فى حياته وحياة الآخرين . . فكما يحب الرجل . أوقل لى كيف ولماذا ومتى ومن يحب؟ ، أقل لك من أنت – وبهذا المعنى أصدر الكاتب الإيطالى كارلو فرانتسير روايته الممتعة عن (كليوباترا ساحرة النيل) والتى أصبحت فيلما سينمائيًّا بطولة اليزابيث تايلور وريتشارد بيرتون وركس هاريسون ولم يعرض فى القاهرة ، ورأيته فى عرض خاص فأعجبنى وأمتعنى وبهرنى . .

ولم يبق شيء لم يقله أحد عن ساحرة النيل . رغم أنه لا يوجد أى دليل مادى على شكلها وحجمها ولونها ، ولكن المؤرخين يؤكدون أنها كانت جميلة ذكية وعندها طموح سياسى يذيب الحديد من الرجال والنساء . وقد أذابت رجالا وجمدت بحورا وحولت ماء النيل إلى سحاب ، وعلى هذا السحاب وضعت بساطها السحرى وطلبت من سادة العالم أن يركعوا لها . . وركعوا ولم تكسب شيئا كثيرا . . ولكن طبيبا إيطاليا حاول شيئا جديداً لم يخطر على بال أحد . فقد وجد تفسيراً جديداً للأعمال الساحرة لملكة النيل ، أما وقائع تاريخها فمعروفة ولكن لم يتفق عليها مؤرخون كثيرون . ولكن الذى لم يعرفه العالم عنه فقد أبدعه خيال شكسبير وبرنارد شو وشوقى وغيرهم .

ففى سنة ٤٤ ق . م كان يوليوس قيصر بالإسكندرية ينظر من النافذة . . كل شيء هادئ أمامه وحوله . السماء صافية والهواء دافئ . والناس يمشون ببطء . . كأن الزمن توقف لكى يتفرج عليه . . ثم يأمره بأن يفعل ما يريد . فيوليوس قيصر ليس قائداً عظيما . ولكنه حاكم أعظم . . وعنده قدرات فى حاجة إلى نار من نوع جديد . وفى هذه اللحظة قيل له إن بائعا سوريا للسجاجيد يريد أن يعرض عليه أحدث الأنواع . . وقيل له إن التاجر يرى أن يعرضها عليه وحده . وأشار قيصر إليهم أن يدخلوه . ودخل الرجل وعلى كتفه سجادة حمراء ، وقال لقيصر : مولاى سوف ترى شيئا لم تره فى حياتك .

وأنزل السجادة على الأرض ودفعها لتنفتح عند قدمى قيصر . . وتخرج منها فتاة شقراء ناعمة حمراء الشعر لامعة العينين ، ونهضت ولم تنحن لقيصر وإنما نظرت إلى الجنود حولها وأمرتهم أن يخرجوا ، وخرج التاجر ، وتردد الجنود . . ولكن قيصر طلب إليهم أن يخرجوا وقدمت نفسها : كليوباترا . . وهى أخت الملك الحالى الذى نفاها إلى سوريا . . وابنة الملك السابق بطليموس الثالث عشر . . أما أخوها فعمره ١٤ عاماً . وهى عشرون عاماً وقيصر٥٢ عاماً . .

ما الذى يقوله التاريخ أمام هذا الموقف التاريخى ، فتاة فى ربيع شبابها وهو فى الخريف . . هى الشفق وهو الغسق ، هى الطموح وهو الحكمة ، هى لم تتعب بعد ، وهو يريد أن يستريح . ومطلوب منه بسرعة أن يعاونها على أخيها . فتكون له هى ومصر . . ولكنها لا تقنع بذلك إنها تريد أن يكون لها وتكون هى سيدة العالم . . ولم يمض وقت طويل حتى كان قيصر عبداً للشباب والغريزة والذكاء والطموح . وطالت الليالى وتلونت بلون فساتينها ونهديها ، وعشرات الراقصات والخادمات والساحرات حولها .

شيء غريب لاحظه أخيراً طبيب إيطالى عنون كتابه (شيء فى فم كليوباترا) – إنها هى التى كانت تتقدم إليه ، هو يحتضنها ولكنها هى التى تقبله . وبسرعة ينهار الرجل . . ويكون وجهه عند ساقيها . وتمتد شفتاه ليقبل القدمين الصغيرتين أمام كل ضباطه وجنوده . .

ثم أنجبت له الابن الوحيد . . وارتبط بها أكثر . . وعلى الرغم من أن أجدادها كانوا من السفاكين ، فإنها هى لم تكن تقتل إلا بيدى غيرها . . ولم تجعل الدم ينزف من أصابعها . . وإنما كانت تستعين بالأصابع الأخرى لتفزع بها الناس . . فهى يونانية ابنة أحد جنرالات الإسكندر الأكبر . .

فبطليموس الأول كان سفاحاً . . وبطليموس الثانى كان يسمى نفسه (الرجل الوفى) وكان بالفعل كذلك وفيا للسيف والدم ، فقتل اثنين من إخوته وكان يحب فى الدنيا النساء الدميات والنبيذ الجيد . . وبطليموس الرابع كان يسمى نفسه (الرجل الوفى) وكان بالفعل كذلك وأمه . . وبطليموس السابع قتل المئات من الأبرياء وكان يتأكد من أنهم ماتوا بأن يقلبهم بقدميه . . وكان شعاره « القانون على رقاب العباد » وبطليموس الثالث عشر هو أبو كليوباترا . وكان يسمى نفسه النافخ فى الناى . وقد قتل ابنته برنيس ، ثم أقام لها جنازة فخمة تليق بمقامها ، يتقدمها مئات النافخين فى الناى .

كلهم سفاحون أذكياء بارعون فى إسالة الدماء وإنشاء المقابر وتحطيم قلوب الناس . وطالت إقامة يوليوس فى مصر . وتألبت عليه روما . . واجتمع خصومه وأحسوا بالمرارة لأن رجلا له هذا القدر يترك روما وشعبها وآمالها العريضة ، ليكون عبداً ذليلا لغانية النيل . لقد سمعوا أنها كانت تركب ظهره . .

تمشى به بين الراقصات ، (ومن أربعين سنة كانت سالومى تفعل ذلك مع العظماء : العالم الكبير فرويد والفيلسوف الأكبر نيتشه والشاعر العبقرى ريلكه . . وهناك صورة معروفة جدًّا لهم جميعا وقد تعلقوا فى عربة كارو تركبها الفتاة اليهودية سالومى) !

وكان لابد أن يعود . وفى طريق العودة إلى روما قرر أن يغزو أرضا جديدة ويعود وعلى رأسه أكاليل الغار . واستقبلته روما استقبال القادة العظام . وهناك عاوده الحنين إلى كليوباترا ووجد فى أذنه كلماتها . . تريده ملكا لمصر ويقتسم الاثنان العالم كله بعد ذلك ، ويصبح ملكاً على روما وهى إلى جواره وتكون الإسكندرية عاصمة الدنيا بدلا من روما ، وكاد يتحقق ذلك كله ، وذهبت كليوباترا إلى روما (الفيلم يصور عظمة دخول كليوباترا إلى روما) هذا المشهد كلف السينما مليون دولار . . ولقطة واحدة كلفت السينما ربع مليون دولار . وقد كانت اليزابيث تيلور فى غرام شديد مع ريتشارد بيرتون فغمزت له بعينيها ، وأعيدت هذه اللقطة !)

وانتظرت كليوباترا أن يستدعيها قيصر لتجلس على العرش بعد أن ارتفعت تماثيلها فى المعابد على الجدران ليعبدها الشعب هى وقيصر . ولكن أحداً لم يستدعها . . وإنما اغتالوا قيصر واستقرت فى ظهره ثلاثة وعشرون خنجراً . وعادت إلى مصر !

واقتسم ثلاثة من الضباط الإمبراطورية الرومانية . . وكان الشرق من نصيب أنطونيو . وهو شاب قوى . بسيط . له جسم رجل وعقل طفل . ويفضل الحياة البدائية على الترف والرفاهية . معبود جنوده . وكان لا بد أن يرى كليوباترا دعاها فذهبت فى سفنها وأسطولها ثم دعاها إلى سفينته فدعته هى إلى سفينتها . وذهب هو يدوس السجاجيد الحمراء والزرقاء . وفى ضوء الشموع تهب عليه من البحر العطور والبخور والموسيقى . . وعلى الأرض تتمرغ فتيات عاريات وفى أيديهن أقداح النبيذ . . وتقدمت كليوباترا . . ومدت يدها . واحتضنها وقبلته وانهار وعندما سقط نهضت الفتيات يلقين بالنبيذ على جسمه ورأسه . ثم بإشارة من كليوباترا رحن يرتشفن النبيذ من على جسمه ورأسه من كل مكان . . وسحبته إليها ، فوجدها جالسة على عرش . . ووجد رأسه عند ركبتها . . وانهار أكثر ، واصطدمت رأسه بقدمها . . وتعالت الدفوف وانعقدت سحب البخور . . ونهض أنطونيو ليكون عبداً لملكة النيل . وذهب إلى مصر وعاش . وأحبها وتزوجها . وكانا فى الليل يسكران ويذهبان إلى الحانات ويدقون بيوت الناس ويضحكون . وفى إحدى الليالى انهال عليها بعض المواطنين بالضرب ثم اعتذروا عندما عرفوا العاشقين . . أما فى روما فكان أكتافيو قائداً عنيفاً شريراً . . وكانت أخته زوجة لأنطونيو وبعث بها لعله يعود . وجاءت إلى الإسكندرية لتؤكد أنه لا أمل . فقد صار عبداً لكليوباترا وكانت فرصة أكتافيو فجاء بأسطوله وجنوده متجها إلى الإسكندرية ، وذهب أنطونيو وحبيبته إلى لقائه بأسطول أكبر . . وفى

هذه المعركة التى شهدت أنطونيو يترنح من الخمر . . انهزم أنطونيو وتسللت كليو باترا عائدة حزينة إلى الإسكندرية وجاء وراءها أنطونيو . . ثم تبعها أكتافيو . . واختفى أنطونيو من الخزى والعار . ولم تضيع كليو باترا وقتاً فجمعت حليها وماسها ولؤلؤها وأوت إلى القصر تنتظر النهاية . . وجاء القائد الجديد ينتقم لنفسه ولأخته وانتحر أنطونيو أما كليو باترا فقد طلبت إلى طبيبها أن يعد لها مزيداً من السموم التى جربها على الأسرى . ورفضت كل السموم واختارت الأفعى . . وجاءت الأفعى تلدغ الأفعى . وماتت كليو باترا فى أزيائها وجمالها . . إنها شاءت أن تكون فاتنة حتى عند الموت . . كأن الموت عاشق جديد يريد أن يموت فيها ، قبل أن تموت به !

أما الذى يراه الطبيب الإيطالى كارلو أنطونيللو فى كتابه الجديد فهو أن كليو باترا كانت تعتمد على شىء خفى يجعل الرجال يتساقطون عند قدميها مع أول لمسة من شفتيها . وهو ينقل إلينا الحوار الذى دار بينه وبين يوليوس قيصر . هى تقول له !

– انظر إلى الهدوء حولنا ،

– أين هو . . أنت بركان من النار بلا دخان . . والبحر مظاهرة ضخمة الأمواج أذرع وسيقان والنجوم عيون حاسدة . . تتلمظ . . إننى أرى فى هذه العيون أفواهاً تكاد تلتهمنى .

ويقول الطبيب الإيطالى : إن هذه العبارات سيريالية من الدرجة الأولى . . والرجل ليس شاعراً . . ولكن الذى يقوله نوع من الهذيان . . لا يمكن أن يكون ذلك بسبب الخمر . . ولكن بسبب شىء آخر . . وينقل الدكتور أنطونيللو . الحوار بين كليو باترا وبين أنطونيو . . وهو يقول لها : كم أسعدت من الرجال ؟

فتقول إننى لا أسعد الرجال . . هم الذين يسعدوننى . . إننى بنت الآلهة . . وعشاق من الآلهة . . ألا تخفض صوتك . . إن هذه الطيور حولنا جواسيس علينا . أرسلتها السماء حسداً لسعداء الأرض . ويقول هو : وأنت كيف عرفت ما يدور فى رأسى ؟

– هذا سرى الأكبر . . إننى أرى رأسك مفتوحاً أمامى . . إننى أملكه إن كنت ناسياً أفكرك . . أنت قلت وأحب أن تراجعنى أولا بأول . . أنت قلت إننى أشعر أنك هنا . . فى دمى . . فى قلبى . . فى رأسى . . وإننى أتكلم بشفتيك . . أنت التى تقولين نيابة عنى . . إننى أرى أن هذه الطيور الأخرى تريد أن تقترب منى لتلتقط شيئا أحاول أن أقوله . . إننى أرى فى هذه اللحظة الطيور عيوناً وحشية تريد أن تفترسنى . . تريد أن تخطف لسانى . . ولذلك فأنا أطبق فمى حتى لا تحمله معها إلى روما . .

ويعلق الدكتور أنطونيللو على ذلك بقوله : إن أنطونيو ليس شاعراً مثل الشاعر الفرنسى لوى أراجون ولا هو رسام مثل بيكاسو . . ولكن الذى يقوله هو من صميم الهلوسة السيريالية الحديثة جداً . . ولا يمكن أن يقال إن كأساً من النبيذ قد أدارت رأسه إلى هذه الدرجة الجنونية . . ولا يمكن

أن تكون حبات اللؤلؤ التى أسقطتها كليوباترا فى كأس النبيذ ، ثم أذابها النبيذ هى التى دوخته . . فنحن نعرف تركيب النبيذ وتركيب اللؤلؤ . . لابد أنه شيء آخر .

وينقل حواراً بينها وبين القائد المنتصر المنتقم اكتافيو . . هى تقول له : الآن أخذت كل ما تريد فيقول : إلا شيئاً واحداً !

هى : وهذا لن يكون .

– ولو بالقوة

– إذا أخذته بالقوة فأنت لم تأخذه . . وإنما أنت اغتصبته . . أنت سرقته . . أنت خطفته . . أنت استوليت عليه .

– الآن فهمت ، ولكن إذا كانت هذه لذتى الكبرى ، فماذا تقولين !

– لا شيء أقوله ، سيكون لك ما تريده . . ويكون لى ما أريد . .

وفى تلك اللحظة انتحرت كليوباترا ولم يمسس إلا جسدها الميت !

ويقول الدكتور أنطونيللو : هذا الحوار عاقل . جاد . وهو حوار رجل شرب الكثير من النبيذ قبل أن يراها ، وهى لم تذق طعم النبيذ ، أما لماذا هذا الحوار عاقل هكذا فلنفس السبب !

أما ماهو « السبب » الذى يجعل الرجال يهلوسون أمامها . السبب هو أنها كانت تقبل الجميع . وترسل مع ريقها شيئا مخدراً .

فقد كان فى خدمتها طبيب مشهور بتركيب المخدرات والسموم . وكان يجرى تجاربه على الأسرى والمجرمين . . وكانت كليو باترا تسرف فى استخدام قبلاتها لكل من تريد أن تستولى على عقله وقلبه . . وهذا هو السبب .

والدكتور أنطونيللو قام بدراسات طبية لكى يكتشف أن كل القواد استسلموا لقبلتها . . أو بعد قبلتها والسبب هو مادة الهلوسة أو سائل الهلوسة الذى كانت تضعه فى أفواههم . . ولا أحد يعرف كيف كانت هى تنجو من هذه الهلوسة . . وقد استعان الدكتور أنطونيللو بكتب الطب والنبات وأوراق البردى والنقوش على الجدران ليكشف هذه الحقيقة .

وإذا كان الفيلسوف الفرنسى باسكال قال يوما : إن أنف كليو باترا لو كان أكبر قليلا لتغير وجه التاريخ فهو يقصد أن أشياء كثيرة ممكن أن تؤدى إلى وقائع جسيمة . ولذلك فقبلات كليو باترا ومخدراتها غيرت وجه التاريخ – وقد عرف العالم بعد ذلك حروب الملح وحروب الأفيون والحرير والشطة والبخور . . وعرف حروب القمل والبراغيث والبعوض وكلها غيرت وجه التاريخ !

وهكذا يفسد العالم جمال الأسطورة الفنية – مع الأسف !

واحدة تريد أن تسعد الناس !

ما الذى عطل مسيرة المرأة لتكون إلى جوار الرجل أو أمامه ! الجواب مظاهرات الرجال واللافتات التى يحملونها فى طول التاريخ الإنسانى وعرضه وعمقه . مثل هذه اللافتات انطبعت عليها عبارات تجعلك تحس أنها إرادة الله . . مثلاً يقول الفيلسوف اليونانى فيثاغورس : هنا القانون أدى إلى خلق النظام والنور والرجل ، الفوضى والظلام والمرأة . . فالرجل قانون والمرأة خروج على القانون ، الرجل يضع القانون ويطيعه ، والمرأة لا قانون ولا هى تطيعه أوتطبقه إن وجد !

يقول القديس بولس : المسيح سيد الرجال ، والرجل سيد المرأة . الرجل لم يخرج من ضلع المرأة ولكنها هى التى خرجت من ضلع الرجل . الرجل لم يخلقه الله للمرأة . المرأة خلقها الله للرجل . .

يقول القديس أوغسطين : الرجل سيد والمرأة عبد . إنها إرادة الله التى جعلت سارة تطيع إبراهيم وجعلته سيدها . . فزوجاتكم عبيد لكم ، وأنتم سادة لهن !

يقول الكاتب الفرنسى العظيم بلزاك : تحرير المرأة إفساد لها . ويقول أيضاً : الدعارة والسرقة احتجاج من المرأة والرجل على المجتمع ! ويقول : إذا أردت أن تعرف مدى قسوة المرأة ، هذا الكائن الجميل الذى تحبه ، فانظر إليها وقد جلست مع بنات جنسها — وحشية !

ويقول : المرأة كالصحف لا تتألق إلا إذا كذبت ولا تهدأ إلا إذا جعلتك تصدق أكاذيبها والمجتمع كالرجل لأنه سوف يستسلم فى النهاية !

يقول بلزاك : من السهل على المرأة أن تكون زوجة صالحة على أن تكون أما صالحة . . ويقول : الأرملة لها واجبان متعارضان : أن تكون أما وأباً . . قليلات جدًّا منهن استطعن أن يحققن النجاح فى هذا الدور الصعب !

وأخيراً يقول بلزاك : لا أتمنى أن أكون امرأة . . ولا أتمنى أن أكون رجلاً . . أجدنى مضطرًّا لأن أتعامل مع امرأة ولا أعرف طريقاً للخلاص منها !

أما وزيرة فرنسا فرانسواز جيرو فتقول : مثل هذه الأفكار هى التى عرفت تقدم المرأة . . فبلزاك مثلاً ، وهو عبقرية أدبية وفلسفية ، لا يفكر فى طريقة للتعايش مع المرأة . . ولا أن يكون زوجاً أو أباً ، إنما هو مشغول بإزالة هذه المصيبة التى اسمها المرأة . . ثم مطلوب منا نحن النساء أن نحترم مثل هذا التفكير الذى يجعلنا ننظر إلى أنفسنا على أننا مرض أو داء أو بقعة سوداء أو لعنة السماء على الأرض . .

والوزيرة الفرنسية صحفية سابقة كانت رئيسة تحرير مجلة (إل) . . وصاحبة ورئيسة تحرير مجلة (الإكسبريس) وهى فى نفس الوقت امرأة شجاعة . وكانت فى انتخابات الرياسة الفرنسية ضد الرئيس جيسكار ديستان . ولما سئلت كيف استدعاها لتكون عضواً فى الوزارة كان ردها المعقول : مأساة المرأة ليست يميناً ولا يساراً . إنها مأساة فى القلب ، فى الصميم . . إنها مأساة الرجل أيضاً !

ولما عرض الرئيس الفرنسى على السيدة فرانسواز جيرو أن تكون (فى) الوزارة اعتذرت . لأنها لا تريد أن تكون (ضمن) التشكيل الوزارى . وإنما أن تكون واحدة ككل الرجال . وقالت رفضت لأننى لا أريد أن أكون مسئولة عن الديكور فى مجلس الوزراء أو تقديم وجبات دافئة للسادة الوزراء . . ثم طلب إليها أن تكون وزيراً مثل كل الوزراء وقبلت .

ووزيرة فرنسا شخصية باهرة . وهى حلقة فى سلسلة من النساء الممتازات فى فرنسا وفى العالم . ولها قضية واحدة : كيف يمكن إنصاف المرأة من الرجل ؟ فالمرأة مظلومة ، هذه حقيقة . . والرجل ظالم ، هذه أيضاً حقيقة . وفى فرنسا تمييز بين الجنسين . فالمرأة لا تلقى نفس حقوق الرجل ، تقول فرانسواز جيرو : يجب أن تضاف كلمة واحدة فى قانون توظيف الرجال والنساء فى فرنسا . القانون يقول : من حق كل إنسان أن يعمل دون تفرقة فى الدين أو اللون أو العنصر ، أما الكلمة التى يجب أن تضاف فهى كلمة : والجنس !

فإذا أضيفت هذه الكلمة اعتدل كل شىء فى المجتمع الفرنسى .

وقد قرأت لوزيرة فرنسا مجموعة آراء أعجبتنى . مثلاً هى ترى أن هناك قهراً عامًّا من الرجال للنساء . فالرجال بقوانينهم وحياتهم وتاريخهم المقرر على المرأة ، قد قهروها ووضعوا فى رءوس النساء الإعجاب الشديد بالرجل . وأنه قضاء وقدر . وأن المرأة مهما حاولت فهو سيدها ومولاها . وهو الحاكم الأبدى لأحلامها . . هذا صحيح . ولكن المرأة ترد على هذا القهر العام بقهر خاص . فكل امرأة تنفرد بزوجها وتتحكم فيه على انفراد . . فماذا كانت النتيجة ؟ إن المرأة تحكم الرجل وإن كان الرجل لا يدرى بذلك . وفى كل مرة أرى رجلاً يصول ويجول وعنده هذه الحساسية الشديدة لحريته واستقلاله وكرامته أدرك تماماً أن هذا الرجل محكوم مقهور فى بيته . وليست صرخاته العلنية إلا رد فعل

للتحكم الناعم الحريرى الضرورى لزوجته فى بيته !

وتقول فرانسواز جيرو : إننى أعرف عشرات الأمثلة على ذلك فى المجتمع الفرنسى. أما فى التاريخ العالمى فهناك مئات الألوف ! أما لماذا يقبل الرجال هذا التسلط من المرأة ، فلأنهم يرون فيه نوعاً من التعويض لها . . ولا مانع من أن يتسامح بعض الشىء !

وإذا كان الرجل قد شغلته الحياة العامة فيجب أن ندرك أن الرجل له حياتان على الأقل . حياته العلمية وحياته الخاصة . . أو المكتب والبيت . . ومن النادر أن ينجح رجل فى التوفيق بين هاتين الحياتين والطبيعى أن تطغى إحداهما على الأخرى . . أما المرأة التى تعمل فلها حياة واحدة : حياتها فى البيت . وإذا نجحت حياتها فى البيت ، فهذه هى السعادة عند المرأة . أما السعادة عند الرجل فلها معنى آخر . .

أوبعبارة أخرى لو سألنا رجلاً : كيف حالك ؟ فإنه يتحدث عن حاله فى العمل . وإذا وجهنا نفس السؤال إلى المرأة لكان جوابها عن حالها مع زوجها وأولادها . . أى عن حالها فى البيت .

وتقول فرانسواز جيرو : إن المرأة تفضل أن تكون تعيسة مع رجل على أن تكون مهملة منه . . صحيح أن الإهمال يؤدى إلى التعاسة . . ولكن التعاسة التى تجىء من سوء التفاهم مع الرجل. أهون من التعاسة التى تجىء من التفاهم بين رجل وامرأة على أن يهمل كل منهما الآخر . .

وهناك رأى يقول : إن المرأة تبحث عن العمل لأنها تريد أن (تنشغل) عن أشياء كثيرة . .

ولكن فرانسواز جيرو تستأنف هذه القضية فتقول : إنها يجب ألا تبحث عن العمل لأنها تريد أن تشغل نفسها عن هموم أخرى . . ولكن لأنها يجب أن تعمل . تماماً كما أن الرجل يعمل لا لأى شىء آخر . .

فالعمل ضرورة وليس تسلية . . ولا مسحاً لدموع على خد المرأة . . ليس علاجاً لمرض . . وإنما هو ضرورة حياة . أو هو الحياة نفسها !

والذين ينظرون إلى كل امرأة عاملة أنها هاربة من البيت ، يظلمون المرأة ويظلمون البيت فالبيت ليس هينا ولا تافهاً عند المرأة . والمرأة يسعدها أن تضحى بالكثير من أجل أن يكون لها بيت . أو يبقى كما تحلم به . والرجل يرى أن المرأة فى البيت هى صيانة للأبناء من الانحراف . ولكن الأم وحدها ليست هى البيت . وإنما الأم والأب معاً . وليس من العقل أن يقال إن المرأة هى التى تحمل وتلد وترضع وتقوم بالتربية . . أى تقوم بدور الأب ودور الأم فى وقت واحد .

حتى هذا ليس كافياً : فالمرأة عندما تكون (فى) البيت تختلف عن المرأة التى تكون الأم والزوجة .

لأن البيوت فيها أمهات غائبات . . أو زوجات غائبات . . ولكن المهم للطفل هو (الحضور الأبدى) للزوجة الأم . . وللزوج الأب ! وتقول فرانسواز جيرو : وإذا كان بعض فلاسفة السياسة قد وصفوا هذا العصر بأنه عصر الطفل اليتيم ، فلماذا يكون اليتيم معناه اختفاء الأب فقط ، بل معناه اختفاء الأم أو اختفاء الأبوين معاً ولما سئلت الكاتبة الفرنسية فرانسواز جيرو : كيف أنها هكذا تشعر بأن المرأة مظلومة ولا يرتسم على وجهها أى حزن لهذه المأساة الحقيقية ؟ كان ردها : أكره هذا الحزن العميق على وجه المرأة وأكره أن تحصل على حقها بالبكاء وأكره أن تكون الدموع هى مفردات الحوار بين الرجل والمرأة ، ونحن مطالبات بأن نجعل للحياة لوناً وردياً . . نفس الألوان التى نستخدمها فى وجوهنا . . إننا يجب أن ننقل هذه الألوان إلى ما تحت الجلد . . وإلا كان هذا الوجه المصبوغ المرسوم إعلاناً عن بضاعة لا وجود لها . . أو كانت هذه البضاعة مجرد إعلان فقط . . إنه من الممكن أن يكافح الإنسان وهو يضحك . وأن يقاتل وهو سعيد . . وأن يطلب العدل دون أن يشكو من السلاسل فى يديه وفى عنقه. إننى أكره هذا النوع من الاحتجاج الأخرس . .

وتسأل نساء كثيرات عن معنى اختيار كاتبة لأن تكون وزيرة لشئون المرأة فى الوزارة الفرنسية ! هل لأنها كاتبة ؟ هل لأنها قالت كثيراً ؟ هل لأنها اعترضت ؟ هل لأنها احتجت ؟

تقول فرانسواز جيرو نفسها : إن اختيارى إقرار رسمى بأن هناك تفرقة فى معاملة الرجال والنساء . وإلا ما كانت هناك وزارة خاصة اسمها وزارة (شئون المرأة) . . ومهمة هذه الوزارة هى إلغاء التفرقة فى المعاملة بين الرجل والمرأة . . فإذا ألغيت هذه التفرقة أيضاً– منتهى أملى !

ثم إن هناك قصة معروفة . . يقال إن يوليوس قيصر كان يتحدث إلى طفله الصغير ويحسده على ما هو فيه من نعمة فيقول له : أنا أحكم العالم . وأمك تحكمنى ، وأنت تحكم أمك . فأنت إذن . . تحكم العالم كله . . يا بختك !

تقول فرانسواز جيرو : إن هذه القصة يمكن أن تروى على نحو آخر وهو أن المرأة هى التى تحكم الرجل فى النهاية . . هى التى تحكم ابنها . . ثم إنها وقد جلس ابنها على حجرها تحكم أى رجل . . غير أن القضية ليست من الذى يحكم الآخر . . ولكن من الذى يسعد الآخر . . فلاتزال السعادة هى أمل الجميع ، فلماذا لا نعمل أى شىء من أجل أن نجعلها أملاً ممكناً– وهو بالرجل والمرأة شىء ممكن !

أمام الذهب والجنس . . الناس شموع تذوب !

ليس أخطر من امرأة ولدت في الوحل ، وقررت أن تعاقب الناس جميعاً على ذلك ، واحدة من هؤلاء النساء اسمها ثيودورا ، عاشت وماتت قبل ولادة إيفا وإيزابيلا بيرون زوجتى الرئيس الأرجنتينى ، بأربعة عشر قرناً . .

كان أبوها يعمل فى السيرك فى مدينة القسطنطينية ، يطعم الخيول ويروض الوحوش ولا يحلو له النوم إلا تحت أقدامها ، حتى داسته الأقدام ومات ، وترك زوجته وثلاث بنات . .

وعرفت الأم الطريق إلى السيرك . وعلمت بناتها الرقص ، واحدة منهن كانت تساعد أختيها على ارتداء الملابس ثم تنطلق إلى الساحة الكبرى تجمع قطع الملابس الصغيرة التى تناثرت وراء أختيها ، وبعد أن يضحك الناس ويصفقوا للراقصات تعود الأم إلى البيت تشكو من قلة الطعام وقلة الشراب وندرة القلوب الرحيمة بين الناس .

وأصبح معروفاً أن ثيودورا ستكون راقصة ، وفى الثانية عشرة من عمرها رقصت . . وأصبحت أشهر راقصة فى السادسة عشرة ، وكانت أجرأ الراقصات أيضاً . . تتعرى من الأمام ومن الخلف والناس يلقون عليها بملابسهم وهداياهم ثم اهتدت إلى طريقة فريدة فى الرقص . . فكانت تنزع ملابسها تماماً . . ثم تنام على الأرض وتجىء أخت لها ، وتغطى جسمها بحبات القمح ، وتجىء الأخرى تطلق عليها الأوز يجمع حبات القمح بمنقاره والناس فى حالة من الجنون . . إلا ثيودورا نفسها فكانت عيناها تفتشان بين المتفرجين عن رجل غنى !

وفى يوم حبستها أمها وهى تقول لها :

– سوف تقضين على حياتك بيديك إنك لا تشبعين من الفلوس .

– وأنت أى شىء يشبعك ؟

– يجب أن يكون عندك قلب .

– نحن بلا قلوب . .

– لا تتركى رجلاً من أجل رجل أغنى منه . .

– ولأى شيء أتركه !

– لا امتنان لأحد ؟

– لا أحد يمتن لنا . . إننا كلاب . . إننا قطع من اللحم يمضغها الناس . . ثم يبصقونها بعد ذلك . أنت وأنا ونحن جميعاً بصقات على الأرض . . إن شكلك غريب جداً وأنت تتحدثين عن الفضيلة . .

وهربت ثيودورا مع حاكم مدينة بنغازى . إنه رجل غنى . وقبل أن تسافر معه سألته : بأى معنى أهرب معك . . كزوجة ؟

– طبعاً لا .

– إذن ؟

– كعشيقة .

– أوافق . .

وكانت الحياة فى ليبيا مملة وكان يحبسها فى البيت ليعود إليها فى الليل ترقص له ولأصدقائه من المخمورين . . واستطاعت ثيودورا أن تملأ الفراغ بعدد آخر من الشبان . . واكتشف الرجل خيانتها له . فطردها واتجهت إلى الإسكندرية ، وقبل أن تسافر إلى الإسكندرية كانت قد وضعت طفلها الأول والأخير وهى فى الخامسة عشرة من عمرها . وتركته ، وعند بوابات الإسكندرية سألها الحراس عن مهنتها : فوقفت وعرضت صدرها وهزت وسطها . . ولكن الحارس لم يفهم أو أراد أن يستوضحها أكثر. فخلعت ملابسها عارية تماماً وهى تقول : أفعل ذلك عند الطلب . . وتركها تدخل الإسكندرية . . ولكنها قررت أن تعود إلى السيرك . . ووصلت إلى مدينة القسطنطينية وذهبت إلى إحدى غانيات الليل ، وسألتها عن أخبار الدنيا . . وعرفت كل شيء . . ولم تضيع وقتاً . . سكنت فى بيت قريب من القصر الإمبراطورى . واتجهت إلى كل أصدقاء الإمبراطور جستنيان ، أحكم وأعظم أباطرة الرومان ، وعرفت منهم أدق أسرار الإمبراطور. وكانت تسأل عن أشياء كثيرة ، حتى ظن الناس أنها جاسوسة . وقالت : إننى أعمل لحساب امرأة سوف تكون تاجاً من الوحل على رأس الجميع . . إننى أعمل لحسابى ! ولم يفهم الناس منها شيئاً ، وقالوا : غانية مغرورة . . أو إنها ملتقى المرارة والحرارة !

قالت لها إحدى صديقاتها : سوف أعطيك خطابا للإمبراطور ، وأخذت الخطاب ، واتجهت إلى القصر الإمبراطورى وقفزت من النافذة ، واندهش الإمبراطور جستنيان : من أنت .

– واحدة تبحث عن صداقتك .

– وكيف دخلت هنا ؟

– من النافذة !

– ولكنه دخول غير عادى . .

– لأننى شخصية غير عادية . .

وأمسك الخطاب وقرأه وقال :

– تريدين العودة إلى السيرك ؟

– نعم . .

– ولكنك لن تعودى . . اجلسى . . وجلست ، حتى اختارها زوجة له ، وتم تتويجها إمبراطورة ، وثار الشعب يطلب سقوط الغانية . .

وعرفت هى من مكانها على العرش وبالقرب من أعقل الملوك ، وأكبر الخزائن ، وأقوى الجيوش كيف تسكت هذه الحناجر الصارخة ، وفى يوم سألها الإمبراطور : كيف خطر لك أن تكونى إمبراطورة ؟

– لم يخطر على بالى هذا . . وإنما قررت أن أكون فى أعلى مكان : قديسة . . إمبراطورة . . معبودة ، وكنت أول الذين اتجهت إليهم . .

– ولو كان الذى اتجهت إليه أحد رجال الدين ؟

– كنت أجعل من نفسى بابا للكنيسة الرومانية . .

– ولو كان سفاحاً ؟

– لكنت مصاصة لدم البشر جميعاً .

– إذن أنا لست إلا واحداً فى الطريق ؟

– ولكن أحسن من فى الطريق وفى أى طريق . .

ونهض الإمبراطور يقبل يديها . . وفى ليلة زفاف الإمبراطور ، وكان ذلك فى عيد الفصح ، طلبت ثيودورا أن تجيء كل المغنيات والراقصات ويقبلن قدميها – كما يفعل الناس مع الملكات – ثم طلب إليهن جميعاً أن يغنين ويرقصن أمام بابها حتى الصباح . . وجاءت الراقصات اللاتى احتقرنها وضربنها

وألقين بالطين على رأسها يغنين لها ويطلبن من الله : السعادة للعروسين من أجل روما . . والصحة للعروسين من أجل الشعب . . وبالرفاء والبنين من أجل البشرية !

ولم تنس ثيودورا من أين جاءت ، والناس يريدون أن ينسوا ذلك . وقد نظمت ثيودورا جيشاً من الجواسيس من الرجال والنساء ينقلن إليها ماذا يقول الناس عنها . وراحت تقطع الألسنة وتضع فى السجون وتحكم بالإعدام على كل من يسخر منها ، وكانوا يقولون : غانية . . ثم يقولون : ولكنها تعطف على الفقراء . . كانوا يقولون فاجرة داعرة . . ثم يعودون ليقولوا : ولكنها أول من طالب بتحرير المرأة من ذل الرجال . . وأول من عمل على تقييد حرية الرجال فى أن يبيعوا المرأة ويشتروها . . كانوا يقولون : بخيلة . . ولكنها عرفت إذلال الفلوس للناس .

حاولت ثيودورا أن تفتح باب التوبة أمام الغانيات فخصصت لهن قصراً ووضعت فى القصر مئات الغانيات . . كرهن الفضيلة المملة وهربن من القصر . . وكن يلقين بأنفسهن من النوافذ فى البحر . .

وفى إحدى الليالى التقت ثيودورا بالغانيات ، وارتدت لهن ملابس الراقصات وجلست تقول : أريد أن أتفاهم معكن . . ما الذى يضايقكن من هذه الحياة التى ليس فيها رجل يدوس بأقدامه قلوب النساء ؟

وتعالت الأصوات تقول : ولكن الرجل أفضل من ألف امرأة . . وذل الرجل أفضل من إذلال امرأة لامرأة أخرى . وغطت ثيودورا نفسها وانسحبت وفتحت الأبواب على آخرها . . وخرجت فى هدوء لتمشى وراءها مئات الغانيات إلى الشارع ، إلى الحانات ، إلى السفن . . ولم يعد فى (بيت الندم) تائبة واحدة . . أو واحدة تريد أن تندم على ما فعلت أو ما سوف تفعل !

وفى يوم كانت ثيودورا تشكو من آلام فى صدرها — عندها سرطان . وسمعت أصواتاً تهتف بسقوطها . وسألت . . قالوا لها الشعب ساخط يريد الطعام . ولذلك سرقوا التماثيل الذهبية ليشتروا بها خبزاً . وطلبت إليهم أن يعينوها على ارتداء ملابسها وأعانوها . وفتحوا لها النافذة . . وخرجت للناس ، والتقوا حولها معجبين بشجاعتها . فقالت : ماذا تريدون ؟

— الخبز يا ملكة !

— سيكون لكم خبز ومرح . . سأفتح لكم مخازن الغلال وأبواب السيرك لكل الناس مجاناً ، وراح الناس يقولون : طبعاً سوف تفعل ذلك . إنها من الشعب . عرفت الجوع والحرمان . . تعيش الملكة وفتحت للشعب أبواب المطاعم والحانات . . وفتحت أبواب السيرك . . وذهب الناس يحملون الطعام والنبيذ ليتفرجوا مجاناً على الخيول ومصارعة الوحوش وعلى الرقص والغناء . ذهب الإمبراطور بملابس

سوداء ، وكانت ملابس الإمبراطورية بيضاء . . وقبل نهاية الاستعراض خرجت ثيودورا ومن ورائها زوجها وتقدمت قوات تطلق السهام والنبال على الشعب فقتلت فى يوم واحد ثلاثين ألفاً . . وأصبحت هى التى تحكم . وكان الناس يقولون فى أول أيام زواجها إنها ليست إلا زوجة للإمبراطور . .

ولكن بعد هذه المذبحة قالوا : إن جستنيان نفسه ليس إلا زوجاً للإمبراطورة ! وكان الناس يقولون إن ثيودورا ومعناها : هبة الله ليست – إلا ديمون – دورا ومعناها هبة الشيطان ! وكانت تقول : هذه حكمة عمرى كله : أمام الذهب والجنس . . كل الناس شموع تذوب !

لم تنس ثيودورا واحداً أو واحدة أهانتها أو سخرت منها . . ولم يغب عن بالها رجل واحد رآها عارية حافية . . أو طردها من بيته أو من أحضانه – كلهم ألقت بهم فى السجن أو فى كهوف الموت . وفى بعض الأحيان كانت تنهض من نومها صارخة : تذكرت فلاناً . . وتصدر أمرها ليأتوا به . فإذا جاءوا به طلبت إليه أن يقبل الأرض تحت قدميها . . ثم تذكره بما كان منه . وقبل أن يندم على أنه فعل ذلك يكون السيف أسبق إلى عنقه . . ثم تنام هانئة حتى الصباح . وتتلقى التهانى من كل الذين حولها لأنها صفت حساباً قديماً .

لم يبق أمام هذه المرأة الذكية جدًّا إلا أن تنتظر . فالمرض قد فتك بها . وأدركت كما يفعل كل الذين اقترب منهم الموت ، أن نهايتها قريبة . فطلبت من جنودها أربعة آلاف . . وذهبت إلى إحدى العيون المعدنية . . ونزلت واستحمت . . ثم طلبت من وصيفاتها أن يأتين بماء الورد وأن يصبغن بالألوان أظافرها وقدميها . . وأن ينظفوها بكل زهور الغابة ، وأن يغنين لها ويطلبن من الله أن يجعل الماء تحتها نبيذاً شفاء للشعب . . وأن يجعل الطيور حولها ملائكة من أجل السلام . .

لقد قررت أن تكون عروساً جميلة تلقى بنفسها فى أحضان الموت . وأشارت إلى جنودها تقول : إلى هنا تنتهى مهمة كل الذين حولى . . وتبدأ رحلتى وحدى . . وماتت .

حتى تخرج أصابعها من تحت الماء !

هـذا السبب تشتغل المرأة بالسحر . . وكان من تعاستها أن حكم عليها الرجل بالإعدام غرقاً أو حرقاً أو شنقاً . . وكان هذا الموقف أكبر دليل على المشكلة التى تعانيها المرأة ، وعلى العنف الذى يتخذه الرجل فى مواجهة المرأة . . هذه العبارة قالتها الأديبة الأسترالية الأصل جرمين جرير فى كتابها الجديد (الأنوثة العاجزة) .

ولكن ما هو هذا السبب الذى جعل المرأة تتجه إلى السحر ؟ السبب هو أن المرأة تريد أن تتمرد على (الدور) الذى حدده لها الرجل . أن تثور على الإطار الذى بناه الرجل من الأسمنت المسلح من مئات السنين ، حتى لا تخرج المرأة منه . . أو تخرج عليه ، فالسحر هو محاولة من المرأة لكى تستعين بقوى أخرى ضد الرجل . وكان نجاح المرأة فى ذلك دليلاً على أن الرجال ليسوا بهذه القوة . وكان انتقام الرجل من المرأة دليلا آخر على أن الرجل ليس واسع الأفق كما يدعى . . وليس مؤمناً بالحرية التى ينادى بها . .

أما جرمين جرير هذه فمثل كل الناس . . دخلت المدرسة . وكانت حريصة على إرضاء أمها . وليست مثل كل الناس هربت من المدرسة ومن قارة أستراليا إلى بريطانيا . ودخلت الجامعة وحصلت على الدكتوراه فى أدب شكسبير ، واشتغلت ممثلة فى التليفزيون ، ولم ترفع عينيها عن الرجل ، ولا أخفت ضيقها منه ، ولا تحفزها فى الثورة عليه . . وهى تؤمن بأن المرأة لابد لها من (الخروج) من وعن وعلى وضد القوالب التى وضعها الرجل . وترى أن الملابس التى ترتديها المرأة من عشرين عاماً دليل على ذلك . فهى ترتدى ملابس الرجال . . وهى تقصر شعرها مثلما كان يفعل الرجال ، وإذا شربت فهى مدمنة . وإذا تكلمت فهى صارخة . وإذا ثارت فهى مجرمة . وإذا أجرمت فهى مؤمنة . وتقول : وكانوا يعلموننا ونحن صغار أن البنت هى التى تطيل شعرها . أما الرجل فهو قصير الشعر . ولم يعد ذلك مقنعاً لهذا الجيل من المتمردات على الرجل والرجولة . . وأكثر من ذلك : أن ثرثرة المرأة

ليست طبعاً ولا غريزة وإنما هى أسلوب . هى موقف ضد الرجل . . فالرجل يرى أن الفتاة يجب أن تسد فمها . وأن تلتزم حدود الأنوثة والرقة فى الكلام ، أما إذا تكلمت وأطالت فهذه هى قلة الأدب وقلة العقل معاً . ولكن الرجل هو الذى يفعل ذلك . وهذا يكفيها إغراء فى ألا تفعل ذلك . . فطال شعرها ولسانها وساعات كلامها بمناسبة ومن غير مناسبة !

ثم إن المرأة عندما تتجه باهتمامها إلى المرأة دون الرجل ، فهو خروج عن (المألوف فى العلاقات الجنسية (السوية) أى العادية . وهذا هو التمرد !

وقد صدر فى أمريكا كتاب بعنوان (الطيران) لكاتبة عنيفة اسمها كيت ميليت . هذه الكاتبة وصفوها بأنها كارل ماركس المرأة . . أو ماوتسى تونج الثقافة الجنسية . . وهى فى هذا الكتاب تتعرى وتتباهى بأنها تحب الجنسين معا . . وإنه ليس أمامها غير الثورة على العقل المزعوم للرجل وإنها بهذا الكتاب قد فضحت نفسها وأحرقتها . . تماماً كما يفعل رهبان البوذية . . يحرقون أجسامهم تطهيراً لنفوسهم ، احتجاجاً على الظلم والاستبداد . .

ولكن يكذب من يقول إن هذا الأسلوب من الكاتبة كيت ميليت يعجب الرجال أو النساء . . فلا هى رجل ولا هى امرأة . ولكنها تتمرد على الإثنين . وخسارة على الطرفين . . فكأنها قدمت حياتها مجاناً . بلا مقابل من شيء جديد تضيفه إلى فلسفة السخط عند المرأة ، أو إلى الهمس بالسخرية عند الرجل !

وإذا كان الرجال يطلبون من المرأة أن تكذب فى ملامحها فتضع الأبيض والأحمر والأزرق . . وتكذب فى ملابسها ، فتشد صدرها وتخنق خصرها وترفع أردافها وتدلى بشعرها على وجهها وتصبغ بالدم شفتيها وتضيء بالابتسام وجهها ، فإن أحداً لم يقل للرجل أن يفعل نفس الشيء فى كتابة التاريخ ، فالتاريخ هو أكذوبة الرجل المقررة على الرجل وعلى المرأة . ولذا كان تجميل المرأة فنًّا فإن كتابة التاريخ فن فى تجميل عيوب الإنسانية !

وكان نصيب النساء الشهيرات فى التاريخ عظيماً جدًّا ، فما من امرأة ظهرت وبرزت إلا جعل لها الرجل ظلالاً كثيفة من العار . لماذا لأنه يندم على أن أعطاها باليمين . ولذلك سارع فسحب بالشمال كل شيء . . وبقيت المرأة العظيمة نكبة عظيمة وفضيحة أعظم . ولم يكن ذلك هو نصيب النساء اللاتى اشتغلن بالسياسة فقط ، بل القديسات أيضاً .

وفى كل دولة لابد أن تضع يدك على قلبك وأنت تقرأ تاريخ كل امرأة ممتازة . . مثلاً : كليوباترا . . المؤرخون يؤكدون أنها سيدة ذكية . وأنها وطنية فى المقام الأول . وأنها من

أجل العرش فعلت المستحيلات . ولكن الفنانين الكبار يقولون : إنها فعلت كل شيء من أجل العرش ومن أجل جسمها . . وإنها بالصدفة كانت ملكة . . أما الحقيقة فهى غانية مدربة واسعة النشاط . وإن نشاطها جعلها تتعثر فى أبطال وملوك وأساطيل !

وثيودورا : زوجة الإمبراطور جوستنيان . هو رجل عظيم بكل الموازين . لا شك . أما هى فالشك حولها وتحتها . ولا يذكر المؤرخون إلا مباذلها . وكان زوجها العظيم معصوماً من نفس خطاياها . ولكن المؤرخ الرجل حريص على أن يرى المرأة غانية سواء كانت تجلس على العرش أو تحته . . وإن الظروف مهما تغيرت ، فالمرأة ذات طبيعة ثابتة . وطبيعتها أنها بائعة هوى لكل من يطلبه !

ومسالينا : زوجة الإمبراطور كلوديوس . ابنتها كانت زوجة الإمبراطور نيرون . سيدة قوية . . حكيمة . ولكن التاريخ يتفنن فى الحديث عن ترددها فى الذهاب إلى بيوت الدعارة . وإنها كانت تعطى نفسها لكل شاب . وإن أحد أزواجها قد قتلها غيرة عليها . وهذا صحيح ولكن الذى لا يبرزه التاريخ ، أن هذه السيدة قد بلغها أن إحدى بناتها قد خطفتها امرأة أخرى وقررت أن تنتقم من أمها فجعلتها إحدى الغانيات . . وحارت الأم ما الذى تفعله . وراحت تبحث بنفسها . وكل يوم تبيت على وعد من رجل أو من امرأة أن تدلها على ابنتها وكانت هذه المأساة التى انتهت بموتها فى أحط هذه البيوت !

وسميراميس : يقال إنها كانت امرأة شرسة . ويقال إنها كانت مثل الكلاب تشمشم فى أقدام الغرباء كما يقول الشاعر الألمانى جيته وكانت تركب حصاناً عارياً وعارية . . وكانت تلف وجهها فقط . . وكانوا يعرفونها من ملامح جسمها . . وكانت تلقى بنفسها عند أى شاب غريب . . هذه صورتها فى التاريخ . . ولكن أحداً لا يذكر كم مريضاً عالجت ؟. كم غانية تابت على يديها ؟ كم فقيراً أطعمت وأشبعت وأسكنت وأسعدت ؟

وفى التوراة فى سفر (الملوك الأول) تقرأ قصة ملكة سبأ . . وفى القرآن فى سورة (النمل) تجد صورة لملكة عادلة سمعت بالملك سليمان . . الذى دعاها للإيمان . وقال القرآن على لسانها : (قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى . ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) . فهى ملكة لا تنفرد برأى أو بقرار . . ولكن التاريخ يحدثنا عن مباذل ملكة بلقيس سبأ ، وكيف أنها أقامت المواخير فى أورشليم . . وقد صور فيلم ظهر من سنوات حياة بلقيس . وكان الفيلم واسمه (سبأ) . . يستند إلى كل وثائق التاريخ المعروفة . فيصور لنا المرأة تستحم فى اللبن وتشعل النار فى دماء الرجال وتستدفئ فى هدوء . .

حتى زنوبيا ملكة تدمر التى اسمها (الزباء) . . كانت امرأة فى غاية الشجاعة والعقل . وإنها تقدمت

قواتها ترد الغزاة ، ولكن التاريخ يصور لنا مؤامرتها فقط من أجل الحكم والسيطرة وشذوذها الجنسى !

وروكسانا ابنة داريوس . . أحبت الإسكندر الأكبر ، وتزوجها وكانت حيواناً مصاصاً للدماء بعد وفاة الإسكندر . . ولكن أحداً لا يذكر أنها جففت الدماء والدموع . . ونشرت السلام بين خلفائه . ثم حررت بلادها من قوات الإغريق !

وعندما قررت المرأة ، هرباً من قسوة الرجل وظلمه وأنانيته ، أن تعيش حياة خاصّة بها ، وأن تقيم لنفسها مدينة من النساء أو جزيرة محرمة على الرجال ، خلق الرجل حولها مالا نهاية له من الخرافات . فقد كانت مجموعة من النساء عرفن باسم (الأمازونات) . . وهذه الكلمة من معانيها آكلات اللحوم . . ومن معانيها ذوات الثدى الواحد . فقد كانت فتاة الأمازون حريصة على أن تتقن إطلاق السهام ، وكان ثدياها يعوقانها . . ولذلك قطعت كل واحدة ثديا . . وكلهن فى منتهى الشجاعة والقدرة على إحكام الرماية ، وكان من عادة نساء الأمازون أن ينتقلن مرة كل سنة إلى بلدة مجاورة فتحمل النساء . . فإذا كان المولود ولداً أعادوه إلى أبيه . . وإذا كانت بنتاً احتفظوا بها . . ويقال إن إحدى ملكات الأمازون قد ذهبت إلى الإسكندر الأكبر . وطلبت منه أن تحمل منه ليكون لها ولد عبقرى أو ابنة عبقرية . وأقامت معه ثلاثة عشر يوماً واختفت . . والمؤرخون يريدون – طبعاً – أن يقولوا إن الأمازونات لم يستطعن الحياة وحدهن . وإن واحدة منهن لم تقو على مقاومة الإسكندر الأكبر . . بل من أجله هربت من بنات قومها ، وخلعت كل فلسفة : المرأة وحدها تستطيع أن تعيش أكرم وأعز على نفسها من الحياة مع الرجل !

وعندما حاول الرجل أن يعطى للمرأة كل صفات الرجال من العقل والحكمة تحدث بإسهاب عن الإمبراطورة إيجاريا زوجة الإمبراطور نوما . قال المؤرخون إن الإمبراطور كان إذا أراد أن يقنع ضيفه بشيء قال : ليس هذا رأيى وإنما هو رأى إيجاريا ، فيسكت الناس !

فقد كانت حكيمة ، ولكن المؤرخين يجتهدون جدًّا ، ليقولوا لنا : إن هذا اتفاق بين إيجاريا وزوجها . . وإن الاثنين يلعبان على الناس . وإن هذه تمثيلية كاذبة . فالرأى رأيه هو ، ولكنه ينسبه إليها وبذلك يبدو كأنه لا يستبد برأى ولا ينفرد بقرار . . وإنه أشرك معه النصف الآخر من المجتمع . فقراره إجماعى ، حدث ذلك فى كل العصور حتى إيفا وإيزابيلا زوجتا الرئيس بيرون . . كانتا راقصتين ، ولكن لها أعمالاً شعبية مجيدة ، ينساها المؤرخون طبعاً .

وفى الفنون الشعبية نجد المرأة (المعلمة) . . أى التى تتسلط على عدد من الرجال . ويدينون لها بالطاعة والولاء . هذه المعلمة قد ارتدت ملابسّ الرجال ، واستعارت أساليبهم فى الكلام والسلام

والثواب والعقاب . . أما الرجال فهم من طراز تافه من الناس . . ومعنى ذلك أن الرجل عندما أراد وأطال فى عمر هذه (المعلمة) إنما أراد أن يقول ، إن المرأة إذا حاولت أن تقلد الرجال فإنها لا تفلح إلا مع عدد من أشباه الرجال . . فلا هى رجل ولا هؤلاء أيضاً . .

وبذلك تبقى (المعلمة) نكتة ، ولكنها ليست حقيقة ، لأنها لا تستطيع ، والرجال لا يقبلون .

نعود إلى اشتغال المرأة بالسحر . . فقد كانت المرأة الساحرة يحكمون عليها بأن تغرق فى الماء . وكان ذلك أقسى وأقصى العقوبة لأن موتها يستغرق وقتاً أطول وتعذيباً أكثر ، وكانت تختفى تحت الماء . . ثم تطفو ولكن أكثر الساحرات كن يرفعن أيديهن تحت الماء ويحركنها ، وكانت هذه الحركة نوعاً من الإصرار الصامت على أن يقلن شيئاً . . آخر كلمات لهن . . وهذه الكلمات الصامتة تؤكد أن المرأة حتى لو غرقت فلا بد أن تستنكر ما يفعله الرجال أو ما يفرضه الرجال على النساء . . من حياة أو موت . . !

والسبب : هذه الغرف الضيقة !

من أسباب تعاسة سكان المدن أنهم كثيرون . وأنهم يتزاحمون فى كل مكان ، وأن هذه الأمكنة تضيق بهم وتضيق عنهم . . فكل مكان خانق : البيت والسيارة والمصعد والمطعم والنادى والمدرسة والمحكمة والشارع ، هذا التقارب الشديد بين الناس يضايقهم . فتصبح راحتهم الكبرى أن يتباعدوا . . أن تكون بينهم مسافات . أن يهربوا . . ألا يسمع بعضهم البعض . . ألا يرى أحدهم الآخر ، ألا يكون هناك أناس كثيرون . .

مثلاً : فى الأسانسير يتقارب الناس . ويتزاحمون . ويشعرون بضيق . ولا يقوى الواحد منهم على أن ينظر للآخر وإنما يرفع عينيه إلى سقف أو يضعها فى الأرض أو يسرح ، أما عامل الأسانسير نفسه فهو قد طلع ونزل عشرات المرات وهو السجين طول الوقت فى هذه الغرفة الصاعدة الهابطة ، فعنده أحاسيس بأنه لا ضرورة له . . فنى استطاعة أى إنسان أن يضغط على « الزرار» والكهرباء تقوم بكل العمل ولذلك يحاول أن يجعل لنفسه معنى . أو يجعل لوجوده ضرورة . فهو يضغط على الزرار بشكل خاص ، أو يفتح الأبواب أو يغلقها بيديه ، كأن الكهرباء لا تكنى . أو كأن الأسانسير دون مساعدة منه لا يتحرك . . ثم إنك تجده يقول : يا ساتر يارب يا منجى من الهلاك . .

وهذه العبارات ليست لها دلالات خاصة . وإنما هو يحاول أن يوهم الناس أن هناك خطراً . وأنه وحده الذى يعرف . وأنه يجب ألا يأخذ الصعود والهبوط قضية مسلماً بها وأن هناك احتمالاً أن يتوقف أو ينكسر أو يسقط بهم . . إن عامل المصعد يشيع الخطر والخوف فيتساوى بالناس فى شعور جديد . . مع أنه لا خوف هناك أو من النادر جدًّا أن يحدث شىء . . ولكنه يريد أن يعطى لنفسه ولعمله معنى هامًّا . لماذا ؟ لأن هذا العمل سهل ولأن هذا الأسانسير سجن متحرك ولأن وجود الناس بالقرب منه لا يعطيه حرية الحركة أو حرية النظر ولأنه لا يجد الحرية التى يتمتع بها الناس فى البعد والقرب والنزول

والصعود . . فهو مربوط فى هذه الغرفة الضيقة ، تماماً مثل سائق التاكسى والأتوبيس . . ومثل قبطان السفينة ومثل كابتن الطائرة .

أذكر فى إحدى المرات أن سافرت من بورسعيد إلى مرسيليا على باخرة اسمها «الماريشال جوفر» . الباخرة كبيرة لا يهزها الموج بسهولة . ولكن قبل أن تصل إلى مياه جزيرة كريت انطلقت الصفارة معلنة حالة الطوارئ ، وكانت مفاجأة . وبسرعة ضعد على ظهر الباخرة بعض البحارة وأمسكو أطواق النجاة وراحوا يشرحون لنا كيف نتصرف إذا ما أوشكت السفينة على الغرق وبسرعة ظهرت بعض الراهبات ورحن يصلين لله أن يكتب لنا . أو يكتب لهن وحدهن النجاة . وظهرت على خدودهن دموع من الخوف أو أن الدموع استكمال لوجاهة الإيمان . .

ولم أجد أحداً قد تأثر بكلام البحارة . . ولا البحارة أنفسهم ، إنهم يضحكون وهم يعرضون علينا كيف ننجو من الغرق . وسألت واحداً منهم : هل صحيح أننا سنغرق ؟ وضحك البحار نعم سوف نغرق كما غرقنا بالأمس !

ولاحظت أن هذا البحار قد دعا الناس بمنتهى الجدية للفرجة عليه . . ولكن لم يكد يتجمع الناس حوله حتى غلبه الضحك .

إذن ليس صحيحاً هذا الخوف . وليس صحيحاً ما يدعو إلى الخوف . . ولكن البحارة جميعاً يجدون متعة فى أن يفزعوا الناس ، فى أن ينبهوا الناس إلى أن هناك أناساً يعملون . وأن هؤلاء العاملين هم الذين أعطوهم هذا الشعور بالأمان . وأذكر أنى سألت كابتن إحدى الطائرات وقد أجلسنى وراءه لأتفرج على الأجهزة الكثيرة التى تحرك الطائرة : ما هو شعورك وقد طلبت من جميع الركاب أن يربطوا الأحزمة ، وأن يكفوا عن التدخين ؟ . ما هو شعورك وقد سجنت الناس كلهم وراءك فى حالة من الصمت أو الخوف ؟ فضحك قائلاً :

يا أخى ولماذا أخاف أنا وحدى . . ولماذا أكون أنا السجين الوحيد الذى يجلس فى المقدمة . لماذا أكون أنا الخائف المسئول عن أمن كل هؤلاء الناس ؟

حتى سائق السيارة كثيراً ما يسرع فيفزع الراكب . . أو يتحدث إلى الراكب فيستدير إليه تماماً دون أن ينظر أمامه إلى السيارات والمشاة فيصرخ الراكب . . إن السائق يريد هو أيضاً أن يشاركه أحد شيئاً . . أن يشعر به ، أن يحس أنه ليس آلة قد ركبت آلة . . وأن سلامة الراكب من الممكن أن تكون فى خطر . .

ولكن لماذا يفعل هؤلاء ذلك بنا ؟ إن الحياة فى المدن مرهقة للجميع . إن الناس فى سجون

متحركة . . سجون على عجلات . . أو سجون تشدها الأسلاك . . أو يرفعها الهواء والإنسان ينتقل من سجن إلى سجن . . فهو سجين والسائق سجين محكوم عليه بالأشغال المؤبدة . . وهذا هو الذى يضايق الناس . ولكى يخرج الناس من هذا الضيق فإنهم يفتعلون الخوف أو الخطر أو يرتكبونه دون أن يدروا !

ولكن لا مفر من الناس ؛ لابد أن يكونوا هناك وفى كل مكان ولابد أن نضيق بهم . وأن نهرب منهم . ثم نعود إليهم . ونلعن الناس فى جميع الحالات .

ماذا حدث للنبى يونس ، إنه لعن قومه . . حاول أن يهديهم . . ركب سفينة وامتد الحوت إلى يونس وابتلعه . وقيل للحوت إن الذى فى أحشائك ليس طعاماً لك . أنت قلعة حية متحركة لحمايته وجاء حوت وابتلع الحوت وجاء حوت ثالث وابتلع الحوت الثانى وعاش يونس عشرين يوماً فى بطن الحوت . وكان جلد الحوت شفافاً ، وكان يونس يرى كل شىء من السجن حوله ويسمعه . ولكن طال سجنه فى الحوت فدعا ربه أن ينقذه . واقترب الحوت من الشاطئ ولفظ يونس . ونجا يونس من الحوت وبالحوت !

والناس هم هذا الحوت الذى نعيش به وفيه . ونتعذب بسببه . وإذا هربنا من حوت كبير فلكى نعيش فى حوت صغير . . وإذا ضقنا بالصغير ذهبنا إلى حوت كبير . . ولكن لابد أن يكون هناك حوت . فإذا ابتعدنا عن الحوت غرقنا فى الماء . وإذا تسللنا إلى الحوت خفنا أن يفترسنا . . فنحن معه خائفون دائماً . ومن الممكن أن يكون الحوت منيعاً جدًّا . . إذا دخلناه وإذا تزاحمنا وتقاربنا فى داخله . . تماماً كما تحيط بنا حريقة ، ويتزاحم الناس خوفاً منها فيدوس بعضهم البعض ويقتل بعضهم البعض !

وعندما صور الفيلسوف الوجودى سارتر جهنم فقد اختارها على النحو التالى : جماعة من الناس جلسوا معاً ، عيونهم مفتوحة ليلاً ونهاراً وينظرون إلى بعضهم البعض دون أن يكون هناك سبب لذلك . . هذا هو الجحيم . أن يكون الناس معا ليلاً ونهاراً . ولا يهرب واحد من الآخر ولا يغمض لهم جفن . وإنما هم ينظرون إلى بعضهم البعض . فلا سر ولا شىء خاص . ولا حرية لأحد ، ولا مفر من أحد ، ولا نجاة من أحد ، فكلهم مصوبون بعضهم إلى بعض . . سهام من نار . طلقات رصاص . إهانات . إدانات . . لا رحمة ولا شفقة . إنهم متراصون . ملتصقون لا انفصال ، لا انفكاك ، لا ابتعاد ، لا مسافات بينهم .

يقول أوسكار وايلد فى سجنه : هنا يظهر الإنسان على حقيقته . . عرياناً تماماً . ولذلك يستحق احتقارنا جميعاً . . إذن هو الكذب الذى يجعل الحياة ممكنة . . ويقول أوسكار وايلد : عرفت وأنا فى

السجن معنى الرومانسية . . معنى الحب والشوق والجنة . . كل ذلك معناه : أن تكون هناك مسافات بعيدة جدًّا بين الناس !

ولهذا السبب ينتحر الشباب فى السويد والنرويج والدينمارك ، ولكن لماذا ؟ إن هذه مجتمعات رفاهية ، عندها كل شيء . عندها المال والجمال . عندها السلام والأمان ، كل شيء قريب من أصابع الناس وعيونهم وآذانهم وشفاههم وأحضانهم ، كل شيء عندهم . يجيء دون أن يطلبه أحد . وهذا معناه أن أبناء هذه البلاد ليسوا فى حاجة إلى أن يتحركوا لكى يجدوا . ليسوا فى حاجة إلى أن يمدوا أيديهم لكى يأكلوا ويشربوا ، كل شيء موجود ، وهذا معناه أن العالم أصبح قريباً جدًّا ، أنهم ليسوا فى حاجة إلى حواسهم ، ليسوا فى حاجة إلى خوف ليفوزوا بالأمان ، ليسوا فى حاجة إلى عطش ليرتووا ، ليسوا فى حاجة إلى شوق ليبحثوا ويجدوا . كل شيء موجود دون أن يشعروا بالحاجة إليه . ولذلك فعالمهم ملاصق لأجسادهم كملابسهم .

عالمهم لا يدعوهم إلى أن يفعلوا أى شيء . ولذلك ضاقوا بهذا العالم الضيق . . وانتحارهم هو نوع من القفز من جلودهم . القفز من الطائرة أو السيارة أو المصعد : وأحياناً يسرف هؤلاء المرهقون فى تعاطى المخدرات . لماذا لأن هذه المخدرات توسع دنياهم . تذيب الفوارق بين أجسامهم والأجسام الأخرى . . تنقلهم إلى دنيا ثانية . . إن هذه المخدرات تخلق مسافات جديدة بينهم وبين الواقع (المخزق) كالأثواب الضيقة عليهم . .

إن القرآن الكريم يحدثنا عن أهل الكهف الذين ناموا عشرات السنين . وفى نومهم هذا حل لمشكلة أناس عاشوا معاً فى كهف أو سجن فى حالة خوف . وليس عندهم ما يقولونه . فجاء النوم حلاً لهذا الإشكال . .

فالنوم أراحهم من الصمت الرهيب . وأراحهم من الكلام الممل . وأراحهم من عذاب العيون التى تنظر بعضها إلى بعض دون معنى أو دون مبرر أو دون حل . فالنوم ألغى السمع والبصر واللسان وانكفأ كل واحد على نفسه . . وزالت الفوارق بينهم وناموا وكأنهم ماتوا .

ولابد أن تكون النقوش والرسومات الموجودة على جدران الكهوف سببها أن سكان الكهوف لم يحتملوا أن يظلوا فى صمت ينظر بعضهم إلى بعض . ولذلك أدار كل واحد وجهه إلى الحائط وراح يحدث نفسه . وكان لهذا الحديث معنى ولون !

وفى أساطير اليونان نجد فتاة اسمها أوجا . . جميلة خدعها شاب . فحملت وولدت فى الغابات وطردها أبوها . وتبناها أحد الملوك . وتركت أوجا ابنها فى الغابة . واحتضنته ذئبة وأرضعته . وحزنت

الأم على ولدها الوحيد . ولكن الملك الذى تبناها كان فى حاجة إلى من يحميه من الغزاة . فأعلن أن الشاب الذى يستطيع ذلك سوف يعطيه ابنته أوجا زوجة له وتقدم شاب . وكان هذا الشاب هو ابن أوجا . وهزم الأعداء . وأعطاه الملك ابنته . وكلما اقترب منها الابن زحفت حية وفرقت بين الاثنين . وظلت الحية تباعد بين الابن وأمه حتى لا يستطيع أحدهما أن يرى الآخر . . وهنا تظهر حمامة وتحط الحمامة على كتف الأم . وتقودها إلى ابنها وهى لا تعرف أنه ابنها . ولا يكاد الابن والأم – يلتصقان ويتعانقان حتى تلتف الحية حول عنقيهما فيهربا ، وتعود الحمامة تقودها . وتجىء الحية تفرق بينهما وأخيراً جاءت الحية وابتلعت الحمامة . وحزنت الأم وحزن الابن . وفى اللحظة التى أعلن لهما أحد العرافين حقيقة الأم والابن أسرعت الحية ولدغت الاثنين . . وماتا فى عناق أبدى .

وكذلك كل العلاقات القوية التى تجعل المسافة بين الناس قصيرة . . كالحب والصداقة . . والكراهية وكل أشكال الارتباط بالآخرين . كلها علاقات تشد الناس بعضهم إلى بعض . وتلغى المسافات أو تضيقها . وهذا هو الذى يوجع الناس . وهو الذى يجعلهم يفكرون فى أشكال مختلفة للخلاص والهرب والقفز من هذه العلاقة كما يقفز الإنسان من نافذة أو من سطح بيت . . أو يقفز من جلده إلى الموت أو الجريمة أو الانتحار . . أو المخدرات أو الجنون .

إن الذى يوجع الناس هو الناس : أن يكون هناك أناس عند أطراف حواسنا ، وألا يكون هناك أحد سوانا !

وجهك الذى لاتراه فى المرآة ؟ !

نحن فى زمن لا يعرف فيه الإنسان وجهه أوقفاه . . وقالوا نحن فى عصر لا يعرف فيه الإنسان رأسه أو رجليه أو لا يدرى فيه الإنسان شيئاً عن نفسه . . وربما كانت النفس صعبة ومعقدة ولذلك فقليلون جدًّا من الناس الذين يستطيعون أن يلمسوا أعماق النفس أو أغوارها . . وعندما طلب سقراط فيلسوف الإغريق من الناس أن يعرفوا أنفسهم ، فقد طلب منهم شيئاً صعباً . . وعندما طلب إليهم أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم ، طلب أصعب ما فى قدرة الإنسان .

وقالوا : إن الإنسان لكى يرى وجهه فى حاجة إلى مرآة واحدة ، وإذا أراد أن يرى قفاه ، فهو فى حاجة إلى اثنين ، فهل صحيح أن الإنسان فى حاجة إلى أن يرى أو يعرف أو يفهم كل شىء عن نفسه وجسمه ؟

بل الإنسان لا يعرف بوضوح جسمه . . مع أن الجسم أوضح وأبرز من النفس أو من العقل أو من الوجدان . . حتى إن هذا الشىء الطويل العريض من لحم ودم وعظم وعضلات وأعصاب لا يعرفه بوضوح . . وهناك تجارب كثيرة تؤكد أن الإنسان إذا عرضت عليه صور مختلفة لجسمه من الزاوية التى اعتاد عليها فإنه لا يعرف من يكون صاحب هذا الجسم .

بل إن أحد العلماء قد أتى بواحد من زواره وأوقفه أمام مجموعة من المرايا التى يسهل إرجاعها إلى الوراء وتقديمها . . وفى هذه الحركة البسيطة تتغير أحجام الرأس والصدر . . وطلب من الزائر أن يحرك المرايا على النحو الذى يريده ، بشرط أن يوقفها عندما تصبح الصورة فى حجم رأسه وصدره . . وقد اكتشف العلماء أن الكثيرين لا يعرفون بالضبط حجم الرأس أو الذراعين . ويروى العالم الكبير فرويد أنه فى إحدى المرات كان يركب القطار . وفوجئ برجل نحيف القامة أبيض الشعر يرتدى قبعة سوداء . . وقد هجم على غرفته . فانزعج فرويد لذلك . . وتبين أن هذا الذى رآه ليس إلا صورته هو فى المرآة !

وتقول مارلين مونرو فى مذكراتها إنها عندما عرضوا عليها فيلمها (دعونا نحب) اندهشت جداً . عندما رأت ساقيها . . فقد كانت تظن أنها أنحف من ذلك كثيراً . . مع أنها ترى نفسها كل يوم فى المرآة ساعات طويلة !

وفى أساطير اليونان أن الفتى نرسيس أو (نرجس) نظر إلى نفسه فى الماء . . وكانت مفاجأة : لقد عشق هذا الوجه الجميل . . وظل كذلك حتى مات ، إنه لم يكن يتصور نفسه فاتناً إلى هذه الدرجة . إنه لا يعرف وجهه أو جسمه !

وجسمك هو أقرب الأشياء إليك . . أو هو وسيلتك إلى العالم الخارجى . . أو (الأداة) التى تلمس بها الدنيا من حولك . تلمسها بالعين والأذن والأنف واليد واللسان . . فلا توجد أداة أو (أدوات) أخرى غير الجسم الإنسانى . . وغير العقل الموجود فى الرأس الإنسانى .

وهذا الجسم يشغل حيزاً فى الفضاء الذى حولك . . حيزاً صغيراً ويكبر . . أو حيزاً كبيراً ويصغر . . إنه (مكان) لك فى هذه الدنيا . . وقد تتفق مع الناس فى كثير من أفكارهم أو مشاعرهم ، ولكنك تختلف عن الناس بجسمك . الأفكار موجودة فى الكتب والصحف والميكرفونات ولكن الجسم شخصى . إنه متميز عن غيره من الأجسام . . بصماتك ليس لها نظير . . خلاياك من نوع خاص ولا يمكن زرع خلايا من أى جسم آخر فيها . .

وكل شيء حولك سوف يذهب أو يتلاشى أو يتضاءل إلا جسمك ، سوف يبقى معك . . أو سوف تبقى معه . . إلى النهاية . . أى حتى الموت . . والإنسان عندما يموت فإنه يموت فى جلده . . أو تحت جلده . . ما هو الموت ! هو اختفاء لشيء ما ، هو اطفاء لنور ما ، أوضمور لطاقة ما أوهروب لساكن ما . . إن الموت هو ألا يكون لهذا الجسم أية قدرة على أن يفعل شيئاً . . فما هو الموت . . ؟ . . هو تصريح لهذا الجسم بأن يتآكل ويتلاشى . .

حتى وأنت نائم . . فإن هذا الجسم لا يكف عن النشاط . . القلب لا يتوقف . . وبعض الغدد تفرز وتنشط . ويتلقى هذا الجسم معلومات كثيرة . وتظهر هذه المعلومات فى حركة الجسم . . أو فى الأحلام . . وأحلامك تدل على ما أصاب الجسم أثناء النوم أو قبل النوم . . أو فى كل حياتك من أولها إلى آخرها . .

ولكن أجدادنا من العلماء كانوا ينظرون إلى الجسم الإنسانى على أنه مجموعة من الأدوات والأجهزة : دم ولحم وعضلات وكريات وخلايا وسوائل تدخل وتخرج وهواء . أى أن الجسم الإنسانى مثل أية سيارة أو طيارة . . مجموعة أجهزة وعدة وظائف . . وأما الإحساس بالجسم الإنسانى ، فذلك شيء جديد ، وأسرف الإنسان فى إحساسات ومركبات هذه الإحساسات حتى نسى أن له جسماً . لقد انشغل الإنسان بتسجيل ما يسمع وما يرى وما يفكر فيه . . كأن الإنسان ليس إلا رأساً وإلا

عقلاً . ونسي ما تبقى من أعضاء ووظائف جسمه . .

حتى ظهرت الفلسفات الشرقية التي تسمى باليوجا . وهي دعوة إلى الإحساس بالجسم الإنساني وفي نفس الوقت إلحاح على أن نشعر به وأن نتحكم فيه . . فالجسم الإنساني خادم لنا ، وليس سيداً . . وعلينا أن نعلم هذا الخادم كيف يطيع . . وفي طاعة هذا الخادم راحة للعقل وللجسم وللعقول والأجسام الأخرى .

والحماس الشديد الذي لقيته اليوجا في أوربا وأمريكا يدعونا إلى التفكير : ولكن ما هو هذا الجديد الذي اكتشفته اليوجا ؟ لقد اكتشفت الجسم الإنساني . وأحس الأوربيون والأمريكان أن (قارة مظلمة) تعيش تحت الجلد . . قارة حارة وباردة وشائكة ووحشية . . هذه القارة يجب أن نعرفها وأن نطيل النظر إليها وأن نضع السلاسل في نزواتها حتى يصبح الجسم سليماً ، والعقل سليماً . أو حتى يسلم العقل ويسلم الجسم أيضاً .

ونحن أطفال يقال لنا : ضع يدك إلى جوارك . . ضم رجليك بعضهما إلى بعض . . امسح شفتيك . . لا ترفع صوتك . . وهذه الأوامر معناها أن يتعلم الطفل أن له حدوداً . . أن لجسمه حدوداً يجب ألا يتعداها . . وتتعلم الفتاة أن تغطي وأن تكشف من جسمها مساحات معينة . . ويتعلم الجميع أن هناك مساحات من الجسم يجب ألا يلمسها . . وأن هناك مساحات يجب ألا ينظر إليها . . وأن هناك كلمات يجب ألا تقال . . أي أن المجتمع يضع خريطة للجسم الإنساني . . ويغطي أماكن من هذه الخريطة . . ويكشف أماكن أخرى . وعلى الجميع أن يراعوا الحدود حتى لا يخرجوا عليها . .

وأحياناً يتعاطى الناس المخدرات . . أو حبوب الهلوسة . . هذه المخدرات تذيب الفوارق بين جسم الإنسان والعالم حوله . . أو بين جسم الإنسان والأجسام الأخرى . . فيشعر الإنسان بأن جسمه أكبر وأضخم . . أو أن جسمه أخف كثيراً . . وأنه حيوان أو نبات أو زهرة ، أو أنه فوق في السماء وينظر إلى نفسه في الأرض . . إن عقاقير الهلوسة تغير تشكيل جسم الإنسان . . أو على الأصح تجعل الإنسان ينظر إلى نفسه على أنه شكل آخر وإنسان أو حيوان آخر .

والمرأة أكثر إحساساً بجسمها من الرجل . بل إنها تعرف كل بروز صغير أو كبير في جسمها . . وكل شعرة تنبت . . وتستطيع أن تتابع نمو شعرها وأظافرها وأن تلاحظ ذلك عند الآخرين . والمرأة تنظر إلى جسمها على أنه مصدر حياتها ووسيلة مستقبلها وهي لذلك تعنى به وتعنى بأزيائها وزينتها . وتعنى بوزنها ولونها . . وتعنى بالأثر الذي يتركه جسمها على أجسام الآخرين . . والمرأة تتمنى أن تكون جذابة لافتة مغرية . ولو خيرت المرأة بين أن تكون فاضلة لا تلفت عيناً ولا أذناً وبين أن تكون فاتنة وأي شيء آخر ، فإن الكثير من النساء يفضلن الفتنة !

والرجل لايعنى كل هذه العناية بجسمه ، إلا إذا كان رياضيًّا ، وكان لونه البرونزى . . وعضلاته وليونة ذراعيه ورشاقة قوامه ، كل ذلك كان مطلوباً مرغوباً فيه من أجل تفوقه فى الرياضة . ولكن إذا لم يكن الرجل رياضيًّا . فإن هذه الحفاوة الزائدة تدفعه إلى عالم الشواذ . . وينظر إليه الناس على أنه منحرف ، ولكنه منحرف عن ماذا ؟ منحرف عن الخريطة التى وضعها المجتمع للسلوك الجسمى للرجل ، فالرجل يجب أن يعنى بجسمه ، أى يكون نظيفاً . . وأن يكون مهندماً . وأن يكون معقول النسب بين أعضائه ، أويكون متناسباً . ولكن إذا أسرف الإنسان فى العناية بشعر رأسه والعناية بما يكشفه ومايغطيه من جسمه ، أومايبرزه لكى يراه الناس . فهو قد انحرف عن « النموذج » المقبول عند الناس.

وعلى الرغم من أنك ترى وجهك كل يوم ، فإنك لاتستطيع أن تدرك بوضوح معالم وجهك أورقبتك . . أويديك . . أوبقية جسمك . . ولكن إذا جاء صديق قديم لزيارتك فإنه يقول لك : غريبة . . أنت تغيرت تماماً . . طلع لك كرش . . وشعرك ازداد بياضا . . ماذا جرى لك ؟ . شىء عجيب طرأ على أصابع يديك ، ثم هناك كرمشة حول الفم وحول العينين . . يارجل أنت كبرت !

ويكون كلامه هذا مفاجأة لك كأنه يحدثك عن إنسان لاتعرفه . . مع أن وجهك وكرشك وأصابعك تحت عينيك كل يوم . ولكنك لاتراها . أوكأنك تنظر إليها ولاتراها !

والمرأة أكثر إحساساً بذلك من الرجل . فإذا قابلتها إحدى صديقاتها وقالت لها : لقد أصبحت أكثر رشاقة . . أنت أنحف من آخر مرة رأيتك فيها !

والمرأة تميل إلى تصديق ذلك . . لأنها تريد أن تكون نحيفة . . ولأنها تعتقد أن يكون غيرها يراها أوضح . .

وهناك لحظات تجعلك تكتشف حقيقة جسمك . أويكتشف شيئاً منه أوشيئاً عنه . .

ففى رواية (الغثيان) للفيلسوف الوجودى سارتر نجد أن بطل المسرحية اكتشف فجأة أن أصابع يديه تشبه جذور الشجر ثم نظر إليها مرة أخرى فاكتشف أنها عبارة عن أنابيب منفوخة . . أو أنواع من الديدان ، واندهش جدًّا ، أن هذه الأصابع لاعلاقة لها مطلقاً بما يدورفى رأسه من أفكار . . ولاعلاقة لشكل هذه الأصابع بالمعانى الفلسفية التى يخطها على الورق . . ثم أدرك أن أصابعه هذه اتخذت شكلا ولوناً وحجماً وحدها . . أى دون أن يكون له أدنى تدخل فيها . . شىء عجيب أن يدرك الإنسان فجأة أن جزءاً من جسمه ليس مألوفاً وأنه لم يكن يعرف ذلك ! .

وأحيانا تفاجأ بأن فى حذائك مسماراً أوقطعة ظلط . . وأن وزنك ثقيل . . فأنت عندما تطأ هذه

انظلطة فإنها توجعك . ولوكان وزنك خفيفاً ماوجعتك إلى هذه الدرجة . . أوعندما تضعف صحيًّا ، تجد نفسك عاجزاً عن حمل كل هذا الجسم الذى لم تكن تعرفه !

وعندما تواجهك الريح ، فإنك تسد الجاكتة أو الفستان أو البالطو فى وجه الهواء البارد . . أى أنك تحاول حماية جسمك . . أو عندما تركب سيارة ويهب الهواء والتراب معاً ، فإنك تغلق النوافذ بإحكام شديد . . فهذا الخطر الخارجى يجعلك فى حالة دفاع عن الجسم . . أى أن جسمك يسهل أن يؤذيه الهواء والتراب ، ولذلك تسارع بالدفاع عنه !

فهل الجسم الإنسانى سجن لك . . وأنت تحاول أن تتحرر من قيود هذا السجن ، والحقيقة أنك لاتستطيع أن تتحرر من سجن جسمك إلا بالموت . . ولكن مادمت حيا فأنت تحاول أن تجد لك فتحة أو تحاول أن تهدم جدرانه عليك . . أى أنك تهدم البيت الذى أنت ساكن فيه . . أو تحاول أن تحرق السفينة وأنت راكبها الوحيد . . (فالجسم إثم) أيضاً . . ولذلك يحاول بعض الناس أن يظهر هذا الجسم . . أو يحاول أن يزهو فى هذا الجسم . . أو لايهتم به مطلقاً ، فيتركه بإهمال ولايعنى به – المتصوفون يفعلون ذلك فى كل دين ! فهل الجسم حصان تركبه . . أو هل النفس حصان يركبه الجسم . . أو هل الجسم حصان يجره العقل . . أو هل العقل حمار فى عربة الجسم . . إن هناك وجهات نظر فى الدين وفى الفلسفة وفى السياسة لكل هذه التساؤلات . . وأصعب شىء هو الاعتدال بين كل هذه المذاهب . . بشرط الا نحقر الجسم الإنسانى . . فلاإنسان بغير جسم . . ولايستطيع أن يحقق رغبات الجسم إلا بالجسم . . ولايستطيع أن يضبط رغبات الجسم إلابالجسم أيضاً !

والإغريق عندما تصوروا أقسى درجات العذاب اختاروا أن يكون للإنسان مليون جسم تأكلها النار وتتجدد من جديد . . فهم تصوروا البطل بروميثيوس مشدوداً بالسلاسل الملتهبة . . وأتوا بنسر يأكل قلبه ، وكلما اختفى القلب ظهر قلب آخر . وهكذا إلى الأبد والنسر عندما يأكل القلب فلابد أنه يوجع البطن والرأس . . ويمزق الجسم كله حتى يصل إلى القلب ويظل ينقره ويأكله قطعة قطعة حتى يتلاشى وعندما ينمو يعاود التهام وتعذيب هذا البطل . .

والقرآن الكريم يقول : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) . . ومعناها أن جسما واحدا ليس كافياً لتعذيب الإنسان . . إنما يجب أن يكون له مالانهاية من الأجسام الواحد بعد الآخر ليضاعف عذابه . . فالعذاب والنعيم كلها عن طريق الجسم الذى لانعرف إلا القليل عنه . . مع أننا نعيش فيه وبه ونعيش ضده . . أو ربما لأننا نعيش فيه . فأقرب الأشياء إلينا أبعدها عن الوضوح . . والذى يلصق وجهه فى المرآة ، لايرى من وجهه إلاالقليل ولكى يرى أوضح يجب أن تكون المرآة أبعد !

فتش عن يوسف فى كل بئر!

عثرت على قصة قصيرة كنت قد كتبتها فى مدرسة المنصورة الثانوية. وقد أخافنى منها استخدامى لكلمة الخوف.. أكثر من عشرين مرة. مع أن القصة لم تتجاوز صفحة واحدة من مجلة المدرسة. أما القصة نفسها فقد أفزعتنى. ولكنها صورة لأعماق فى ذلك الوقت.. وإن كانت هذه الصورة ماتزال معلقة على جوانب نفسى.

فأنا أحكى أننى كنت أسير فى الليل وكانت الدنيا مظلمة.. حتى السماء أخفت نجومها، حتى القمر كان رسما رمزيًّا لقمر كان فى السماء واختنى من شدة الخوف.. وتوهمت أن هناك أشجاراً تمشى إلى جوارى.. وأن هذه الأشجار تحولت إلى جدران فى خرائب.. وأزعجنى ذلك.. وانشغلت بالذى حولى عن الذى أمامى وسقطت فى البئر.. ولم تكن لهذه البئر قرار فظللت أعوى حتى اصطدمت بالقاع وأعادتنى المياه إلى السطح وأشرقت الدنيا ابتهاجاً بنجاتى، وطلع النهار، وامتلأت السماء بالضوء وكانت الشمس قد لسعتنى لأصحو من النوم.. وأكثر ماأدهشنى من هذه القصة التى كتبتها منذ أكثر من ثلاثين عاماً أننى جعلت عنوانها: «إننى أبحث عن قصة يوسف فى أعماق»!

شىء عجيب أننى فى مثل هذه السن أبحث عن يوسف عليه السلام فى نفسى.. وكيف أن إخوته ألقوه فى البئر.. وقالوا لأبيهم إن الذئب قد أكله، وكيف باعوه واشتراه أحد المصريين ودخل السجن وصار بعد ذلك أميناً على مخازن مصر إلى آخر القصة!

وأعود إلى تلك الأيام وأفتش عن أصل هذه القصة من نفسى، لا أعرف بالضبط.. ولكنه الخوف العميق فى نفسى.. الخوف من ماذا؟ الخوف من كل شىء.. فقد كنت أسكن فى بيت.. والبيت منعزل تماماً عن بقية البيوت.. والأضواء لاتصل إليه.. كأن البيت خائف من بقية البيوت.. فانعزل.. أو هو انعزل ولذلك فهو خائف ونحن أيضاً.. وقد تحول البيت بسبب الخوف إلى شىء مغلق الأبواب والنوافذ.. حتى الكلام فى همس كأننا نحن أيضاً أغلقنا أفواهنا.. وعندما يجىء الليل

تنطبق عيوننا فتصبح قطعة من الجدران . . لاصوت ، لاحركة ، لاهمس . . لانفس ، كأن هذا البيت كهف على سطح الأرض . . أو كأن الكلام حولنا بئر يوسف عليه السلام . ونحن نعيش فى صندوق مغلق ملقى فى قاع هذه البئر .

وأعود فأتذكر أنه حدث فى إحدى الليالى أن قفز ذئب من النافذة . . واتجه مباشرة إلى حيث الدواجن . فلم يكن يقصدنا وإنما يتجه إلى هذه الطيور . وكان أفزعنا أكثر من هذه الطيور . ولم ننس حادثة الذئب . . وازداد خوفنا من كل شيء . . وفى إحدى الليالى جاء أحد رجال الشرطة يطلب والدى للشهادة . ولم أكن قد رأيت واحداً من رجال الشرطة فى هذه الساعة من الليل . . كان طويلا عريضاً . . وكانت عيناه لامعتين . . وصوته صارخاً . . وشاربه كثيفاً . وقبضته ثقيلة وأقدامه تهز الأرض . . ولا أعرف إن كان هذا الرجل قد جاءنا بعد ذلك . . ولكننى رأيته فى نومى كثيرا ، ورأيته يطلبنى أنا لأسباب لاأعرفها . ويلقى بى فى البئر . . ويتركنى للذئاب . . وكنت أرى هذه الذئاب فى نومى لها شوارب رجال الشرطة . . وكنت أرى نفسى حبيساً فى قفص الدجاج مثل دجاجة ويجيء الذئب . . وأقفز من نومى عندما أجد القفص قد انفتح له وحملتنى الدواجن طعاماً شهيًّا للذئب .

وعاودنى هذا الشعور بأشكال أخرى عندما قرأت قصة الأديب الخائف أكثر منى فرانتس كافكا التى تحول فيها إلى صرصار . وهذا الصرصار له عقل إنسان وجسم حشرة . . وكان يسمع ويدرى بكل شيء حوله . . ولكنه لايستطيع أن يتحرك إلا مثل صرصار انقلب على ظهره . . فكأنه إنسان حبس فى سجن أسود على شكل وحجم ولون صرصار !

وفى ذلك الوقت كان عندى كلب ومات . . ولاأعرف ماالذى جعلنى أحب الكلاب . . هل هو الخوف ؟ هل هو ظنى أن هذه الكلاب تحمينى من الذئاب فى الليل . . شيء غريب أن هذا الكلب لم يكن ينبح إلا نادراً . هل هو لاينبح إلا وأنا مستغرق فى النوم ولذلك لاأسمعه . . هل الكلب لاينبح لأنه نام تحت غطائى فهو لايسمع ماحوله . . هل هو أيضاً خائف مثلى . . إن الذئاب تستطيع أن تقتل الكلاب . . فلاأحد أقوى من الذئاب ورجال الشرطة فى خيالى . . ذلك الوقت ! !

مات الكلب . . وتركته على أحد المقاعد . . حتى أكرهونى على إلقائه بعيداً . . ودفنته تحت الأرض . . ودفنته فى الليل . . فقد دفنته . . وكانت الأرض ليلا آخر أخفيت فيه هذا الكلب . . وحزنت عليه . . وأحسست أننى أعمى بلاعكاز . . وأننى عريان أمام الذئاب . . وأن عشرات البطاطين لاتكفى لحمايتى من الليل والذئاب . . !

هل هذا البيت المنعزل فى خوف . . المنعزل فى ظلام ؟ . هل هذا القبر الذى دفنا فيه أنفسنا من الخوف من

كل شيء : من الليل والإنسان والحيوان هو (المادة الأولية) لهذه القصة لا أعرف؟. هل هى قصة من قصص « ألف ليلة وليلة » التى قرأت عنها فى ذلك الوقت ؟ هل هى قصة العفريت الذى نام على حافة البئر على ساق فتاة جميلة ؟ . هل هى الثعابين التى أطلت برؤوسها من البئر . . هل هو خوف هذه الفتاة الدائم ؟ . خوفها من العفريت الذى نام على ساقيها خوفها من العفريت إذا نام والعفريت إذا صحا . . خوفها من أن تقع فى البئر . . خوفها من أن تمتد إليها رؤوس الأفاعى . . إنها صور كثيرة من الخوف . . ولا أدرى لماذا هذه القصة بالذات هى التى سقطت فى أعماق ونبتت ونمت وتفرعت وأثمرت شوكاً فى يقظتى ونومى !

إن العالم الكبير فرويد يرى أن هذه المخاوف لها مكان واحد طبيعى هو طفولتنا . . والطفولة هى الأرض البكر التى تحتفظ بكل بذور الخوف والكراهية والحب واليأس واللذة والألم . . هذه الطفولة هى أرض خصبة . . وما حياة الإنسان بعد ذلك إلا أعاصير للثمار المرة التى نضجت فى طفولتنا ، فقصة البئر والخوف والذئب فى حياتى ، وحياتك ، ليست إلا لوحة سوداء اسمها الليل ، وإلا تمثالا صارخاً أبرزته أصابع العجز عن التوافق والاتفاق مع كل ظروف البيت والمجتمع .

والعالم الكبير درموند موريس يرى أنها ليست طفولتى أنا وإنما هى طفولة الإنسانية كلها . . أى عندما كان الإنسان يعيش فى غابة . . أو يعيش على أطراف الغابة بعيداً عن وحوش الغابة . . أو عندما احتمى فى الكهوف الصخرية بعيداً عن الوحوش وعن الناس الآخرين . . لقد عرف الإنسان الخوف على شكل الليل الصامت . . أو على شكل الحيوانات التى لها أنياب . . أو على شكل المطر والرعد والبرق والمرض والموت والجسد . . وليس الكهف إلا بئراً من نوع آخر إن الكهف بئر على سطح الأرض فيها الجدران وفيها الظلام وفيها عواء الذئب والأمل فى النجاة .

وقصة يوسف هذه مثل عشرات من قصص العذاب فى التاريخ إنها قصة الوحدة المظلمة . . أو الظلم الأسود إنها قصة إخوة حقدوا على واحد من الإخوة فألقوه فى الظلام والظلم معاً .

وقصة يونس عليه السلام . . ابتلعه الحوت . . وكان الحوت أماناً له من الغرق . . وكان الحوت وحش . . وقد احتمى فى الوحوش من أناس أكثر شراسة من الوحش . . فهو من الحوت . وهو أمن فى بطن الحوت . . ففى قلب الحوت : ظلم وظلام . . أو نوع من الأمان المخيف . . أو الخوف الآمن !

وقصة أيوب عليه السلام ، أكثر الأنبياء عذاباً وأشدهم صبراً على الموت والمرض والهوان أصيب بكل أنواع المصائب . . فى أولاده وفى حيواناته وفى أرضه وفى جسمه . . التقت على جلده كل الأمراض وهرب من الناس . . وأصبح حبيساً للمرض والضعف والذل . . ولا أمل عنده فى الشفاء

فهو فى سجن ، والسجن فى داخل سجن فى داخل سجن . . الناس بعيدون وهو وحده . . والأمراض أغلبية ساحقة . . وهو أقلية مسحوقة محروقة . . وهى تجربة لقدرته على الصبر فهو لم يرتكب جريمة تحاسبه السماء عليها أو تنتقم منه بسببها . . وقد أسلم جسمه ونفسه للمرض . . وانطوى على قيوده وعلى سجنه . . وفى هذه الوحدة المظلمة انفرد أيوب . : أو هى جميعا انفردت بأيوب !

والإغريق وهم أساتذة التعذيب فى الأدب القديم ، قد اخترعوا أشكالا وأحجاماً ودرجات من التعذيب لأناس أو لأبطال تركوهم وحدهم يحترقون ويصرخون ، دون أن تمتد إليهم يد ، أو تصطدم بهم عين ، أو تمتلئ بهم أذن ، إنهم هناك وحدهم مع العذاب وحده . ولكن أين أنا ، فى ذلك الوقت من قصة يوسف عليه السلام . . هناك شىء منها فى نفسى . . أو هكذا توهمت . . فيوسف كان أحب الأبناء إلى أبيه . . وقد غار الإخوة . . من ذلك . . وحقدوا عليه . . ورموه فى البئر . . وعادوا إلى أبيهم بقميص عليه دم . . لقد أكله الذئب . . وطلب إليهم أبوهم أن يأتوا بالذئب . . وأتوا به ، ولما سأله أبوهم قال له الذئب لاأعرف يوسف . . ثم إن يوسف لاتأكله الذئاب . . فلحم الأنبياء محرم عليها !

والكتب العبرية تقول إن الله أنطق الذئب . . وجاءت هذه البراءة راحة للأب الذى عرف أن ابنه لم يمت . . وكان فضيحة لأبنائه الذين باعوا أخاهم لرجل من مصر . . هذا الرجل تبنى يوسف . . وكان يوسف جميلا جدًّا . . ويقال إن الله قبل أن يخلق آدم قد قدر أن يعطيه كل الجمال ولكن عاد فأعطاه ربع الجمال . . أما ثلاثة أرباع الجمال فقد أعطاها ليوسف وأحبته السيدة التى تبنته واسمها زليخة . . وكاد يوسف أن يقع فى غرامها لولا أنه كان يرى صورة أبيه كلما اقترب منها . . ومزقت ثيابه من الخلف . . وعندما اتهمته بالاعتداء عليها ، أو محاولة ذلك ، كذبتها أثوابه التى تمزقت من الخلف فقد كانت تطارده وتشده من ملابسه . . ودخل السجن ليفسر أحلام النزلاء . . وخرج ليفسر أحلام الرجل الذى تبناه . . وتنبأ بما سوف يحدث لمصر من الجوع والرخاء . . وجاءه إخوته يطلبون الطعام وعرفهم . . وأعطاهم قميصه إلى أبيه . وشم أبوهم رائحة يوسف فى قميصه . . وأعيد إليه بصره . . وجاء الأب والإخوة إلى مصر وركعوا وسجدوا أمامه . . ومات يعقوب أبوهم فى مصر ولكنه طلب إلى يوسف أن يدفنه فى سيناء . . ولما مات يوسف وضعوه فى تابوت وألقوه فى النيل . . ولما خرج موسى من مصر حمل معه جثمان يوسف إلى سيناء إلى آخر قصة يوسف عليه السلام . .

وفى هذه القصة خوف وفيها انتصار على الخوف . . وفيها حقد وفيها أيضا هزيمة لهذا الحقد . . وفيها

أنهم رموا يوسف فى البئر ، وفيها أيضا أن البئر رفعت يوسف إلى أعلى المناصب . .

وفيها أن الظلام لم يستطع أن يطفئ جمال يوسف . . وفيها أن يوسف رأته النساء فقطعن أصابعهن عندما رأينه . . وقد أرادت زليخة أن تجد لنفسها عذراً إذا أحبت يوسف . . فعرضته على النساء . . فوقعن فى غرامه وعذرنها ، ودخل السجن . . ولكن جاءت قدرته الخارقة على تفسير الأحلام ، سبباً لإطلاق سراحه . . وتعذب أبوه وبكى حتى انطفأ النور فى عينيه ، ولكنه عاد إليه نورالعين وهناء القلب عندما عرف أن يوسف حى . . ويقال إن أباه سأل أولاده فكيف رأيتم يوسف ؟ قالوا وجدناه ملكاً على مصر ، فعاد يسألهم : ليس عن هذا أسالكم . . كيف وجدتم إيمانه ! قالوا : وجدناه مسلما ، فنهض الرجل من فوق سريره وصلى لله شاكراً . . ولكن لماذا أخذت فى ذلك الوقت من كل هذه القصة جوانبها الموجعة للقلب . . ومن كل ألوانها إلاسواد الليل ، وظلام العين ، وظلم الإنسان للإنسان ، واليأس من السماء . ولم أتعمق معانى هذه القصة . . وإنما جعلت العمق حفرة أهوى إليها فى الليل . . وأصرخ كما كان يصرخ يونس فى بطن الحوت ، أو يوسف فى قاع البئر . . وفى هذا الظلام لم أر البلد التى تحنو ، ولاسمعت الكلمات التى تواسى ولاوجدت الأمل الذى يضىء الطريق إلى النجاة وإلى الإيمان .

فهل صحيح أنه من الضرورى أن يبحث الإنسان عن يوسف فى كل بئر . . هل صحيح أن نبحث فى البئر عن كل يوسف . . هل صحيح أن نفتش عن البقع السوداء فى كل شمس .

يبدو أن هذا صحيح . . ففتش فى آبارك ، أو فتش فى نفسك لعلك ترحم نفسك مادام أحد لايرحم أحداً . .

هؤلاء العظماء لعبتهم القطة !

سلسلة

من اللوحات الجميلة للفنان بيكاسو أتذكرها كثيراً : العالم الكبير نيوتن وقد أقفل عليه بابا بعد باب ، والناس واقفون يتساءلون ، ما الذى يفكر فيه هذا العقل الجبار ؟ . . أهى الأرض والسماء والنجوم ، وكيف تدور جميعا فى أفلاكها بانتظام أبدى ؟ أهى الثمار وكيف تتساقط من الأشجار على الأرض دائماً ، ولم يحدث أن سقطت تفاحة واحدة إلى فوق ؟ لابد أن شيئاً عجيباً قد شغل هذا العقل الجبار ؟ الحيرة والقلق والاحترام العظيم واضح على ملامح الجميع . . ولكن الناس لا يرون ما الذى يفعله نيوتن . . إنه قد انبطح على الأرض وراح يضع قطة فوق قدميه ويميل بساقيه إلى الأرض وكلما أوشكت القطة أن تقع أعاد ساقيه إلى مكانهما . هو الذى يلعب بالقطة . . أو هى التى تلعب به . . ساعة وراء ساعة . .

ولما خاف الناس عليه فتحوا الباب ليجدوا الفنان قد استغرق فى النوم . . أما القطة فهى التى جلست على الأوراق التى كان يكتب عليها العالم الكبير !

إن الإنسان ليس كبيرا فى كل ما يعمل . إنه كبير جدا عندما يحاول أن يفهم الكون والإنسان والقيم الأخلاقية الجميلة والألغاز والعقل وأسرار القلب . . ولكنه صغير جدا بعد ذلك : وهو يأكل وهو يشرب وهو يتوجع وهو فى دورة المياه . . وهو يموت . . وهو مجرد جسم يتعفن ويتآكل إذا وضع فى التراب . . ثم هو طعام للدود . . ثم هو الدود نفسه . . ثم يموت الدود ويمتصه التراب . . ليكون الجميع عدما إلى غير نهاية !

تذكرت هذه السلسلة من اللوحات المعبرة وأنا أقلب فى أروع روايات هذا القرن «شطحات العقل» للأديب العالم أرفنج ستون . إنه يروى فيها التحليل النفسى أو علم النفس التحليلى وحياة العالم الجليل فرويد . . وكيف حار مع أفكاره . وداخت وراءه أفكاره وأفكار الملايين فى هذا الكون . . إنه

رجل صناعته الغوص فى ظلمات النفس الإنسانية . . يحاول أن يعرف من أين يبدأ أوجاع الناس وهم صغار . وكيف تكبر أوجاعهم معهم . . وكيف أن العالم كله ، فى كل العصور ، مجموعة من الأطفال المعقدين جدا يتحكمون فى مجموعة أخرى من الأطفال المعقدين فقط . . وإنه لم يظهر فى التاريخ كله رجل واحد . . فلا رجل بلا طفولة . ولا طفولة بلا عقد ، ولا عقد تموت . . فأنت إنسان معقد جدا . وانا ايضا . وحياتى معك هى حياتى ضدك . حتى تنحل العقد . . أو حتى تزداد تعقيدا . ولا راحة معك . ولا راحة بدونك . . فانت عذابى . وأنا جحيمك . ونحن نحاول دائما ان نرتفع فوق الألم والوجع والطفولة– ولكننا لا نستطيع ، أو نستطيع أن نتظاهر بذلك وبغير ذلك !

وفى يوم من الأيام تلقى العالم الجليل فرويد رسالة من أحد طلبته . وكان روسيا . . يقول فيها : سيدى الأستاذ . . أريد أن تفسر لى هذه العبارة التى جاءت فى كتاب «أسرار الحب والجنس» المعروف باسم «كاما سويرا» . . وهذا الكتاب كما تعرف يا سيدى الأستاذ هو من أشهر الكتب القديمة وأكثرها وصفا للجنس وكيف يكون ومع من يكون . . وألف طريقة وطريقة لكى يكون الإنسان سعيدا مدى الحياة مهما كانت الصعوبات الجسمية والنفسية والاجتماعية . . تقول العبارة : «وإذا كانت المرأة التى تعرفها زوجة . وكان زوجها تافها أو ضعيفا ، وكانت هى على درجة كبيرة من الذكاء ، فهناك ست طرق لكى تفوز بها نهائياً . هناك ثلاث طرق معها . . وثلاث مع زوجها . وإن كان الزوج لا يهم دائماً . . ولكن إذا أردت أن تكون حاسماً قاطعاً فإليك هذه الطرق . . إلخ» .

واندهش فرويد لهذا الخطاب ، والذى أدهشه ليس ما جاء فيه ، ولكن هناك موقفا مشابها قد اصطدم به فى هذا الخطاب الغريب . فنى ذلك الوقت كان فرويد فى مدينة فيينا ، وكانت هذه المدينة مشغولة بما يقوله علماء النفس فى ذلك الوقت وعلى رأسهم فرويد وكان من الموضوعات التى أثارت الناس وأضحكتهم أن أحد العلماء يلقى بحثا طويلا عن «التفسير الجنسى للصورة العارية والكلمات العارية فى الأدب والفن والصحافة» . . وكلما نظر الناس إلى هؤلاء العلماء الكبار فى المكانة والسن ، ونظروا إلى شعرهم الأبيض ولحاهم الطويلة ونظاراتهم الغليظة وظهورهم المقوسة ، أحسوا أن هؤلاء العلماء قد صفوا حسابهم مع الدنيا . ولم يبق لهم إلا أن يقفلوا الأبواب عليهم ويتفرجوا على الفتيات العاريات . وبعد أن يمتعوا عيونهم ، يحاولون أن يجدوا لذلك تعليلا أو تبريرا ، يرحمهم من نقد الناس والسخرية منهم .

وفى ذلك الوقت جاءت سيدة من السويد ، هذه السيدة فى الخمسين من عمرها ، روسية يهودية . غنية ، ذكية ، ولكنها ليست جميلة ، ولكنها من ذلك الطراز الذى يبهر الرجال العلماء ، فهى مطلقة .

وهى تعرف ماذا تقول وكيف تقوله ولمن تقوله . وكم من الوقت تستطيع أن تأخذ لكى تنفذ بسرعة إلى عقل الرجل وبعد ذلك تسقط قلاع القلب ، إنها تعرف ذلك وهى ترتدى بلوزة ذات ياقة طويلة . وزرايرها على جانب واحد ، وعلى غير عادة السيدات فى ذلك الوقت فإنها إذا تكلمت تنحنى إلى الوراء فيبرز نهداها الصغيران . وإذا تكلمت ابتسمت كثيرا ، ككل سيدة لها أسنان جميلة ، وإذا سارت إلى جوار رجل فإنها تتخلف عنه قليلا ، فتمتد أيدى الرجال لتدفعها لكى تسير فى المقدمة .

وفى إحدى رواياتها تصف البطلة فتقول « يبدأ إحساسى بالدنيا وبالجمال وبالرجال من هنا — وتشير إلى أعلى الظهر » . وكانت روائية وشاعرة وقد أصدرت عدداً من الكتب .

هذه السيدة اسمها لوأندرياس — سالومى . . تزوجت رجلا لا تحبه . فقد هددها بأن يقتل نفسه إذا لم يتزوجها ، فتزوجته واشترطت ألا يؤدى هذا الزواج إلى قتلها هى أيضاً وكان أول شرط أن ينام الاثنان فى غرفتين مدى الحياة . وأتت للزوج بخادمة تقوم بكل العمل . وكان لها عشيق من علماء النفس السويديين . وقد قدمها العشيق إلى الأستاذ الكبير فرويد قائلا : إنها درست علم النفس وعندها قدرة عجيبة على الفهم والتشخيص .

واستأذنت السيدة «لو» من فرويد ، إن كانت تستطيع أن تستمع إلى محاضراته ، فرحب بذلك . وإن كان من الممكن أن تجلس إليه فى نقاش خاص . فأسعده ذلك . . وإن كان من الممكن أن تستشيره فى أمورها الخاصة وأن يكون ذلك ليلا . فوافق فرويد . . وإن كان من الممكن أن تبدى ملاحظات على محاضراته ، فأحس فرويد أنها تريد أن يكون لها دور إيجابى فى النقاش الدائر حول النظريات الجديدة لعلم النفس .

وأصبحت محاضرات فرويد كل يوم سبت لها وحدها . وبعد المحاضرات يمشيان معا ساعات أو يجلسان معا ساعات . وفى كثير من الأحيان يوصلها إلى بيتها بعد منتصف الليل . وقبل أن يصل إلى باب بيتها يقف لتوديعها . وتقف هى أيضاً . ويحنى الرجل رأسه ويمضى . وتعود إلى فراشها ولا يعود هو .

ما الذى أصاب الرجل ؟ إن كل مشاكل الناس تصب فى نفس هذا الرجل ، فلا انتهت مشاكل الناس ولا امتلأت نفسه . . إنه البحر المالح الذى تصب فيه الأنهار الحلوة ، لا جفت الأنهار ، ولا امتلأ البحر ماء عذبا ؟

إنه الشجرة العالية التى هزتها الريح . . إنه السفينة الضخمة التى يلعب بها الموج . فلا أحد أقوى

من الريح ، ولا أحد أكبر من البحر .

وكانت إذا تخلفت عن إحدى محاضراته كتب إليها يعتب عليها ، وكانت لا ترد ، فيعود ليكتب إليها ويقول : تعلمين أنني انتظرتك . ولم أشأ أن أدخل إلى القاعة . وإنما بقيت فى حجرتى وانشغلت بك عن كل شيء . . ولكنك انشغلت عنى . أرجو ألا يكون هناك ما يزعجك أنت . .

ويبدو أن فرويد عرف أن الفيلسوف الألمانى نيتشه قد أحبها . وعرض عليها الزواج ولكنها رفضت

وكتبت إليه تقول : «أن أتزوجك ثم أتزوج أختك معك : أكبر من احتمالى واحتمالك . ثم إننى أكره الحب الواحد . ولا أستطيع أن أعيش مع عبقرى زمنا طويلا . ولا أحد يعيش مع العباقرة كثيرا ، إن الإغريق قد سجنوا الآلهة فى قمم الجبال وهذا مكانهم الرفيع » .

وكان من عادة «لو» هذه أن تقفل قلبها فى وجه عبقرى ، إذا ما ظهر عبقرى جديد . وهى لا تحب إلا الرجال الممتازين . إنها من عشاق القمم . وهى فى نفس الوقت لا تقوى على الحياة فى القمم طويلا . فليست عبقرية إلى هذه الدرجة . . ولكنها تستطيع أن تأتى بما لا يقوى عليه العباقرة : أن تأتى بهم إلى الأرض . وتتركهم يصعدون وحدهم . فهم طيور جارحة . إذا حطت على الأرض ، أو انحطت على الأرض فإنهم بسرعة ينشرون أجنحتهم . ويكون الهواء أرضهم ، والنجوم مصابيحهم ، ويبعدون عن البشر ! .

وكانت هى فى مرحلة ترويض لفرويد عن الأرض وأعماق النفس الإنسانية .

وكانت «لو» تقول : «لم أكن أتصور رجلا عالما عارفا غارقا مثل فرويد يصبح طفلا صغيرا هكذا . شيء عجيب أن يكون هذا الرجل عملاقا إذا واجه الناس ، رضيعا إذا واجهته امرأة . . ولم أستطع أن أواجه الاثنين معا . حتى إذا انسحبت بعيدا عنه ، فالصورتان أمامى . .

ولكنها لم تخبر فرويد بما دار فى نفسها . ولكن هذا الذى تقوله معناه : أنها بدأت تقفل الباب فى وجه هذا العبقرى لتستقبل واحدا آخر . وقد عرفت كل أدباء وشعراء وفلاسفة العصر . ولكنهم لا يدخلون حياتها معا : واحدا واحدا . فقلبها على عكس أحضانها : لا يتسع إلا لرجل واحد !

ولا يزال العالم الجليل فرويد يبحث فيا بينه وبين نفسه : «ما الذى جعلها تنسحب هكذا دون تفسير واضح ! » «ما الذى جعلها عندما ترى خجلى وحرجى أمامها ألا تساعدنى فترفع عينها عنى ؟ كأنها أرادت أن تعاقبنى فأطبقت جفنيها على صورتى المهتزة . وما جفناها إلا بوابتان لكهف عميق ، جعلنى أهوى فى أعماقه ؟ ما معنى ذلك ؟ ما تفسير ذلك ؟ كيف كانت طفولتها ؟ من المؤكد أنها تعانى .

ولا تزال ، قلقا عاطفيا شديدا . . من المؤكد أنها تخجل من أنوثتها . . وأنها تعذب الرجال على أنهم كذلك . لابد أنها كانت تتمنى أن تكون رجلا . . ولكنها أقوى من أقوى الرجال .

وتقول «لو» : أحببت أن أرى صورتى عارية فى عيون عشاق . . ولكن لم أحب قط ولا أظن أننى سوف أحب . أن أبدو بلا بشرة عارية . . بلا أنوثة . . أكره أن أكون دما ولحما للرجال . . وأبعد من أن تنالها أيدى أكثر الناس علما . . ثم إن ظلامها داكن تتعثر فيه أكثر المصابيح ضوءا . . سوف أفكر فى ذلك فيما بعد . . سوف أنفرد بالنظر إلى حالتها لعلى أجد لنفسى تفسيرا مقبولا لا يسخر منه العلماء . . ولا تسخر هى منه أيضاً . فإن ذكاءها الصامت ، وابتسامتها العريضة ، وأغوارها العميقة قد حيرتنى . . سوف أجد الوقت لذلك . . »

ولم يجد الوقت . ولكنها هى التى وجدت الوقت لتهرب منه . فهو من ذلك النوع من الأطباء الذين تركز على وجوههم العلم الكثير والقرف الأكثر . إنه ذلك الطراز من الناس الذين يعلمون . . ثم إن هذا العلم لم يعطهم الراحة وإنما أورثهم القرف العميق . فهو ينظر إلى الناس . والذى يراه قد عرفه . والذى عرفه قد مله . فالناس أمامه ليسوا إلا أشكالا وألوانا من الملل ، إنه لا ينظر إلى وجوه الناس . إنه يحول هذه الوجوه إلى صور مرضية . . إلى نماذج مقرفة لكى يفهمها . إنه كالجراح الذى لا يرى إلا الدم وإلا اللحم . . فهو ينظر إلى ما تحت الجلد . . وما تحت الجلد لا يغرى ولا يسر . والناس جلد جميل . وأعماق قبيحة !

ينزف دما . . إننى أحب أن أرى نفسى عارية متمددة بالعرض ، ولكن لا أحب أن أبدو واقفة مسلوخة أمام وحش فى غاية الوقار !

والعلماء وأهل فيينا لم يضيعوا الوقت فاخترعوا القصص الغريبة عن العالم النمساوى الجليل وهذه الروسية الفاتنة . . قالوا : وقف فى الشارع يركع عند قدميها . ولم تشأ أن تمد يدها ترفعه إليها وتقبله . وإنما تركته هناك . وهى تقول : أحب جداً أن يركع لى الرجل الذى يركع له الرجال !

ولم يشأ العلماء الكبار الذين يحتفظون له بعظيم الاحترام ، أن يضيفوا إلى الحالات النفسية التاريخية : حالة أستاذهم فرويد . ولا أن يطبقوا عليه نظرياته التى اكتشفها فى الأمراض والعلاقات والتحليلات النفسية ، إجلالا له ، ولم يشأ واحد منهم أن يشرح للأجيال مدلول هذه العبارة التى قالها فرويد وهو يعلق على رسائل القراء والمعجبين فقال : سيداتى «لو» أندرياس– سالومى . . إلخ» مع أنه لم يكن بين الحاضرين سيدة واحدة ولا كانت هذه السيدة سالومى . فى ذلك اليوم– ولا فى عشرات الأيام التى سبقت هذه المحاضرات . . ولما تنبه فرويد إلى أنه أخطأ عاد يقول ضاحكا :

«آسف يا سيدة سالومى ، فقد رأيت سيدات كثيرات فى القاعة . وأنك لست وحدك تتعذين بالسماع إلى محاضراتى » .

وتلفت مئات الحاضرين وضحكوا لهذه النكتة . ولكن الذين يعرفونه جيدا ، ويعرفون المأساة بأعماقها ويدركون ما الذى فعلته القطة المتوحشة ، امتقعت وجوههم وهم يرددون فى صمت عبارة واحدة : أليس رجلا عظيما ؟ ،

– إنه عظيم إلا قليلا !

الذين هبطوا من السماء يريدون العودة إلى الأرض

عندما اخترع إديسون مصباح الكربون فى سنة ١٨٧٩ كان ذلك نهاية حتمية لكل المصابيح التى تشتعل بالغاز . .

وفى ذلك الوقت تشكلت لجنة فى مجلس العموم البريطانى للنظر فى هذا الاختراع الأمريكى الجديد . وكان يرأس هذه اللجنة رجل اسمه سير بريس . ومن دراسة الفكرة أعلن أن هذا الاختراع مزعج وأنه سيقضى على الهدوء الموجود فى البيوت . . وأنه إعدام لكل ما عند الإنسانية من حب للخيال والظلال . . وأن الله الذى خلق الليل . قد جاء الإنسان من بعده وجعل الليل نهاراً . . وإذا عاش الإنسان فى نهار دائم ، فهذا هو الجحيم الدائم أيضا .

وأصبحت المصابيح الكهربية الآن فى الشوارع وفى البيوت !

ومن ضمن الأحلام التى تراءت للإنسان من ألوف السنين : أن يطير . . ألا يقف على قدميه . . أن يحمله الهواء . . أن يكون مثل هذه الطيور . . أن يتغلب على الطريق . . وعلى المسافات الطويلة . . وأن يفلت من جاذبية الأرض !

وكان الفنان الإيطالى العظيم ليوناردودافنشى واحدا من العباقرة الذين شغلتهم فكرة الطيران ، توارى بعيدا عن العيون . وأمسك قلمه وراح يصمم آلات حديدية طائرة . . ولم يطلع أحدا من الناس على ذلك . فقد كان يخاف من « محاكم التفتيش » . ويخاف أن يتهمه رجال الدين بالكفر ويكون مصيره الإعدام حرقا أو شنقا أو غرقا بعد ذلك .

أما حجة رجال الدين : فهى أن هذه الآلات لم ترد فى الكتب المقدسة . ثم إن الله قد خلق الطيور لتطير والإنسان ليمشى والأسماك لتسبح . . فكيف يجىء رجل ويتدخل فى مشيئة الله ؟ !

وعندما نشرت رسومات دافنشى سنة ١٧٩٧ ، كانت مفاجأة للعالم كله . كيف يتصور إنسان—

عبقرى أو مجنون– أن يطير الحديد . . كيف أن جسما أثقل من الهواء يستطيع أن يحمله الهواء . . ويندفع بالهواء وضد الهواء فى نفس الوقت ؟

وطارت الأجسام الحديدية حول الأرض تحمل ملايين الناس والأشياء !

وجاء الفلكى الكبير سيمون نيو كوم فى أوائل هذا القرن وأعلن أنه من الصعب على الإنسان أن يستخدم آلات ويطلقها فى الفضاء إلى مسافات طويلة– وكان يقصد الصواريخ . .

ودارت مئات الصواريخ فى الفضاء . .

وإذا قرأنا كتاب هرمان أوبريت عن (الصواريخ إلى الفضاء الخارجى) الذى صدر فى سنة ١٩٢٤ نجده يستبعد أن تصبح الصواريخ قادرة على قطع مسافات طويلة والاستفادة منها أثناء رحلاتها إنه صعب جدا . . ولكنه ليس مستحيلا .

وهرمان أوبريت هو أبو الصواريخ الحديثة كلها . .

وفى سنة ١٩٤٠ عندما انطلق أول صاروخ كبير إلى الفضاء وقطع مئات الأميال ، أعلن العلماء أن ركوب الإنسان لهذه الصواريخ غير ممكن . فكل ما يستطيعه الإنسان هو أن يطلق الصواريخ كأنها ترمومترات طائرة . . ولكن أن يدخل هو فى داخل الصواريخ ويوجهها أو يعود بها ، فهو نوع من المستحيل . .

ولكن استطاع الإنسان أن يفلت من جاذبية الأرض ، وأن يدور أياما فى منطقة انعدام الوزن حول الأرض . ولم تعد الصواريخ مشكلة . ولا سفن الفضاء حدثا خارقا للعادة ، وانطلق الإنسان إلى القمر . وهبط على القمر . وأذاع من هناك . . وسمعت ملايين الناس وطأة أقدامه على رمال القمر . . واتجهت سفن فضاء أخرى إلى المريخ وإلى الزهرة . .

فلم تعد سفن الفضاء شيئا مستحيلا . وكل ما كان يخاف الإنسان أن يتخيله ، أصبح حقيقة . وكل أحلام الإنسانية أصبحت واقعا . وسوف تعاود الإنسان الأحلام من جديد . . لأنه بطبعه : حالم وقادر على أن يحقق أحلامه وأن يجعل المستحيل ممكنا !

وعندما سئل العالم الرياضى الكبير أينشتين إن كان يظن أن هناك كائنات عاقلة ، تعيش فى كواكب بعيدة عنا !

وقد أذهل العالم كله عندما قال : إنه يؤمن بأن هناك كائنات أكثر عقلا تعيش فى كواكب أخرى . وأنها تركت أثرا ما !

والعالم السوفيتي تشايكو فسكي وهو أحد علماء الفيزياء الفلكية يؤمن إيمانا قاطعا بأن هناك كائنات عاقلة . ومن المؤكد أنها قد هبطت على هذه الأرض .

أما العالم الأمريكي كارل ساجان فقد كتب عشرات الأبحاث التي تؤكد أن كائنات عاقلة ، أكثر منا ، قد جاءت إلى الأرض ولأسباب غير واضحة عندنا تماما اختفت . . ولكن لابد أنها سوف تعود . . والعقل يقبل ذلك !

إن الكلام عن الكائنات الأخرى في الكواكب الأخرى كان جنونا وكان محرما . ولكنه اليوم لم يعد كذلك . . إنها قصة حقيقية وليست أحد الفروض العلمية والخيالات الرياضية !

وفي سنة ١٩٦١ انعقد مؤتمر من علماء الفيزياء الفلكية في جرين بانك (بولاية فرجينيا) . وكان المؤتمر يضم أحد عشر عالما كبيرا ، اتفقوا على أشياء ، واختلفوا أيضاً . وهذا طبيعي . أما الذي اتفقوا عليه فهو أن خمسين مليون حضارة مثل حضارتنا في مجموعة النجوم القريبة منا — أي التي نسميها بالمجرة — وفي الكون ألوف الملايين من هذه المجرات !

واختلفوا على عدد هذه الحضارات . فواحد يقول : بل هناك مائة مليون حضارة . . وآخرون يقولون : مائتا مليون . .

ورأوا أنه من الاعتدال أن يكتفوا بأن عدد هذه الحضارات العاقلة جدا ، الأعقل منا ، تصل إلى خمسين مليونا فقط . .

ونحن نعرف العناصر التي تتركب منها هذه الحياة أربعة هي : الأدنين والسيوستين والجوانين والثمين . .

والعلم الحديث يؤكد لنا أن هذه العناصر متوافرة في كل كواكب السماء . . أي في ملايين الملايين الملايين من الأجسام التي حولنا . ومعنى ذلك أن السماء مليئة بالحياة والأحياء .

ولابد أن نقبل من الناحية العلمية ظاهرة الأطباق الطائرة . لابد أنها وسائل طيران متطورة جدا لا نعرفها . ولابد أنها جاءت من أماكن بعيدة جدا في وقت قصير . .

وعلى الأرض توجد آثار كثيرة تؤكد أن كائنات عاقلة قد جاءت في وقت لا نعرفه بالتحديد . واختفت لأسباب لا نعرفها بالضبط . ولكن سكان هذه الأرض قد سجلوا هذه الأحداث على الكهوف وعلى المعابد . . وكثير من هذه النقوش موجود في جنوب ليبيا وفي بيرو والمكسيك وفي جنوب فرنسا وفي تنزانيا وفي العراق . .

وفي التوراة ، في سفر حزقيال ، نجد وصفا نادرا لإحدى سفن الفضاء . . وصفا لأكثر من عشرين

نوعا من المعادن لا نعرف إلا القليل منها الآن . . ووصفا لرواد الفضاء . .

وفى سفر اخنوخ ، مغامرات غريبة جدا فى الفضاء الخارجى .

وفى ملحمة جلجامش ، قصص كثيرة لسفن الفضاء . .

وفى الكتب الهندية القديمة ، وصف للطيران فى الهواء ووصف لسفن الفضاء والصواريخ . .

وفى الكهوف فى جنوب فرنسا وبالقرب من فيينا ، أجسام طائرة ورجال طائرون . . وفى الأساطير القديمة قصص ونوادر عن أناس جاءوا من السماء وعلموا الناس الحكمة واختفوا . .

وفى متاحف تركيا ، معادن من البلاتين والذهب لا يمكن أن توجد فى الطبيعة وإنما هى نتيجة صهر فى درجات حرارة تصل إلى خمسة آلاف مئوية . . وتاريخ هذه المعادن يرجع إلى ما قبل حضارة الإنسان . .

هناك كائنات أعقل منا . . وهذا طبيعى . فلا يوجد دليل واحد على أنه ليس فى الكون كله مثل هذا الكون الهائل الذى لا نعرف له حدودا ، أحد سوانا . . نحن فقط . . كل هذا الكون من أجلنا نحن . ولكن لماذا ؟ ما الذى نساويه نحن لكى يكون لنا كل هذا الجلال والعظمة . . أليس هذا مضحكا تماما كما يقول النمل والصراصير . . إن الله لم يخلق فى هذه الأرض سوى النمل . . وإن الأرض وملايين الملايين من النجوم والكواكب قد خلقها الله لكى نراها أولا نراها . . فقط كل هذا الشىء الرائع الدقيق لكى نجله . . ولا نتجاهله ؟ !

وعندما كتبت عن (الذين هبطوا من السماء) ثم نشرت كتابا . . علق بعض الزملاء يقولون : إنها خرافات . . وأننى مخرف !

مع أننى لم أنشر إلا نظريات علمية مؤكدة . . وإلا اجتهادات على أعلى مستويات المعرفة الإنسانية . . مدعمة بالنصوص والصور . . وإلا آخر ما قاله أكبر العلماء فى الشرق والغرب . . وعلى الرغم من أننى ذكرت مئات الأمثلة ، فإن هذه الأمثلة ليست إلا قليلا جدا من القليل الذى أعرفه . والذى تعبت فى فهمه وجمعه وتركيزه وتبسيطه . .

وقد بعثت وكالات الأنباء العالمية ، أن علماء الفيزياء الفلكية قد تجاوزوا مرحلة الظن والاحتمال وأنهم الآن يؤكدون أن هناك حضارات أعقل . وأن هذه الحضارات ترسل إشارات تريد عنها ردا ، إنهم يحاولون الاتصال بنا . .

وفى مقدمة هؤلاء كارل ساجان العالم المشهور .

وقد نشرت فى كتابى (الذين هبطوا من السماء) نقاشا عميقا بين عالم سوفييتى وعالم بريطانى

موضوعه : هل نتصل بهذه الكائنات أو نسكت تماما . . هل نتصل بها فنعرف مكاننا من الكون وقيمتنا . . لأننا لا نعدو أن نكون حشرات بالقياس إلى تطورها . . أو هل نتصل بها فقد تساعدنا فى حل مشاكلنا . . وبذلك توفر علينا هذا العذاب الذى نحن فيه ؟ . .

وكان الجواب : من الضرورى أن نتصل بها ، لقد جاءت كائنات عاقلة إلى الأرض . لا شك فى ذلك . وتركت أثرا . هذا مؤكد .

وهذه الكائنات العاقلة تحاول الاتصال بنا . وهذا مؤكد . ومن الضرورى أن ندلها على وجودنا فى هذا الكون الهائل !

فالذين هبطوا علينا من السماء ، يريدون أن يهتدوا إلينا . .

إن الكثير من الذى كنا نراه خرافة ، أصبح حقيقة . إننا فى حاجة إلى من يقول لنا : إننا جهلة أدعياء . . وأننا نلعب بالذرة . . وأننا سوف نخرب الأرض ومن عليها . . وأن الذى نفعله الآن ليس إلا نوعا من الانتحار بأحدث الطرق العلمية ! .

كل شيء عليه عفريت : نظرية جديدة

أمسكت جهاز التليفون وأدرت القرص ورفعت السماعة ووجدت من يقول لك : أهلا يا فلان !

إذا إذا حدث ذلك فهو أعجب شيء فى الدنيا ، خصوصا إذا عرفت أن هذا الجهاز ليس إلا لعبة أطفال . وأنه بلا سلك وبلا رقم وأنه من المستحيل أن يتكلم فيه أو أن يكلمك فيه أحد من الناس !

قصة أخرى : إذا وجدت غرفة مقفلة فى بيت مهجور . البيت عمره مئات السنين . واقتحمت الغرفة بالعنف . وانفتح الباب فوجدت مائدة ضخمة عليها أكواب وأطباق . وكل شيء فيها نظيف جدا . ورائحة الغرفة تدل على أنها كانت مفتوحة . فالهواء منعش . وفيها رائحة الزهور . ولا يوجد على أى شيء فيها تراب . ثم إن هذه الغرفة بلا نوافذ وبها بقايا سجائر . ولا يزال الدخان ينبعث منها . وصرخت وقلت : عفريت ! . . فهل أنت مجنون ؟

أنت لست كذلك . فهذه القصة قد رواها الكاتب الإيطالى البرتو مورافيا وهو فى العشرين من عمره . وتركها فى نفسه كما هى دون أن يجد وقتا لكى يفكر فيها . وعندما وجد الوقت وفكر طويلا وعميقا قال : عفريت !

وإذا أنت قلت : عفريت فى هذه الغرفة أو أكثر من عفريت ، فأنت تتكلم لغة روسيا وأمريكا . فهما لم تتفقا على شيء بصورة نهائية كما اتفقتا على هذه القوة الغريبة العجيبة الموجودة بشكل ما فى هذا العالم . كيف ؟ يجب أن أتراجع إلى الوراء مئات السنين أو ألوف السنين .

وقد صدر كتاب لعالم بيولوجى أمريكى اسمه ليال واطسون– الكتاب اسمه (التاريخ الطبيعى لما فوق الطبيعة) . أو (طبيعة ما ليس طبيعيا) . ولأنه عالم من علماء الحياة فإنه قد انشغل بتجارب غريبة اعتمد فيها على الأجهزة الحديثة فى تسجيل كل ما رأى ! لاحظ أنه إذا جاء بنبات صغير

وراح يقطع أوراقه الواحدة بعد الأخرى . . فإن بقية الأوراق والغصون تصاب بما يشبه الفزع . . أو بما نصاب به نحن عند الخوف : يتغير لون الوجه ويجف الريق . ونصاب برعشة خفيفة . أعاد التجربة على شجزة ورد فارتعدت شجرة ورد أخرى على مقربة منها . . فصل الشجرتين بعضهما عن بعض . ووضع بينهما فاصلا من الزجاج . وراح ينزع الأوراق والورود ، فأصيبت الشجرة الأخرى بارتباك فى حركة العصارة وصعود وهبوط فى درجة حرارتها !

أكثر من ذلك : أنه عندما أتى بقطة صغيرة وراح يخنقها . . ويخيفها ويضربها ، لاحظ أن حالة الفزع تصيب شجرات الورد أيضا .

قام بتجربة معكوسة : راح يقطف أوراق الورد ، فكان يلاحظ اضطرابا على القطة .. وارتفاعا فى ضغط الدم . . كأن الوردة قد أطلقت صرخة فزع ، فجاوبتها القطة . أعاد التجربة عشرات المرات فكانت النتيجة واحدة .

فكأن هناك لغة بين خلايا النبات والحيوان . وأنه فى الإمكان نقلها وفهمها بسرعة دون أن يكون هناك اتصال مباشر بين النبات والحيوان . .

ذكر المؤلف الأمريكى التجارب المعروفة التى قام بها الروس بين الأرانب والغواصات ، فقد أتى الروس بأرنبة وأخذوا منها صغارها ، ووضعوا الأرنبة على الشاطئ ووضعوا صغارها فى إحدى الغواصات . وركبوا أجهزة إلكترونية على رؤوس الأرانب الصغيرة وعلى رأس الأم . وقد لاحظ الروس أنهم فى كل مرة يقومون بوخز الأرنب الصغير ، فإن الأم ترتجف . مع أن المسافة بين الأم وبين صغارها أكثر من مائة ميل كما أن الغواصة تحت الماء بأكثر من مائة متر . . ولما حاول العلماء الروس أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك كان رد الفعل أوضح وأقوى . فأخذوا يذبحون الأرانب الصغيرة الواحد بعد الآخر . . أما رد الفعل فهو أن الأم تنتفض بعنف وتكاد الدموع تسيل من عينيها مع أن المسافة فى هذه المرة كانت ٥٠٠ ميل !

أما الأمريكان فكانت لهم تجارب من نوع آخر . فقد سجلت الغواصة الذرية نوتليس أن عددا من بحارتها كانوا على صلة بالقاعدة الأمريكية عن طريق (التلباثى) – أى الاتصال عن بعد – بأن يركز الواحد تفكيره فى زميل له على الشاطئ ويقول له كل ما يريد فكان البحار يقول فى نفسه متوجها بتفكيره إلى زميل له على الشاطئ : لعلك تلاحظ أن درجة الحرارة فى داخل الغواصة قد ارتفعت ! وفجأة تجىء برقية : أعرف ذلك فى استطاعتكم أن تطفو على السطح الآن !

ورواد الفضاء كانوا يتحادثون بلا كلام . وقد روى كثيرون أنهم كانوا يتصرفون بصورة مضحكة

فيتجه الواحد منهم بسرعة إلى صمام ، وترتطم يده أو جسمه بزميل آخر قد يذهب ليفعل نفس الشيء . مع أن أحدا منهما لم يخبر الآخر بذلك !

نعود مرة أخرى إلى الكاتب الأمريكي واطسون يقول فى كتابه : شيء عجيب أن نجد الحديقة تعرف كلها فى وقت واحد عدد الفراشات التى تحوم فى المكان وتحمل بذور الأشجار وشيء عجيب أن نجد نشاطا غير عادى فى عصاراتها . وأعجب من ذلك أنها تتجه إلى الفراشات وتتهيأ لاستقبالها . . وشيء أعجب من ذلك إذا جاءت قطة ووراءها كلب يطاردها . . تغيرت الألوان وتوقفت العصارات بسرعة نتيجة لإنذار شجرة أو زهرة . . وفى كثير من الأحيان تكون القطة والكلب بعيدين إلى حد كبير من منطقة الزهور . وليس هذا استنتاجا ولا خيال شاعر ، ولكن الأجهزة العلمية الدقيقة تؤكد ذلك !

وهو يريدنا أن نفهم أن فى كل الكائنات الحية قدرات على الاتصال بعضها ببعض . . وعلى أن (تقول) كلاما لا نعرفه . وهذا الكلام ينتقل بمنتهى الوضوح . ولكننا لم نعرف ذلك . .

أكثر من هذا أن هناك قدرات خاصة موجودة عند الإنسان . هذه القدرات موجودة عند كل الناس . بل عند بعض الناس . ولابد أن يعرف العلم الحديث فى يوم من الأيام ، كيف يجعلها عند كل الناس مثلا . كيف يستطيع طفل صغير عثر عليه العلماء الفرنسيون سنة ١٨٨٠ أن يقرأ شيئا فى عين واحد يبعد عنه مائة متر ، هذا الطفل كان يستطيع أن يقرأ الصفحات فى أى كتاب يضعه إنسان أمام عينيه بشرط أن ينعكس الضوء على الكتاب . وكان الطفل يقرأ الأرقام وسطور الكتاب فى جانب من عين من يمسك الكتاب !

كيف يستطيع إنسان أن يسمع حوارا يدور بين اثنين يراهما على بعد مائة متر . فيقول : فلان يقول كذا . وفلان يرد عليه بقوله كذا . ويكون الحوار دقيقا ؟

كيف تستطيع سيدة أن تنام فى غرفة تبعد عن طفلها عشرين مترا ، فإذا هى تنهض من عز النوم لأن طفلها الصغير قد تقلب فى فراشه وكاد يقع من على السرير فتدركه فى آخر لحظة ؟ مع أنها كانت غارقة فى النوم وقد لفت حول رأسها وجسمها أغطية ثقيلة !

كيف تستطيع سيدة أن تقرأ الصحف بقدمها وهى معصوبة العينين– إنها تجربة مشهورة أجراها العلماء السوفيت فى مؤتمر دولى من عشرين عاما . . كيف يستطيع رجل أن يطلب إليك : حاول أن تتذكر مدينة مشهورة فى أى مكان فى العالم ، وأنا أنظر إلى عينيك وأقول لك ما هى المدينة . . وما هو المكان الذى تتخيله الآن . . كيف يستطيع واحد أرمنى أن يتخيل مدينة ولتكن باريس ثم يجيء مصور فيلتقط صورة لعينيه . . فإذا طبع الفيلم وجد برج إيفل فى إحدى العينين؟

كيف يشعر بعض الناس أن فى داخلهم شخصا آخر . قوة أخرى . . وأن هذه القوة تدفعهم إلى حب وكره أناس لم يروهم قبل ذلك . . ثم كيف يستطيع الواحد منهم أن يذهب إلى مدينة لم يعرفها . . وأن يمشى فى شارع . . وأن يقف أمام بيت وأن يدخل غرفة يجد بابها مغلقا ويقول : هنا يرقد فلان الفلانى . . إنه مريض بكذا . . وعلاجه كذا وهو مريض لأنه ارتكب جريمة من عشر سنوات ولم يدر بها أحد . . وأنه من ذلك اليوم يعانى آلاما شديدة . ثم يكون هذا كله صحيحا .

ولو قرأت كتاب (العالم الخفى) لأحد الأدباء الساخطين فى إنجلترا واسمه كولن ويلسون ، تكون سعادتك بلا حدود ، ففيه قصص ونوادر وفلسفات ومذاهب دينية قديمة وجديدة . وكلها تؤكد هذه المعانى وتشير بوضوح إلى أننا أمام عالم جديد . . دنيا جديدة . . أسرار كثيرة تكشف بنا وفينا . . وإذا كنا قد حطمنا المادة فانطلقت منها الطاقة النووية . . فإننا فعلنا بالضبط ما حدث فى «ألف ليلة» عندما تحطم القمقم ، فخرج العفريت الحبيس من ألوف السنين ليضاعف من عذاب وخوف الإنسان من قدراته على تحقيق المعجزات التى ليست علمية !

أعود إلى كلمة (العفريت) هذه . لم تعد هذه الكلمة خرافة . . ولا هى من الكلمات الملعونة فى كل الأديان . فالأديان كلها تؤكد وجود عفريت أو شيطان أو جن أو شبح أو ريح أو نفس أو قوة غير ملموسة لها قدرة على الاتصال بالإنسان . . أو أن لدى الإنسان قدرة على أن يشعر بها وأن يستدعيها وأن يسخرها وأن يطردها . وليس كل إنسان عنده هذه القدرة . بعض الناس لديهم هذا الإحساس الخاص .

لقد صدرت فى أوربا وأمريكا فى السنوات الأخيرة مئات الكتب . . أو عشرات الألوف وكلها تتحدث عن السر والخفاء والسحر والقوى الهائلة التى تحرك الإنسان دون أن يكون له سلطان عليها . . إلا إذا عرف سرها . وهذه الكتب وهذه الاهتمامات العالمية ليست مؤامرة موجهة ضد أحد من العرب أو أحد فى مصر أو أى قارئ فإن ذلك اعتبار ليس فى الحساب . لأن هناك مشكلات كبرى تحطم وتمزق الضمير والوعى فى أوربا وأمريكا . إن هذه الشعوب تتمزق . وإن الحياة قاسية على كل الناس . ولا مفر من الاستمرار فيها ومن لعنها . ومحاولة الهرب منها . ومن بين أشكال الهرب : الإدمان والإسراف فى الأكل والشرب والجنس والجريمة والعبادة . إن الإنسان فى أوربا وأمريكا قد تعذب كثيرا . ولا يزال . ورغم كل هذا التقدم العلمى فإنه عاجز أو أنه يجد العلم عاجزا عن راحته وعن إسعاده . ورغم مئات الملايين ، ألوف الملايين فى كل مكان ، فإن الإنسان يشعر بأنه وحده . وأن وحدته تتأكد كلما وجد الناس حوله . انظر إلى نفسك وأنت فى السينما . . وأنت فى ملاعب الكرة

وأنت فى الصلاة . . إنك وحدك رغم كل هذه الملايين . إن همومك تحت جلدك ، رغم مجاملة الناس لك بالسؤال عن صحتك ، إنهم لا يفقهون مما يقولون شيئا . إنها عادة ، أن يراك أحد فيقول لك : ازيك . . إيه أخبارك . ولا ينتظر منك ردا على ذلك . لأنه لا يريد أن يعرف ، ثم إنك عادة لا ترد عليه . لأنك تعلم أنه لا يقصد ما يقول ، فأنت لا تهمه ، ولا هو . وهو لا يعنيك ، ولا أنت .

إن الإنسان الحديث عنده إحساس أنه (مسكون) . . إن عليه عفريتا . . إنه ليس مالكا لنفسه . إنه مسلوب الإرادة ، إن قوة أخرى تتحكم فيه . إن هذه القوة قد وجدته مثل البيوت الخراب فقررت أن تسكن فيه . . أو تسكن إليه . . ولأنها قوة شيطانية فقد ركبت هذا الإنسان . .

وليست الموسيقى الحديثة إلا حفلات زار . . نفس الحفلات التى نجدها فى مصر وفى السودان وفى الحبشة . إن أشهر فيلم فى العالم هو فيلم (طرد الشيطان) . . إنها قصة طفلة ركبها عفريت . . ومحاولة لإخراج العفريت من جسمها . .

وإذا حاولت أن تقول إن العفريت هو الإنسان نفسه ، فأنت ضد العلم . وأنت تمشى فى الاتجاه المعاكس تماما ضد الأديان القديمة كلها ، وضد العلم الحديث . فالعلم الحديث يرى أن هناك عالما آخر . . أعلى أو أسفل . . ولكنه عالم (آخر) مختلف عنا . وهو موجود . وفى مناسبات تظهر هذه القوى بأشكالها . . أو من خلال الأشياء أو الأشخاص ، وأن هناك أناسا لديهم هذه القدرة على الإحساس بها والتخاطب معها . ولم يمتد العلم الحديث إلى معرفة الأسلوب المحدد للاتصال بها . ولكن من المؤكد أن هناك هذه القوى– وهذا أهم اتفاق بين علماء روسيا وأمريكا !

فهل يعود بنا العلم الحديث جدا إلى أن نصدق الخرافات القديمة ؟ إنه يعود بنا إلى أن نفهمها على أضواء جديدة . . فالعلم الحديث هو الذى جعلنا ننظر إلى الأساطير القديمة وإلى الكائنات الضخمة التى ظهرت فى أساطير الإغريق وبابل وأشور والتبت والمكسيك على أنها كائنات حقيقية عاشت وانقرضت فى ظروف فلكية . . والعلم الحديث هو الذى دفعنا إلى أن نؤمن بأن كائنات أخرى من كواكب أخرى قد هبطت إلى الأرض وعاشت عليها . ولأسباب جوية قد رحلت عن الأرض . وليس هذا افتراضا . وإنما هى حقيقة !

فهل نلعن الشيطان لأنه حقيقة ؟ إننا يجب ألا نلعن ما لا نعرف حتى نعرفه . . إننا يجب أن ننتظر عشرات السنين حتى نعرف جانبا من الحقيقة . لأن (اللعنة) والشتائم ليست من العلم . وإنما هى حالة عصبية لا تغير من الواقع شيئا ، وإنما هى تفوت علينا أن نعرف أكثر ، لعلنا نستريح أطول . .

إن الشاعر الإيطالى جيوفانى بابينى قد ألف مسرحية عنوانها (فتنة الشيطان) يجرى فيها هذا الحوار

بين إبليس وبين شيطان صغير. يقول إبليس : (أنت صغير ولا تعرف الحقيقة ، إن الشيطان هو الجانب الآخر من الإنسان . ولكنه قريب منه جدا . ومرتبط به . . أنت صغير لا تعرف أسرار الكون . . إن السيف إذا وضعته تحت الماء ونظرت إليه بدا منكسرا كأنه صليب . . وإن الحرائق إذا انعكست نيرانها على سطح الماء ، فإن الأمواج تجعلها تبدو كأنها حفلة زفاف . . فلا تلعن الإنسان أيها الشيطان . . حتى لا يلعننا الإنسان !)

وإننا لابد أن ننتظر حتى نعرف البطاقة الشخصية لهذا العفريت الذى يركبنا جميعا !

هبطوا من السماء لبناء أهرام مصر والمكسيك

رجل وقف على كومة من السمك المجفف وحوله عدد من الصيادين الفقراء وقال لهم : هل هناك من هو أعظم منى ؟ . . وكان صمت الناس دليلا على أن أحدا لا يقوى على أن يعارضه ، أو حتى يفكر فى ذلك . وعاد يقول مرة أخرى : هل هناك أحد أغنى منى ؟ وكانت انحناءة الرءوس الذليلة تأكيدا لهذا المعنى المستقر فى قلوب الجميع . . هذا المشهد من إحدى قصص أديب أيسلندا لاكسنس الفائز بجائزة نوبل فى الأدب !

وفى إحدى مغامرات جليفر للأديب الإنجليزى سويفت نرى واحدا من ملوك الأقزام يصعد سلما لكى يصل إلى أذن جليفر ويسأله : هل رأيت بلادا أعظم وشعبا أقوى ؟

وعندما يرد عليه جليفر : لا . .

فإن الهواء الذى يخرج من فمه يطيح بالبيوت وبكل القوات المسلحة التى احتشدت حول جليفر وربطته بالخيوط !

وقد ظل هذا الشعور بالغرور الإنسانى ، وبأنه أعظم الكائنات فى هذا الكون مئات السنين . وهذا الوهم قد استند إلى وهم آخر هو : أن الأرض مركز الكون . وأن الإنسان لأنه عاقل فهو سيد الأرض . فهو إذن سيد هذا الكون . وكل هذه النجوم فى السماء قد ظهرت ليتفرج عليها الإنسان ، إن اتسع وقته . . وهذه الزرقة فى السماء قد استقرت هناك لكى تريح العين ، إذا تعبت من النظر إلى الخضروات أو إلى وجوه الناس الآخرين !

ثم انعكست هذه الصورة تماما . فقد اكتشف علم الفلك الحديث أن هذه الأرض التى نعيش عليها ليست شيئا هاما . وأن فى الشمس التى تضىء لنا فتحات صغيرة تتسع لألف كرة أرضية إذا انحشرت معا . . وإن الشمس نفسها لا شىء . . وإنما هى واحدة من ملايين الملايين من النجوم الملتهبة

فى هذا الكون . . ومعنى ذلك : أن الأرض بيت تافه يدب عليه إنسان تافه . وإنه هو والأرض والحضارة وكل أوهامه وخرافاته وفلسفاته : لا شىء فى هذا الكون الهائل !

وإن فى الكون كواكب . . مليون كوكب آخر . . مثل هذه الأرض من الممكن أن نجد عليها نوعا من الحياة العاقلة . وليس من الضرورى أبدا أن تكون مثل الحياة الإنسانية على هذه الأرض . فكما أن هناك ملايين الملايين من أشكال الحياة الحشرية والميكروبية والعاقلة فليس مستحيلا أن يكون هناك ألوف الأشكال من الحياة العاقلة ومختلفة تماما عن شكل الإنسان !

ثم جاء علم الآثار الحديث جدا يؤكد لنا حقيقة أخرى : وهو أن هناك تشابها بين الحضارات القديمة . وأن هناك اتصالا بينها . وأن هناك استحالة اتصال بين أهرامات مصر وأهرامات المكسيك . . وأن هناك استحالة اتصال جغرافى بين حضارة التبت وحضارة الحبشة . . أو كهوف جنوب ليبيا والجزائر وبين الثعبان الطائر فى بيرو وفى المكسيك . .

ولكن التفسير الوحيد لذلك هو أن كائنات أعقل منا هبطت من السماء ونزلت فى هذه الأماكن وتركت بعض آثارها المادية والمعنوية . وهذه الآثار هى الدليل الوحيد على ذلك.

وهذا معناه أن العقل الإنسانى والحضارة الإنسانية ، علماً وديناً وفناً كلها هابطة من السماء . . فحضارتنا كلها من السماء وليست من الأرض .

وكما حدث أن أهل أوربا هاجروا إلى أمريكا فتحول الهنود الحمر إلى أمريكان . . فشىء من ذلك قد حدث على هذا الكوكب . عندما هاجر أو هبط عليه أو استقر فيه عدد من الكائنات الأعقل من كواكب أخرى أكثر تطوراً . .

وأوضح مثال لذلك ما حدث فى المكسيك . .

فعندما هبط الإسبان إلى المكسيك وجدوا هؤلاء الهنود الحمر . . ولهم ملامح أهل الصين أو المغول . . وعددهم كبير . ولكن فى نفس الوقت كانت عندهم معلومات وخبرات عجيبة ، وكانوا أكثر تحضراً من الأوربيين الغزاة . ولم يتساءل أحد فى ذلك الوقت عن السبب . ولكن بعد مئات السنين بدأ العلماء يتساءلون : من أين جاءتهم هذه المعلومات الفلكية الدقيقة ؟ وكيف عرفوا فن التحنيط الفرعونى ؟ كيف بنوا الأهرامات ؟ كيف عرفوا صهر الذهب ؟ وما هو التفسير العلمى الحقيقى لأعواد ذهبية ناعمة ولا يمكن أن يتم تشكيلها إلا فى درجات حرارة عالية تصل إلى عشرات الألوف ؟ وكيف يمكن أن يعرف إنسان الحرارة إلى هذه الدرجة دون مفاعل ذرى ؟

إن هرناتوكورتيس ذلك المغامر الإسبانى عندما نزل إلى المكسيك فى أبريل ١٥١٩ قد بهره ما رأى .

ولكنه ككل المغامرين قد جاء فى مهمة محددة : أن يبحث عن الذهب فى الأرض لا عن الأرض ولا عن الذين يعيشون على سطح الأرض . وهو الذى قال : إن الإسبان مصابون بمرض خطير لا علاج له إلا الذهب !

وكان كورتيس على رأس جيش من ٦٢٢ رجلاً و١٦ حصاناً ومعه عشرات المدافع ، وأول ما فعله هو أن أمر بإحراق السفن كلها حتى يفقد الجميع أى أمل فى العودة . وقال المؤرخون : إن هذا قرار خطير لم يحدث له نظير فى التاريخ . . مع أن طارق بن زياد قد فعل ذلك عندما أحرق السفن وقال لجنوده : البحر خلفكم والعدو أمامكم – قالها وفعلها وقبل هذا المغامر كورتيس بأكثر من ألف سنة !

ويقال إن كورتيس هذا كان عنيداً قاتلاً سفاحاً . . وقد هزم الهنود الحمر الذين هم أكثر عدداً . ولكن التاريخ عاد يؤكد لنا أن الهنود الحمر هم الذين هزموا أنفسهم . هزمتهم معتقداتهم الدينية . فقد ظنوا الإسبان البيض : آلهة . . وظنوا خيولهم تحدثت عنها أساطيرهم القديمة . . وظنوا المدافع التى تخرج منها النيران آلهة أيضاً . . وظنوا السفن جزائر عائمة سوف تجىء عليها الآلهة . . فلم يحاربوا وإنما خروا ساجدين . .

ويقال إن الهنود الحمر قدموا لكورتيس ورجاله عشرين فتاة جميلة وزعهن على قواده . . واختار هو واحدة اسمها مارينا هى التى كانت عشيقته ، والتى تتولى الترجمة . . وقد قام الإسبان بتحويل الفتيات إلى المسيحية . . ثم تزوجن الجميع . ومن هذا الزواج ولد نصف سكان المكسيك الآن – أى هؤلاء المخلطين من الهنود الحمر والإسبان !

وبعد ذلك يتوالى التاريخ الإسبانى على هذه الأرض وتحتها . . ويتكرر فى أماكن أخرى من العالم ما حدث فى المكسيك . . ومن العجيب أنه لنفس السبب ، فمثلاً : عندما ذهب الرحالة الإنجليزى كوك إلى جزر هاواى واقترب من الشاطئ وجد السكان الأصليين ساجدين على الرمال . وفى حالة من النشوة . ولم يكد يهبط كوك حتى التف حوله الجميع يرقصون ويهللون ولم يفهم الرجل ولا مئات الإنجليز الذين معه . ثم عرف بعد ذلك أن أساطيرهم تقول لهم : سوف يهبط عليكم رجل طويل أحمر أزرق العينين أصفر الشعر . إنه إله . وسوف يجىء على جزيرة بيضاء عائمة – أى سفينة . ولما عرف كوك هذه الحقيقة راح يعرض عليهم مزيداً من الحيل ليبهرهم – تماماً كما فعل رجال الحملة الفرنسية فى مصر عندما راحوا يضعون ورق عباد الشمس فى المحلول الأبيض فيتغير لونه إلى أزرق وأحمر . . ورجال الدين فى مصر فى حالة من الذهول – وكان كوك يدخن السيجار فيخرج الدخان من فمه ويندهش

الناس للنار التى فى بطن كوك ثم لا تحرقه . وكان كوك يضع يديه فى جيوب بنطلونه ويخرجها . والناس فى ذهول : كيف يخفى يديه فى بطنه دون أن يموت ؟ أما المدافع والنيران والدمار . . فقد أكد لهم تماماً أنه هو الله شخصياً جاء إليهم مستجيباً لصلواتهم ودعواتهم . وليس عليهم إلا الطاعة . ولكن عندما قسا عليهم هذا الإله قتلوه !

واتجه العلماء والمؤرخون والأثريون وجهتين : أناس يقولون إن أهل المكسيك جاءوا من آسيا . فملامح الهنود الحمر صينية مغولية تماماً . ولكن هذه الحقيقة تضايق بعض أهل المكسيك حتى إن أستاذاً جامعياً قد أعلن ذلك من ثلاثين عاماً ، فطردوه من الجامعة – مع أنها حقيقة . وعندما اكتشف كولومبوس أمريكا فى سنة ١٤٩٢ بدأ الزحف على أمريكا من أوربا . والتقى الشرق والغرب فى المكسيك .

وجاء البحار النرويجى ثورهايردال فقام برحلته المشهورة على ظهر السفينة (كون تيكى) متجهاً من أمريكا إلى جزر المحيط الهادى . وأثبت بالدليل الأثرى أن حضارة المكسيك وبيرو وغيرهما قد جاءت من جزر المحيط الهادى . . ثم قام هايردال برحلة أخرى من ميناء (أسفى) أو (صافى) من المغرب إلى أمريكا ليؤكد نظرية علمية جديدة تقول : إن الفراعنة سافروا من أفريقيا إلى أمريكا . . وأنهم هم الذين أقاموا هذه الأهرامات فى المكسيك . . وأنهم هم الذين علموا الناس هناك كيف يدفنون الموتى دون أن تتآكل أو تتعفن جثثهم . . وأنهم هم الذين علموهم رصد نجوم السماء . . وإجراء العمليات الجراحية دون تخدير . . وأنهم هم الذين طوروا العمليات الجراحية مستخدمين الأعشاب المخدرة . . وأنهم هم الذين علموا أهل المكسيك القدامى ألا يأكلوا اللحوم . . وأنهم هم الذين وضعوا نظرية : أن أكثر الناس تناولاً للحوم أكثرهم مرضاً . وأن أطولهم عمراً هم النباتيون . . وأن زواج الأقارب يورث المرض والجنون . . وأن الأسرة هى أساس البناء الاجتماعى الصحيح إلخ .

- والنظرية الجديدة الآن هى التى تقول : إن المكسيك وبيرو والتبت ومصر الفرعونية استمدت دياناتها جميعاً من مصدر واحد . وهذا المصدر ليس أرضياً .

وإن كل الأحداث والصور الغريبة العجيبة التى وردت فى التوراة وفى ملحمة جلجامش البابلية وفى الأساطير الهندية والحبشية و(ترانيم التبت) و«أناشيد بيرو» ونقوش تيواناكا فى بيرو وفى كهوف تسيلى جنوبى ليبيا والجزائر ، كلها جاءت من السماء . . أى من فوق . .

وقد نشرت ذلك كله فى كتابى (الذين هبطوا من السماء) . . وبعد صدور هذا الكتاب ظهرت دراسات جديدة علمية ناطقة على صحة هذا الظن أو هذا الفرض أو هذه النظرية العلمية – ويوم صدر

كتابى هذا من سنوات قال النقاد فى مصر : تخريف . . وقال الذين يعطفون على كاتب هذه السطور : لقد كان الرجل عاقلاً !

والآن توجد هيئات علمية لدراسة ظاهرة الأطباق الطائرة . . وهى حقيقة علمية مؤكدة . وهناك هيئات علمية مشتركة من علماء روسيا وأمريكا وأوربا لدراسة الأصوات العجيبة التى تتردد فى الفضاء الخارجى . إنها ليست (أصواتاً) وإنما هى موجات عالية التردد ومنتظمة التردد أيضاً – وهذا هو الذى يحير العلماء – ولابد أن هذه الموجات صادرة من مولدات هائلة . . ولابد أنها رسائل من كواكب شديدة التباعد فى الفضاء (الخارجى) . .

ومعنى هذا كله أن هناك من هو أكثر قوة لأنه أكثر علماً . وإنه لايستبعد أن يكون هؤلاء الأكثر علماً وقوة قد مروا بهذه الأرض يوماً ما . وأقاموا فيها لسبب ما . ثم انسحبوا منها لاعتبارات ما ، تاركين وراءهم هذه الألغاز العلمية والفلكية التى تؤكد أننا جميعاً من أصل واحد . . وأننا نستمد مجدنا القديم من أجداد أو من أساتذة أورواد أو أنبياء هبطوا علينا من السماء . . ونحن نحاول اليوم أن نتصل بهم لعلهم . . لعلهم ماذا ؟ .

وهنا يختلف العلماء : هل نتصل بهم . . وندلهم على وجودنا . . لعلهم يمدون لنا عوناً جديداً ، كما فعلوا ذلك من قبل ؟

هل نسكت ونتوارى فى أرضنا بعيداً عن هولاء الجبابرة فمن يدرى ؟ ربما كان الاتصال بهم خطراً علينا . . خصوصاً أن علم الآثار الحديث يؤكد أن البحر الميت ليس إلا تجويفاً أرضياً أحدثته إحدى سفن الفضاء القديمة جداً عندما هبطت إلى الأرض . . فمن يدرى ربما كان غزوهم للأرض نهاية للأرض وما ومن عليها . .

فإلى أن يتفق العلماء على شيء من ذلك . فأمام مصر والمكسيك متسع من الوقت ، مئات السنين من الاستمتاع بهذه الصداقة والأخوة والتشابه فى الماضى والحاضر من أجل إطعام الفقير وتأمين الخائف وتعليم الجاهل والاتحاد ضد القوى الأعظم من أجل السلام فى العالم .

لست وحدك فى هذا الكون

مطلوب من الله ، ولا يكثر على الله ، مبلغ سبعين مليون دولار يقدمها عن طيب خاطر رجل طيب يهمه أن نعثر له على واحد من أقاربه يعيش بعيداً عنه بحوالى ستين ألف مليون ميل فى أعماق السماء ، هذا الإعلان لم ينشر بعد فى أية صحيفة علمية فى العالم . ولكن هذا بالضبط ما تريده أكبر هيئة فلكية فى أمريكا . . فقد صدر لها بيان وقعه عشرون من العلماء . . واستغرقت كتابته سنتين تماماً . . يقول البيان العلمى الخطير بالحرف الواحد :

فى السنوات القليلة الأخيرة نجح علماء الفلك فى أن يروا بوضوح تلك الجزئيات البدائية التى تتكون منها الحياة . . أو التى تسبق تكوين أية حياة كحياتنا العاقلة . لقد رأى العلماء هذه الجزئيات فى كواكب تابعة لنجوم أخرى غير هذه الشمس التى تتبعها الكرة الأرضية وكواكب أخرى . . وهذه حقيقة مؤكدة ولابد أن هذه الكواكب بها سكان من العقلاء . . ولابد أن هؤلاء العقلاء يتصلون بعضهم ببعض . ولابد أن يكون هذا الاتصال عن طريق موجات كهربية مغناطيسية ، مثلنا تماماً . وفى استطاعتنا أن نتسمع لهم ، إذا بذلنا جهداً علمياً أكبر . ولابد أننا كفصيلة حيوانية عاقلة متطورة أيضاً . أن نعرف هذه الأنواع الأخرى من الحياة . . أو هذه الفصيلة الأخرى المتطورة من الأحياء . .

هل هى متطورة عنا ؟ هل هى صورة أخرى مختلفة ؟ . . هذا ما ينبغى أن نعرفه . ولن يمضى وقت طويل قبل أن نعرف أسرار هذه الحضارة النائية ، وأن ندخل معها فى حوار . . أو نزورهم أو يزورونا .

ويقول هذا البيان التاريخى أيضاً : وربما وفى هذه اللحظة تنطلق موجات كهربية مغناطيسية تنفذ من هذه الوثيقة التى فى أيدينا تحمل حواراً بين هذه الكائنات البعيدة . . وفى استطاعتنا أن نسجلها إذا ما وجهنا مراصدنا الفلكية وجهة صحيحة إلى مصدر هذا الحوار ، وإذا ما عرفنا الطول الحقيقى لموجات تخاطب هذه الكائنات العاقلة . .

إن العلماء يؤمنون بأن هناك حضارات عديدة فى كواكب بعيدة فى السماء . لاشك فى ذلك . ولابد

من أجهزة ضخمة شديدة التعقيد لمتابعتها وسماعها ورصدها . . وهذه الأجهزة فى حاجة إلى أموال كثيرة جداً . ولكن الأمل الآن على المرصد الهائل فى بورتوريكو التابع لجامعة كورنل الأمريكية . . إن قطره ألف قدم . ويقع بين مجموعة من الجبال . وعندما يكمل هذا المرصد فسوف يصبح العلماء قادرين على ارتياد مساحات من الكون لم تخطر على بال أحد من قبل . .

فما الذى يريد أن يعرفه العلماء بالضبط ؟

وهذا السؤال معقول لولا كلمة (بالضبط) هذه . . فليس فى استطاعة أحد أن يعرف بالضبط ما الذى يجرى على ألوف الملايين من الأميال فى السماء . . وخصوصاً أن فى السماء ألوف الملايين من الأجسام الملتهبة . . وهذه الأجسام المشتعلة تطلق نيرانها بعضها على بعض دائماً ومن ألوف ملايين السنين . . فالسماء قطع من النار فى (جو) بارد جداً . . وهى باهرة الأضواء وعميقة الظلمات وكلها مسلطة بعضها على بعض . وتدور فى نظام دقيق . . ومطلوب من علماء الفلك أن يتسللوا من هذه الغابة الجهنمية إلى كواكب غير مضيئة – مثل الأرض – ومعروف أن عليها حياة عاقلة . . والمشكلة ليست : كيف تعثر على نجم من نجوم السماء ، فالسماء مليئة . ولكن المشكلة هى : كيف تعثر على الكواكب التى ترافق النجوم . . تماماً كهذه الأرض التى ترافق نجماً هائلاً هو الشمس . . والنجوم ملتهبة ولذلك ليست فيها حياة . . وهذه الكواكب التى تبحث عنها ، لأنها ليست مضيئة فليس من السهل أن نعثر عليها . . ولا هى واضحة فى السماء . فنحن كالذى يطارد حمامة بيضاء تبعد عنا ألوف الملايين من الأميال وقد وقفت على ذيلها ذبابة . ونحن نبحث عن هذه الذبابة شكلها ولونها وحجمها وهل هى ذكر أو أنثى . . كل ذلك بالعين وعن بعد دون أن نقدر على لمسها . وإنما فقط نحصى حركتها وأنفاسها !

ومن خمسين عاماً لم يكن أحد يعرف أن هناك مجموعات فى السماء مثل المجموعة الشمسية ، أى شمس تدور حولها مجموعة من الكواكب . لم يكن أحد يعرف شيئاً من ذلك . ولكن عندما اشتدت قدرات المراصد الفلكية على التقاط الأشعات النائية ، والتصنت على الأصوات البعيدة ، رأينا بقعة سوداء تدور حول نجمة برنارد – إحدى جيران الشمس . ولم تكن هذه البقعة السوداء سوى كوكب مثل الأرض . وقد أدى هذا الاكتشاف إلى أن عرفت كواكب أخرى كثيرة تدور فى أفلاك النجوم .

وبالحسابات الفلكية ونظرية الاحتمالات المنطقية امتلأت السماء بالنجوم وبالكواكب أيضاً . ويمكن أن يقال إنه على مدى عشرة آلاف سنة ضوئية (أى ستين ألف مليون ميل) توجد أربعة ملايين نجمة . وفى هذه النجوم يوجد مليون مجموعة شمسية . . وعلى كواكب هذه المجاميع توجد عشرة آلاف

حضارة لكائنات عاقلة . . ونحن نحلم بمعرفة حضارة واحدة فقط . . أو واحدة على الأقل !

هل هناك تلسكوب الاهتداء إلى هذه الحضارة ؟ نعم يوجد واحد فقط الآن له طبق قطره ألف قدم . . ويشرف على هذا المرصد الأستاذ دريك .

وهذا الأستاذ الأمريكى دريك هو أول من قال بوجود كائنات عاقلة فى السماء . وقد آمن بذلك عشرات من العلماء من بعده . ولكنه يوم أعلن ذلك ، لم يستطع العلماء أن يجاملوه أو يشجعوه وإنما قالوا : إنها بداية مرحلة التخريف !

وكان ذلك فى سنة ١٩٦٠ . . كان دريك يرقب السماء . وكان يرصد النجم ابسيلون بالذات . وكان التلسكوب الصوتى الذى يستخدمه قطره خمسة وثمانون قدماً . . وفجأة اهتز الرجل وجلس وتراجع إلى الوراء . . لقد سمع صوتاً آتياً من بعيد . . هذا الصوت أطلق عليه : نبض الحضارة السماوية !

وكان الصوت على شكل موجات كهربية مغناطيسية ، مثل موجات الراديو عندنا . هذه الموجات بعيدة منتظمة وعالية التردد . والذى أدهشه انتظامها وترددها العالى . هنا فقط أعلن دريك أن وجود حضارة نائية ، واحدة على الأقل ، حقيقة لا تقبل الشك . ولكن ينقصه أن تكون له (أذن) أضخم وأكبر . . ولذلك فالمرصد الذى يعمل فيه يغطى مسافة من الأرض تبلغ ثلاثة آلاف فدان . . وبها سبعة وعشرون مرصداً . وهذه المراصد تتحرك على عجلات . . وكل واحد يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف أكثر من عشرة أميال . . وكلها تجمع المعلومات الصوتية وترسلها إلى الطبق الذى قطره ألف قدم . . وهنا تتجمع وتعطى الصورة الصوتية الكاملة لما يجرى على مدى عشرات الألوف من الأميال فى السماء . .

والمطلوب هو ما يعادل ألف مليون دولار لاستمرار البحث عن أقارب لنا فى السماء !

وخريطة الكون تغيرت أو اتسعت .

وكانت هناك نظرية تقول إن الكون ينكمش أى أن هذه الأجسام المشتعلة التى تدور حول نفسها وحول بعضها البعض تتجه إلى المركز أى إلى مركز الكون . . ولذلك فالكون ينكمش . .

ولكن أحدث النظريات تقول : بل الكون يتسع . . وإن هذه الأجسام التى لا أحد يعرف لها عدداً ولا أصلاً ، تتجه إلى الخارج أى أن الكون يتسع . . وكل هذه الكلمات التى نستخدمها للدلالة على الكون كلمات غير دقيقة . . فكلمات : الخارج والداخل والمركز كلها تعبيرات «لغوية» ساذجة . . فلا أحد يعرف مركز الكون ولا ما هو الداخل ولا ما هو الخارج . . لا الداخل بالنسبة لماذا ؟

ولا الخارج بالنسبة لأى شيء ولكن هذه هى لغتنا وليست لدينا أية مفردات أخرى نستطيع أن نعبر بها عن عالم كله مشتعل ناراً ، وكله مبدد على شكل طاقات . . أو يعود فيتكثف من طاقة إلى مادة من جديد ومن مادة إلى طاقة . . وهكذا إلى غير نهاية معروفة عند أى أعقل العقلاء !

فإلى جانب النجوم فى السماء هناك المجرات وهى مجموعات هائلة من النجوم . . أقرب إلينا ، نحن سكان الأرض ، هى الطريق اللبنى .

ولكن العلماء اكتشفوا أجساماً أخرى اسمها «كاسار» وهى أكثر الأجسام فى السماء طاقة . . فهى مجموعة من المجرات ولها كل صفات الشموس . . فإذا كان هناك كاسار واحد فى حجم المجموعة الشمسية فإنه يطلق طاقة تعادل احتراق مليون شمس !

وهناك أجسام أخرى اسمها «بلسار» وقد عرفنا حتى الآن ستين منها . وهى فى «الطريق اللبنى» — أقرب المجرات إلى الشمس ، والبلسار نجوم أيضاً وشديدة الكثافة وتدور حول نفسها ثلاثين مرة فى الثانية . ولها مجالات مغناطيسية هائلة .

وهذه الشموس ، ملايين الملايين من الشموس ، تصب نيرانها على الغازات . . وهذه الغازات مليئة بالجزيئات ومن بين هذه الجزيئات تتولد جزيئات حامض الأمونيا . . أو نوع من النشادر ، وهو ضرورى للحياة ، أو هو المفردات الأولى لتكوين الخلايا الحية . . وقد أمكن للعلماء استحضار جزيئات حامض الأمونيا فى المعامل . . عندما أطلقوا الصواعق الصناعية على الغازات . . ولابد أن الحياة قد بدأت على كوكب الأرض هكذا . ولابد أن تكون قد بدأت على الكواكب الأخرى بنفس الصورة .

ولا يزال العلماء يتابعون ماذا يجرى فى هذه السحب الهائلة للغازات والتى تتولد منها وبسببها أشكال الحياة . .

إن هجرة مئات العلماء الكبار من العلوم الأخرى إلى علم الفلك ، لدليل على أن الأمر خطير . . وعلى أن الاقتراب من الحلم الذى يشغل العلماء قد أصبح قريباً . .

ويوم أعلن الأستاذ دريك أنه سمع صوتاً هاتفاً فى السماء . . قال العلماء :

. إن هذا الصوت صادر من الأرض . . ولابد أن «الآذان العلمية التى ركبها الأستاذ دريك قد سقطت على الأرض بدلاً من أن تتجه إلى السماء» .

إنها مرة أخرى — قصة العالم الإيطالى جاليليو الذى رأى بقعاً سوداء فى الشمس فضحك منه الناس وقالوا : بل هذه البقع فى عينيك !

والأستاذ دريك لا يحلم عندما قال : بل سوف نوجه رسالة جديدة إلى السماء . . سوف نسجل

على مراصدهم هناك رسائل من الأرض . وسوف يلتقطونها ويعرفون أننا هنا .

وقد سجل الأستاذ دريك رسالة بالفعل . وهذه الرسالة عبارة عن ١٢٧١ نقطة وخطا . وهى حاصل ضرب ٤١ × ٣١ وقد جعل النقط على شكل اثنين من البشر بينهما طفل . . أى أننا رجال ونساء ولنا أولاد . . وجعل دائرة كبيرة تشير إلى الشمس . . وجعل الأرض كوكباً فى المرتبة الرابعة بين الكواكب الثمانية التى تدور حول الشمس . . وأن الأرض هى الكوكب الرابع . ثم جعل فى الصورة المرئية هذه سمكة . . أى أن على الأرض ماء وأن فى الماء حياة . . وأن للماء شواطئ وعلى الشواطئ مدناً وهناك حياة وأرض مزروعة . . وأن الأرض مكان جميل . . وهذه دعوة للنزهة فى هذه الكرة المربوطة إلى الشمس والتى بها أناس عاقلون لدرجة أنهم استطاعوا أن يعرفوا مكان الحضارات الأخرى ويقدموا دعوة صادقة للزيارة !

وقديماً قال عالم الفلك بطليموس : لو كنت عند بدء الخليقة لطلبت من الله أن يضع فى هذا الكون شيئاً من النظام . . فهذه البقع المنتشرة فى السماء . . المتناثرة بغير نظام حيرتنى وأرهقتنى . ولو وقفت صفوفاً أو دوائر أو مربعات لأراحت عينى وعقلى !

ولكن الأصح أن يقال : لو كنت عند بدء الخليقة لطلبت من الله أن يعطينا القدرة على فهم حكمته . فالذى نعرفه الآن يدل على عظمة الله . فكل شىء له نظام . . وله حكمة . . ونحن نحاول أن نتلمس بعقولنا الصغيرة رمال الساحل الطويل للمحيط الهائل لحكمته . ولا يحرمنا أمام هذه العظمة إلا شىء من الثقة بالنفس وبالعقل الإنسانى . . ولولا ذلك لظللنا زواحف على الأرض نرفع رؤوسنا عن الطين ولا نوجه عيوننا لمسافة أبعد من أنوفنا . . ولكننا نهضنا من الأرض وعلونا عليها ، وارتفعنا ورفعنا رءوسنا وعقولنا إلى أبعد مما نرى ، لعلنا أن نرى أكثر . . فنفهم أوضح ، ونؤمن أعمق بالله العظيم القادر على كل شىء وكل فكر . .

ولسنا إلا فى بداية طريق ألوف الملايين من الأميال والسنين !

حديث تليفونى بين شجرة وبقرة : حقيقة علمية

نجح العلماء وفشل الشعراء : عندما هبط الإنسان على سطح القمر ، فقد وجدوا القمر أرض جرداء لا فيها ماء ولا فيها هواء ، وأحس العالم كله بخيبة أمل كبرى . وأننا فقدنا عزي علينا ، وأن الشعراء هم السبب فهم الذين شغلوا الإنسان عشرات القرون بجمال ودلا الضياء . . وأنه حليف المعذبين والمغرمين وأنه هو أيضاً قد أضناه السهر والدوران والعز وبرودة الليل . . ولكن العلماء وجدوا أن القمر مثل المرأة له وجهان : وجه كالصحر الغربية حار رملى ، ووجه مثل الصحراء الجليدية بارد مظلم . . ولكن الوصول إليه انتصار عظيم للعلماء . .

ورغم هذه الحقيقة العلمية الجامدة الباردة ، فلا يزال القمر جميلاً . ولا يزال ضوء القمر : القلوب ويدفعها إلى أن تحب وأن تكفر بالحب وأن تتحسر على أنها صدقت القمر ومجانين الضياء

ولكن يبدو أن العلم الحديث جدًّا يريد أن يعتذر للشعراء ، ولكن لأسباب أخرى . فالشعر يتحدثون عن الزهور وألوان الأرق والقلق والغيرة والحيرة . . وأن الزهور تمثل عليهم وتقول عليهم كلا لا تسمعه . . وأن عطر الزهور هو رسائل رقيقة لا يدركها إلا الشعراء . . وليست الزهور التى تقول وإنما كل شىء . . كل حجر . . كل ذرة تراب . . كل قطرة ماء . . الكل يقول والشعراء يسمع ويترجمون وينظمون . ونقول إنهم شعراء . . إنهم مجانين ! !

ولكن العلم الحديث يؤكد بالتجربة العلمية المعملية أن الشعراء هم أعقل الناس . وأنهم أ الناس إحساساً بالناس والأشياء والنباتات والحيوانات .

وكان الفيلسوف الإغريقى أرسطو يقول : إن الزهور لها روح . وإن هذه الروح هى التى تنظم حـ البذرة حتى تصبح زهرة وثمرة . وإلا فكيف تستطيع البذرة أن تكون هذه الشجرة الرائعة دون تدخ من أحد من الناس ؟

وكان العالم الإنجليزى الكبير تشارلز دارون يعتقد أن النباتات لها أجهزة عصبية وأن هناك أزهاراً تتربص بالحشرات تستدرجها ثم تصيدها وتعتصرها . وبعد أن تجهز عليها تماماً تقذف بها . . أو تستدرج حشرة أخرى لتحمل جثمان هذه الحشرة الضحية !

وحاول دارون أن يجرى تجاربه على هذا الجزء من الزهور الذى سماه (الجهاز العصبى) ولكن تجاربه لم تنجح . وإنما ترك لنا هذا الغرض العلمى . . أو هذه (الملحوظة) الدقيقة .

أما الشاعر الألمانى جيته-فقد كان فيلسوفاً وعالماً من علماء النبات . وكان ينظر إلى الحديقة وقد تعددت أزهارها وأشجارها وألوانها ويقول : هذا الذى أراه شعر . . إن الأرض تنظم أروع القصائد دون ادعاء . . ثم يستدرك قائلاً : إن الأرض لا تنظم الشعر ، وإنما هناك قوة حيوية عاقلة فى الأرض وفى هذه النباتات . . هذه القوة حكيمة وهى التى تضع قوانين هذه الزهور فتكون لها نفس الألوان التى لزهرة من نفس الفصيلة . . كيف ؟ إن هناك حكمة عاقلة . . بل إن هناك عقلا فى كل بذرة فى كل أرض !

وقد صدر فى أمريكا كتاب عنوانه : « الحقيقة الخفية للنباتات » . مؤلف هذا الكتاب كريستوفر بيرد . يقول المؤلف فى المقدمة :

« عزيزى القارئ : مؤلف هذا الكتاب ملحد عن اقتناع . فلم تهزنى أجراس الكنائس ولا الصلوات ولا رجال الدين . وأعتقد أنه لا يوجد دليل واحد منذ عشرين عاماً ، قد أقنعنى بأن هناك حكمة واحدة وراء الأشياء التى نراها . . حتى تجاربى الأخيرة . . ولذلك أبادر فأقول بأننى آمنت عن تجربة علمية . . وإن إيمانى قد جاء بالصدفة . . ولكنى آمنت » .

فما الذى آمن به ، أو ما الذى جعله يؤمن بأى شىء ؟ ! يقول إن بعض التجارب قد قام بها أحد ضباط البوليس فى مدينة نيويورك سنة ١٩٦٦ كان هذا الضابط يتسلى . . وهو على درجة كبيرة من العلم بالطبيعة النظرية وبالكيمياء . . لقد أمسك هذا الضابط بشجرة صغيرة كانت فى أصيص . وركب على الشجرة جهازاً إلكترونيًّا يسجل النشاط الكهربى فى النبات . . وقد لاحظ أنه عندما نزع ورقة من الشجرة اهتز المؤشر فى الجهاز . . وعندما نزع ورقة أخرى تحرك المؤشر . . إن هذا المؤشر لا يتحرك لأن الشجرة قد تحركت . . وإنما هو يسجل مقاومة الشجر ، قوة وضعفاً للكهرباء . . ثم راح يجرى هذه التجربة عدة مرات .

وجاء ضابط البوليس فغير التجربة . . فبدلاً من أن يقطع إحدى الأوراق ، اقترب فقط من الشجرة ، فسجل الجهاز اهتزاز الشجرة ، كأن الشجرة قد خافت . . ثم أمسك عود كبريت وأحرق

ورقة . . فاهتز المؤشر . . ثم أشعل عود كبريت دون أن يقترب من الشجرة فاهتز المؤشر . .

. وأعاد التجربة أمام عدد من العلماء . وكان القرار : أن الشجرة تحس بما سوف يحدث لها ، وبما حدث لها !

أعيدت التجربة بشكل آخر . . جاء هذا الضابط وأمام عدد من العلماء بشجرتين متباعدتين جدًّا . وقد ركب على كل شجرة جهازاً يسجل مقاومتها للتيار الكهربى . . وعندما اقترب من إحدى الشجرتين ونزع ورقة اهتز مؤشر الشجرة الأخرى . . وفى كل مرة ينزع ورقة يتحرك مؤشر الشجرة الأخرى !

ثم أجريت تجربة ثالثة أكثر تعقيداً فقد جاء ضابط البوليس بعدد من الناس ووضع على وجوههم أقنعة . وطلب إلى كل واحد أن يمد يده فى صندوق ويستخرج ورقة بيضاء مكتوباً عليها تعليمات له بأن يفعل شيئاً معيناً مثلاً : اقطع ورقة . . احرق ورقة . . لا تفعل شيئاً !

ثم جاء ضابط البوليس بهؤلاء الناس . . وطلب إليهم واحداً واحداً أن يقول : نعم قطعت ورقة . . أو لم أقطع ورقة . .

واهتز مؤشر الشجرة عندما أعلن واحد منهم كاذباً أنه لم يقطع الورقة . . ومعنى ذلك أن النبات قادر على أن يكشف الكذب !

والحقيقة التى اهتدى إليها العلماء من هذه التجارب : أن الخلايا الحية فى النبات تشعر . . وأن هذه الخلايا قادرة على أن تشعر بالنبات وبالإنسان . . وأن شجرة تستطيع أن تنقل إحساسها إلى شجرة أخرى . . أو تستطيع أن تشعر بإحساس إنسان آخر !

أما المهندس الأمريكى روبرت سوفين فقد ذكر فى كتابه : « تعلمت من الحيوانات » أنه قد أجرى هذه التجربة : فقد أتى بعدد من الجمبرى الحى . وأتى بإناء يغلى بالماء ثم أتى بشجرة متصلة بجهاز كهربى . وكانت المسافة بين الإناء الذى يغلى وبين الشجرة عشرة أمتار . وفى كل مرة يسقط الجمبرى إلى الماء الذى يغلى ويموت ، نجد المؤشر قد تحرك ، فى نفس اللحظة التى يكف فيها الجمبرى عن الحركة !

ومعنى ذلك أن هناك اتصالاً أو هناك (لغة ما) بين الخلية الحية فى النبات وفى الحيوان ! وقد نشرت مجلة « أخبار عالم الطب » الأمريكية – وهى مجلة عظيمة الاحترام فى العالم – التجربة المعروفة للمصور الروسى كريليان ، فهذا المصور قد استطاع أن يسجل بالكاميرا أن النباتات تبكى وتنزف دماً إذا نحن نزعنا منها ورقة أو قطفنا زهرة . فقد جاءت صورة المكان الذى نزعنا منه الورقة حمراء وحولها هالة من الدم . . تماماً كما يحدث إذا قطعنا إصبعاً أو يد إنسان . . واستطاع كريليان هذا أن يسجل

بالكاميرا الحساسة جدًّا أنه قادر على أن يكتشف الأنفلونزا فى جسم الإنسان قبل ظهورها . فالكاميرا قد كشفت أماكن متعددة .

أما العالم الروسى الكبير ، فقد قام بتجارب من نوع آخر . فقد أتى بفتاة صغيرة ونومها مغناطيسيًّا . وطلب منها أن تتصل بروح النباتات الموجودة فى الغرفة . وإذا بالفتاة المنومة تقول :

نحن النباتات لنا إحساسات وعواطف مثل الإنسان والحيوان تماماً . . وإننا نشعر بكم وبما يدور حولكم وفى حياتكم . . وفى كثير من الأحيان نحزن على ما يصيبكم . ولكن الإنسان غير قادر حتى الآن على أن يعرف لغة الأزهار والأحجار . . إنه يزنها ويقيسها ولكنه لا يفهمها . . أو لا يفهم لغتها !

وهناك التجارب التى قام بها العالم الروسى شوريين بجامعة موسكو أيضاً . لقد أتى بمجموعة من الخلايا الإنسانية ووضعها على مسافة عشرين متراً من خلايا حية أخرى . . ثم حقن مجموعة منها بمرض خبيث . . فما كان من الخلايا الأخرى إلا أن ارتعدت وسجل المؤشر ذلك . . مع أن المسافة كبيرة بين المجموعتين ولا توجد أية وسيلة للاتصال . ولكن حركة المؤشر تؤكد أن هناك صلة ما وأن هذه « الصلة ما » قد نقلت الفزع والرعب إلى المجموعة الأخرى ! وأن هذا الرعب أخذ شكل الأشعة فوق البنفسجية العالية التردد !

وفى التاريخ العربى القديم تسمع عن عويل النخيل . فهناك قصة تقول إنه فى أحد الأيام العاصفة كانت الريح تزمجر بين سعف النخيل ، وأن رجلاً وقف أمام ضحيته يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . سوف يموت غداً !

وكان فى أسرته شيخ مريض . . فليس غريباً أن يموت هذا الشيخ بعد مرض طويل . ولكن الرجل قال : لا . . ليس هذا الشيخ . إن النخيل تعوى . . فسوف يموت طفل صغير ولد منذ أيام . . هنا فى هذا البيت . من أجله اشتد بكاء النخيل عليه .

وفى اليوم التالى مات الطفل الصغير وبقى الشيخ مريضاً ليموت بعد عام .

وفى الصحارى قصص كبيرة عن الذين يضعون آذانهم على جذع النخيل ويرفعون رءوسهم ليقولوا : إن قافلة ستجىء وفيها عروسان . . فالنخيل تزغرد ! !

وتجىء القافلة ويكون فيها عرس . وهذا العرس جاء بالصدفة ولم يدر به أحد من الناس ! ! وفى الأحاديث النبوية إشارات إلى أن يترفق الناس بأخواتنا من النخيل !

وقد جاء على لسان الشاعر الإغريقى هوميروس : إن فينوس عندما نزلت إلى البحر ضحكت ثم بكت . ولما سألوها قالت : سمعت بعض الأزهار تقول ما أجمل صدرها . . وسمعت بعضها تقول

وما أنحف ساقيها !

وقلنا منذ خمسة وعشرين قرناً : إن هذا كلام شاعر أعمى مجنون !

وجاء فى كتاب د. فريتس بورمان الذى عنوانه «الأزهار شاعرات أيضاً» – وبورمان هذا أستاذ فى جامعة برتسون – يقول : إنه أتى بمجموعة من شجرات الأزهار ووضعها فى ثلاث غرف متساوية فى الطول والعرض والارتفاع ودرجة الحرارة والرطوبة والضوء . ووضع فى الغرفة الأولى ميكروفوناً ينقل موسيقى كلاسيكية . وفى الثانية ميكروفوناً يطلق موسيقى راقصة صاخبة . . أما الثالثة فتركها فى هدوء تام . وقد لاحظ د. بورمان أن النباتات التى تستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية قد ازدهرت بسرعة . وأن سيقانها أقوى وأكثر استقامة . وأن نبات الموسيقى الراقصة أكثر هزالاً ، وأن سيقانها ليست قوية . . بل إن بعض أزهارها أكبر من البعض الآخر . أما أزهار الصخب فهى بطيئة النمو . يقول د. بورمان فى مقدمة الكتاب : أنا لست شاعراً . ولا أظننى أستطيع ، وإنما أنا رجل عالم فتح عينيه على الطبيعة . فقد علمنى أبى كذلك . لأنه أراد ألا أكون مثل أقارب والدتى فكلهم من رجال الدين والسحر والشعوذة وأنا لا أحبهم . أما حبى لأمى فهو الاستثناء فى قاعدة كراهية أقاربها بالعدل والقسطاس . ولذلك فما أراه ليس إلا من واقع التجربة التى دلتنى على أن فى النباتات روحاً فنية . . أو «حبًّا» للاعتدال والاتزان والهندسة . . وهذا «الحب» لابد أن يكون نوعاً من التذوق . فإذا قلنا التذوق وجب علينا أن نقول إن لهذه النباتات قلباً أو عقلاً أو روحاً .

أما رجل البوليس الذى جاء فى أول هذا المقال فقد صدر له كتاب اسمه «تجارب كيميائية لضابط بوليس» ومن بين التجارب العديدة التى اهتدى إليها ضابط البوليس ، أنه أتى ببقرة ووضعها فى حجرة مغلقة عليها تماماً . . ووضع بالقرب منها سماعة تليفون . . وراح يخز البقرة بإبرة . . ثم وضع عند الطرف الآخر من التليفون شجرة صغيرة وقد ركب عليها جهاز تسجيل . . ففى كل مرة يخز البقرة و«تتأوه» من الوخز بالإبرة يجد المؤشر بالقرب من الشجرة يتحرك . . ولما ذبح البقرة انتفض مؤشر الشجرة وراح يعلو ويهبط .

إن الشجر والحجر والبقر قد أكدت أن هناك لغة واحدة بين كل هذه المخلوقات ، وأن هناك شعوراً واحداً ولغة واحدة ، لأن هناك كلمة واحدة وراء الكل : هى قدرة الله !

ولكن الإنسان لا يزال يتفرج على القدرة دون أن يؤمن بها . . إن الإيمان بها هو المرحلة التالية على ذلك . وقد تعب الإنسان من التساؤل . وتعب من المكابرة والتكبر وليس أمامه إلا أن ينحنى للنبات والحيوان . . لما هو وراء النبات والحيوان والإنسان . وليس هذا كلام رجال الدين ولا خيال الشعراء ولكنها تجارب علماء استهلوا حديثهم عن القدرة بأنهم كفرة آمنوا !

الذى نصفه بأنه من وراء العقل

لا تشغل بالك بالاسم « العلمى لهذه الظواهر الغريبة العجيبة عند بعض الناس . . » يمكنك أن تقول إنها حالات نفسية ليس لدينا تفسير واضح لها . . يمكنك أن تقول إنها صفات غريبة أو قدرات خفية . . وإنها لا تدخل فى نطاق العلم أو العقل الإنسانى وإن كان العلماء يحاولون رصدها ليعرفوا من أين وكيف ولماذا ؟

مثلاً : ما معنى أنك تفكر فى شخص وتفاجأ بأنه أمامك . . ما معنى أن تفكر فى أن تطلبه بالتليفون وتمتد يدك فإذا التليفون يرن ويكون هو المتحدث ؟

* * *

حدث أن قام رجل من عز النوم يشكو من وجع مفاجئ فى ضرسه ونظر إلى الساعة فكانت الثانية عشرة مساءً . . وحاول أن يجد شيئاً مسكناً . ووجد ، ولكن الضرس مازال يوجعه . . وفى الصباح ذهب إلى طبيب الأسنان وخلع الضرس . . وبعد يومين تلقى خطاباً من ابنه فى بلد آخر يحكى له أنه قام عند منتصف الليل يشكو من ضرسه . . وذهب إلى الطبيب وخلعه . . وكان الضرس مماثلاً لضرس أبيه ؟

ما تفسيرك لأن تقوم أم من فراشها منزعجة . وتشكو من وجع فى بطنها . . وتتلقى خطاباً من ابنة لها تعيش فى أمريكا وتروى لها أن عملية جراحية أجريت لها . وإنها بخير ، وتكون ساعة إجراء العملية هى نفس الساعة التى توجعت فيها الأم . .؟

ما الذى تقوله إذا سمعت من إحدى الأمهات أنها كانت مستغرقة فى نوم هادئ وفجأة نهضت فى فزع شديد ، وذهبت إلى غرفة أخرى لتجد أن طفلها يوشك أن يقع من السرير على الأرض ؟

حدث كثيراً جدًّا أن ينهض أخ أو أب أو أم من جلسته . . ليقول : يا ساتر يا رب . . اللهم اجعله خيراً . . لقد رأيت فلاناً كادت تدوسه سيارة . .

ويندهش هو كيف رأى ذلك بوضوح ؟ إنه لا يعرف بالضبط ما الذى رآه ولا كيف رآه . وبعد ساعات يعرف أن فلانا هذا كادت تدوسه سيارة ؟

كيف يرى الإنسان ما لا تستطيع أن تراه عيناه . كيف يسمع مالا تسمعه أذناه . . أوكيف يرى بلا عينين . . كيف يسمع بلا أذنين ؟ إننى أقلب فى هذا الكتاب الذى صدر فى عشرين طبعة وباع أكثر من مليون نسخة وعنوانه (دراسات عجيبة نفسية فى الاتحاد السوفيتى) من تأليف شيلا أو ستراندر ولين شريدر . . أو يمكن أن يكون عنوانه دراسات خفية . . أو دراسات غير نفسية .

ويستمر الكتاب الذى يعرض لهذه التجارب العجيبة فى الاتحاد السوفييتى وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا . .

فنى روسيا أمكن نقل رسائل بين رجلين أحدهما فى موسكو والآخر فى لينتجراد . . هذان الشخصان عندهما القدرة على قراءة أفكار الآخر . . أو على أن ينقل أحدهما للآخر أفكاره . . أتوا بواحد منهما . وأجلسوه فى معمل وطلبوا إليه أن يقول لزميله على مدى مئات الأميال ما الذى يمسكه فى يده الآن . وأعطوه مسماراً من الصلب . . وطلبوا إليه أن ينقل إلى زميله لون المسمار وطوله وعرضه ومادته .

فجلس الرجل يتخيل أن زميله جالس أمامه . وراح يركز النظر إليه . . وينقل إليه صفات المسمار . وبعد لحظات جاءت برقية من لينتجراد تقول إنه تلقى الرسالة : إنه مسمار طوله كذا ولونه كذا . . كيف ؟

وقد أمكن أكثر من مرة أن ينقل إليه صورة أمامه . . فهو يركز عينيه على الصورة التى أمامه ثم يركز على زميله . . وتنتقل إليه الصورة التى أمامه . . أى ينقل إليه المعنى أو خطوط الصورة فيقول إنه رأى صورة كذا وطولها كذا . . كيف ؟

بالضبط ما الذى حدث عندما فوجئ ستالين وهو فى مكتبه يقرأ بأن رجلاً غريباً عنه قد دخل مكتبه والحراس ينحنون له . من هذا ؟ إنه شخص ما . . ولما سأله : كيف دخلت هنا ؟ قال : أقنعت الحراس جميعاً بأننى وزير الداخلية ؟

وسأله : كيف ؟

قال أوحيت لهم . . أوهمتهم . . أثرت عليهم .

مع أنه لا يوجد أى شبه بين هذا الرجل وبين وزير الداخلية . . لا طولاً ولا عرضاً ولا ملامح . ولكنه استطاع أن يقنع مئات الحراس بأنه وزير الداخلية ؟ !

كيف ؟

وأجرى العلماء الروس تجارب مضنية على سيدة عندها قدرة غريبة على تحريك الأشياء بمجرد الاقتراب منها دون لمسها . فهى إذا وضعت يدها على ارتفاع متر من الشوك والسكاكين وأعواد الكبريت تحركت فى الاتجاه الذى تريد . . ثم إنها استطاعت أن تحرك عود الكبريت إلى علبة الكبريت ثم تدفعه من بعد فيشتعل . كيف ؟

إن هذا يفسر لنا ماذا حدث عندما يحسد إنسان واحداً آخر . . ينظر إلى الكوب فينكسر . . أو ينظر إلى الثوب فيحترق .

أو لعل العلماء إذ عرفوا ما الذى يحدث ، أن يفسروا لنا ماذا يحدث إذا لعنك إنسان أن تصيبك اللعنة ، أو إذا دعا لك بالخير أن يصيبك الخير !

كيف ؟

ثم إن هذه السيدة كانت تكسر البيضة عن بعد . . ثم ترفع إصبعها فوق البيضة فيخرج البياض بعيداً عن صفار البيضة ، أو العكس إذا أرادت ؟ كيف ؟

يقول العلماء السوفييت إنهم لاحظوا أن رواد الفضاء يكونون فى حالة نفسية غريبة . . فهم يتفاهمون بغير كلام . . ويحذر بعضهم البعض دون كلام . . ولذلك كثيراً ما التقت أيديهم عند زرار واحد يحركونه دون أن يدور بينهم كلام . . ولكنهم قرءوا أفكار بعضهم البعض . . أو أحسوا بالخطر معاً فتحركوا يعالجون الموقف !

وقد ذهب العلماء الروس إلى أنهم استطاعوا أن (يدخلوا فى الخط) ، عندما ينقل رجل رسالة إلى رجل آخر بعيد . . ففى إحدى المرات كلفوا رجلاً بأن ينقل رسالة شفوية إلى رجل آخر . . ثم أتوا برجل ثالث له نفس القدرة على نقل الرسائل وتلقيها . . وركز على أحد الرجلين فعرف بالضبط ما الذى نقله إلى رجل آخر يبعد عنه مئات الأميال !

كيف ؟

ما الذى يحدث إذا جاء شخص وكتب بعيداً عنك سطراً على ورقة . . ثم وضع الورقه فى جيبه . . ثم وقف إلى جوارك ورآك تتلفت حولك وتنظر وراءك فجأة ، فضحك الرجل . ثم أخرج الورقة من جيبه لتجد مكتوباً عليها : آمرك أن تتلفت وراءك فجأة !

إنه قد أوحى إليك . . ضغط عليك . . تسلل إلى داخلك . . فإذا بك تفعل ما طلبه منك دون أن تدرى !

كيف يقرأ رجل خطاباً فى جيبك أنت ؟

حدث فى مؤتمر دولى عقد فى موسكو سنة ١٩٦٧ أن أتى العلماء الروس بفتاة . هذه الفتاة عندها قدرة على أن تتجسدها (أرواح) الموتى . . فتتقدم إليك وتقول لك . أنا الفنان دافنشى . .

وتسأل عن أدق حياة دافنشى فإذا هى ترد عليك . .

أو أن تقول لها أنت : أنت الآن روح والدتى السيدة فلانة . .

وفجأة تقول لك الفتاة : أنا والدتك اسمى كذا . . وأعيش فى كذا . . وعندى أوجاع فى هذا المكان من جسمى .

وبعد لحظات تفيق هذه الفتاة دون أن تدرى شيئاً عن الذى قالته أو فعلته . ولك أن تسأل كيف حدث ذلك ؟ كيف كان هذا (الحضور) أو (الاستحضار) الروحى ؟

أليس هذا قريباً مما يقوله الشعراء : نزل علينا الوحى . . وجاءنا شيطان الشعر . . أى أن نوعاً من التجسيد المؤقت قد حدث ، وأن قوة أخرى قد استولت على أحلامهم أو خيالهم ، فإذا هم يكتبون ما يملى عليهم ؟

ما هذه القوة الخارقة التى عند إحدى الروسيات التى تجعلها تقرأ الصحف وهى وراء ظهرها . . أو تقرأ الصحف بأصابعها بعيداً عن عينيها . . كيف تمر بأصابع قدمها على عناوين الصحف فتقول : هذا أحمر . . هذا أسود . . هذه صورة . .

ثم كيف تستطيع أن تقرأ الصحف إذا وضعت تحت لوح من الزجاج . . ثم كيف تستطيع أن تفرز أوراق الكوتشينة التى وضعت فى صندوق أسود فى غرفة مظلمة ؟

ألا يمكن أن تؤدى معرفة العلماء لهذه القدرات الغريبة إلى أن تجد حلاً للعميان . . أن تعاونهم على الرؤية دون عينين ، وأن تعاون الصم على السماع دون أذنين . . إن العلماء يحاولون أن يدرسوا خصائص الجسم الإنسانى والعقل الإنسانى لعلهم أن يكتشفوا هذه الينابيع السحرية لهذه القدرات الفردية الخارقة ! لا شىء بعيداً عن العقل الإنسانى الذى يقف مندهشاً ، ثم تتجاوز الدهشة إلى الفهم وإلى وضع القواعد من أجل علم متكامل لخصائص الإنسان والنفس البشرية . .

وأعجب ما شاهده الغرب عندما ذهبوا إلى موسكو فى الستينات . رجل ابتكر نوعاً من الكاميرات للتصوير قادرة على تصوير الجسم الإنسانى فإذا بهم يجدون هالات من النور والنار حول جسم الإنسان . . وحول الحيوانات وحول النبات . . بل إن هذه الكاميرات قد صورت رجلاً مقطوع الذراع . بل صورت الذراع المقطوعة أيضاً .

والإنسان الذى قطعت ذراعه أو ساقه يشعر بها ، كأنها لا تزال فى مكانها . .

بل إن هذه الكاميرات التقطت صورة تذكارية لعائلة . وكانت المفاجأة : لقد ظهر فى الصورة بعض أفرادها الذين ماتوا ! !

أعجب من ذلك أن فى روسيا رجلاً تطلب منه أن يتخيل برج إيفل فى باريس . . فيقول لك : الآن أتخيله .

وتلتقط صورة لهذا الرجل . وإذا بك ترى برج إيفل مرسوماً فى كل عين من عينيه ؟

والذى يجرى بين الناس يحدث بين الحيوانات أيضاً . لقد أتى الروس بأرنبة . ووضعوها فى أحد المعامل . ووضعوا صغارها فى غواصة . وبعدت الغواصة عن المعمل مئات الأميال ، ثم نزلت إلى مئات الأمتار تحت الماء . . ووضعوا على رأس الأم ورأس صغارها أجهزة تنقل إحساسات الجميع . . وفى كل مرة يخزون صغارها بالإبرة فإن الأم – تنتفض . . وفى إحدى المرات ذبحوا صغارها الواحد بعد الآخر فكانت الأم تصاب بتشنجات عصبية وتتلوى وتكاد تموت !

ثم هناك هؤلاء البدو الذين يمسكون عصا يدقون بها الأرض ويقولون . هنا ماء حلو . . أو هنا ماء ملح . . أو هنا بترول . . أو هنا فحم . .

فى جمهورية أزبكستان عدد كبير من الذين يمسكون العصا . . وفى الصحراء الغربية وفى السعودية أناس عندهم هذه القدرة على معرفة ما يجرى تحت الأرض دون أن يروا من ذلك شيئاً .

إن هذا الكتاب متعة للقارئ وهو يدق أبواب المجهول من الجسم الإنسانى . . ويتسلل إلى مصادر القدرات الخفية للعقل . . فلا شيء يرفضه العقل . وإنما العقل يجب أن يقبل كل شيء ويبحثه ، لعله أن يهتدى إلى شيء جديد . فالذى نعرفه عن الإنسان وجسمه وعقله قليل . . ونحن قد اعتدنا على نوع واحد من المعرفة : الأشياء الملموسة نعيشها ونضعها فى النور والنار وفى المجالات المغناطيسية ثم نرقب ونحسب ونسجل بعد ذلك ملاحظاتنا . . ولكن هناك حالات . . انفعالات . . تفاعلات . . نشاطاً لا يمكن حسابه . . ولكنه . . يحدث ، وحدوثه غريب . ويجب ألا يبقى غريباً . ولذلك يحاول علماء كبار أن يفهموا . . ما هذه الروح ؟ ما هذا التجسد ؟ ما هذه الرؤية عن بعد ، والسماع عن بعد ، وتحريك الأشياء عن بعد . . وتنويم الناس . . وتجسدهم لأشخاص ماتوا . . أو أرواح غابت ؟

إن العلماء الروس يؤكدون أن هناك (شيئاً آخر) غير الجسم الإنسانى . .

إن هناك (جسماً لطيفاً) أو (جسماً ناعماً) فى داخل الجسم . . فإذا فنى الجسم بقى هذا الآخر . هل هى : الطاقة الحيوية ؟ هل هى الطاقة التى تبقى ولا تتبدد . ؟ هل هى (الروح) ؟ . إن هناك شيئاً ما من الأشياء . . ومن الإنسان والحيوانات والنباتات . .

فالإنسان إذا نظرنا إليه نجده كالجزر أو كالأشجار . . منفصل بعضه عن بعض . . ولكن الجزر التى تبدو على سطح الماء منفصلة ، فإنها فى القاع مترابطة . . والأشجار لها فروع منفصلة ولكن جذورها متشابكة . . ولا يمكن أن تفصل بين الناس . . ولا يمكن أن نفصل بين الليل والنهار ، أو بين البر والبحر والهواء ، ولا بين الأرض والكواكب الأخرى . . والعقل الإنسانى لا يستبعد أن يكون لهذه الكواكب أو النجوم أثرها على السلوك الإنسانى . . ولا ينفى العلماء الروس أن هناك قوة كبرى تحتوى العالم وتنظمه أو تنتظمه . . وليس الآن ، هو الوقت المناسب لاختيار اسم لهذه القوة ، أو هذه القوى أو هذه الظواهر ، إنها عجيبة إلى أن يجد العلماء لها اسماً آخر ولكنها حقيقة ولا ينقصها إلا التفسير الواضح ، لكى تكون علمية أو منطقية أو فى نطاق العقل !

يبحثون فى القمر عن الهرم وفى الهرم عن سر الكون !

يجب أن نهتم بالآثار . ولكن الحقيقة أنه لا أنا ولا أنت نهتم بها لأن الاهتمام بما حولنا ليس من طبعنا .

ولأن الآثار كثيرة ، وهى لكثرتها لا تلفت العين . ولا نهتم بها إذا انحنى عليها خواجة أجنبى . فالملايين لم تدخل المتحف المصرى ولا المتاحف . والملايين لم تر توت عنخ آمون قبل زفافه فى باريس ولندن ولا بعد ذلك .

عندما نسافر إلى الخارج ونزور المتاحف ونرى الحفاوة بالتحف المصرية فإننا نستمد بعض الأهمية من مجرد الوقوف أمامها . ثم نعود إلى مصر نروى ذلك ، ولا نفعل أكثر من هذا .

حتى اللصوص الذين يسرقون الآثار فى صعيد مصر لا نهتم بهم لأنهم يسرقون الآثار ، ولكن لأن الذين يشترون منهم هذه التحف يرون فيها شيئا عظيما ، وفى إهمالنا لها خطيئة أعظم . فحتى لا نبدو مغفلين أمام الخواجات ، نطارد اللصوص فى مقابر الصعيد !

ولا نزال نحفر الأرض بحثا عن مزيد من المقابر . ومنذ أيام اكتشف العلماء هرما ، أى مقبرة ثم عادوا فقالوا إنها مقابر كثيرة .

وسوف يوالى العلماء الحفر فى أرض مصر .

وهذا الحفر معناه أننا نخفى وجوهنا فى الأرض ، هربا من الحاضر وفزعا من المستقبل . تماما مثل جنون السفر إلى الكواكب الأخرى ، ضيقا بهذه الأرض وأهل الأرض . .

كأننا ونحن ندق الأرض نكتب عليها أن عصورنا الذهبية تحت أقدامنا ، وليست فوقنا ، وراءنا وليست أمامنا مع أننا نعيش فى عصر قوتين عظميين تعيشان على إدمان المستقبل . . فروسيا ترى مستقبل البشرية أمامها وأمريكا شعب ليس له ماض ، ولكن له مستقبل !

وكأننا ونحن نريد أن نكتشف هرما جديدا ، نحل بذلك لغز الأهرام القديمة . فلا تزال الأهرام

لغزا . وتحت الهرم الثانى توجد بعثة من العلماء . . وتسجل الأشعة الكونية لعلها تكتشف مافى داخل الهرم الثانى والثالث والأول . فعلى الرغم من أن الأهرمات هى أبرز ما خلفه أجدادنا فإنها أكثر غموضا . . إنها واضحة بارزة حتى كأننا لا نراها .

وعندما وقف نابليون يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٧ أمام الأهرامات قال : أيها الجنود إن أربعين قرنا تنظر إليكم من هذه الأهرامات .

انتهت عبارة نابليون ، ولكنها عبارة ناقصة . فهو لم يقل لجنوده ما الذى تقوله هذه القرون وهى تنظر . . إن نابليون كان يريد أن يقول لجنوده إن التاريخ كله ينظر إلى القوات الفرنسية وما سوف تعمله فى مصر وفى الشرق الأوسط . فكل خطواتها تاريخ ، وكل انتصاراتها مجد . .

ولكن القرون الأربعين مضت ولم تقل شيئا . فلا أحد يعرف ما الذى أراد الفراعنة أن يؤكدوه فى هذه الصخور . فالفراعنة قد عرفوا الخلود عندما اكتشفو الحجر . والفراعنة شقوا الجرانيت ، ولم يعرف إلا فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يمكن شق الجرانيت بقطع من الألماس !

ولم يذهب أحد الى أبعد مما قاله نابليون . . فالمؤرخون والكهنة والشعراء توالوا . وكل واحد قال حكمة تكسرت على أحجار الهرم . . وبقيت الأحجار واندثرت الكلمات . والشاعر شيلى قال : إن هناك أناسا يشبهون الهرم ، صدورهم عريضة إذا اقتربوا من الأرض ، صدورهم ضيقة إذا ارتفعوا !

وقال الشاعر شيلى أيضا : سوف يمضى النيل فى طريقه لا يغيره ، وسوف ينهار الهرم ، وتروى كل حجرة سر ما تحتها .

وغير النيل طريقه ، ولم يتهدم الهرم ، تساقطت منه أحجار ولم نعرف شيئا !

وظل الهرم أو الأهرامات نموذجا لإنكار الذات . . فالذى بناه لم يشأ أن يوقع بإمضائه عليه !

والشاعر امرسون قال : حتى لو انهدم الهرم ، فستكون هناك فراشات تتساقط منها بذور لنبات تخرج منها الزهور !

ولما جاء هيرودوت فى القرن الثالث قبل الميلاد ، روى له الكهنة كيف أن الملك خوفو أقام هذا الهرم . وكيف أنه أغلق المعابد وجند الشعب كله لبناء الهرم . وكيف أن هذا الملك عندما عجز فى آخر أيامه عن إكمال الهرم . قال لابنته : ساعدينى !

وفتحت الابنة بيتها لكل عشاق مصر . وطلبت من كل عاشق أن يضع للهرم حجرا فبنت الهرم الأول . . ويقال إن الأحجار كانت تكفى لبقية الأهرامات !

هل هى فضيلة ابنة . . أو سفالة أب ؟ !

وجاء المؤرخون مانيثون وديودوروس الصقلى واسترابون وبليى والمقريزى والمسعودى وابن عبد الحكم وغيرهم . وكل واحد يستمع إلى قصة ويصدقها . فليس عنده دليل آخر غير الذى سمعه . وتنتهى روايات المؤرخين (بأن الله أعلم بما أراد الفراعنة) وبقى الهرم الأول والثانى والثالث والخمسون سرا لا يدرى به أحد .

وعندما جاء ابن جبير الأندلسى إلى مصر بهره الهرم ، ولكن ليس أكثر من مستشفى المجانين ومقياس النيل وجامع عمرو بن العاص . ووصف الأهرامات (كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء . ركبت تركيبا هائلا بديع الإلصاق دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها محددة الأطراف) .

وسمع هو أيضا أن قوم (عاد) قد أخفوا فيها الحكمة والعلم فى زمانهم . « وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل » . ويقول أيضا : وعلى مدى « غلوة » – الغلوة هى المسافة التى يقطعها السهم إذا رميته – صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر وجهه إلى الأهرام وظهره إلى القبلة مهبط النيل يعرف « بأبى الأهوال » .

ولما جاء ابن بطوطة بعد ذلك قال إن أحد ملوك مصر رأى فى نومه أن الطوفان قادم حتما ، فأقام هذا الهرم وأودعه كل العلوم حتى لا يجرفها التيار .

ويقول ابن بطوطة إن الذى بنى الأهرامات كتب عليها من الخارج « بنيت هذه الأهرامات فى ستين عاما ، فليهدمها من يريد ذلك فى ٦٠٠ سنة فإن الهدم أيسر من البناء !

ولم يدرك ابن بطوطة ما فى هذه العبارة من سخرية !

ويروى ابن بطوطة أن الهرم قد فتح باب النظريات والفروض العلمية وكان المصريون يشعلون النار ويصبون عليها الخل ، ثم يدقون الأحجار حتى انفتح فى الهرم الأكبر هذا المدخل الذى نعرفه . ومن الغريب أن تكاليف فتح الهرم قد وجدت عند مدخله ، واندهش الخليفة الإسلامى كيف عرف الفراعنة تكاليف فتح الهرم !

وتوقفت دهشة المصريين والخليفة عند ذلك وبقى الهرم شامخا عاليا ، ملايين من علامات استفهام وتعجب واستنكار وتسلل العلماء إلى داخل الهرم ، وانفتح باب النظريات والعروض العلمية والخرافية أقرب النظريات وأطولها عمرا ، أن الهرم مقبرة وأن الملك أقام هذا البنيان الشامخ من أجل أن يدفن فى داخله هو وزوجته . ولم يجدوا فى داخل غرفة المدفن لاجثمان الملك ولا جثمان الملكة . وقيل إن اللصوص – سرقوهما . واللصوص هم الذين دفعوا الملوك إلى بناء مقابر صعبة الدخول ، أو إيمان الملوك بالبعث والنشور يوم القيامة هو الذى جعلهم يحتفظون بالذهب والطعام والتيجان معهم حتى إذا قامت

القيامة وجدوا كل شيء فى مكانه . . الطعام والشراب والدعوات وأدوات الملك . . وحتى لا ينهض الملك فلا يجد نفسه ملكاً . أقيمت هذه القبور الضخمة وكانت الأبواب الوهمية والدهاليز المضللة والآبار ليسقط فيها اللصوص .

ولكن الذين حسبوها جيدا ، استبعدوا أن يكون هذا البناء الضخم مجرد مقبرة . . تماما كما نستبعد نحن الآن أن الروس اخترعوا أول قمر صناعى ليكون مقبرة للكلبة لايكا . . أو أن الله خلق الحوت ليكون مقبرة للنبى يونس عليه السلام . . لابد أن يكون هناك سبب أخطر من ذلك .

واتجه علماء الفلك إلى أن الهرم قد أقيم بهذه الصورة المعمارية الهندسية الفلكية الفيزيائية لسبب خطير . لا أحد يعرفه بعد . فمن المؤكد أن بناء الهرم مضبوط جداً على الهيئة الفلكية : . أو بعبارة أخرى أن بناء الهرم يدلنا على شكل النجوم فى السماء يوم أقامه الفراعنة . . بل إن نجمة القطب الشمالى يوم أنشئ الهرم قد تزحزحت قليلاً عن مكانها .

وهناك رأى آخر يقول : كيف استطاع الفراعنة أن يقيموا هرماً مرة واحدة . . هرماً ليست له مقدمات . . أى لم تسبقه محاولات صغيرة بلغت قمتها فى الهرم الأكبر ، كيف قام مرة واحدة . .

هناك اجتهادات من بينها أن الذين بنوا الهرم ليسوا من مصر . . وهناك إشارة إلى ذلك فى سفر أشعياء فى إصحاحه التاسع عشر (فى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعهود للرب عند تخومها – أى على حدودها . وليس أبعد عن الواقع من مثل هذه العبارة . ولكنه اجتهاد مجتهد !

وهناك رأى بأن الذين بنو الهرم جاءوا من الغرب . . من ليبيا . . من أرض اطلانطس التى يقال إنها تشمل جنوب ليبيا والجزائر . فهذه المنطقة كانت مليئة بالأشجار والغابات ولا تزال بها أصداف البحر . وفى كهوف « تسيلى » أكبر دليل على أن رواد فضاء قد هبطوا من كواكب أخرى إلى هذه المنطقة . وقد سجل الإنسان أشكالهم وحركاتهم على هذه الكهوف وهى حقيقة علمية . أى أن كائنات من الفضاء قد هبطت إلى هذه المنطقة ولكن علاقتهم ببناء الأهرام هى التى لا تزال موضع بحث . وفى القصص المصرية القديمة أن أناسا جاءوا من الغرب وأن « ذوى الدم الأزرق النبيل » قد جاءوا من الغرب ولا يزال الدم الأزرق النبيل صفات النبلاء فى أوروبا وفى مصر الفرعونية .

وهناك رأى يقول إن المقاييس المصرية القديمة كانت « البوصة » أو ما يساوى البوصة الإنجليزية ولكى أكون دقيقا فإن كل ألف بوصة إنجليزية تساوى ألف بوصة وبوصة فرعونية . ولذلك لا يستبعد أن يكون فى الأهرام رسالة موجهة إلى الشعوب الإنجليزية ، ومن الثابت تاريخيا أن الإنجليز أصلهم من فينيقيا . . وأن كلمة « بناة » تعادل كلمة بريطانيا فى اللغات القديمة .

(راجع كتاب بازل ستوارت عن « الهرم الأكبر ») .
ويذهب ستيوارت هذا وغيره من العلماء إلى أن فى داخل الهرم وفى مقاييسه ونقوشه الداخلية رسالة موجهة إلى الشعب البريطانى . وبعمليات حسابية معقدة اهتدى إلى أن الفراعنة قد حذروا من قيام الحرب العالمية الأولى فى موعدها باليوم والشهر والسنة ، والحرب العالمية الثانية أيضا .
ومثل ذلك دلت مقاييس الممرات والدهاليز على الفترة ما بين خروج اليهود من مصر وميلاد المسيح عليه السلام . وإذا كان التاريخ الميلادى ، قد سجلناه خطأ لأن المسيح عليه السلام قد ولد قبل التاريخ المعروف بأربع سنوات فإن الفراعنة لم يقعوا فى هذا الخطأ .
ومن رأى عدد كبير من العلماء أننا نستطيع أن نجد لأهم الأحداث العالمية مكانا فى داخل الهرم . . أو فى أرقامه . . أو نسبة طوله إلى عرضه : . أو « الدائرة المربعة » التى استطاع الفراعنة أن يهتدوا إليها عندما أقاموا قاعدة الهرم . . أو أن الشكل الهرمى نفسه يمنع تعفن الجثث . . وأن الجنود فى الحرب العالمية الثانية كانوا يفعلون ذلك عندما يستخدمون أجساما معدنية مفرغة على شكل هرم ، ويضعون تحتها الأطعمة . . أو أمواس حلاقة فيجدونها حادة بعد أيام ! !
وهناك نظرية تقول إن الهرم كان مغطى بطبقة مفضضة . وهذه الطبقة كانت تؤدى إلى سقوط الأمطار . تماما كما تستخدم فى العصر الحديث نترات الفضة نلقيها من الطائرات على السحب فتسقط مطرا فى الصحارى الأمريكية والأفريقية !
وفى التاريخ الفرعونى القديم ما ينقله لنا هيرودوت من أن أطباقا طائرة كانت تدور حول الهرم . وأن بعض هذه الأطباق الطائرة أو سفن الفضاء كانت تبدو مثل كرات من النار فى سماء مصر . وأن الملوك كانوا يجمعون والكهنة . ويسألونهم . ويؤكد هيرودوت أن الكهنة قد أطلعوه على أسرار كثيرة . وأنه وعدهم بألا يفتح فمه بأكثر مما قال : والذى قاله كثيرا جدا ، ولكن الذى سكت عليه وعنه أكثر من ذلك .
ويقال إن أعمدة من النور كانت تخرج من الهرم . (اقرأ دراسات للكاتب السويسرى فون دينكن عن « المراكب السماوية » — وهى أحدث الدراسات عن رواد الفضاء وسكان السماوات والأطباق الطائرة والهرم الأكبر) .
وعندما جاء الرحالة النرويجى ثورهايردال إلى مصر دارت بينه وبين العلماء المصريين مناقشة حول أهرامات مصر وأهرامات المكسيك . وإنه لا يستبعد أن يكون الفراعنة هم الذين أقاموا أهرامات المكسيك . ولم يسترح العلماء المصريون إلى هذا الاجتهاد . فجاءت رحلة رع الأولى والثانية دليلا على أن الفراعنة — إذا أرادوا أن يصلوا إلى أمريكا على مركب من عيدان البردى لفعلوا ذلك . . فإذا أضفنا

إلى هذا الرأى أن الفراعنة ليسوا من أفريقيا ، ولا ملامحهم آسيوية . . ولا يستبعد أن يكونوا من سلالة غريبة . . لا أقول كل الشعب المصرى ، ولكن الأسرة المالكة فقط – وهذا رأى آخر – فى الغرب سكان قارة اطلانطس التى غرقت وهرب سكانها إلى الفضاء الخارجى . ويقال إنهم جاءوا منه . . وهذه نظرية أخرى . .

ولم يناقش هايردال النظريات الكثيرة جدا عن أصل الملوك الفراعنة ولكنه وضع أمامنا أحد الاحتمالات الكبرى فى التاريخ القديم .

إن الفراعنة قد قالوا الكثير . ولكن الذى قالوه عن الهرم وحول الهرم لا يزال قليلاً . والعلماء لا يؤمنون بالنظرية التى تقول : إن الإنسان ليس على يقين إلا من الذى فى جيبه . فهم يفتشون جيوب الآخرين بحثا عن الذى فى جيوبهم . ويتطلعون إلى مقابر وإلى أهرامات أخرى لعلهم يهتدون إلى هذه الأهرامات الكبيرة ، ويفتشون فى أرض القمر بحثا عن شهادة ميلاد الأرض . . ويتصنتون على سكان الكواكب الأخرى لعلهم يهتدون إلى ما الذى كان يقوله الحكماء والأنبياء من سكان الأرض .

شىء عجيب : نحن نبحث فى القمر عن الهرم ، وفى الهرم عن الكون !

صحيح أن هرما واحدا كثير . . ولكن المشكلة هى أن الهرم ليس إلا مليون « قفل حجرى » . وأن مفاتيح هذه الأحجار فى مكان ما . . ومن المؤكد أن المفاتيح أصغر من هذه الخزائن الهائلة من أسرار الإنسان والكون . . ولكن أين ؟ !

والجواب : فى أى مكان فى داخل الهرم أو تحته أو فى المكسيك أو فى القمر أو تحت رأس حارس راحت عليه نومة من ألوف السنين !

ريلكه : الناى الحزين على الإنسان !

هناك نوع من الشخصيات التى تملأ العقل والقلب وتظل تقترب منك وتستولى عليك حتى ترى من خلالها هذه الدنيا . . إنها تشبه العدسات التى تلتصق بالعين . . فتكون هى نفسها العين . . ولكنها كالعدسات الملتصقة تلهب العين وتوجعها . فلا نجد مفرا من نزعها من فوق العين . . هذا الشاعر الألمانى ريلكه الذى ولد من مائة سنة بالضبط هو واحد من هؤلاء الأصدقاء الذين تعذبت بهم سنوات طويلة . لا أعرف من أين جاء ولا كيف ولا لماذا ؟ . إنه عفريت قفز فى طعامى وفى شرابى وفى دمى وجعل دنياى سوداء وآمالى مبددة . . وأفقدنى الشعور بأن لهذه الدنيا أى طعم وأى معنى .

ولم أكن أعرفه . . وإنما فجأة وجدتنى أردد اسمه . . وأكرر معانيه . . ولا أدرى أن هذا الذى أفعله يزلزل نفسى ويعصف بعقلى . . ولم أتبين ذلك إلا بعد وقت طويل . .

كان ذلك فى يوم من الأيام . . وقد تفضل أحد أساتذة كلية الآداب فجلس إلينا على العشب . . وهذا سلوك عجيب . . فهذا الرجل لم يكن يدرس لنا . . ولكننا كنا نعرفه . . إنه د. عبد الهادى أبوريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية فى ذلك الوقت . ومترجم لواحد من أهم كتب الفلسفة . . ترجمة من الألمانية إلى لغة عربية فصيحة . شىء عجيب كيف يستطيع ذلك أى مصرى ؟ وكنا فى ذلك الوقت نعانى من ويلات اللغة الألمانية فى دراستها وحفظ قواعدها وقراءتها وترجمتها . . وفجأة وجدنا الرجل يخرج من حقيبته مع السندوتشات نسخة من مجلة « الثقافة » . ويقرأ لنا مقالا منشورا له . . إن هذا المقال هو حلقة فى سلسلة من المقالات بعنوان « رسائل إلى شاعر شاب » . وهذه المقالات مترجمة عن الألمانية ومن تأليف الشاعر الألمانى رينر ماريا ريلكه . . وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم هذا الشاعر . . وبعد ذلك سمعت له كثيرا ، واستمعت إليه طويلا . . وقد بهرنا الدكتور أبو ريدة ببساطة سلوكه ، وفصاحة عبارته . . ثم تركنا وحدنا مع الشاعر ريلكه وحده !

وكانت تدرس لنا اللغة الألمانية فى ذلك الوقت سيدة سويدية عجوز اسمها السيدة برج . وكانت تسكن بالقرب من كوبرى الجيزة . . ولها سيارة فى مثل سنها . . وكثيرا ما طلبت إلينا أن نعاونها على تحريك السيَّارة. وكُنَّا نفعل ذلك . . وكثيرا ما ظللنا ندفع السيارة حتى باب بيتها .

وفى إحدى المرات رأتنا زميلة ألمانية كانت تدرس اللغة العربية فراحت تضحك . . وتقول : هذه نبوءة . . سوف تكونون عظماء هذا العصر ! لولا هذه السيدة العجوز !

ولم أفهم هذه النكتة . واستوضحتها وعرفت أنها تشير إلى حادثة مشهورة فى الفكر الأوروبى فقد حدث أن أحب ثلاثة من العظماء امرأة واحدة فى وقت واحد . وأصرت هذه الحسناء على أن تركب عربة يجرها هؤلاء الثلاثة ووافقوا . . والتقطت صورة للفتاة الجميلة اليهودية « لو أندريا سالومى » وقد تعلق فى هذه العربة : العالم الكبير فرويد والفيلسوف العظيم نيتشه والشاعر الرقيق ريلكه !

وظل الشاعر قريبا من نفسى ومن أهم النوادر التى أرويها فى مناسبات كثيرة .

* * *

وفى يوم ذهبت مع الشاعر عبد الرحمن صدقى إلى سور الأزبكية . . واشتريت عشرات الكتب . . ولكن أهم هذه الكتب كتاب بعنوان « غراميات ريلكه فى مصر » . . ولم أكن أعرف أنه جاء إلى هنا . . أو أحب من هنا . . ووجدت الشاعر قد أحب فتاة مصرية جميلة نحيفة كأنها هى أيضا شاعرة . . وهى التى قال فيها : أنت كالوردة . . فالوردة عشرات من الأجفان بلا عين ترى . . أنت أجفان لعينى التى تراك» .

وكانت المصرية التى أحبت الشاعر وأحبها اسمها « نعمت علوى» . . وفرحت بالاكتشاف . . وعشت معه . . وكتبته فى مقال نشرته مجلة «آخر ساعة» من أكثر من عشرين عاماً . .

ورويت فى نهاية المقال كيف مات الشاعر ريلكه وكيف أن وردة وخزته فمات ذابلا . . كأن وردة قد وخزت وردة . . أوكأن وردة قتلت وردة . . لقد مات بالمرض الخبيث . . ولم يبق مريضا وقتا طويلا . . بل إنه لم يكن فى صحة جيدة طول حياته . إنه عرف من هذه الدنيا اثنين : المرض والمرأة وكلاهما مرض !

وفى ذلك الوقت كان الأديب الصديق صلاح ذهنى مريضا . وكان مرضه قريبا من مرض الشاعر الألمانى . . وخشيت أن تقع المقالة فى يده . . وحاولت أن أرجئ نشرها حتى لا يراها قبل سفره . . ولم أفلح . . وحاولت أن أخفيها عنه . . ولكن فوجئت بصلاح ذهنى جالسا فى كازينو بديعة (فى المكان الذى أقيم فيه شيراتون الآن) . . وقد قرأ المقال . . ووقف طويلا عند نهايته . . التى كانت نهايته هو

أيضا . . وحزنت . . وأحسست كأن هذا الشاعر الألمانى هو الذى عجل بنهاية صلاح ذهنى وحزنى عليه !

وعرفت لأول مرة فى حياتى أناسا يشتموننى فى التليفون ويهددوننى بالقتل لأننى رويت قصة حب الشاعر الألمانى لفتاة مصرية قابلها فى سويسرا . وبكى عند قدميها . . ومات بين ذراعيها سنة ١٩٢٦ !

شىء غريب جدا وفاة هذا الرجل . فقد طلب إلى صاحبة البيت الذى يسكنه أن تخبره إن كانت وردته الحمراء قد تفتحت . فعادت صاحبة البيت لتقول له : تفتحت يا سيدى ! وأغمض الشاعر عينيه ليموت . . كأنه أراد أن يكون لون الوردة واسمها وصداها هو آخر ما يتزود به من هذه الدنيا . . وأطبق جفنيه وأذنيه ونفسه على ما سمع ومات !

وكنت أهز رأسى مصدقا وغير مصدق . . ولكن حدث أيضا أن مرض والدى فى إحدى عوامات النيل . . وكنت أزوره وأخفى دموعى حتى لا يراها . . وفى يوم وجدت إخوتى كلهم يسألون عنى : اذهب . . إنه يريد أن يراك . إنه لا ينام . . إنه يريدك . . وذهبت . . وسألنى والدى : هل نجحت ؟ فقلت : نعم . وهل جاء ترتيبك الأول فى الليسانس فقلت : نعم .

وأغمض عينيه وأذنيه على هذه الكلمات ، وكأنه الشاعر ريلكه . . ومات !

وتحيرت المعانى فى رأسى . . ودوخنى الحزن عليه . . وأرهقنى أن أكون آخر من رأى وآخر من سمع ، وأن يكون نجاحى هو الكفن الأبيض الذى تغطى به . واستراح تحته إلى الأبد . . شىء غريب أن يدفن أعز الناس وهو يضحك . . أو يكون عروسا دفنت يوم زفافها . . وأن يكون نجاحى هو هذه العروس التى زففتها إلى قلبه . . فكيف أنسى الشاعر ريلكه الذى تطاردنى حياته . . أو التى أطاردها . . أو التى ألصقت بها عينى ، فلا أجد غيره قريبا من همومى ! .

فما الذى هزنى من كلمات الشاعر ريلكه فى تلك الأيام من عشرين عاما ؟ هو يقول : أن تكون وحدك هذه نعمة كبرى ، بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من طعام الأحزان !

ويقول : أن تكون وحدك مع حزنك ، هذه نعمة أكبر بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من سلالم العظمة والسمو إلى ما فوق الانسان !

ويقول : أن تكون وحدك معناه : أن تطبق عينيك وتقفل نوافذك لتنعم بالظلام الهادئ الطاهر . ولكن من المؤكد أنك لست وحدك . . فالله هناك فى أعماقك . . وإذا كان الله فى داخلك ، فلست فى حاجة إلى مصباح يضىء لك . . بل إنك أنت المصباح الذى يضىء لك ولغيرك !

وهو الذى قال : أن أكون فى الجنة وحدى ، أنا إذن فى جنتين فى وقت واحد . . أنا فى الجنة وأنا وحدى !

ويقول أيضاً : أناس كثيرون يتحدثون عن «الله» . . كل إنسان يقول : الله . . ولكن ليس هناك أى معنى لما يقول . . إنه يقولها وحده ويقولها عند الخوف . . ويقولها عندما يشعر بالنهاية . . وأريد أن أوضح لنفسى ما أقول : لنفرض ان طفلين قد اشترى كل منهما سكيناً فى يوم واحد . واختفى الاثنان أسبوعاً . . ثم عادا وفى يد كل منهما السكين . . لا فرق بين السكين فى يد هذا أو السكين فى يد الآخر . الفرق الوحيد هو فى أى شىء استخدم كل منهما هذا السكين . . وكذلك الله . . كيف يكون الله معنا وفينا ولا نستخدمه سلاحاً لنا ولغيرنا . . إن الإنسان وحده تماما ، إذا لم يكن مع الله . . وليس وحده تماما إذا كان الله معه . . وقد استمتعت بهذه الصداقة لحظات عميقة فى حياتى !

وفى هذه الوحدة التى يعيشها الشاعر أو الفنان يكون فى حالة حساب أومحاسبة أوتصفية أو صفاء . . ولكن ما الذى يجده الشاعر أو الفنان أو المفكر ؟

يرى الشاعر ريلكه أنهناك مشكلة هى : مشكلة الحزن العميق فى نفوس الناس . . إن الناس فى العصر الحديث أكثر حزناً . . وأميل إلى الحزن أيضاً . . إنهم يحاولون أن يغرقوا أحزانهم فى العبادة أو الخمر أو فى الدم . . ويحاولون أيضاً أن يفرحوا بالقوة . . بالعنف . . إنهم يستخدمون السكين فى فتح أفواههم . . وتنفتح أفواههم ولكن دماءهم تسيل . . إنهم يحاولون أن يفتحوا قلوبهم بالسكين . . ويفتحونها . . ولكن القلوب تنزف دماً . .

والحزن هو توأم الشعراء . . أو هو ظلهم . أو أنهم ظل للأحزان . . وأن هذا هو قدرهم . . يقول ريلكه : لقد اكتشفت فجأة أننى لست فى مكانى المناسب . . وأن الذى ألعبه فى مسرحية الحياة ليس دورى . . ولذلك حاولت أن أراجع الوجه الذى أحمله . . أن أعيد النظر إلى ملامحى . . ولذلك بحثت عن مرآة . . وجاءت المرآة . . ورأيت وجهى فى المرآة . . ومسحت الطلاء الأحمر والأبيض والأسود ووجدت دمعتين فمسحتهما أيضاً . . ورأيت وجهى الحقيقى . . إذن هذا هو أنا . . ولكنى رغم ذلك لم أستطع أن أزيل شيئاً هاماً هو أن الإنسان يبالغ فى أحزانه . ويبالغ فى أحزان الآخرين . . هذه المبالغة هى التى لم أفلح فى القضاء عليها ، إنها ليست فى طبع الإنسان . ولكنها أصبحت فى طبعه أو هى طبع الإنسان !

ولم أنس ولن أنسى ما قاله ريلكه عندما سئل وهو على فراش المرض ، إن كان لديه ما يقوله لأحد . . فقال : لا أحد أقول له : فلم أستطع أن أستمتع بالكلام مع أحد . . ولم يستطع أحد أن يدعنى أقول ، لعله يجد متعة فيما أقول . . إن الناس يرونك بنصف عين . . ويسمعونك بنصف أذن . . ويفتحون لك ربع قلب . . ويفتحون لك كل العقل لعلك تدخله وتسقط منه إلى غير رجعة . !

ولن أنسى ولا نسيتُ هذه العبارة : وحدنا ولدنا ، وحدنا نموت . ! وحدنا ولدنا.وحدنا تعذبنا ، وحدنا نموت . . وحدنا تعذبنا فى عذابنا ، ووحدنا تطهرنا . . وحدنا نموت . . وحدنا تطهرنا فى نار الندم ، وحدنا نموت . . وحدنا نموت إذا نظرنا إلى أنفسنا فى المرآة : فإننا نموت فى عيوننا . . عيوننا تموت وهى تنظر إلى عيوننا . . تموت فى عيوننا . . ووحدنا نموت !

وأيام التصق الشاعر الرقيق الحزين بحياتى ، وجدتنى على مدى خطوات من الفلسفة « الوجودية » . . فهو واحد من الآباء الشرعيين للوجودية الألمانية والفرنسية . . ولا أقول إن انتسابى للوجودية كان بسببه . . ولكن هناك أنواعًا من العذاب النفسى والعقلى والاجتماعى ، كانت مؤهلاتى . . كانت أوراق اعتمادى إلى السلك الوجودى . وإلى تلوين حياتى كلها بألوان قاتمة بائسة . . شائكة . . وأيامها أحسست أننى المقصود بهذه العبارة التى قالها الشاعر اللاتينى فرجيل : من ذلك الذى يتمرغ على الشوك . . من ذلك الذى ينزع أوراق الوردة ويتمدد على شوكها . . من ذلك الذى إذا سما تقلب على لظى النجوم . ؟ وأيامها قلت : بل أنا الذى أرتدى جلد القنفذ بالمقلوب . . ولكن ما الذى يعذبنى ؟ وكنت أجد كل شىء يوجعنى : أنا والناس . . أنا والبعد عن الناس . . وأنا مع الناس .

ومن القصص الجميلة الأليمة التى اختارها ريلكة ليصف حياته . . ثم نظمها فى قصائد طويلة جليلة « أسطورة أورفيوس » . إنه اختارها بكل معانيها . . فأورفيوس كان صاحب الناى الجميل . . كان إذا نفخ فيه تركت الطيور أعشاشها وسارت وراءه . . تركت الأسماك أنهارها وتزاحمت وراءه . . تركت الوحوش فرائسها ومشت مسحورة وراءه . . وأحب الفنان الساحر أوريديس . . وتزوجها . . وراح يغنى لها وحدها . . وضاقت الآلهة بهذا العشق الأبدى . فأوعزوا إلى حية أن تلدغها . . ولدغتها . . وانتقلت أوريديس إلى العالم الأرضى . . وذهب أورفيوس إلى العالم الأرضى يبحث عنها . . وراح ينفخ فى الناى فتوقفت كل طواحين العذاب . . حتى النيران ابتلعت نفسها . . وخمدت . . وهرع الآلهة يسمعون الناى الساحر . . وشاءت الآلهة أن تجيبه إلى رغبته . . فأخرجت حبيبته من العالم الآخر . واشترطت أن يمشى هو أمامها . . وألا ينظر وراءه إليها إلا إذا خرجت من العالم الأرضى . ولكن أورفيوس نسى . . فنظر وراءه متلهفًا إلى حبيبته فتلاشت . وخرج هو حزينًا إلى الدنيا . . وراح ينفخ فى الناى فى الكهوف وكانت الحشرات والزواحف تلتف حوله . . وحاولت بعض النساء أن يغرينه . ولكنه رفض . . فهجمن عليه . . ومزقنه . . وقطعن رأسه . . وألقين به فى الماء . . وكان الرأس كلما صدمه حجر قال صارخا : أوريديس ولا يزال الموج والصخر يحتفظ بهذا الاسم ويردد ليلا ونهارا .

ويتساءل الشاعر ريلكه ويقول : ولكن لماذا هذا العذاب ؟ هل لأنه يغنى ؟ هل لأن الناس يجدون لذة فى الغناء ؟ هل لأنه المغنى الوحيد؟ هل لأنه أحب زوجته ؟ هل لأنها هى أيضاً أحبته ؟ هل لأن للعذاب شعبية بين كل الكائنات ؟

يقول ريلكه : لأن الأحزان هى الهواء الذى يتنفسه الجميع . . لأن الإنسان ناى حزين ينفخ فى ناى أكثر حزنًا .

كتاب يدعى قراءته كل الناس !

هناك كتب مثل الخرائط تهديك إلى غيرها .
وهناك كتب تحتاج إلى خرائط ، لأن الذى يقلبها يضيع فيها . .
وكتب مثل الأوراق المالية مضمونة الفائدة . .
وكتب مثل البنوك فيها كل العملات والتحويلات والمعاملات . . الإنسان لا يستطيع أن يتعامل معها . . تماما كما تمر على البنك المركزى وتنظر إليه وإلى الداخلين والخارجين وليس لك ورقة واحدة فيه . .

والمؤرخون والنقاد ورجال الدين يحذرون الناس : من صاحب الكتاب الواحد . . أى الذى لم يؤلف سوى كتاب واحد ، أو الذى لم يقرأ سوى كتاب واحد . . هذا الطراز من الناس يصعب الكلام معهم . . والجلوس إليهم . . إنهم على درجة خطرة من اليقين . . ولكن هذا اليقين محدود . . يمكن أن يقال إن آفاقهم ضيقة . وإن هذه الآفاق قد انحصرت بين جلدتى كتاب واحد .

والكتب مثل الأطعمة : بعضها تشبع منه دون أن تأكلها ، وبعضها تأكله دون أن تشبع منها . .

وهناك نوع غريب من الكتب أكثر الناس سمعوا بها ، ولم يقربوها ، ولأن هذه الكتب من معالم الفكر أو الثقافة ، فمن الصعب على أى إنسان أن يتجاهلها . . فلا يمكن أن يقول واحد يحب السفر والرحلات مثلا : لم أر الأهرام أو برج إيفل ولكنه يقول : رأيت واستمعت ولم يعجبنى الناس الذين يقفون حوله أو الذين يبيعون صوره . أو الغذاء أو العشاء بالقرب منه أو تحته . .

أى أنه رأى وله فى ذلك آراء تدل على أنه لم يكتف بمجرد النظر ولكن له نظرية !

مثل هذه الكتب كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى . هذا الكتاب موسوعة . . متحف . . دائرة معارف . . هذا الرجل لم يؤلف سوى هذا الكتاب وأمضى فيه خمسين عاما يجمع ويحقق ويسنجل . ثم أهداه لسيف الدولة بن حمدان .

ولا يوجد من المثقفين واحد يجرؤ على أن يقول لك إنه لم يقرأ هذا الكتاب أو «فى» هذا الكتاب أو «عن» هذا الكتاب . لأن تجاهل هذا الكتاب جهل شديد . .

ولكن ما هذا الكتاب الذى صدر منه الجزء الثالث والعشرون ؟ وهناك وعد بأن يصدر الجزء الرابع والعشرون والأخير . . ووعد آخر بأن الأجزاء سوف تكون ثلاثين وبعدها دراسة عن حياة المؤلف وفهرس لألوف الأسماء التى جاءت فى هذه المحيط من الفن والعلاقات الغرامية والعشق والفسق والعفاف والتبذل . . والجنون والهوس والخبل والدعارة والفجور فى ذلك الوقت !

ولم يحدث أن كتابًا قد كسب من ورائه الناشرون مئات الألوف من الجنيهات ، مثل هذا الكتاب . وكل الناشرين يكسبون ويسرقون من المؤلفين الأحياء ، فما بالك بكتاب مات صاحبه من تسعة قرون . ليس له ورثة . إنه فى ذمة التاريخ وفى جيب الناشرين . .

أما المؤلف فرجل صبور . وذاكرته قوية . وهو فى كتابه هذا يحكى لنا قصص الأغانى المشهورة – أقصد التى كتبها وغناها ورواها مئات من الناس . . والكتاب يبدأ بأن هارون الرشيد طلب من المغنين والفنانين فى زمانه أن يختاروا أحسن مائة أغنية . فأختاروها . . ثم طلب إليهم أن يختاروا عشر أغنيات . . ثم أن يختاروا أحسنها جميعًا . وتختلف الآراء والأذواق وهو يروى ذلك كله .

وهذا العالم الغريب العجيب الذى يصوره الأصفهانى هو عالم الليل . . أو بنات الليل . . أو «لاس فيجاس» الجاهلية والإسلام . . أو ساحة الحمراء فى بيروت أو شارع الهرم فى مصر أو عماد الدين زمان . فكل الذين يتحدث عنهم شعراء أو مجانين بالشعر . . وكلهم يحب الأغانى فى أية ساعة من ساعات الليل . . ويكفى أن يكون فى مكان ما واحد يغنى ، لتتجه إليه الإبل من أقصى الأرض . ويتقدم الناس يسألون : أين المطرب وأين الشاعر؟ ويبدأ الليل والسهر . . والمراهنات على أجمل الأصوات . ويختلف الرجال والنساء .

والشىء الغريب الذى يسجله كتاب «الأغانى» أن المرأة فى ذلك الوقت كانت حرة تماماً فى تصرفاتها ، فهى تطارد الشعراء . وهى تبعث بمن يأتى بهم . وكثيراً ما عاد الزوج إلى بيته فوجد زوجته تجلس إلى أحد الشعراء . ولا يستنكر الرجل ذلك . . فهو يعرف أن الشعر قضاء وقدر . . وأن وجود شاعر ممتاز معناه : أنه لا قانون ولا تقاليد ولا حواجز . . أليس شاعراً ؟ هذا يكفى . .

وكثيراً ما وجدنا زوجات الخلفاء والأمراء يبعثن بالخادمة تبحث عن الشاعر وتأتى به متنكراً . ويقدمن له الشراب ويشجعنه على الرقص . فإذا رقص انهالت عليه الراقصات . . ثم يلقين به بعيداً عن الخيام التى يقمن فيها . ثم يعدن به فى اليوم التالى . .

والذى يقرأ مغامرات الشاعر اللعين عمر بن أبى ربيعة ، يجد أنه ليس واحداً فى هذا الفجور . . إنه شاعر ممتاز فاسق فاجر . فهو يذهب إلى الكعبة ويعاكس النساء اللاتى يطفن . ويطاردهن دون أن يستحى . . ودون أن يوقفه أحد . إنه شاعر . . وهذه تأشيرة مرور فوق كل الحواجز الدينية والأخلاقية .

وكثيراً ما تنكر الشعراء فى ملابس رجال آخرين أو ملابس النساء . لعلهم يدخلون مجلس النساء ويسمعون ويقولون ثم يخرجون يفضحون الجميع . . إن الشعراء إذاعات متنقلة بالفضائح فى كل مكان .

ولكن ما الذى فعله أبو الفرج الأصفهانى بالضبط ؟

إنه رجل « ابن حظ » وهو لا يرى من الدنيا إلا مجالس الأنس والطرب . وهذا هو الذى يهمه ، فمن هذه الناحية سجل الدنيا من حوله . فهو يرضى ذوقه الخاص . وهو فى نفس الوقت لا يريد أن تموت هذه الأعمال الفنية والأصوات الغنائية ، ولا طريقة العزف على آلات العصر . دون أن يسجلها . أو « يخلدها » — كما يقول .

وقد سجل العالم الذى حوله . . والذى فى داخله أيضاً . وقد عاش فى زمن الأصفهانى فقهاء ومؤرخون ورجال نحو وصرف وسياسة وكل واحد كتب ما يراه . وكان الذى كتبوه شيئاً مختلفاً ! كيف ذلك ؟ لأنهم مختلفون . . ولأن كل واحد يرى من العالم ما يمتعه أو ما يهمه ، أو ما يريد أن يمتع به الناس !

وهذا يذكرنى بقصة « الجحيم » للكاتب الفرنسى هنرى باربيس . . فى هذه القصة وجدنا البطل ينظر من ثقب فى أعلى الجدار . فنافذته على الدنيا هى هذا الثقب وهذا الذى يبدو أمام الثقب فقط . . فالحياة جدار كبير . وكل واحد ينظر من خلال ثقب فى هذا الحائط : صغير أو كبير . . واسع أو ضيق . .

والفيلسوف الإغريقى أفلاطون صور لنا دنيانا فقال : إننا نشبه أناساً جلسوا فى كهف . وجعلوا فتحة الكهف وراء ظهورهم . ثم راحوا ينظرون إلى ظلال الناس فى داخل الكهف . . فعالمنا يجىء من فتحة الكهف . . بعضنا ينظر من فتحة الكهف وبعضنا ينظر إلى الظلال التى تجىء من فتحة الكهف !

أو عالمنا هو الذى تحدث عنه الأديب النمساوى ستيفان تسفايج فى قصة « اللعبة الملكية » يقصد الشطرنج . . فالإنسان ينام فى سجن . . وتجىء إليه الأصوات والظلال من النوافذ وعليه أن يكتشف

الدنيا من خلال القليل جدًّا الذى يصله . . وكل واحد يرى ما يقدر عليه أو ما يعجبه . . ثم ينقله إلى الناس . . أى أنه ينقل ذوقه ومزاجه . .

والذى فعله الأصفهانى هو أنه نقل إلينا ذوقه ومزاجه .

ولكن حدث خطأ فادح ليس مسئولاً عنه . فقد تصور القارئ أن عصر الأصفهانى هو هذا الانحلال الشديد . . مع أنه لم يصور إلا جانباً من المرح والسهر . فليس كل الناس كذلك ولكن بينهم عدداً كبيراً لا يشغلهم الفن . . وهذا يحدث فى كل عصر فليس كل باريس حى البيجال . ولندن ليست هى البيكاديللى . . والقاهرة ليست هى شارع الهرم وإنما هناك شوارع أخرى وأحياء ومعالم ومقدسات . . ولكن الأصفهانى اختار من عالمه هذا الذى يعيش فيه ويعجبه ويمتعه . . وأراد كأى فنان أن ينقل متعته إلى كل الناس !

وقد حذرنا د . زكى مبارك من ثلاثين عاماً من الأصفهانى . لأنه صاحب مزاج خاص . ولكن هذا التحذير لا معنى له . فمن الذى ليس له مزاج خاص ؟ ود . زكى مبارك حين يرفض مزاج الأصفهانى ، يدعو إلى مزاجه هو– فهو أيضاً صاحب مزاج خاص ! .

ولكن الأصفهانى . فى مقدمة الجزء الأول من كتابه يعرف جيداً ما الذى سوف يكتبه . ويؤكد أنه يريد أن يسلى القارئ وأن يذهب عنه الملل . . وهذه أمنية غاية فى الطموح . . فليس سهلاً أن يفعل ذلك أحد . . ولكن الأصفهانى استطاع أن يكون مسلياً . وأن يكون ذلك بأى ثمن . وكثيراً ما كان الثمن هو الدقة فى سرد الأحداث ، أو نقلها عن أناس آخرين .

ولا يزال هذا الكتاب متعة للقارئ . . أما الذين نشروا هذا الكتاب أو حققوه أو « هذبوه » فإنهم لم يساعدوا القارئ كثيراً على فهم ما فيه من كلمات غريبة وتراكيب عجيبة غامضة . . فلا يزال كتاب الأغانى يحتاج إلى خريطة . حتى لا يشبع منه الإنسان مهما أكل وشرب !

وكان الهوان نهاية أستاذ الهوى !

هذا الرجل له جريمتان : إنه كان يدعو الناس إلى الحب . . ثم إنه شاعر. وكانت دعوته للحب مكشوفة جعلته غريباً فى عصره . . بل سابقاً لعصره بألفى سنة . . ولو نشرت اليوم فى المجلات العارية لقالوا : إنها رسائل مراهق يدعو إلى تمزيق المجتمع وتحطيم الأسرة وهدم المعابد . . إنها دعوة إلى وليمة فخمة جدًّا لعبادة الجسم الإنسانى .

هذا الرجل شاعر لا تينى اسمه أوفيد ألف كتاباً اسمه « فن الهوى » وبعد ألفى سنة من صدوره ترجمه إلى اللغة العربية فى عبارة فخمة د . ثروت عكاشة . وجعل الكتاب كله وليمة غالية الثمن . . الورق واللوحات الفنية والعبارة والمقدمة ، والشروح فى نهاية الكتاب . كلها تغرى القارئ الذى يبحث عن شىء غريب بأن يقتنى هذا الكتاب ، وأن يتحامل على نفسه ووقته وأعصابه ويقرأ شيئاً غير مألوف : الشكل والمضمون . .

وبعد ذلك يختار هل يستنكر الشاعر كما فعل ملايين الناس ، أو يرثى لحاله ، أو نرى أن الشاعر يستحق ما أصابه ، أو أنه يقلب حيثيات الحكم عليه ثم يرجئ الحكم إلى نهاية الكتاب ؟ أما فى نهاية الكتاب فإن الشاعر أوفيد بعد أن علم الناس فن الحب والعشق والصيد والغزو والاحتفاظ بالمحبوبة عبر بحار الهوى والهوان يطلب من كل المحبين ألا ينسوا أنه أستاذ الجميع !

هذا الشاعر أوفيد يرى أن الحب حرب ، وأن الحرب فن . وكذلك الحب . .

ولذلك يجب أن تستعد للحرب . وهذا الاستعداد يحتاج إلى لباقة . إلى علم . وبعد ذلك إلى تطبيق .

والشاعر أوفيد يمسك بيد كل الشباب والمحبين والعشاق ويفتح عيونهم على طبيعة المرأة – لأن المرأة هى الهدف . ويختار أماكن للإيقاع بها . وأفضل مكان عنده هو الأماكن العامة : الملاعب والمسارح .

زحام لا أحد يدرى بأحد . فى هذا الزحام يتجه العاشق إلى فريسته . وهناك عشرات الطرق للفت نظرها . والشاعر يدله على ذلك . .

وإذا زار المعشوقة فى بيتها ، فإنه يرفع عينه عنها ويتجه إلى زوجها . . ويبالغ فى احترام الزوج . ويضع على صدره ورأسه أكاليل الغار . . ويسرف كثيراً فى احترامه . وكأن زوجته غير موجودة أو لا تلفت نظره . . يقول الشاعر : تحت ستار هذه الصداقة يمكن ارتكاب كل الجرائم . وهى سفالة مؤكدة . ولكن الطريق إلى العشق سافل أيضاً . .

ويقول الشاعر أوفيد : ادفع كأسك للزوج وقل له : فى صحتك يا سيدى وكذلك فى صحة من ينعم إلى جوارك فى الفراش . . بينما قلبك يقول فى صمت : بل يذهب الزوج فى ستين داهية . . وحين ترفع الأطباق وينقص الأصدقاء بادر بالاقتراب من المعشوقة . وفى زحمة الانصراف المس طرف فستانها ، والمس بقدمك قدمها . . فقد آن الوقت لتتحدث إليها . . ولا تخجل كأبناء الريف . فإن الحظ لا يساعد إلا الرجل الجسور . . لا تنتظر حتى يهبط عليك وحى الشعراء . . قم بدور العاشق وزيف أشجان المحبين . . ولا تظن أن معشوقتك هذه زاهدة فى الكلام الحلو ، فلا توجد امرأة لا ترى أنها تستحق أن يعشقها كل الرجال !

ويقول للعاشق : حتى لو كنت كاذباً فسوف تصدق أنت أكاذيبك أيضاً .

ويمضى الشاعر أوفيد فى هذا الطريق ، يجعل كل النساء من نصيب كل الرجال . وعند ذلك تكون سعادته قد بلغت قمتها . ولابد أن يثور عليه ناس كثيرون . وأن يجد له العذر قليلون . .

قالوا : إنه مفسد للشباب . وإنه هادم للقيم الأخلاقية .

قالوا : بل بالعكس إنه صور العصر الذى يعيش فيه . . وإذا كان الناس قد انزعجوا لهذه الصورة ، فلأنهم قد رأوا فيها أنفسهم على حقيقتها . وما فعله « أوفيد » فى كتابه « فن الهوى » يشبه ما فعله فيلسوف مواطن له هو ميكيافللى فى كتابه « رسالة إلى الأمير » . . ففى هذا الكتاب صور الفيلسوف الإيطالى سفالة السياسة وحقارة السياسيين ولم يكن داعية إلى السفالة . وإنما كان طبيباً اكتفى بالتشخيص . وترك العلاج لغيره من المصلحين . . ولكن الناس اختلفوا على الشاعر وعلى الفيلسوف أيضاً . واستحق الاثنان الهوان من الجميع . .

والشاعر الرومانى لقى أكثر مما يستحق . أو بالضبط ما يستحق ، عندما نفاه الإمبراطور أوغسطوس فى السنة الأولى للميلاد – أى منذ ١٩٨٠ عاماً . وقرر الإمبراطور أن يلقى به بعيداً جدًّا . فرماه فى مدينة كونستانسة على البحر الأسود . وبقى فيها الشاعر حتى مات ذليلاً مهيناً .

ويقال إن هناك أسباباً أخرى غير التى يعرفها الناس ، فالإمبراطور قد علم أن جوليا ابنته مفتونة بالشاعر . . ويقال إن حفيدة الإمبراطور واسمها جوليا أيضاً كانت على علاقة بالشاعر ، وإنه هو الذى شجعها على الفجور . . ويقال إن الشاعر اشترك مع زوجة الإمبراطور فى وضع السم لأحد أحفاده وكان فى نية الإمبراطور أن يجعله خليفة له .

ويقال إن الشاعر كان يعلم أن للإمبراطور مغامرات خاصة ، ويقال إن الشاعر قد شرب فى إحدى الليالى وهو كثيرا ما يفعل ذلك ، ثم أطلق لسانه . . واتخذ الإمبراطور قراره . وحملوا الشاعر على حصان . . ثم فى سفينة . . ثم كبلوه بالحبال . وذهبوا به إلى منفاه . وفى هذا المنفى انهار الشاعر . أو انتهى تماماً . وأرسل للإمبراطور يتوسل إليه ، ولكنه رفض . أما أحد أصدقاء الشاعر فقد أرسل له تماثيل للإمبراطور ونقوشاً وطلب إليه أن يعلقها فى بيته ويصلى لها . . وظل الشاعر يصلى للإمبراطور . وأصدقاؤه يتوسلون . والإمبراطور لا يرد . وبلغ الشاعر أحط درجات الهوان فى تذلله وتضرعه واستعداده لأن يقبل الأرض من منفاه حتى روما ، وأن يسف التراب وأن يغسل قدمى الإمبراطور بدموعه . والإمبراطور لا يرد . وكتب الشاعر أوفيد يقول : إن رحمتك أعظم من جريمتى . وعفوك أكبر من ذنبى ، وذنبى أحقر من أن يغضبك .

ومات الإمبراطور ، وراح الشاعر يصلى عليه . ولكن الإمبراطور الجديد قد تزوج جوليا ابنة الإمبراطور السابق ولم تهتز نفسه لويلات الشاعر . وأصدر أوامره هو الآخر بأن يتركوا الشاعر يموت . . ومات جوعاً !

أما الغلطة الحقيقية للشاعر فليست أنه قال كثيراً وجميلاً وعارياً . فالشعوب كثيراً ما سمعت ذلك وسمحت به . وضحكت . فالشعراء مجانين . ولكن جنونهم جميل . ولا خوف منهم ولا ضرر إذا قالوا . . والشعوب يجب ألا تحاسب أبطالها المجانين كأنهم عقلاء . إن شرط الجمال أن يصدر عن مجنون . فإما الجمال ومعه الجنون ، وإما لا شيء . . وقد اختارت الشعوب هذا الجمال ودفعت ثمنه فادحاً . ولكن جريمة «أوفيد» أنه يعرض للإمبراطور شخصياً . . ولو تعرض للشعب كله وللحضارة الإنسانية كلها ، ما اهتز الإمبراطور على عرشه . . ولكن الشاعر كان فناناً ، ولم يكن سياسياً . . وعندما أراد أن يكون سياسياً فى منفاه ، كان ذليلاً . . كان إهانة للإنسان نفسه . . وإذا كان أستاذاً فى الحب فهو تلميذ مبتدئ فى الكراهية . . أو فن الكراهية وهو السياسة . ولذلك عاش أستاذاً ومات تلميذاً — فالذى بقى وسوف يبقى ألوف السنين هو أستاذ الحب ، والذى مات وكان يجب أن يموت هو طالب العفو فى زنزانته السياسية !

أدب الخروج عن الأدب

غاب الزوج عن البيت بعض الوقت ، شهراً مثلاً ، فما الذى «يجب» أن تفعله الزوجة ؟

وهذا واحد من الأجوبة :

كونى نظيفة جدًّا ودائماً : اغسلى يديك ورجليك ووجهك . وضعى الزيت فى شعرك . وارتدى أحسن ملابسك . وضعى الزهور فى كل مكان . وإذا استطعت أن تغرسى أمام **إذا** البيت شجرة فلا تترددى . . ولا تصادق المتسولات ولا النساء اللاتى يتكلمن كثيراً . .وينقلن ما تقولينه من بيت إلى بيت ، فإذا عاد زوجك وجد المشاكل تنتظره . . وجد الشوك فى الزهور ، ووجد عتبة البيت فى لون أظافر يديك وقدميك . . ولا تنسى أن الرجل إنما يثيره كل ما هو نظيف فى البيت وفى صاحبة البيت . .

جاءت هذه النصيحة فى كتاب قديم عمره عشرون قرناً مكتوب باللغة السنسكريتية ، ولا أحد يعرف كم عدد الذين ألفوه . . الكتاب اسمه «كاما سوترا» وهو من أشهر الكتب فى العالم . وهو كتاب ملعون أيضاً . وهو ملعون عن سوء فهم فى ذلك الوقت . ولكنه الآن لم يعد ملعوناً ، إن أصغر الشباب يعرفون ما فيه . والكتاب هو «دروس فى السلوك العاطفى والجنسى بين الرجل والمرأة» — كما يقول المستشرق الإنجليزى ريتشارد بيرتون الذى ترجمه . ويقول أيضاً : وكانت الفتيات الهنديات يقرأن هذا الكتاب قبل الزواج ، لأن الغرض الأساسى من هذا الكتاب هو : كيف يكون الإنسان سعيداً رغم أنه زوج ؟

وإجابة أخرى عن هذا السؤال جاءت فى رواية «وراء أى باب تحت أية نافذة من أى بيت» للكاتب الأمريكى جنزبرج . فقد تغيب الزوج الشاب عن البيت لبعض الوقت لأنه يعمل بحاراً فى إحدى السفن التجارية ، وشاءت الصدفة — لابد أن تشاء الصدفة طبعاً — أن يتغيب وأن يزور الزوجة صديق قديم لها ولزوجها . . ويجد المؤلف مناسبة لتفجير الماضى كله . يقول الصديق : أعرف أن

زوجك غير موجود . وسوف يظل غائباً فترة طويلة . أنت لا تعرفين السبب . ولكن سمعت ذلك فى الراديو أخيراً . . لن يجىء بعد أسبوع . . إن لنا حسابات قديمة مؤجلة . . وجاء زواجك مانعاً شرعياً . . فما رأيك ؟

وبدلاً من أن تدهمنا الزوجة نفكر فى هذه المشكلة . . وبدلاً من أن نشفق عليها . . فإنها تختصر تفكيرنا وصفحات الكتاب وتهجم على الصديق تقبله وتحضنه وتقول : أنت مغفل ! زوجى لم يكن حاضراً أبداً . . لقد كان غائباً طوال الوقت . . ولكن أنت مغفل مرة أخرى ، لأننى لم أضيع وقتى فى انتظارك . فقد كان هناك كثيرون . .

ويخرج من تحت السرير شاب . .

وهنا يدق جرس الباب وتدخل فتاة ، إنها صديقة هذا الصديق . لقد أصبحوا أربعة . . وهذه أكثر من إجابة على : ما الذى تفعله الزوجة إذا غاب عنها زوجها لأى سبب ؟

أما الزوجة فقد كانت عارية تماماً عندما دخل الصديق . . ولم يندهش لما رأى . ولم تحاول هى أن تغطى نفسها . . ولا علق أحد على هذا المشهد بكلمة واحدة !

ومعنى ذلك أن كل ما سمعنا وما رأينا وما خطر على البال وما صدمنا ، شىء عادى ، أو يجب أن يكون عادياً . .

وبين كتاب «كاما سوترا» وبين رواية «وراء أى باب . . إلخ» مئات الألوف من الكتب والروايات واللوحات ، كلها حائرة الخطوط والألوان والمساحات والأحجام تكشف وتغطى وتبرز وتخفى من جسم المرأة والرجل . . وترسم الطريق وتمحوه أمام الضمير . .

والمعنى الذى يقصده الكاتب الأمريكى ، وعشرات غيره من الأدباء الشبان هو : أن الإنسان حر ، يفعل بنفسه وبجسمه وبغيره ما يريد !

أما أنه حر . فهذا صحيح ، وأن حريته فى نفسه وفى جسمه لا حدود لها فهذا صحيح ، أما حريته فى أن يفعل بغيره ما يريد ، فهذه هى المشكلة !

لأن «الغير» هم قيود حريتنا . . هم أسوارها الحديدية . . وأسلاكها الشائكة . . وفى مسرحية «الخبز واللحم» التى ظهرت فى لندن فى الأعوام الأخيرة يصعد شاب عريان تماماً . . أو إلا قليلاً ، وهو لا يتكلم . وكلما سألوه عن شىء اكتفى بالإشارة إلى مكان من جسمه . . وعلى المتفرج أن يستنتج مايشاء . وغالباً لايعرف ما الذى يستنتجه؟ ولابد أن المؤلف قصد من وراء ذلك : أن الممثل حر فى أن يجيب عن الأسئلة التى يوجهها إليه ممثل آخر ، ومن الغريب أن هناك إجابات عن هذه الأسئلة فى

« النص المطبوع » للمسرحية . . ولكن الممثل حر فى الخروج عن النص أو الخروج من النص أو الخروج من المسرحية كلها بأن يصبح شبحاً يراه الناس ولا يسمعونه يقول شيئاً !

فما المعنى ؟

إن الإنسان حر فى الحياة . وفى الحياة التى يخلقها الكاتب على المسرح . . أى إنه حر عندما يكون متفرجاً ، وحر عندما يكون ممثلاً . . فيكون ممثلاً أو لا يكون . . أو يكون الاثنين معًا !

فما المعنى مرة أخرى ؟

ما معنى الحرية هنا ؟ الحرية هنا ليس لها معنى . . إنها عبث . . عبث بالحرية . . أو مجرد العبث : أى الخلو من المعنى والهدف . .

ولكن لماذا ؟

وعن هذا السؤال إجابات كثيرة متضاربة تجعلنا نشعر بعد لحظات أننا أقمنا برج بابل من جديد . وأننا حائرون وفى حاجة إلى من يرشدنا إلى خارج البرج ، وأنه من الأفضل ألا يسمع الإنسان كلاماً ، على أن يسمع أجمل الكلام . . أو أن نكتفى بأى كلام ، وبذلك نستريح من ضوضاء البرج . ويبدو أن عدداً كبيراً من الكتاب قد اهتدوا إلى هذا الضلال الذى يعانيه الناس . . فأقام كل واحد منهم بيتاً وقال : إنه يعرف كل شىء .

ولأن الناس قد تعبوا ، فاستندوا إليه وعليه . . وساروا وراءه فى كل عاصمة . . أغنام وراء ذئب . . ولا خوف منه ولا خوف عليهم . .

وهو موقف لا يبعث على الضحك أو البكاء . وإنما له شكل الأمر الواقع وجموده . ولنا شكل الأعمدة الرخامية وبرودتها . . فنحن بالفعل نفقد العقل من أجل أن نريح العقل – نحن بالعقل نغرق أنفسنا فى الخمر وفى المخدرات ، لكى ننسى أن لنا عقلاً . .

وبذلك تضيع الفوارق بين الذى يعرف الخمر ، وبين المخمور . فالذى يعرف الخمر ، يفهم أنواعها وتذوقها ويعرف حدوده . أما المخمور فهو الذى لا يستخدم ذكاءه أو عقله فى شىء . . وإنما هو يغرقها جميعاً ويستريح ، أو يتوهم ذلك !

وفى مسرحية «الماجور بربارة» لبرنارد شو نجد مثل هذا الحوار :

« – أنا أعرف الفرق بين الخطأ والصواب » أنت ؟ ! لا تقل ذلك ! أنت الذى لا قدرة لك على العمل ، ولا خبرة لك بالقانون ، ولا ميل عندك للفن ، ولا رغبة فى الفلسفة أنت تعرف هذا اللغز الذى دوخ رجال الأعمال ، وحير رجال القانون ، وحطم الفنانين ، وأضاع الفلاسفة . . أنت تعرف

سر الخطأ والصواب . أنت عبقرى . أنت أستاذ الأساتذة . أنت إله . . وفى الرابعة والعشرين من عمرك ؟ ! » .

لا أحد يجرؤ على أن يقول ذلك دون أن يجد من يسخر منه . . ولكننا فى العصر الحديث لا نسخر من الذين يدعون المعرفة بحدود الحرية . . ومدى نفعها وضررها للقيم الأخلاقية والجمالية . . فى الشارع وفى الطريق إلى المسرح ، أو فى الشارع الذى أصبح مسرحاً أو فى المسرح الذى انفتح وراء الستار ، فالفواصل بين الشوارع والمسارح مسألة نسبية . . إن مسرحية « الخبز واللحم » تبدأ فصلها الأول فى الميدان الموجود أمام المسرح وبعد ذلك يمشى المتفرجون وراء الممثلين إلى داخل المسرح . .

والكثيرون من الناس قد سمع عن مسرحية اسمها « أوه . . كلكتا » . وهى مسرحية عارية . . بمعنى أن الممثلين يظهرون عراة تماماً بعض الوقت . والذين يذهبون إلى المسرح يتوقعون ذلك بين لحظة وأخرى . وقد وافقوا على أن يروا ذلك . ولكنهم يستنكرون ما يرون — بعضهم يفعل ذلك . .

لأن المسرح كالمعبد : مفروض أن يستمع فيه المتفرج إلى نصيحة بشكل مؤلم أو بشكل مضحك . وهو يستمتع بما يرى وما يسمع . ولأن المسرح كالمعبد فإن المتفرج متمسك بطقوس المعابد ، ولأن المسرح كالمعبد ، فهو مكان مقدس أوكالمقدس . . ولأنه مقدس ، فالإنسان — أى المتفرج — يشعر بأنه صغير أمامه . ولذلك يطلب منه وعنده نوعاً من المساعدة .

رجل عظيم من أسوان

الأستاذ

العقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . . لأنه لابد أن يختاروا صفة واحدة يضعونها بعد اسمه أو عنواناً لأية كتاب أو تقويم لحياته وأعماله الأدبية والفلسفية والشعرية التى بلغت التسعين كتاباً . فهل هو شاعر ؟ مؤرخ ؟ مفسر ؟ ناقد ؟ فيلسوف ؟ مفكر ؟ سياسى ؟

لابد أن يختار المؤرخون له صفة واحدة . . وهذه الصفة هى المفتاح الصغير الذى يمسكه القارئ فى يده ويفتح به كل أبواب قلعة العقاد . . مفتاح واحد فقط كالذى نجده فى الفنادق فعندما يضيع مفتاح صغير فى أى فندق فإن الفندق بسرعة يبعث له بمن يفتح له الغرفة وأية غرفة . . « المفتاح الرئيسى » أو « المفتاح السيد » . والمؤرخ أو الناقد يجب أن يعطى للقارئ المفتاح الرئيسى لعقلية العقاد . .

والمفتاح الواحد أسهل من مجموعة مفاتيح تدوخ القارئ أو تتعبه ، والناقد لا يريد أن يتعب نفسه ، ولا أن يتعب القارئ معه . .

فإذا قال إن العقاد شاعر ، فمعنى ذلك أنه شاعر معظم الوقت . ويكتب النثر بعض الوقت . ولكن القارئ يفاجأ عندما يجد أن أكثر كتب العقاد من النثر . .

وإذا قال المؤرخون إن العقاد يهتم بالنقد الأدبى وإنه ناقد ، كانت مفاجأة أن يجدوه قد ألف عدداً من قصص حياة محمد وعمر وأبو بكر وعثمان وعلى والمسيح . . فهو كاتب الترجمات الأول فى الأدب العربى . .

وهو فى نفس الوقت صاحب قدرة على التحليل النفسى والمنطقى والواقعى . . وهو باحث فى اللغة وفى الشريعة .

وهو كل هذه الصفات معًا : شاعر ناقد مؤرخ مفسر متفلسف ومفكر سياسى . .

ولكن القارئ يريد أن يعرف ما هى صفته . . ما هى الصفة الغالبة عليه لكى يسهل فهم العقاد . .

إن العقاد عقلية موسوعية . .

فهو قد قرأ فى أشياء كثيرة وكتب عنها . وهو قرأ الكثير لأنه قارئ يحاول أن يفهم . أو هو مفكر يريد أن يبحث عن أشياء فى هذه الدنيا . وهو يحمل فى يده مصباحاً قوياً يوجهه فى كل الاتجاهات . لأن الحقيقة الكبرى ليست فى مكان واحد . إنها فى كل مكان . . وعنده قلق عقلى ورغبة فى المعرفة ، وقدرة على الفهم تجعله قادراً على المحاولة والفهم والتعبير بعد ذلك . .

ولكن الناس يسألون : ولكن ما هو الشىء الذى تخصص فيه العقاد ؟

ويكون الجواب : إنه تخصص فى الفكر . .

ويقال لك : هل هو مفكر ؟

– نعم

– مفكر فى أى شىء ؟

– مثل ماذا ؟

مثل الإنسان ونفسية الإنسان وعلاقته بالإنسان . . وعلاقته بربه . . أو الإنسان فى كل ظروفه النفسية والاجتماعية والجسدية . . وليس سهلا أن يجعل المفكر قضيته الكبرى هى : الإنسان ! إننى أحترم جدًّا ما قاله الفيلسوف الوجودى سارتر بعد أن فرغ من أربعين كتابًا من روائع الفلسفة والأدب . . وسئل يومًا : بالضبط ما هى القضية التى تشغلك ؟ تصور أن هذا يقال لرجل أتى بجديد فى الفلسفة الوجودية . . وكان رد سارتر : إننى مشغول بطبيعة الإنسان !

– إننا نقرأ أن فلانًا روائى . . وفلانًا قصصى . . وفلانًا شاعراً . . وفلانًا ناقداً . . وهذا مؤرخ وهذا طبيب وهذا عالم فلك .

– معك حق . . ففى حياتنا الأدبية أناس دخلوا الأدب وأقاموا فيه وعاشوا فى ظل مجد عجيب لأنهم ألفوا كتابًا واحداً . . أو كتابين . . وفى إمكانك أن تختار من مؤلفات العقاد كتابين فى الشعر وتقول : شاعر . . وفى النقد وتقول : ناقد عظيم . . وفى الدراسات الدينية وتقول : مفكر دينى .

ولو اخترت من كل مؤلفات العقاد عشرة كتب ، فهذه الكتب تكفيه جدًّا ليكون ناقداً عظيماً وشاعراً عظيماً ومؤرخاً . . ولكن مشكلة العقاد هى : أنه رجل غنى جدًّا بأفكاره . . ما الذى نأخذ منها ، وما الذى نترك ؟ . إن العقاد يشبه سيدة عندها عشرات الخواتم الماسية والأقراط والعقود والأساور والساعات والدبابيس كلها وضعت فى مكان واحد . . وهى جميعًا تبهر العين وتلقى ضياءها بعضها على بعض . . ولو كان العقاد يملك خاتمًا واحداً لبدا هذا الخاتم باهراً . . ولكنه يملك الكثير

جدًّا . فما الذى يفعله النقاد والمؤرخون ؟ إنهم يحارون ويحيرون القراء معهم . . ولكن من المؤكد أن المفكر أو الفنان لا تشغله كثيراً الصفة التى سوف يطلقها الناس عليه . . وإنما هو مشغول بالذى فى رأسه بالذى يقلقه ويحيره . إنه يريد أن يعرف وأن يعبر بعد ذلك . . هذا هو الذى يشغله دائماً . .

فالعقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . .

ولكن الحقيقة أنه رجل واسع الأفق عميق المعانى . وفى استطاعتك أن تطلق عليه أى اسم . . فهو كل هذه الأسماء التى دارت فى رأسك . . فلا يحدث مطلقا أن يجىء الكاتب ويقول : أنا ناقد . . فلا أكتب إلا عن النقد . . أو أنا مؤرخ لا أكتب إلا فى التاريخ . . فهناك أعمال نقدية هى أدب رفيع ، والأديب لا يمكن إلا أن يكون ناقدًا ، والمؤرخ أديب . . والأدب تاريخ . . ولكن الذى يحدث هو أن الكاتب له قضية تشغله وتلح عليه . . ويحاول أن يهتدى إلى شىء . . فإذا اهتدى إليه ، أهداه إلى القارئ . . واستراح بعض الوقت ليبدأ الطريق من جديد ، أو يبدأ طريقًا من جديد . . فكل بداية هى ملتقى طرق أو مفترق طرق . . وبعدها يتجه الأديب أو المفكر أو الناقد إلى مجالات أوسع وأكثر تنوعًا !

فعندما فرغ العقاد من كتاب عبقرية المسيح وفرغ من كتاب إبليس قال : لقد جربت قدرتى العقلية فى دراسة هذه الشخصيات العجيبة . . ولابد أن أعرف حدود قدراتى العقلية . . سوف أكتب عن الله !

وألف كتابه عن « الله » وهو دراسة فى مفهوم الألوهية عند كثير من الفلاسفة . وانتهى العقاد إلى نظرية خاصة فى معنى « الألوهية » هى أن هناك « وعيًا كونيًا » . . هذا الوعى الكونى الإلهى يلمسه الناس ويستشعرونه على أشكال مختلفة . . إن كل إنسان أو كل شعب يحس بهذا « الوعى الكونى » أو بعبارة أسهل : فى هذه الغرفة أو هذا المكان الذى أنت فيه ، تتجمع كل إذاعات العالم . وكل جهاز راديو قادر على أن يلتقط المحطات المختلفة . الراديو الصغير يلتقط المحطات المحلية . . الراديو الأكبر والأقوى يلتقط الإذاعات الأجنبية البعيدة . . وهناك المراصد تستطيع أن تلتقط الموجات المغناطيسية الكهربية الموجودة بين الكواكب التى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية . . أى أن هناك إذاعات فى كل مكان . . وكل جهاز يلتقط ما يقدر عليه . . وهذا تشبيه فقط ، ولكنه ليس دقيقًا جدًّا . فهذا الوعى الكونى الذى هو قوانين الأشياء وقواعدها وحكمتها والقدرة على إبقائها وتنظيمها وتحريكها هو : الله . . وكل الأفراد والشعوب فى كل العصور ، يدرك ذلك بأشكال مختلفة !

فالعقاد يحاول أن يعرف قدرته وحدوده أو كيف يستطيع عقله تخطى الحدود الحسية والمعنوية لعله

يدرك الحقيقة وراء الأشياء . .

وكانت للعقاد طريقة ، هى أنه يبحث عن « المفتاح » الذى يعالج به الأبواب المغلقة . . أو الشخصيات الغامضة . . إنه يقرأ ويقلب فيها حتى يعرف مدخلها . فإذا عرف ذلك وجدته يتحدث عن كل شىء بسهولة وبمنتهى الوضوح .

شىء عجيب يواجهك وأنت تقرأ كتابه « خلاصة اليومية » وهو أول كتاب للعقاد . وهذا الكتاب يضم مجموعة من الآراء والحكم . وهذه المعلومات المكثفة أو الحقائق المتبلورة تدل على أن العقاد قد أدرك أشياء كثيرة بوضوح . وهذا الوضوح جاء مبكراً . وكان العقاد يفخر ويسعد عندما يقال له : إن هذا ما اهتديت إليه يا أستاذ من أربعين أو من خمسين عامًا . وأنك عرفت هذه الحقيقة وأنت شاب !

وكان يقول : الحمد لله على ذلك . فقد رأيت هذا المعنى وأنا ما أزال شابًا صغيرًا فلما كبرت رأيته أوضح . ولكنه هو هو !

حتى شعر العقاد فى هذه السن المبكرة كان نوعًا من الحكمة التى لا يبلغها الإنسان إلا فى سن متأخرة . فهو القائل فى هذه السن الصغيرة :

لقد ثقلت علىّ نفسى حياتى وأشفق عائدى وشكت أساتى
سئمت فما أريد اليوم إلا دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجنًا فشق اللحد باب للنجاة

ويقول العقاد أيضاً :

لا تحسدن غنياً فى تنعمه قد يكثر المال مقروناً به الكدر
تصفوا العيون إذا قلت مواردها والماء عند ازدياد النيل يعتكر

وكان العقاد يقول إن هناك نوعين من الناس : أناس يلمسون الأشياء بعيونهم وأناس يرون بعيونهم . فعندما قال الناس إن هتلر سوف ينتصر فى النهاية لأنه أسقط النمسا وهولندا وبلجيكا وفرنسا والنرويج وغيرها . . فهؤلاء الناس يلمسون بعيونهم . لأن الذى أمامهم هو سقوط كل الدول أمام هتلر . . ولكن العقاد كان يؤكد أن هتلر سوف ينهزم ، وكان يقول ذلك وهتلر ينتصر والعالم كله يتساقط أمامه . وكانت للعقاد حجج أثبت الواقع أنها صحيحة . فهو لم يكن فى ذلك الوقت ، ولا فى أى وقت يلمس الواقع برموش عينيه . . وإنما كان يرى ما هو أبعد من الواقع !

وكان العقاد يعتز بالفكر . ويرى أن المفكر هو أعظم مخلوقات الله . وأن الله قد أعطاه الموهبة أو الصفة التى رفعته عن الحيوان وعن الإنسان . ولذلك يجب أن يرفع رأسه وأن يرتفع . وكان العقاد

عالياً . عملاقاً وكان الذى يزور العقاد يشعر أنه قد أضيف إليه بضعة أمتار عن سطح الأرض وعن رءوس الآخرين . ولذلك تعذب العقاد ، ولم يحن رأسه . . جاع ولم يمد يده . . باع كتبه ولم يبع نفسه . .

قال لى إبراهيم عبد الهادى باشا : إن العقاد كان نموذجًا للإباء والكبرياء . وإنه تعذب كثيراً بسبب ذلك . ولكنه ظل فى حياته الخاصة والسياسية والأدبية الرجل العظيم الاحترام لنفسه ولغيره !

وكان العقاد قاسيًا على نفسه . فهو لم يكن موظفاً . ولكن له كل عادات الموظفين . فهو يصحو فى ساعة معروفة . ويجلس إلى القراءة وإلى الكتابة ساعات . وبعدها ينزل من مصر الجديدة إلى القاهرة . ويتردد على المكتبات المعروفة . وبعد ذلك يذهب إلى بعض اللجان . ثم يعود إلى بيته فى ساعات محددة . يأكل المسلوق وينام . ويبدأ القراءة والكتابة . ثم يتمشى ليعود إلى بيته ليستمع إلى الموسيقى . ويأكل وينام . . هو الذى وضع هذه القواعد لنفسه والتزم بها .

وهو يطلب من الناس أن يحرصوا على القواعد والآداب والأصول ، تماماً كما يفعل هو .

وأنا أعرف أن للعقاد نوادر محرجة ومضحكة أيضًا . ولكنه لم يرها كذلك . ففى أحد الأيام جاءه الحاج عبد الرحمن السقاف من سنغافورة يطلب مؤلفات العقاد الإسلامية ونشرها فى الشرق الأقصى مقابل عشرة آلاف جنيه إسترليني . وفرح العقاد بذلك . وأبدى الحاج عبد الرحمن رغبته فى زيارة العقاد . وتحددت الساعة الخامسة بعد الظهر . وأنا أعرف جيدًا ماذا يحدث فى بيت العقاد فى هذه الساعة . فقبل هذا الموعد بعشر دقائق تمامًا ينادى العقاد خادمه ويطلب إليه أن يعد عصير الليمون والقهوة . وأن ينتظر . ثم يرتدى العقاد بذلته وطربوشه ويدخل غرفة الانتظار قبل الموعد بدقائق . وينتظر . ثم يقول لابن أخيه عامر العقاد : انتظر السيد فلان ، إنه سوف يجيء فى الخامسة !

وجاءت الخامسة . ولم يحضر الرجل . ومضت خمس دقائق طويلة . ولم يحضر الرجل . وبدأ الضيق على العقاد . ولما كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق نادى العقاد بصوته العالى يقول : اغلق الباب . إذا جاء الرجل الهلفوت فقل له إن الأستاذ نزل إلى الشارع !

أما هذا الرجل الهلفوت فلم يكن هلفوتًا . وإنما هو من كبار الشخصيات العربية فى سنغافورة . ومن أكثر الناس حبًّا للعقاد . ثم جاء إلى مصر من ألوف الأميال . . ومن الممكن أن تكون المواصلات وإشارات المرور وجهله ببيت العقاد . قد عوقته بعض الشيء . . ولكن هذه الأعذار لا يقبلها العقاد . لأنه شديد الحرص على مواعيده مع الناس ، ومواعيد الناس معه . .

وفى الخامسة والربع جاء الرجل القادم من سنغافورة . دخل ومد يده للعقاد يقول : آسف يا أستاذ . فالمواصلات . . إلخ . وقال العقاد غاضبًا . نعم هذه مسألة موجبة للأسف ! ،

وهو رد عنيف . ولكن الذى فى نفسه أعنف من ذلك . وأحس الرجل القادم من بعيد أن العقاد قد ضاق به فاستأذن وخرج .

وفى اليوم التالى طلب العقاد فى التليفون أحد المسئولين فى المؤتمر الإسلامى وقال له : يا أستاذ لقد جاءك الرجل من آخر الدنيا . ولا يعرف بيتك وجاء يشترى كتبك . تقابله أسوأ مقابلة !

وثار العقاد وهو يقول : وهل تتصور يا مولانا أن رجلا لا يحترم مواعيده . وأن رجلا فعل ذلك هل أقيم له حفلة تكريم . . هل تتصور أن رجلا يشغل العقاد عن رياضته اليومية يستحق منى لاحترام . . ملعون أبوك على أبوه . . ووضع سماعة التليفون !

وكان من عادة العقاد أن يبعث لنا بمقالة لكى ننشرها فى جريدة « الأساس » سنة ١٩٤٨ وما بعدها فى مواعيد محددة . فى الساعة الحادية عشرة صباحًا . يجيء سائق سيارته فى هذا الموعد بالضبط . . وقد حمل مقالا مكتوبًا . على ورق صغير بالحبر الأحمر .

وفى يوم عرف العقاد أن مقاله قد وصل متأخراً عن الموعد المحدد . فحاسب السائق حسابًا قاسياً . وباع سيارته . وطلب إلى السائق أن يأخذ التاكسى ما دامت السيارة تتوقف فى الطريق وتعطل المقال عن الموعد المحدد . .

مع أنه فى إمكان العقاد أن يبعث بمقاله فى أية ساعة حتى منتصف الليل . . أى بعد ذلك باثنتى عشرة ساعة . ولكنه التزم بموعد . وهذا يكفى !

وكان العقاد شديد الاعتداد والاعتزاز بنفسه . ولذلك كان يستحق الاحترام من الجميع .

وفى إحدى المرات ونحن طلبة فى الجامعة ، طلبت إليه أن يلقى محاضرة لطلبة قسم الفلسفة . ووافق العقاد فوراً . فقال : فى أى موضوع ؟

فقلت : فى أى موضوع تراه يا أستاذ ؟

فأجاب : بل أنتم الذين تختارون الموضوع . فهو يستطيع أن يتحدث فى أى موضوع فلسفى واخترنا له موضوعاً كان يعذبنا . وكنا نحتاج منه إلى كلام واضح . وكان الموضوع هو « منهج الغزالى فى الفلسفة النسبية عند أينشتين » . وتحدد موعد المحاضرة . وكان ذلك فى المرج رقم ٧٨ . وامتلأ المدرج وسمعنا مالم نقرأ من قبل وكان العقاد رائعاً !

وازددنا إعجابًا وحبًّا للعقاد . .

وفى إحدى المرات داعبنى العقاد فى مقال نشره بأخبار اليوم . وكانت المداعبة قاسية . إما لأننى لا أتوقع ذلك من العقاد ، أو لأنه لم يخبرنى بذلك رغم اتصالى به كل يوم . . وتضايقت . وانتظرت أن يكتب العقاد شيئًا فأنتقده أو أهاجمه . أو أضايقه — وإن كان يعز على ذلك !

وكتب العقاد مقالا عن « مسرح العبث » ورأيت أن العقاد قد وقع فى غلطة فى اللغة اليونانية . ومن المؤكد أن العقاد لا يعرف اللغة اليونانية التى درستها . وأعددت مقالا أرد به على العقاد وأستعير بعض عباراته التى يوجهها إلى النقاد إذا أخطأوا . ولكن لم أتصور أن العقاد من الممكن أن يسقط بهذه السهولة . فطلبت عامر العقاد ابن أخيه ، وقلت له : إننى سوف أهاجم الأستاذ بعد أيام . . فقد وقع فى غلطة لغوية . . ولن أفوتها له . .

ثم ذكرت له الغلطة .

وبعد دقائق طلبنى عامر العقاد وقال لى : الأستاذ يقول لك احترس . أنت الغلطان . .

وسألته : كيف ؟

– لا أعرف . ولكن الأستاذ يقول لك ويحذرك . . ويطلب إليك قبل أن تكتب أن تعود إلى كتاب كذا صفحة كذا . .

وبسرعة نزلت من المكتب . وعدت إلى البيت . وأتيت بالكتاب . ووصلت إلى الصفحة التى أشار إليها . . وصرخت فقد كان العقاد على حق !

ومزقت المقالة . وإن كنت قد استرحت إلى أن العقاد ما يزال هو الرجل العالم الدقيق المتأكد من عمله . المعتد بعقله الكبير !

وعشرات الأمثلة على ذلك فى هذه العلاقة الغنية التى استمرت أكثر من عشرين عامًا أتردد فيها على بيته وقبلها سنوات من القراءة والإعجاب عن بعد لكل ما كتبه فى مجلة « الرسالة » الأدبية . .

وكان العقاد يضحك حزيناً وهو يقول : هذه البلد عجيبة يا مولانا . . إذا أرادوا مكافحة الشيوعية نشروا مؤلفاتى . . إذا أرادوا الدعوة إلى الإسلام أعادوا طبع كتبى . . إذا أرادوا أن يرشحوا أحداً لجائزة نوبل ، رشحوا طه حسين !

ولكن هذه الكتب التى ألفها قد عادت عليه بمال كثير ، يبدده فى شراء الكتب أيضاً . وكنا نتسابق فى ذلك . فكنت أمر على المكتبات أسأل عن كتب جديدة . فكان يقال : جاء الأستاذ العقاد وأخذ كل صناديق الكتب الجديدة إلى بيته . وسوف يختار منها ما يعجبه وتعود إلينا الصناديق . فتعال بعد غد .

وفى إحدى المرات ذهبت إلى إحدى المكتبات فى نفس اللحظة التى جاءت فيها الكتب الجديدة . وفى ذلك الوقت كنت مشغولا بالفلسفة الوجودية . . وكانت مؤلفات الفيلسوف الوجودى الدنماركى كيركجورد تصدر تباعاً باللغة الإنجليزية . وكنت أنتظرها وأختطفها . وفى ندوة العقاد استدرجته إلى

الكلام عن الفلسفة الوجودية وعن هذا الفيلسوف بالذات لكى أقول أمام الحاضرين جميعًا أننى حصلت على كتب جديدة مترجمة لم يرها العقاد بعد . وتكلم العقاد عن الفلسفة . وعن الفيلسوف الذى أريد . وهنا أحسست أن فرصتى قد جاءت . فقلت : لقد قرأت له كتابين جديدين . .

وأنا أقصد أن أقول : إننى وجدت له كتابين جديدين لا أعتقد أن الأستاذ قد رآهما بعد !

فقال العقاد : أعرف الكتابين يا مولانا . . وكتبًا أخرى غيرهما . . ولكن لم يعجبنى . .

ومضى يشرح ما الذى أعجبه وما الذى لم يعجبه من الكتب . ولابد أنه قد لاحظ شيئًا من عدم التصديق فى عينى ولذلك نادى بأعلى صوته : يا إبراهيم .. هات الكتب الملقاة على السرير !

وجاء خادمه إبراهيم بكل الكتب . .

وكانت الترجمة الكاملة لجميع مؤلفات الفيلسوف الوجودى الدنماركى ، ولم أكن أعرف إلا نصفها !

وعندما ألف العقاد كتابه عن « أبى نواس » احتاج إلى بعض المخطوطات القديمة اشتراها من إيران وكلفته مئات الجنيهات . وربما نقل العقاد من هذه المخطوطات عبارة أو عبارتين . ولكن الدقة هى التى تهم . أما الفلوس فإنها لا تهم . وهذا الكتاب لم يعجب طه حسين . وأخبرنا بذلك . . وقلت للعقاد : إن طه حسين يرى أن كتابك هذا عبارة عن ترجمة عربية لكل فلسفة فرويد لسلوك الشاعر العربى !

وغضب العقاد وقال : بل طه حسين نفسه هو واحد من الأمراض النفسية عند فرويد !

وكاد هذا الكتاب أن ينسف العلاقة بين الأستاذ العقاد وبينى . فعندما صدر هذا الكتاب طلب منى الصديق حلمى مراد أن ألخصه فى مجلة « كتابى » . ولخصت الكتاب فى حوالى أربعين صفحة . وقرأها العقاد وأعجبته جدا . وقال لى : لو لخصت كتابى بقلمى ما فعلت أحسن مما فعلت !

ولكن الذى لم يدركه العقاد هو أننى كنت فى بداية مشروع هو كتابة مؤلفات العقاد أو بعضها ، بعبارة سهلة . فالعقاد أسلوبه صعب فى بعض الأحيان . ويستخدم كلمات غير مألوفة . وقلت للعقاد : إننى أحاول تلخيص بعض كتبك . . أو « تيسير » عبارتها . .

ولم أكمل هذه الجملة حتى ثار العقاد . ورأى أن هذا الذى أقوم به هو قضاء على ملامح الأسلوب العقادى وطمس لشخصيته . . وإنما إذا كان الغرض هو تيسير القراءة فلا مانع . ولكن تيسير الأسلوب وتغييره فهناك ألف مانع !

وأشكر للعقاد ثورته هذه . وإلا كنت قد أضعت سنوات من عمرى أقدم العقاد سهلا للناس ، أقدمه هو وأتوارى أنا . .

وفى ذلك الوقت رنت فى ذاكرتى عبارة استنكار لكامل الشناوى . فقد كان من عادة كامل الشناوى أن يروى شعر أمير الشعراء أحمد شوقى . وأن يلقيه فى الندوات . وكان الناس يحبون صوت كامل الشناوى فى الإلقاء . . ولكن انسحب كامل الشناوى . . ووجد ان هذا النوع من العمل ليس إلا تقديمًا لشوقى وتأخيرًا له . وإنكاراً لشاعريته هو . . ولو عاش مقرئًا أو منشداً لشعر شوقى ، لاعتاد الناس أن يسمعوه يردد كلام غيره لا كلامه . . وابتعدت تماماً عن تسهيل العقاد . . أو تقريبه إلى الناس !

وكانت للعقاد قاعدة لا يحيد عنها : فهو يشترك فى اللجان التى يتقاضى عنها مكافأة كلما حضر .

وكان يقول : هذه اللجان التى تدفع لى مكافأة كلما حضرت . أنا حر أن أحضر أو لا أحضر . وأنا غالبًا لا أذهب أما اللجان التى يتقاضى عنها مرتبًا شهريًّا . فلابد أن يحضرها . .

على عكس طه حسين وتوفيق الحكيم . . وعشرات من الأعضاء .

ولم تكن للعقاد موارد مادية كثيرة . والذى كان يتقاضاه ، كان يشترى به الكتب . . وما تبقى ينفقه على عشرين أسرة صديقة فقيرة . وعندما مات العقاد وجدنا فى خزانته الخالية أسماء الأصدقاء الذى مال عليهم الزمن ، وحاول العقاد أن يحميهم من الهوان . .

وعندما مرض العقاد توقف عن الكتابة لجريدة « الأخبار » ولم يكن يتقاضى مرتبًا شهريًّا . وإنما كان يتقاضى أجرًا بعدد المقالات . ولم نعرف كيف نعين العقاد على مرضه . وذهبت إلى الأستاذ مصطفى أمين أحكى له ظروف العقاد . فأرسل إليه مصطفى أمين خطابًا يقول له فيه : إنه شرف عظيم لمؤسسة أخبار اليوم أن يكون العقاد كاتبها . وإن أخبار اليوم قررت أن تعين العقاد بمرتب شهرى وأن تدفع له مرتبه مقدماً وتتمنى له الشفاء وتنتظر مقالاته ، كما تنتظر رؤيته ، بشوق عظيم واحترام أعظم .

وأخذت الخطاب إلى العقاد فى بيته . ولكن العقاد اعتذر عن الفلوس وعن الكتابة ! .

وعندما ثقل المرض على العقاد زاره إبراهيم باشا عبد الهادى . وجلس على طرف السرير وترك مجلة أمريكية . ولما مد العقاد يده يرى المجلة تساقطت منها مئات الجنيهات . وصرخ العقاد يقول : خذوا هذه المجلة وأعطوها لدولة الباشا مع الشكر !

وعندما أعددت حديثًا للعقاد فى التليفزيون دفع له التليفزيون مائتى جنيه . ونشرت « الأخبار » أن « الأستاذ العقاد قد تقاضى مبلغ ٢٠٠ جنيه عن حديثه فى التليفزيون » !

وغضب العقاد جدًّا . وطلبنى فى اليوم التالى وهو يقول : وهل كثير هذا المبلغ على رجل مثلى أمضى من عمره ستين عامًا فى القراءة والكتابة . هل كثير على العقاد فى بلد كهذا أن يتقاضى هذه الأجرة مرة

فى عمره . . إن أحقر راقصة تتقاضى هذا المبلغ فى هزة أو هزتين . .

فقلت له فى دهشة : ولكن أحداً يا أستاذ لم يقل شيئاً من ذلك . لا أحد . بل إن الناس جميعاً أسعدهم أن يسمعوك وأن يروك . .

– يا سيدى إن الفلوس لا تهم العقاد . ولم تشغل العقاد .

– ولكن من الذى قال ذلك ؟

– اقرأ جريدة « الأخبار » يا مولانا . . إنها نشرت الخبر ووضعت الخبر ووضعت فى نهايته علامة تعجب ! علامة تعجب من ماذا ! ؟ بل إن هذا هو الشىء الذى يدعو إلى العجب !

وتعبت فى إقناع العقاد أننا نسرف فى وضع علامات التعجب بلا مناسبة . حتى لم تعد هذه العلامات إلا عادة ، أو مجرد بديل عن النقطة الواحدة فى نهاية الكلام .

بل إننا لم نعد نستخدم النقطة الواحدة إننا نستخدم النقط الكثيرة هكذا . . فكأن هذه النقط هى علامات تعجب انكسرت عندما وقعت على السطر !

وقبل ذلك عندما صدرت مجلة « الشهر » التى رأس تحريرها الأستاذ أحمد الصاوى . وكنت مع حسن فؤاد وعبد السلام الشريف كل هيئة التحرير فيها . وكان يملك هذه المجلة الأستاذ حامد العبد زوج السيدة لطيفة العبد . فطلبت من العقاد أن يكتب لنا مقالا طويلا . وسألنى : كم يكون طوله ؟ فقلت له : عشرون صفحة . قال : وهو كذلك يا مولانا !

وكان يستخدم كلمة « مولانا » لكل الناس وعليك أن تفسرها على هواك : احتراماً واحتقاراً .

وسلمنى العقاد مقاله وكان عن « الوجودية » . . هجومًا عنيفًا عليها ، فى الموعد المحدد .

وأسعدنا المقال أن يكتبه العقاد . وإن لم يكن قد أسعدنى كل ما جاء فى المقال ، ففى ذلك الوقت كنت أدعو للفسلفة الوجودية وأقوم بتدريسها فى الجامعة . وأصدرت عنها أول كتاب سهل فى اللغة العربية . وبعت منه أكثر من مائة ألف نسخة فى سنة ١٩٥١ . . .

وقررت المجلة أن تدفع للعقاد ثلاثين جنيهًا عن المقال . ورأيت أن هذا المبلغ قليل جدًّا . وخشيت أن أعطيه للعقاد فيغضب . وخشيت أيضًا أن أبعث به مع أحد الأصدقاء فيغضب أكثر . فذهبت للسيدة لطيفة العبد . وطلبت منها أن ترفع مكافأة العقاد . لأنه العقاد . . ولأنه شرف عظيم لنا جميعاً أن يكتب العقاد . . وأمسكت القلم وغيرت فى الرقم فجعلته خمسة وثلاثين جنيهًا ، وقابلت الأستاذ العقاد وأعطيته الشيك . ووضعه فى جيبه . وسألنى إن كان عندى مانع فى أن أرافقه إلى البنك .

فقلت : يسعدنى يا أستاذ .

وسرنا معًا . وذهبنا إلى البنك . وأمسك العقاد الشيك ووقعه ..وأعطاه لصراف البنك . وقلب الرجل فى الشيك واحمر وجهه . ثم توارى . وعاد يتصبب عرقًا وهو يقول : مع احترامى العظيم لك يا أستاذ ولكن الشيك فيه تغيير . والسيدة التى غيرت فى الشيك لم توقع مرة أخرى بجوار هذا التغيير . . طبعًا حضرتك الأستاذ العقاد وكلنا معجبون بك . ولكنه الروتين يا أستاذ .

وغضب العقاد ، ولم أجد رأسى فوق كتفى . وبسرعة امتدت يد العقاد وتحول الشيك إلى قطع تشبه ريش عصفور أبيض انفجرت فيه قنبلة . . وافترقنا عند باب البنك . ولم أعرف بالضبط ما الذى حدث . . وذهبت فورًا الى السيدة لطيفة العبد . . ورويت لها ما حدث . ولا أعرف إن كانت السيدة قد اهتزت لما أقول . ولابد أنها أشفقت تمامًا على هذا الشاب الصغير الذى أصيب فى عزيز لديه . . واقترحت أن تعطيه خمسين جنيهًا بلا شيك . ووافقت . ثم ترددت . فقد خشيت أن يظن العقاد أن هذه الأموال قد جمعناها من جيوبنا نحن الذين نحبه. . أو أنها كانت أكبر أوكانت أقل . . ووافقت السيدة على كتابة شيك آخر ذهبت به إلى العقاد فى بيته . . وكانت الساعة التاسعة مساء . وكان الأستاذ نائمًا . فحمدت الله وتركت الشيك . وأنا مطمئن أن الأستاذ لم يغضب إلى درجة تمنعه من النوم المبكر !

وكنت أداعب العقاد وأقول له : يجب أن تغير هذا البيت الذى تسكنه يا أستاذ !

وكان يسأل : ولماذا يا مولانا ؟

فلم يكن من الصعب أن أقول له : إنه ضيق . وقديم . وغير صحى . .

وكان العقاد يقول : إنه تغير على هذا البيت ستة من الملاك . والعقاد باق . وكان يقول : ولكن هذا البيت له مزايا فلكية . . فالهواء يدخل من هنا . . والشمس تجىء من هنا . . وفى الشتاء أذهب إلى هذه الغرفة . . وفى الصيف أجلس هنا . . وعند تعامد الشمس على مدار السرطان ومدار الجدى وخط الاستواء . . وأشياء كثيرة يقولها العقاد تقنعك بأنه ليس فى الدنيا أحسن ولا أجمل من هذا البيت !

ولم أكن أراه كذلك . فكنت أقول له : هل صحيح ما يقال من أن فى هذه الشقة غرفة استأجرها البواب ؟

– من قال ذلك ؟

– سمعت . . وإن البواب قد ملأها بالصفائح والكراكيب .

– لم يقل ذلك أحد غيرك !

وكنت أقول له : يا أستاذ هل معقول أنك تسكن فى بيت . . به أول وابور جاز دخل مصر ، وآخر كتاب عن الصواريخ ؟

وكان يضحك ولا يرد . فهو حريص على البيت لمزايا فلكية . . وهذا يكفى !

وفى غرفة نومه كل الأحذية الواسعة . . وهذا هو الشيء الذى أختلف فيه مع العقاد . فأنا لا أطيق أن أرى حذاء فى غرفة النوم . وإنما كل الأحذية والشباشب بروائحها وترابها يجب أن تكون بعيدة . ومن المناظر التى تؤذينى وتدهشنى أن أجد فى الأفلام واحد جاء ينام فألقى بحذائه وخلع جوربه ووضعه فى الحذاء وترك الاثنين إلى جوار السرير . وأرى أن المشكلة هنا هى مشكلة سينمائية . . فالمخرج لا يريد الممثل أن يذهب بعيداً عن الموقع الذى يتم تصويره فيه . . فهى عادات سيئة قد حتمها الإخراج وضرورة اختصار حركات الممثلين والممثلات أمام الكاميرا . . وربما كان عذر العقاد أن كل أحذيته واسعة جدًّا مثل ملابسه . . وأن المسافات التى يمشيها قصيرة . . فلا يكون للأحذية رائحة كريهة . . أو لعل البيت قد ضاق بالكتب ، أو لعل أحداً من الذين يخدمون العقاد من الحفاة ويرون فى فصل الحذاء عن السرير عن الجوارب نوعاً من الترف ، كما أن العقاد مشغول برأسه عن قدميه !

والعقاد هو العقاد الطبيب لنفسه ولغيره . وهو نفسه يعالج نفسه تماماً كما يفكر فى نفسه . ولا يجد العقاد فارقاً بين الورقة يكتبها والروشتة يكتبها أيضاً . فلما مرض العقاد وتقلب على جنبيه يشكو من ألم هنا وهناك . عرضت عليه أن آتى له بأستاذ الجراحة فى قصر العينى د. جمال بحيرى . فوافق . وذهب د. جمال بحيرى يسمع من العقاد وهو يصف مرضه . ويشخصه . ويروى له كيف عالج نفسه . وكيف أنه لأسباب طبية يعرفها العقاد قد قام بتنويع الأدوية . .

وكان د. جمال بحيرى يهز رأسه يوافق على ما يقول العقاد . ولما خرجنا . سألت د. بحيرى إن كان الذى قاله العقاد صحيح أو دقيق . فقال : منتهى الدقة . إنه يتحدث كما لو كان أحسن طبيب باطنى !

ويبدو أن العقاد قد حرص على أن يكون الطبيب للعقاد أيضاً . ولم يغير هذا الموقف : أن يكون هو الطبيب والمريض معاً . . ولم يفلح أحد فى إقناعه بغير ذلك . هل هو عناد العقاد ؟ هل هو علم العقاد ؟ هل هو عدم ثقة العقاد بالأطباء ؟

على كل حال إنه العقاد الطبيب الذى قتل العقاد الأديب !

والعقاد كان مشغولاً عن البيت الذى يسكنه بالمعانى التى ترد على رأسه وهو يفكر فيه طالعاً ونازلاً . ففى كتابه «فى بيتى» يقول عن السلم الذى يرتقيه كل يوم :

«كنت أصعده ثلاثاً ثلاثاً . واليوم أصعده واحدة واحدة . . كنت أصعده وبياض شعرى يتوارى فى سواده ، واليوم أصعده وسواد شعرى يتوارى فى بياضه . . » ولم يغير البيت !

وكان العقاد إذا غضب يقول : عندما يحاسبنى الله يوم القيامة فإننى أقول له كيف تحاسبنى وقد خلقتنى فى عصر فلان من الناس ؟

وهذا الفلان يكون زعيماً أو وزيراً أو كاتباً . على حسب الظروف !

* * *

ولا نهاية لما يمكن أن أقوله عن العقاد كاتباً وأستاذاً وصديقاً وفناناً رفيعاً ومحبًّا للنكتة ومهذباً وقارئاً . .

وفى كل ندوة للعقاد كان هو وحده يملؤها : بكل أنواع المعرفة . ويملؤك أنت أيضاً . عقلك وقلبك . وأحلامك . ويرصف الطريق إلى بيتك . وفى فراشك يعلو رأسك إلى السقف وتظل هناك سعيداً بأن تنظر إلى إنسان قد ارتقى وعلا . . ألم يكن فى ندوة العقاد ؟ . فى ندوة بها أكثر من واحد يحمل اسم العقاد . . إنه هيئة . إنه رابطة . إنه مؤتمر . . إذا جلس فلا تقل إنه جلس . وإنما قل : إن العقاد قد انعقد بكامل هيئته . وكل جلسة يتكامل فيها العدد القانونى . وكل رأى هو رأى الأغلبية : الشاعر والناقد والمؤرخ والفيلسوف والمصلح والسياسى ورجل الدين والمصرى وابن النكتة . إنهم جميعاً : عباس محمود العقاد !

لم أستأذنها فى نشر هذا الحديث

كل الشخصيات العظيمة بدأت حياتها من تحت .. الأرض .. من الريف الفقير .
مثلى بدأت ، أوبدءوها لها .. إنها لا تعرف كيف حدث ذلك .. إن كل ما تعرفه أم كلثوم أن والدها دفعها أمامه .. تدخل البيوت .. وتقف أمام الناس .. فينظر إليها الناس ويتعجبون كيف أن طفلة صغيرة تغنى كلاماً كبيراً . وهى لا تدرى ماذا تقول ..

ولكنها تجد الصوت الجميل يخرج منها . وقد اعتمدت على أبيها وفرقته الصغيرة . فإذا فرغت من الغناء اتجهت إلى الشارع تلعب مع الأطفال – أليست طفلة . ولكن بسرعة يجىء من يقول لها : إن هذا لا يصح . ولكنه لا يقول لها : لماذا لا يصح . لا أحد يقول وليست عندها الشجاعة لتسأل . ولا عندهم وقت ليردوا عليها . إنها كالطفل اليابانى أدخلوه الرجولة بسرعة . وهى أيضاً طفلة معجزة أدخلوها الحشمة والوقار . وبلغ الوقار قمته عندما حفظت القرآن الكريم . وحفظها القرآن الكريم .. ثم غنت الموشحات الدينية . وكل ذلك يليق بفتاة جاءت من الريف . وأبوها يريدها أن تختلف تماماً عن المطربات فى ذلك الوقت .. إنها شىء آخر . ويجب أن تكون شيئاً آخر . وشاء لها الله ذلك ..

. إن أم كلثوم قد مرت على البيوت والقرى والمدن .. المستمعون ينتظرونها . وهى التى تستأذن على أبوابهم .. إن الأطفال أسعد اليوم . فكل طفل يغنى . نشرب شربات التوت يسمعه الملايين فى العالم العربى .. فهو بقوة العلم الحديث يدخل كل البيوت .. ولا يستطيع أحد أن يقاومه .. ولكن أم كلثوم سارت على قدميها وركبت الحمير ونامت فى الطريق من قرية إلى قرية .. طفلة مرهقة .. ولكنها لا تعرف أصابع القدر التى تدفعها خطوة خطوة وعاماً وخمسين عاماً .

ولم يحدث فى التاريخ الفنى أن استطاعت امرأة أن تكون « موضة » لا تتغير .. إن الموضة تتغير عاماً بعد عام . إن الموضة هى أكبر دليل على قلق الإنسان .. إنه لا يرضى عن شكله كثيراً .. ولا يستريح

إلى مظهره الذى لا يتغير . . ولذلك فمصممو الموضات يغيرونها . . والمرأة تمشى وراءهم . . أو المرأة هى التى تمل ، ومصممو الأزياء يتابعونها حتى يخلصوها من الملل .

إلا أم كلثوم . . ظلت موضة ثابتة خمسين عاماً . . يتغير العالم حولها وهى لا تتغير ولا يريد منها أحد أن تغير شيئاً . . وإنما أن تكون كما هى . . أغنيتها شرقية . . أداؤها شرقى . . وأن يظهر وراءها التخت . . وأن تكون مطربة . . لا أن تكون منولوجست ولا خطيبة ولا راقصة . . وإنما مطربة . . أى يستمع إليها الناس فيطربون وينتشون . . وأن تغني ساعة واثنتين وأربعًا والناس جلوس ينتظرونها . . وان تذهب السيدات إلى كل حفلة بفستان وتسريحة . . وأن تبقى أم كلثوم كما هى : فستانها الطويل الأنيق الوقور وتسريحتها المتميزة البسيطة . . وأن يلمع الماس فى أذنيها وفى صدرها . . وأن تكون هى بعد ذلك ألمع وأكرم من الأحجار اللامعة الكريمة . .

فإذا وقفت سكت الناس . . وإذا غنت سكت الناس حتى تكتمل جملتها . . وبعد ذلك يصفقون ويصرخون . . وكانت تستمد سعادتها من أصوات الامتنان لها . . مرة واحدة لم تستطع أم كلثوم أن تشير إلى الناس أن يلتزموا الهدوء : يوم جنازتها !

إنها قصة نجاح طويل . . أو قصة طويلة لنجاح أعلى درجات النجاح الفنى . . وقد تفرغت أم كلثوم للغناء . لم تعرف غيره ولم تستطع سواه . . ولا شغلتها الدنيا عن الإتقان فى الأداء ، وعن إعداد نفسها لكل حفلة تواجه فيها الناس كأنها أول مرة . .

المثل يقول : إذا أعطيت للفن كل قدراتك أعطاك الفن بعض مزاياه ، وإذا أعطيت للفن بعض قدراتك لم يعطك الفن شيئاً . .

وكانت قدراتها خارقة فأعطاها الفن كل شىء ، وحب الناس .

ولما سئل إسحاق الموصلى عن أحسن المغنين فى زمانه قال : إنهم أربعة . . وكان أبوه إبراهيم الموصلى أعظمهم ، ثم ذكر ثلاثة مطربين آخرين . . ولما سئل عن صفات المطرب العظيم قال : المطرب كالخطيب أو كالشاعر أو كالكاتب الذى يحسن فنه ، والذى لا يحسن شيئاً آخر . والفنان العظيم هو الذى لا يحسن إلا فنه هو . ولا يمكنك أن تحوله إلى أى فن آخر . . وحياته نفسها لا تشغله عن فنه !

وكانت أم كلثوم تقول . .

والناس يصرخون : «يا سومة» . . ياست . . كمان ياست . .

وما أقرب «سومة» المصرية من «سومة» الهندية . . فى الأساطير الهندية . . يوجد الإله أو الإلهة :

سومة . . إن سومة هذه عندها قدرة عجيبة على أشياء كثيرة . . فإذا أنت عصرت التفاح والرمان والعسل وضوء القمر وصوت سيدة جميلة معاً ، فلديك هذا الرحيق المقدس الذى إذا شربه المريض صحا من مرضه ، وإذا شربه العجوز صار شابا ، وإذا شربته الأرملة عاد إليها زوجها ، وإذا شربه اليتيم وجد أباه فى أحضانه . .

إن «سومة» الهندية قادرة على أن تكون قمراً وأن تكون شمساً وأن تكون عصفوراً . . وأن تكون السعادة وأن تكون الشباب . .

إن «سومة» المصرية كانت كل ذلك لملايين الناس عشرات السنين . . وعلى الرغم من أن أم كلثوم كانت تعلمُ سحرها فقد كانت شديدة التواضع . . بسيطة فلاحة . . وكانت سعيدة لسعادة الناس . وهذا يكفيها . ولكنها ما تعالت ولا تغطرست . . ولا انحرفت . .

وفى آخر مرة قابلت أم كلثوم قالت لى : الغناء دواء . . المطرب إذا غنى تحسنت صحته وارتفعت معنوياته . وأنا لا أتصور أن الفن يقتل صاحبه . الذى يقتل شىء آخر . . أنت تعرفه .

وقلت : هناك ألف نوع من أنواع القتل ؟ فقالت ضاحكة : القتل عندنا له اسم واحد . . وأنتم تضعون له ألف اسم . . وإلا فكيف تملأون الصحف والمجلات ؟

وسمعت من أم كلثوم قصة غريبة . وتعبت حتى عثرت عليها فى كتاب «الأغانى» . . يقال إن مطربة اسمها «جميلة» قررت أن تعتزل الغناء . لماذا ؟ لا أحد يعرف . ولكن فى يوم من الأيام طلبت إلى خادمتها أن تقف بالباب وتدعو كل من تجده إلى بيتها وامتلأ البيت فوق وتحت . وأمرت جميلة هذه بعدد من الخادمات يمسكن المراوح حتى لا يموت الناس من الحر . وبعد أن احتشد أهل المدينة فى بيتها راحوا يصرخون نريد أن نعرف لماذا جمعتنا هنا .

وتقدمت جميلة . وهى بالفعل جميلة الوجه والعنق والصدر والخصر والعينين واليدين وكانت تحب النكتة . وتخترعها . وترويها . ولكنها فى هذا اليوم كانت جادة . فانزعج الناس . وإذا بها تقول للناس : لقد قررت أن أعتزل الغناء . إننى أخاف الله . فقد رأيت حلماً أفزعنى ليلة أمس ، وأخشى أن تكون هذه نهايتى . ولن ينفعنى أحد منكم . وإنما أعمالى الصالحة .

وصرخ الناس جماعة وقالوا : الله يكرمك يا ست . فعلاً لا داعى للغناء . لقد أوجعت قلوب الناس . وفرقت بين الأزواج . وأغرقت المحبين فى العشق . وشغلت الناس عن دينهم ودنياهم . .

وقال آخرون : بل حرام أن تفعلى ذلك . أنت التى جعلت للحياة طعماً . أنت التى جعلت لليل مذاق الخمر والسحر . . حرام عليك . اتقى الله فى قلوب الناس .

ووقف رجل كبير فى السن يقول : وأنا أنقل عن كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى الغناء من أكبر الملذات وأمتعها للنفوس . . إنه يحيى القلب . ويزيد العقل . ويسر النفس وييسر العسير . وتفتح به الجيوش . وتروض به الجبابرة حتى يشعروا بالخجل بعد سماعه . ويشفى المريض . ويحرك الذى مات عقله وقلبه . ويزيد أهل الثروة غنى . ويجعل الفقراء أكثر قناعة بما عندهم . ومن تمسك بالغناء كان عالماً ، ومن فارقه كان جاهلاً . فلا شىء أرفع منه ولا شىء أروع منه . . فكيف تتركين ذلك - ؟ وكيف لا تستعينين بالغناء على عبادة الله وعلى الدعوة إلى الإيمان ؟ .

ثم التفت الرجل إلى جميلة وقال لها : فهمت ؟

قالت : نعم فهمت . .

قال : إذن اطلبى من الناس أن يخرجوا جميعاً وأسمعينا أغانيك الجميلة . . إن متاع الدنيا قليل . . وأنت المتاع القليل !

قالت لى أم كلثوم : تصور خطورة الطرب على نفوس وحياة الناس . . تصور كيف كانوا يشعرون بالفن وجماله . . وكيف يشعرون بأهمية الفنان وخطورته على حياتهم وقلوبهم . إن الفنان أيضاً يجب أن يشعر بأهميته . فإذا شعر بذلك كان جادًّا . وكان حريصاً على أن يكون دائماً عند حسن ظن الناس . وهذا يرهقه ويعذبه . ولكن هذا هو «أعذب» ما فى الفن - أى يلتقى فيه العذاب والعذوبة !

ولكن ليس كل المشتغلين ، والمشتغلات بالفن فى جدية أم كلثوم . .

قلت لها : ما رأيك فى محمد عبد الوهاب ؟

- قمة فى كل شىء . . .

ولم أشأ أن أستوضحها . يكفى أنه قمة والسلام . . قمة . هل معقول أننى لا أعرف معنى القمة . ثم إن أم كلثوم هى التى تقول خلاص : عبد الوهاب قمة .

- والسنباطى ؟

- إنه الوحيد الذى يستطيع أن يتذوق الشعر . ويستطيع أن يلحنه ولا أظن أحداً قد أوتى هذه الموهبة .

- والموجى ؟

قالت : إن له ملامح خاصة . وله مزايا تعرفها بسهولة . وهو شرقى مصرى وفنه نابع منه . وجملته الموسيقية حلوة . .

- وكمال الطويل ؟

– موهوب . وعباراته جديدة . وشاب . ولكن ليس عنده صبر . .

وقد سألت أم كلثوم يومها ، وكان ذلك آخر لقاء صحفى أجريته ، أو أجرى معها . . وقد نشرت نصف هذا الحديث . . ووعدتها بألا أنشر شيئاً عن الباقى . فهى لا تريد أن تجرح أحداً . وإذا رأت أن تقديرها لبعض الفنانين والفنانات مما يسعد الجميع ، فلا مانع من النشر . وقد نشرت بعض الذى قالته . وأعود اليوم ، والله على ما أقول شهيد ، فأنشر جانباً آخر . ولا أريد أن أجرح على لسانها أحداً . ثم إنها ماتت .

سألتها عن عبد الحليم حافظ قالت : صوته جميل جدًّا . وهو قادر على أن يطربك ويشجيك ولاأعتقد أن عندنا صوتاً فى جمال صوت عبد الحليم . .

– ومحمد عبد المطلب ؟

– ابن بلد . . وجدع . وفيه نبرة مصرية شعبية . والجدعنة التى فى صوته تجعلك تضحك أوْ تفرح به . . لأنه جدع فى زمن اختفت فيه الجدعنة . . ثم إن أولاد البلد أصبحوا يخجلون من أنهم أولاد بلد . وقد لاحظت أن التليفزيون يصور لنا أولاد البلد على أنهم لصوص وحشاشون . . فى حين أن « الجدعنة » كالبطولة ، صفات نبيلة وقيم محترمة . .

– ومحمد رشدى ؟

– أيضا ابن بلد . . وصوته فيه نبرة حلوة . . ولكن أخشى عليه أن يتفرنج . . أو يخجل هو أيضا من أنه ابن بلد . . مع أن أولاد البلد أغلبية . ويحبون من يحبهم ، ومن يشعر بوجودهم . .

– ومحمد العزبى ؟

– لم أستمع إليه كثيراً . . ولكن فى إحدى المرات جلست أمام التليفزيون أتفرج عليه . . صوته شرقى . وهو أيضا من أولاد البلد ، صوته بلدى ، وإن كانت ملامحه مسمسمة . . ولكن يظهر أنه ليس نشيطا . فأنا لاأجده كثيرا . ولكن صوته حلو ومريح للأذن . .

– ومحمد قنديل ؟

– آه . . هذا هو الصوت الجميل القوى . . وله أغنيات بديعة . . ولكنه يشبه أغنياء الفلاحين . . الواحد منهم يضع الفلوس فى جيبه . . ولايعرف كيف يستثمرها . . أو يخاف أن يقول للناس إن عنده فلوسا حتى لايسرقوه أو يحسدوه . . وإذا أراد أن يقول لهم إن لديه فلوسا ، فإنه يفك الورقة ذات الجنيه إلى قروش ويظل يشخشخ القروش فى جيبه . . لاأعرف بالضبط هل محمد قنديل ساذج . . أو جاهل أو لايعرف أن حنجرته ممتازة ، وأنه قادر على أن يؤدى وأن يكون ممتعاً . . والله نسيت أسأل . .

وسألتها عن المطربات . . وقالت رأيها بوضوح ولكن طلبت منى ألاأنشر شيئا من ذلك . . فيما عدا رأيها فى فايزة أحمد وشادية . .

ورأيها فى فايزة أحمد أن صوتها جميل جدًّا ، وأن قدرتها الفنية هائلة . .

وأن شادية صاحبة صوت ظريف وحلو . . وأن صوتها وسط بين الغناء والوشوشة . وربما كان هذا هو سر شعور الناس بالراحة لأغانى شادية .

اما بقية المطربات فقد تناقشت مع على أمين ومصطفى أمين ومأمون الشناوى أن كان من اللائق أن أنشر رأى أم كلثوم فى المطربات رغم حرصها ألاتجرح أحدًا . وقال بعضهم : يجب أن تنشر . . إنها أم كلثوم . وهذا رأيها .

وقال البعض : بل يجب أن تحترم وصيتها . ثم إنه لاداعى لأن يكرهها أو يغضب منها أحد بعد أن ماتت بعد أن تساوت حولها ووراءها دموع اللاتى أحببن أم كلثوم واللاتى لم تحببهن أم كلثوم .

ولذلك رأيت أن أنشر رأى أم كلثوم فى المطربات دون ذكر لأسمائهن ، قلت لها : أظنك سمعت أغنيتها الأخيرة ؟

– آه . . . لم تعجبنى فهذه السيدة صوتها قوى . . وصحتها جيدة . . ولكن عيبها أن قوتها لاتلين . . أو أنها غير قادرة على تطويع صوتها . . ولذلك أرى أن صوتها ليست له شخصية . . فهى مرة مثل سعاد محمد ومرة مثل فايزة أحمد ومرة مثلى . .

قلت : أم كلثوم . . أو تحاول ذلك . . . ؟

– آه . . يعنى . .

– وهل تعجبك فلانة هذه أيضا ؟

– كانت تعجبنى أول الأمر . . عندما تحاول أن تتجاوز قدراتها فإنها تتعب وتعجز ، وتبدو مرهقة . . إن صوتها ربع غناء . . والباقى إكراه على الغناء أو إكراه الناس على سماع الغناء . . ولذلك ألاحظ أنها تستعين بوسائل غير فنية لكى تلفت الناس . . وأنا أندهش حقيقة : هل يستطيع الإنسان إذا لم يكن مطربًا أو موهوبًا أن يضحك على الناس فيصدقوا أنه مطرب . . لاأظن أنه يمكن إكراه الناس وخصوصا فيما يتعلق بالذوق . .

هذا رأيى .

– وفلانة . . وإنها تحاول أن تقف وتشد حيلها وتغنى . . ؟

– ها . . ها . . إنها طيبة .

وسكتت أم كلثوم فقلت لها : قصدك عبيطة ؟

– لا ليست عبيطة . . ولكن طيبة والسلام.

– رأيك الفنى

– لازم يغنى . .

– ضرورى .

– . . هى عادة تزعق . . الأصل عندها فى الغناء أن تزعق . . وفجأة تكتشف أنه يجب أن تغنى فتغنى . . ومن الغريب أنه يمكنك أن تلاحظ ذلك . . ويمكنك أن تلاحظها وهى تستدرك . . أو هى تصلح نفسها . . تماماً كما تخرج واحدة من بيتها وتكتشف أن ظهرها مفتوح . . فإذا بها تتزعج بوضوح . . ثم تصلح فستانها وتقفل ظهرها أمام الناس . . ولكنها طيبة !

وأصرت أم كلثوم على أنها طيبة . .

وقلت لها : وهذه . . أنا أعرف أن رأيك فيها كويس . . وإنك تحبينها وأنها تحبك أيضا .

– صحيح . . ولكنها تحاول . . وهذا النوع من المطربات يخدمهن الميكرفون . . ثم تجىء المظاهر فتساعدها مرة أخرى . . فساتينها وملامحها وحرصها على أن تكون على طبيعتها . . وأن تشعرك أنك فى بيتها أو ضيفها أو هى ضيفتك . . ونحن كشرقيين نكرم الضيوف . . وصوتها مقبول . . وأغانيها لاترهقك . . ولاترهقها أيضا . .

قلت لأم كلثوم : مارأيك فى بقية الأصوات ؟

وظهر الضيق على وجهها والامتعاض الشديد . . وقالت : لابد أن تكون لدينا طرق أخرى للحصول على أصوات جديدة . . دراسة مدربة . . شىء غريب حدث فى الروح المصرية . . هل حبنا للنكتة انتقل من مجرد اختراع النكتة وروايتها إلى الأغانى . . إننى ألاحظ أن كل إعلانات التليفزيون عبارة عن نكت غنائية أو أغنيات مضحكة . . وأرى أنها أثرت على الأصوات الجديدة . . وأعتقد أنها أثرت عليها حتى الموت . . وهذه غلطة فظيعة فالطرب شىء آخر . . والغناء له معنى ووسائل غير هذا الذى انتشر بين الأصوات حتى لاتكون نكتة ، فالنكتة عمرها قصير !

ثم التفتت إلى وهى تضحك وتهتز بشدة : صحيح أنك كنت تريد أن تغنى . . والله غنِّ يا شيخ . . غنِّ والنبى خلينا نضحك شوية !

النشيد القومى :

هلت ليالى القمر

وأقسمت لأم كلثوم أننى غنيت لها . . وأقسمت أن أروى لها كيف حدث ذلك . . ثم قالت :

ياأخى يقولون إنك رجل طيب . . ولكن الذى أسمعه منك هو منتهى الفجر ! وأصرت أن أحكى لها كيف سافرت إلى فيينا من عشرين عاما . وهناك سمعت أن مهرجاناً للشباب قد انعقد . وذهبت وسألونى قلت : مصرى . . وسألونى طالب ؟ قلت : نعم مع أننى كنت مدرسًا للفلسفة بكلية الآداب . . ولكن شكلى فى ذلك الوقت يبدو كذلك .

ودفعونى إلى الميكرفون وسألونى عن الحياة فى مصر . . وعن حرية الفتاة . . وعن الأدب والفن . . وإن كانت هذه زيارتى الأولى للنمسا . . فقلت الرابعة . . وإنها أعجبتنى كثيراً . . وسوف أتردد عليها كلما جئت إلى أوربا . .

ثم جاءت اللحظة الرهيبة . . وأحسست كأننى أحد رجال السيرك . وأننى يجب أن أقفز من فوق إلى حوض من الماء البارد على ظهر حصان –كما كان يحدث فى سيرك على حسن بإمبابه من عشرين عاما . . وقيل لى : هل تسمعنا النشيد القومى المصرى ؟

وفى هذه اللحظة نسيت كل شىء . . بل إن الناس جميعاً خيول ترفسنى . . بل إنها رفستنى بالفعل . . وتساندت على الميكرفون ونشطت غريزة البقاء فى وجه العاصفة وانفتح فمى يقول : هلت ليالى القمر . . يحلى مابنا السهر . . لأم كلثوم . .

وقلتها بصوت شديد الحماس أوتوهمت ذلك . وأنزلونى ولاأقول إننى نزلت من فوق المنصة . . وجلست فى مكان لاأرى فيه أحدا وإنما كل ماحولى أصوات غامضة وما أمامى وجوه مبهمة وأنا نفسى لاأعرف هل أنا غير موجود أوكنت موجوداً . .

وقالت أم كلثوم : أحب أسمع الآن كيف فضحتنا عند الخواجات . . والله لازم أسمعك .

ووقفت وقلت متحمسا كأننى أهتف فى مظاهرة : هلت ليالى القمر . .

وضحكت أم كلثوم وهى تقول : ولما انت خوفت القمر بهذا الشكل طلع القمر ؟

ولما وجدت أم كلثوم مرحة رقيقة . قلت لها :

وفى مرة - قاطعتنى قائلة : وفى مرة غنيت أيضا ؟

فقلت : حدث وكان ذلك فى اليابان وفى جلسة هادئة ضمت الأمريكى والإيطالى والفرنسى والهندى . . وكانوا جميعاً صحفيين . . وكان الذى دعانا رجل صينى . .

وغنى كل واحد منا أغنية . . ولم تكن الأصوات جميلة . . وإنما هم أناس يحاولون أن يجعلوها ليلة ممتعة . ومطلوب من كل واحد منا أن يترجم الأغنية لزملائه وتحشرجت الأصوات وتبعتها الضحكات . . وجاء دورى .

وقلت : واحنا معانا قرد . .

- ماهذا ؟

- أغنية . . لأم كلثوم . . صبرك . . وقلت : واحنا معانا قرد . . طلع فى ليلة برد . . وقلت : قبل أن تقاطعنى أم كلثوم قلت لها : لقد نظرت إلى جوارى فوجدت صاحب الدعوة كالقرد تماما . . وغير معقول أن أردد وراءك : واحنا معانا بدر طالع فى ليلة قدر . .

ولاأظن أننى رأيت أم كلثوم قد ضحكت من كل قلبها كما فعلت فى ذلك اليوم فى حديقة بيتها بالزمالك . .

قلت لأم كلثوم : لو قلت لك غنى الآن فماذا تفعلين ؟

قالت : ولاحاجة !

قلت : كيف !

قالت : كأنى لم أسمع !

قلت : لو قلت لك سأغنى الآن فماذا تفعلين ؟

قالت : ولاحاجة !

فقلت : كيف ؟

قالت : كأنك لم تقل شيئاً !

فعلا أم كلثوم فنانة جادة جدًّا . كل شيء عندها صعب أو يجب أن تنظر إليه على أنه صعب ولذلك فهى لاتستخف بأحد أو بشيء . . وأن تستعد بنفس الحماس والخوف للحفلة التى يحضرها ألف شخص تماما كالحفلة التى يحضرها مائة أو عشرون

ولما قالت لى أم كلثوم إنها جادة جدًّا فى جميع الظروف . وجدت تفسيراً لسؤال قديم فقد رأيتها وأنا طالب فى الجامعة وكنت فى ذلك الوقت أسكن فى البيت رقم ٣٨ شارع الأمير حسين بالزمالك ولم يكن بيتا وإنما كان قصراً تملكه السيدة نعمت هانم يكن . وكنت أسكن مع والدى فى فيلا صغيرة مجاورة للقصر . . فيها المكتب وفيها غرف النوم ، وكان والدى فى ذلك الوقت يعمل مأموراً لتفاتيش آل يكن : عدلى باشا وعز الدين بك ونعمت هانم .

ولم أكن عرفت شيئا عن أم كلثوم . . ولاسمعت بها إلا من الراديو . وأحيانا أعرف أنها تسكن فى إحدى قرى الدقهلية وأن من أسباب سعادة الناس وفخرهم أنها من الدقهلية مثل لطفى السيد . . ولاأعرف السبب الواضح لمجيء أم كلثوم .. ولكن أضيئت طرقات الحديقة . . وعلقت المصابيح على

القصر من الخارج . . وفرشت الأرض بالرمل ووضعت السجاجيد الحمراء . . والتف البوابون والسفرجية والسائقون ولأنهم يعملون عند بكوات وباشوات فلم يكن انتظارهم لأم كلثوم شيئا غير عادى ، لقد عرفوها أورأوها أوسمعوها . .

لست على يقين من شيء الآن . . ولكن نظراتهم هادئة ليست فيها قلق وخوف . . فأنا لاأعرف أم كلثوم ولارأيتها قبل ذلك . . ولاأعرف إن كان أحد سيأذن لنا بالدخول إلى القصر لنسمع أم كلثوم . . وفجأة جاءت سيدة تمشى على الأرض . . على قدميها . ، لاسيارة . . ولاشيء غير عادى . . كل ما أذكره أنها ارتدت فستانا وفوقه بالطو . وفى يدها منديل . . ومن ورائها رجال يحملون الآلات الموسيقية . . إنها تعرف الطريق . . وصعدت . . ودخلت وأقفلوا الباب . . وظل الناس واقفين ومضت ساعة والناس فى أماكنهم فى هدوء غريب وأنا لاأجد حتى والدى أسأله . . فقد تركنى ليجلس مع الناس الكبار . .

وظللت واقفا ولاأسأل أحداً وفجأة بدأنا نسمع صوت الآلات الموسيقية الذى يسبق الغناء . . ولم يظهر على الناس أى حماس أو أى قلق ، إنهم يعرفون ذلك مقدماً ووجدت أناسا يتسللون من السلم الخلفى إلى داخل القصر وتسللت . . ولم تكن ثعمت هانم سيدة يسهل التفاهم معها . وفجأة وجدتها أمامى وأشارت لى أن أدخل ودخلت أوأدخلت ووجدت عشرين طربوشاً طويلا . . وتحت كل طربوش منظر كبير وشارب مرفوع . . هؤلاء إذن هم الباشوات جاءت لهم أم كلثوم . .

والباقى معروف فقد غنت أم كلثوم وصفق الناس فى الشارع . . وفتحوا باب القصر وباب القاعة لا لكى يسمعها الناس ولكن لكى تسمع هى الناس وهم يصرخون : الله ياست . .

أما الناس فهم يسمعونها من الميكرفون المعلق على الباب . .

الغريب هو أن أم كلثوم كانت تغنى بحماس شديد رغم أن الجالسين أمامها فى غاية الجمود والشرود . . كأنها تغنى للملايين فى كل مكان . . كأنها لاترى الجالسين أمامها . . أوكأنها ترى الناس فى البيوت وقد رأوها وسمعوها . .

هذا هو الذى أدهشنى . . هذا الحماس الشديد . . هذه الجدية . . هذا الإحساس بضرورة التفوق والتفانى فى الفن .

ولذلك قالت لى : واحد مثل ألف . . يجب أن أكون فى أحسن حالاتى . . فأنا عندما أسجل أغنياتى لايكون هناك أحد بالمرة . . إننى وحدى . . ولكنى أرى مالايراه الناس . . إننى أغنى وكأن القاعة قد امتلأت بملايين الناس . . ولو أحسست لحظة واحدة بأنه لاأحد هناك ، فإننى أموت فى

جلدى . . أو أموت !

وقالت أم كلثوم : إننى أتذكر تعبيرًا عجيباً للمرحوم كامل الشناوى . . مرة قال : إنه ذهب إلى أحد المقاهى . . وكان المقهى مليئاً بصوت الراديو والناس وصوت الطاولة والباعة الجائلين . . ولكن عندما دخل المقهى سكت كل شيء فجأة ، وخيل إليه ان الجدران سوف تقع . . المقهى جميل . . إنه يريد أن يقول إن الضوضاء مثل الجدران كمثل المبنى كله . . فإذا سكت انهار . . وأعتقد أن لدى شعوراً كهذا إن حولى ملايين الناس يتهامسون . . ينتظرون ليصفقوا . . ولو أيقنت ولو لحظة واحدة أنهم سكتوا . . لانهرت من طولى !

وهذا يفسر ماذا أصاب أم كلثوم فى شهورها الأخيرة . . سكت حولها كل شيء . . فلا أحد يسأل ولا أحد يكتب . . لا صورة ولا سطر فى أية صحيفة . . صمت رهيب . . وبعده انهارت أعمدة أم كلثوم واحدًا بعد واحد . . حتى الموت !

سألتها : هل تخافين الليل ؟

– أحب الليل . . وأحب أن أنظر إلى السماء . . وإلى النجوم . . وأتأمل قدرة الله . . ولكن أخاف أن أكون وحدى . .

– ولكنك وحدك . . أقصد ولكنك وحدك على القمة . .

– وهذا مايخيفنى أيضاً . . فالطريق لم يكن سهلا . . والبقاء ليس سهلا . .

– ولكنك اعتدت على هذه الصعوبة حتى أصبحت سهلة .

– اعتدت على الصعوبات ولكنها لم تعد سهلة ، إنها صعوبات تتجدد . .

– اعتيادك على الصعوبات المتجددة واضح ، فى طابعك الاستعداد الدائم لها حتى كأنك مطربة مبتدئة . . أو فنانة فى أول الطريق . .

– أنا فعلا فى أول الطريق . . فالطريق طويل جدًّا . . ولذلك أحب أن يشعر كل الشبان بذلك . . أن يشعروا بالصعوبة وفى نفس الوقت يجب أن يكون هناك مانع من التشاؤم .

– وما الذى يخيفك فى وحدتك ؟

– الوحدة نفسها . .

– يعنى ؟

– يعنى أن ينفض الناس بالألوف من حولك .

صحيح لدى شعور بأننى أسعدت الناس أو ساهمت فى ذلك ولكن بعد هذه الحفلات أبقى وحدى . . وفى أذنى أصداء وأنغام . وبصراحة أخاف من العفاريت . .

– ولكن من الذى أتى بسيرة العفاريت ؟

– إننى أرى العفرتة فى عينيك . . أنا أخاف من هذه السيرة . . لماذا لاأعرف . . ولكن لم أر عفريتا . . ونحن أطفال كانوا يقولون إن كل شيء يصبح عفريتا بعد غروب الشمس فامتلأت الدنيا عفاريت حتى لم يعد شيء يخيف . . وأعتقد أن هذه تربية خاطئة . . ولكن ما الذى تتوقعه من أهل الريف . ؟

وفى إحدى الليالى فى بيت أحمد فراج صاحب برنامج « نور على نور » جاء رجل من الذين يعملون بالجن وقال لأم كلثوم إننى أستطيع أن أعالجك من شكواك من أوجاع فى ذراعك . .

وسألته : كيف ؟

قال : بالجن . . .

وصرخت أم كلثوم : الروماتيزم أحسن !

وفى يوم آخر فى بيت الوزير السعودى أسعد أبو النصر . جاء رجل من الذين يعملون مع الجن وطلب من أم كلثوم أن تعطيه دبلتها الذهبية ليلقى بها فى النيل ويطلب إلى الجن أن يحضروها فوراً . .

وترددت أم كلثوم كأى فتاة صغيرة ريفية . .

وقالت : لا . . لا . . إننى أتشاءم من هذه الأشياء

وتقدم د . حسن الحفناوى زوج أم كلثوم واستأذنها فى أن يخلع دبلته هو ووافقت ثم جاء الرجل ووضع الدبلة فى كوب من الماء . . ورأيت الكوب والدبلة بوضوح ثم فتح النافذة وألقى بالكوب والماء والدبلة من النافذة . وأغلقت النافذة . وجلسنا ننتظر ظهور الدبلة .

وخيرها الرجل بين أن تجد الدبلة تحت مخدتها فى البيت أو فى شنطة يدها . . فقالت فى فزع : فى البيت ؟ يعنى العفاريت تدخل غرفتى وتضع الدبلة تحت المخدة . . مستحيل . . لاأريد عفاريت فى بيتى . . أنا لاأريد الدبلة . .

وأخيراً طلب إليها أن تفتح حقيبتها وتبحث عن الدبلة . وفتشت الحقيبة ووجدت الدبلة ، ومن شدة خوفها ألقت بها على الأرض وطلبت إلى زوجها أن يشترى دبلة أخرى غير هذه الدبلة المعفرتة !

قلت لأم كلثوم : عندما جاء إلى القاهرة المخرج الأمريكى الكبير سيسيل دى ميل لتصوير مشاهد من فيلم « الوصايا العشر » عقد مؤتمراً صحفياً . . وسألته ماهى فى رأيك الوصايا العشر لكى يكون أى فيلم ناجحا ؟

فأجاب : الوصايا التسع الأولى هى أن يكون هناك قصة جيدة . . والوصية العاشرة هى التصوير والحوار والسيناريو والإخراج . .

فما هى فى رأيك الوصايا العشر لكى تكون الفنانة ناجحة . .

قالت أم كلثوم : الوصايا التسع الأولى أن تكون فنانة . . أن تكون موهبة وأن تعرف تماما أن الموهبة جوهرة وأن الجوهرة لابد من صيانتها إننا لانضع الخواتم فوق أصابعنا ، إننا نحمى الماس بالخواتم الذهبية فهذا الخاتم هو حامى الماسة ، كذلك الفن يجب أن نحميه وأن نصونه وأن نضعه لافى أصابعنا أوآذاننا أوعلى صدورنا وإنما أن نضعه فى عيوننا من الداخل . .

قلت لأم كلثوم : هناك أساطير وخرافات عن حياتك عن طعامك وشرابك . .

– لاتوجد أية أساطير . . أنا إنسانة عادية جدا آكل وأشرب كأى إنسان ولو عرف الناس ما الذى آكله لاندهشوا آكل أى شيء يخطر على بالى خبز وجبنة قديمة . . وآكل فسيخ وآكل الفول الأخضر . . أى شيء . . فلايوجد هناك طعام سرى أوسحرى . . ولوكان الطعام هو وحده الذى يصنع الفنان . . لكانت الحيوانات أجمل منى صوتا فهى تأكل كل شيء أولكان الأغنياء هم أصحاب أجمل الحناجر . . .

ولكنها حكمة الله أن جعل الحنجرة هى رد الاعتبار للفقراء . . وهى « جواز مرور» لتفوقهم على غيرهم من الناس . . فالموهبة لاتشتريها بالفلوس . . ولكن الموهبة من الممكن أن تبددها الفلوس . . إذا استخدمتها لغير الفن وهذا يحدث كثيراً الآن مع الأسف . .

قلت لأم كلثوم إن كاتباً فرنسيًا اسمه « موريس مساجيه » له كتاب كبير اسمه « الإنسان والنباتات » فى هذا الكتاب يصف أثر النباتات على حياة الإنسان . . ويرى أن كل الأمراض يمكن علاجها بالنباتات . . بل يرى أن النباتات لها أثر على الحناجر وخصوصا حناجر المطربين والمطربات والخطباء

ويقول إن المطربة الفرنسية أديت بياف كانت تتردد عليه لعلاجها بالنباتات .

– كيف يعالجها بالنباتات ؟

– يصف لها أنواعاً خاصة من الطعام إذا ماشعرت بأن صوتها قد انحاش !

– لا أظن أنى ، والحمد لله فى حاجة إلى هذا الرجل الفرنسى . . فربما كانت المطربة الفرنسية تشرب الخمر وتدخن . . طبيعى وهذه الخمر والسجائر ضارة بصحة الحنجرة وضارة بصدر المطرب والمطرب يجب أن يصون جسمه ، لأن جسمه هو الجهاز الذى ينطلق منه الصوت ، إنه الآلة التى يعزف عليها . . وكما أن العازف يجب أن يضبط أوتاره وأن يجددها وأن يتدرب عليها فكذلك المطرب

ولاأظن أننى احتجت إلى شىء من ذلك فأنا أعمل ماهو عادى وربنا عليه الباقى ، والحمد لله أنا شخصيا سمعت أن الناس يتصورون أن الينسون مناسب للصوت ، وسمعت أنهم يقولون إنها القرفة . . وأنا أشرب مثل هذه السوائل لأننى لاأشرب غيرها . . ولكنها لاتجلو الصوت ولاتصنع المعجزة . .

والمعجزة هنا . . « وأشارت إلى رأسها » . . والمعجزة هنا « وأشارت إلى يديها دليلا على الإرادة والتصميم » وهنا « وأشارت إلى قلبها » . . ولكن أولا وقبل كل شىء هنا « وأشارت إلى السماء » . .

آمنت بالله الذى من معجزاته : أم كلثوم أخرى

الذين ماتوا يوم القيامة !

فى الأدب الفرعونى قصة معروفة باسم قصة « ساتنى » بطل هذه القصة يحكى كيف أنه كان يطل من النافذة فوجد جنازة ضخمة . . الناس يصرخون ويبكون . . والنساء يلطمن الوجوه ويمزقن الملابس . . ويملن على الأرض ويحملن التراب ويضعنه على الرؤوس . . وعندما لا تسعفهن الأرض بترابها يرتمين على الأرض ويتمرغن . .

وسأل : من الميت ؟

قالوا : رجل عظيم .

وهز البطل رأسه بما معناه أن هذه هى حال الدنيا . . وأنه لابد أن ينتقل الإنسان من شاطئ إلى شاطئ . . وفى الشاطئ الآخر لاندرى ماذا يحدث . . ثم إن أحداً لم يعد من الشاطئ الآخر ليخبرنا بماذا جرى له . .

ثم أدار رأسه ليرى شيئاً عجيباً . . لقد رأى رجلاً يمشى ثقيلاً . . إنه يحمل على رأسه جثة إنسان ميت . . والميت ملفوف فى قماش والقماش ملفوف بالقش . . وكان الرجل يمشى وحده . .

وضحك البطل وهو يقول : ميت يحمل ميت . . إنه ميت سعيد الحظ وجد من يحمله . . والذى يحمله ليس سعيد الحظ إلى هذه الدرجة . . فربما لم يجد أحداً بعد ذلك يحمله . . وأدرك أن هذه جنازة رجل فقير . .

سأل عن الرجل الفقير ، قال إنه رجل طيب . ولكنه مسكين . . .

ويقال إن أوزريس رأى الجنازتين . فغضب وقبل أن يدفنوا الرجل العظيم . . حمل أوزريس هذا الإنسان الفقير ودفنه بنفسه . . لأن له قلباً كبيراً . .

ولكن الآلهة فقط هى التى تستطيع أن تلمح جنازة الإنسان الصغير . . أما الناس فقد اتجهوا إلى جنازة العظيم أو جنازة الغنى ولكن الذين هم طيبون وفقراء ، فالآلهة وحدها هى القادرة على أن تلمح جنازاتهم . .

وقد حدث ذلك كثيراً وعشرات المرات . . حدث أن مات شخص عظيم . . ولم يدر الناس بشخص آخر مات فى نفس الوقت . لأنه أقل عظمة . .

يحدث كثيراً جدًّا أن تطلع الشمس فتتوارى الشموع . .

وعندما تغيب الشمس ، تزداد الدنيا ظلاماً . وتتساقط الشموع وتذوى . . شىء عجيب . . هل فى كل مرة يغيب نجم كبير – يكون غيابه موتاً مضاعفاً لنجوم أصغر . .

فعندما أطلق الرصاص على سعد زغلول توفى الأديب المنفلوطى ، فاتجه الناس إلى سعد زغلول . . ولم يمش فى جنازة المنفلوطى إلا عشرة من الناس . .

عندما قتل الرئيس الأمريكى كنيدى مات الأديب الكبير ألدوس هكسلى . . ولم نعرف بوفاة الكاتب العظيم إلا بعد ذلك بأيام . .

وعندما مات طه حسين توفى الأديب الدكتور حسن عثمان الذى ترجم « الملهاة المقدسة » للشاعر الإيطالى العظيم دانتى الليجرى . . وفى الحزن على طه حسين ، لم يلتفت أحد إلى حسن عثمان الذى نكب قبل ذلك باختفاء زوجته فى مياه البحر لسبب غير معروف .

ولما مات كامل الشناوى توفى صديقه وصديقنا الصحفى أحمد الألفى عطية . . فذابت العيون على كامل الشناوى ، ولم نجد عيناً ننظر بها إلى الألفى عطية . .

وفى ذكرى الأربعين للمشير أحمد إسماعيل أحد أبطال حرب أكتوبر وفى ذكرى الأربعين للفنان فريد الأطرش ماتت أم كلثوم فاهتزت القلوب وجفت الدموع ولم يبق فى قلب إنسان آهة واحدة لم يرفرف بها على قبر فقيد آخر . .

وماتت مع أم كلثوم والدة كاتبنا الكبير توفيق الحكيم ، ولم يشعر بذلك أحد . . ومات صحفى كبير هو وليام باسيلى . ومات آخرون ، ولو كانوا أعظم ، فإن أم كلثوم قد استولت ، فى مماتها ، وفى حياتها على كل عواطف الناس . .

مسكين من مات يوم اختفت أم كلثوم أو قبل ذلك أو بعد ذلك . . إن حياتها شمس تختفى فيها كل الشموع . . وبعد وقبل وأثناء موتها ظلام تتضاءل فيه الشموع والشموس أيضاً . .

ولا يزال أمير الشعراء شوقى أعظم القائلين عندما مات المنفلوطى يوم محاولة اغتيال سعد زغلول . . قال ينعى المنفلوطى ويندب حظه وكأنه يلومه : كيف اختار هذا اليوم ليموت فيه . قال شوقى :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مات فى فزع القيامة لم يجد قدماً تشيع أو حفاوة ساعى

فى يوم من الأيام طلبتنى أم كلثوم وقالت لى : أريد منك خدمة .

- أى شىء .

- أنا أريد عفريتاً .

- الدنيا مليئة بالعفاريت . .

- عفريت مصور . . هذا هو الذى أريده فوراً !

وكان العفريت المطلوب هو مصور شاب ممتاز ليرافق أم كلثوم فى رحلتها الفنية .

ووجدت العفريت . وطلبت إلى فاروق إبراهيم أن يذهب لأم كلثوم ، لأنها تريده . ولكن فاروق إبراهيم ذهب إلى الإسكندرية ليشهد إحدى حفلاتها . ولعبت الكاميرا فى يده . والتقط لها عدة صور . أعجبت بها أم كلثوم . وسألتنى عن المصور الذى التقط لها هذه الصور البارعة . فقلت لها : هو فاروق إبراهيم . . شاب عفريت . . وسوف يكون شيئاً هامًّا إذا أنت عرفته وشجعته . . وكلمة واحدة منك ترفعه من الأرض إلى السماء . . ويصبح واحداً من الشبان الذين احتضنتهم . .

وضحكت أم كلثوم وهى تقول : أنا أرفعه فوق . . والباقى عليه هو . .

وحرص فاروق إبراهيم على « الباقى » هذا . . فرافق أم كلثوم فى الشرق والغرب . . وقفز حولها وأمامها . . والتقط لها مئات الصور التى انفردت « آخر ساعة » بنشرها فى حينها .

وأقام فاروق معرضاً لأم كلثوم فى الكويت وافتتحت أم كلثوم المعرض . . وكان فى استطاعة فاروق إبراهيم أن يكسب الألوف من الجنيهات لو أنه وافق على أن يبيع الصورة الواحدة لأم كلثوم بمائة جنيه . . ولكنه وجد أن « المجد » لا يقدر بثمن . . أما المجد فهو أن ينفرد وحده بكل زوايا الفنانة العظيمة أم كلثوم . . وأن يكون واحداً من العازفين فى فرقتها . . صحيح أنه لا يعزف على عود أو على كمان . . وإنما هو يعزف على الكاميرا . . وكانت صوره لأم كلثوم دائماً هى الأداء الجميل وهى الفن الرفيع . .

وفى إحدى المرات قال لأم كلثوم : إن سيدة من الكويت طلبت إليه أن يترك كل صور معرض أم كلثوم مقابل بضعة ألوف من الدنانير . .

وانزعجت أم كلثوم وهى تقول : وهل وافقت ؟

فقال : طبعاً لا . . إن أم كلثوم فى نظرى أغلى من ذلك !

ونسى فاروق إبراهيم أن يصور الأضواء واللمعان والامتنان على وجه أم كلثوم فى تلك اللحظة . . وهذه هى الصورة الوحيدة التى نسى فاروق إبراهيم أن يصورها !

حياتى ٤٠ عاما مع التى غابت ٤٠ يوما

الصدفة

جمعت بين أم كلثوم ورياض السنباطى من حوالى خمسين سنة عند منتصف الليل تحت خيمة فى محطة سكك حديد قرية درين . . كانت أم كلثوم وأبوها وأخوها وأولاد عمها يغنون فى أحد الأفراح . . وكان رياض السنباطى هو ووالده يتبادلان الغناء فى فرح . . وانتهى الفرحان فى وقت واحد . . وركبوا الحمير متجهين إلى المحطة فى انتظار القطار الفرنساوى . . وأشار السنباطى الكبير لابنه رياض وقال : أم كلثوم التى يتحدثون عنها . .

ونظر رياض السنباطى لأول مرة فى حياته ليجد أم كلثوم ، ولم يكن قد سمع لها ، وإنما سمع عنها فقط . . وكانت قصيرة القامة جدًّا . تلبس بالطو رجالى بصفين زراير . البالطو أسود . وكانت تلف رأسها بالعقال . وكان وجهها فى غاية الحيوية . والذكاء هو عيناها . ويقول رياض السنباطى إنها فى ذلك الوقت كانت فى الثانية والعشرين من عمرها .

ولابد أن أم كلثوم قد سمعت عن رياض السنباطى كمطرب ناشئ هو أيضاً . . وكان يغنى الأدوار القديمة التى كان والده يتولى تحفيظها له . ومن المؤكد أن أم كلثوم قد سمعت رياض وهو يغنى فى الإذاعة : يا ريتك جتنى زى ما جيتك . . وفوجئ رياض السنباطى بأن أم كلثوم تطلبه فى التليفون بعد ذلك اللقاء فى الليل المطير بحوالى خمسة عشر عاماً .

سألت الأستاذ رياض السنباطى : هل تذكر ما الذى كانت تغنيه أم كلثوم أيام طلبتك ؟

— كانت انتقلت من الموالد إلى فرقة العقاد وسامى الشوا أمير الكمان . وكانت لها أحسن فرقة فى مصر فى ذلك الوقت . وكان فى فرقتها عازف الرق محمود رحمى ومحمد القصبجى وواحد اسمه صالح . . إنه نفس التخت الذى صاحب عبده الحامولى ومحمد عثمان . . وكانت فى ذلك الوقت تغنى فى صالة « سانتى » فى الأزبكية . . وفى ذلك الوقت طلبتنى فى التليفون وردت عليها أختى . . فأنا

لا أرد على التليفون عادة . وكانت أم كلثوم تسكن فى عمارة بهلر بالزمالك . . وكانت الفيلا لم يتم بناؤها بعد . . وأول لحن قدمته لأم كلثوم فى ذلك الوقت طقطوقة : لما انت ناوية تهاجرينى ، أمال دموعك كانت ليه ؟ وهى من كلمات الأستاذ رامى . . وطقطوقة ثانية اسمها : يا طول عذابى واشتياقى ، ما بين بعادك والتلاقى . . وسألت أم كلثوم : كيف تحبين تلحين هاتين الأغنيتين من أية نغمة ؟ وكان ردها من النغمة التى تعجبك . . ونجح هذان اللحنان . . وبعد ذلك اشتركت فى ألحانها مع الأستاذ زكريا أحمد ومحمد القصبجى . . وأصبحت عضواً فى أسرة أم كلثوم الغنائية . . وبعد ذلك بدأت ألحن لها الألحان الكبرى مثل : سلوا كئوس الطلى هل لامست فاها » . .

من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى . . ولما أعجبها تلحينى للشعر أعطتنى قصيدة أخرى للشاعر أحمد رامى . .

كيف مرت على هواك القلوب   وتحيرت من يكون الحبيب . .

قلت للأستاذ السنباطى : إن آخر لقاء لى مع أم كلثوم اعترفت لى بأنك الوحيد الذى يستطيع أن يتذوق الشعر وأن يلحنه . . وأنها تستريح إلى ذلك . .

وكان رد رياض السنباطى أن هذه حقيقة ، وأنه لا يتذوق القصيدة أو البيت فقط ، وإنما يتذوق الحروف . وأن هذا الإحساس الشديد بالكلام الجميل هو الذى جعل أم كلثوم تغطيه أكثر من ثلثمائة أغنية شاركت فى النجاح العظيم لأم كلثوم . .

وأنا لم أكن قد رأيت الأستاذ رياض السنباطى فى حياتى ، وإنما دفعنى إلى ذلك الأمير عبد الله الفيصل فهو أحد الذين يؤمنون بالموسيقار السنباطى ويرى أن معجزة الغناء العربى هى أم كلثوم وشوقى والسنباطى . .

إنها الصدفة التى أجلت لقاء رياض السنباطى فى أيام محنة أم كلثوم وحيرة الأطباء حولها ، وخوف الأمة العربية على نهايتها أو خوفها من نهايتها ، أو قلقها على ما بعد نهايتها . . وطلبت رياض السنباطى فى التليفون ، إن صوته غريب . فيه فزع . وفيه قرف . وأحسست بإشفاق على نفسى كيف أجتاز به أو معه حاجز الخوف والقرف أو الحزن . . ولما ذكرت له اسم الأمير عبد الله الفيصل كان ذلك جواز المرور . . وكان هو الأسبق إلى اللقاء . وجلست فى مواجهة الرجل . إنه رقيق . لطيف . ولاشك حزين على أم كلثوم ، ولكن حماسه للفن . والكلام عن الفنانين وتقديرهم بصور مضحكة قاطعة . جعل الحديث بيننا سهلاً . . ولم يكن يدرى . أو هو يدرى . أنه كان يقوم بعملية وزن وتقويم وتصحيح لكثير من المفاهيم الفنية والغنائية .

ورياض السنباطى هو أقدر الفنانين على فهم صوت أم كلثوم . . فقد تعانق فنه وصوتها أربعين عاماً . ومن هذه « العشرة الفنية » تولد هذا الذوق العام . أو هذا التفوق العام لأغانى أم كلثوم . فرياض أحد الذين رسموا « الذوق الكلثومى » . . فأم كلثوم ارتاحت إلى فن رياض السنباطى . وكان هو يعطيها ما تريد . . والناس يطلبون من أم كلثوم أن تحفظ هذا اللون الشرقى للطرب أو هذا الطرب الفخم للغناء العربى . .

سألت رياض السنباطى : هل يمكن أن تصف لى هيئة التلحين . . أو هيئتك وأنت تلحن لأم كلثوم . ؟ هل كنت تلحن لها فى بيتك ثم تسجل اللحن على شريط وتبعث لها بهذا الشريط؟ ألم يحدث أن طلبت منك أم كلثوم أن تغير عبارة أو فكرة لحنية . ؟ وهل كنت تلحن مطلع الأغنية وتدندنه فى التليفون وبعد ذلك تمضى فى إكمال اللحن ؟ . لابد أن هذا الائتناس بأم كلثوم عنصر هام فى الهيئة العامة للحن كله بعد ذلك . .

وكان هذا هو الموضوع الذى يريد رياض السنباطى أن يتكلم فيه رغم كل الظروف النفسية الحزينة التى يمر بها . . فقال : أم كلثوم الله يرحمها كانت تأنس لى جدًّا وكانت تستريح إلى وجودى بالقرب منها . . لا كملحن ولكن كصديق . . فلم تكن تعاملنى كأى ملحن يسجل لها اللحن على كاسيت ويتركه لها ويجرى . مع احترامى لكل الزملاء الملحنين – لا . . فأكثر ألحانى كانت تتم عندها فى البيت . .

كنت آخذ كلمات الأغنية وأعود بها إلى بيتى . . وتطلب منى أن ألحن المطلع . . وأكلمها فى التليفون : يا أم كلثوم أنا عملت المطلع فتقول لى : طيب . . تعال يا رياض . . وأروح لها البيت وأسمعها اللحن وتقول لى : عظيم . . أكمل اللحن . . فأترك كل ما عندى من أشغال أخرى لكى أكمل اللحن بالصورة التى ترغبها . . وكانت لنا طريقة خاصة فى الجلوس عندها فى البيت . . عندها كنبة . . أنا أجلس على اليمين . . وهى تجلس على اليسار . . وأظل أدندن على عودى . . وأغنى وهى تقول : كويس . . جميل . . استمر . . وكنا نجلس من الساعة العاشرة صباحاً حتى الثانية عشرة مساءً . . ولا أحد معنا . . وإنما حالة الطوارئ قد أعلنت فى البيت كله . . لا صوت . . ولا تليفونات . . بل إن زوجها د. حسن الحفناوى وهو رجل ذواقة كان يستأذن فى الجلوس بعض الوقت لكى يسمع . . ثم يتمنى لنا التوفيق ويخرج وكانت تقول لى : هل نأتى لك بغداء . . فأعتذر عن ذلك . . لأنى أخاف إن أكلت أن أنام . . وكانت هى تقول : أنا أكسب رياض ولا داعى للغداء . . وأجمل من كل طعام عندنا هو نجاح اللحن .

– هل صحيح أنك تمضى الأيام وأحياناً الشهور فى تلحين أغنية واحدة ؟ . . إلى هذه الدرجة ترهق نفسك أو تذيبها فى تلحين أغنيات أم كلثوم . ؟

– لابد أن يحدث للفنان شيء من هذا . . إن أطول أغنية فى التلحين هى أغنية « ومرت الأيام » . . وهذا الوقت قد أنفقته فى التجويد والتجميل والإحساس بها . . ولكن هناك أغنية لم تستغرق منى ثلاث ساعات هى أغنية « نهج البردة » لدرجة أن أم كلثوم لم تصدق أننى نجحت فى ذلك . فلما أسمعتها مطلع الأغنية بكت أم كلثوم . . ولما سألتها عن سر هذا البكاء الشديد قالت : إنها هزتنى من أعماق . . وأنا أعترف لك أننى لا أعرف كيف لحنت « نهج البردة » . . وإنما والله على ما أقول شهيد ، كنت أستمع إلى صوت فى داخلى وأنا أردد وراءه . لهذه الدرجة . . فأنا لم ألحنها ، وإنما أنا رددتها وراء صوت سماوى فى داخلى . .

– هل العلاقات التى بينك وبين أم كلثوم كانت تسمح لك بأن تبدى رأيك فى ألحان غيرك من الملحنين . . أو هل أسمعتك بعض ألحان الآخرين . ؟

– حدث أن طلبت إليها أن أستمع إلى ألحان الملحنين ا ' دد ، قبل أن تغنيها أم كلثوم . . حدث فعلاً . . ولكن أم كلثوم غضبت جدًّا . . واختلفنا ووعدتها ألا أطلب منها ذلك مرة أخرى . . بل إنها قالت لى : وهل أنا أطلب إليك أن تغير فى ألحانك . . إننى لم أتدخل فى شيء من ذلك . . وهل تتهمنى فى ذوقى . . حكاية . . فقد طلبت منها وبمنتهى الحذر والخوف على ألا أجرح شعورها . . وقلت لها : لا باسم الصداقة . . ولا باعتبارى ملحناً لك . . وإنما باعتبارى ذواقة . . أو باعتبارى مواطناً عاديًّا يحبك . هل أرجوك فى أن أسمع بعض هذه الألحان قبل أن تغنيها ؟ وكانت حكاية . . لم أنسها لأم كلثوم . ولا هى نسيتها ، يرحمها الله . . مع أننى لم أطلب إليها مطلقاً أن تسمعنى ألحان زكريا أحمد أو القصبجى قبل أن تغنيها . . فكلاهما أستاذ متمكن من فنه . . وإنما فقط الألحان الأخيرة . .

– إذن أنت ترى أن الألحان الأخيرة لا ترقى إلى مستواك ، أومستوى زكريا أحمد أو القصبجى . ؟

– طبعاً . . ولكن فقط عندما بدأت تأخذ ألحان الشباب : كمال الطويل وبليغ حمدى وعبد الوهاب . .

– أنت ترى أن عبد الوهاب من الشباب ؟

– ولكنه حاول ذلك فى أغانيه . . فقد جعلها راقصة . . ولابد أنه جعلها كذلك ليهز مشاعر

الناس . . إنه أراد أن يرضى الجمهور طبعاً ، عبد الوهاب أستاذ وقمة وأم كلثوم قمة ، والتقاء عبد الوهاب وأم كلثوم هو التقاء أجمل صوتين فى الغناء العربى . . يا سلام لو رجعت إلى أغانى عبد الوهاب القديمة . . وخصوصاً أغنية : عندما يأتى المساء . . أو الجندول . . إنها قمم . . فلقاء عبد الوهاب وأم كلثوم الذى اشتاق إليه الناس قد هزهم . . وعبد الوهاب يعلم ذلك . . ولذلك كانت عنده أنغام راقصة . . ربما كانت هذه الترقيصات غير ضرورية ، بل إن اللحن لا يقتضيها مطلقاً ولكن عبد الوهاب يريد إرضاء الجمهور . . فهو قد أعطى لأم كلثوم ثوباً شاباً . . وهذا الثوب قد أرضى الجمهور وأسعده لأن جمهورنا طيب وسميع ومرح ولما تعمل له حاجة ترقصه يعمل هيصة . .

— ولكن الملحن محمد الموجى لم يلجأ إلى ترقيص الأنغام . . ثم إن أم كلثوم رأيها فى الموجى أنه ملحن مصرى صميم وأنه لايأخذ من غيره ؟ .

— الموجى له حاجات . . حاجات شعبية . . ولكن الموجى ليس قمة . . وإنما أنا أتحدث عن القمم ، وليس معنى ذلك أننى شخصيا قمة . أنا شخصيا لى حاجات لاتعجبنى . . وأنا لم أجد بصراحة الملحن الذى يعطى لأم كلثوم عمقها وتفكيرها وإحساسها المرهف وخصوصا فى هذا اللون الذى أقدسه ، ثم تقوم هى بإملائه على الشعب الذى يتذوق كل ماتقوله أم كلثوم . .

— حتى زكريا أحمد ليس كذلك ؟ .

— زكريا أحمد لون جميل ، لون شرقى أصيل محبب إلى النفس جدا ، لأن نشأة زكريا قريبة من نشأة أم كلثوم نشأة دينية ، فقد كان يغنى فى بطانة الشيخ على محمود ولذلك فألحانه شرقية كلها طرب صحيح ليست فيها « اويمة » الموسيقى التى تعملها الآن الحاجات التى هى « حليات » . . ولكنه لون جميل . . كما أن محمد القصبجى له أثر كبير فى حياة أم كلثوم إلى جانب زكريا أحمد . . مثلا أغنية « إن كنت أسامح » باعت منها أم كلثوم مليون أسطوانة وكان ذلك من حوالى ستين سنة !

— ولاحتى بليغ حمدى ترى فيه شيئا من هذا الذى تنشده لأغانى أم كلثوم ؟ .

— بليغ عمل حاجات لأم كلثوم لاتزيد ولاتقل عن الذى عمله الموجى والطويل ، ولكن الثلاثة لايختلفون إلا على الاسم فقط . .

— الثلاثة لهم وزن واحد ؟ .

— نعم . . .

— والوزن صغير ؟

– ليس صغيراً ولكن كل واحد يحاول أن يخرج أقصى ما فى نفسه وطاقته . .

– ألاترى أن كمال الطويل مختلف قليلا ، أو كان فى استطاعته أن يكون مختلفاً ؟

– الطويل ليس من لون أم كلثوم . . إنه يلحن لنجاة . . يلحن لفايزة أحمد . . أى للمطربات اللاتى يتقبلن النوع الأقل قيمة من الذى تغنيه أم كلثوم . . إنها أغنيات . . ساندوتش . .

طلبت من الأستاذ رياض السنباطى أن نعلو فوق الحزن معاً على أم كلثوم . . وكانت لم تمت بعد يوم جلست إليه أتحدث فى كل شيء . وقلت له لماذا لاتجد تقويما موضوعيا لفن أم كلثوم ، إننا . أنت وأنا . . قد خلعنا على أم كلثوم كل الصفات الجميلة . . فنا وشخصا ووطنية ولكن لن يمضى وقت طويل حتى يفتر الحزن عليها.. وحتى يعود الناس إلى همومهم الخاصة . ويخلعوا ملابس الحداد . هذا الحزن الشديد عليها . . ويستأنف الناس حياتهم العادية . . ويديروا الراديو يسمعون أحب أغنيات أم كلثوم . . ويدفعهم ضرورة التغيير . . تغيير طعم الأشياء الحلوة فى الفن وفى الطعام إلى البحث عن الجبنة والمش . . والفلفل . . وينتقلون من أغنية سلوا قلبى . . إلى أغنية ما أخدش العجوز . . ومن سلوا كئوس الطلى . . إلى . . قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى . . طبيعى أن يحدث ذلك لأى إنسان : قل لى يا أستاذ رياض بالضبط كم تساوى أم كلثوم فنيا ؟

وأجاب بنفس النبرة التى حاولنا أن نتخلى عنها بعض الوقت : إن أم كلثوم لاتقدر . . ليس كصوت فقط . . فقد وهبها الله قوة الشخصية والذكاء الزائد . . إنها فى بعض الأحيان قادرة على أن تقرأ أفكارك . . وكثيرا ماكانت تقول لى : يا رياض أنت تريد أن تقول كذا . . ويكون ظنها صحيحا مائة فى المائة . . الله يرحمها . . أنا لا أستطيع أن أتصور أنها ستموت . . شيء عجيب . . من حوالى شهر ونصف شهر طلبت منى أنا والسيدة حرمى أن نزورها . . وذهبنا إليها . ولكن وجدت حالتها النفسية ليست على مايرام . . ولاصحتها ، وجدتها شاحبة هزيلة . . وقالت لى إن «كونصلتو» من الأطباء سوف يجيء للكشف عليها وإنهم ينقلون إليها دماً لأنها ضعيفة . . وجلست إلى جوارها على الكنبة التى اعتدت أن نلحن معا عليها . . وأعطتنى أغنية لصالح جودت عن ٦ أكتوبر . . وكانت ذكرى العبور قريبة . . ولكن قلت لها إننى لاأستطيع بهذه السرعة أن ألحنها فى أسبوع . . والحقيقة أننى حاولت أن أهرب ، فقد لاحظت ضعفها ولاحظت رجفة يديها وهى تعطينى اللحن . . وصوتها أيضا ليس هو الذى أعرفه . . ولكنها قالت : حاول . . فكر . . « نعبش » فى الكلمات . . يمكن . . حاول على كل حال . . ولم أحاول لأننى أعرف أنها لن تغني . . إنها شيء عظيم . . قوة جبارة هبة من عند الله . .

واستمراراً فى محاولتى أن أهبط بدرجة حرارتنا معاً إلى الدرجة التى نستطيع فيها أن نزن الأشياء ، قلت له وكأننى ألقيت عليه دشًا بارداً ضروريًا فى مثل هذه الأحوال : هل أم كلثوم فى عصرنا الآن تساوى منيرة المهدية من خمسين عاما . . لقد كانوا يسمونها سلطانة الطرب . . ؟

واعتدل رياض السنباطى ولم ذراعيه وقد أفاق قليلا . . ولم يكن فى نيته أن يفعل شيئا من ذلك ولايحب ، وقال : لا . . لاياسيدى . . أنا لست صغيرا فى السن . .

ولم يشأ أن يقول متى ولد ؟ !

وعاد يقول : لقد لحنت لمنيرة المهدية . . اشتركت مع داود حسنى وكامل الخلعى فى تلحين أوبريت سميراميس لمنيرة المهدية وكانت هذه الأوبريت من ثلاثة فصول .. وكل واحد منا لحن (لها فصلا) . . ولحنت لها أغنيات كثيرة . . ومنيرة رحمها الله كانت صوتا قديراً . . صوتاً قويًّا جدًّا جهوريا . . وإنما صوتها ليست له « فرامل » . . وكانت لاتستطيع أن تقفل صوتها وإنما فى كل مرة تحاول أن تقفله يهرب منها . . صوتها سايب . .

– منيرة كلها سايبة ؟

– صحيح . . يعنى أريد أن أقول لك إن ختام الجملة . . أو « القفلة » الغنائية كانت أم كلثوم تقفلها مثل « الباكم » عند القطار . . أوفى المترو . . هذا القفل المحكم القوى . . لاوجود له عند منيرة المهدية .

– ما هو الفرق بين الاثنتين فى نظرك ؟ وأنا يهمنى جدًّا أن أعرف ذلك . . فأنا لم أسمع منيرة المهدية . . ولكن كنت أسمع من أبى أن صوتها جميل . . وكان أبى ذواقة فى الغناء . . وذواقة للكلام الجميل فقد كان شاعرا وكان يتغنى بشعره الآخرون . . لم أكن أفهم فى ذلك الوقت لماذا كلما جاء اسم منيرة المهدية يضحك الناس . . ولكنهم لايشجعون الصغار على أن يذهبوا لسماع حفلاتها . . وكنت أتصور أن سبب ذلك أن سهراتها تستمر حتى الصباح . . والصغار يجب أن يناموا فى ساعات مبكرة . .

ورد رياض السنباطى : هناك فرق كبير جدًّا . . جدًّا . . جدًّا . . فى الثقافة وفى جوهر الصوت فمنيرة كانت سلطانة الطرب فعلا ، لأنه لم يكن هناك أحد سواها فى ذلك الوقت . . ولكن أم كلثوم هذه لايمكن تعويضها ، إنها شيء آخر ربنا سبحانه وتعالى قد أعطاها لنا والله قد خلقها والسماء صافية والأضواء باهرة ومزجها مع ضوء القمر وضوء الشمس وقطرات الندى وزفها إلى الأمة العربية .

ولم أفلح فى أن أعرف بسرعة من الأستاذ رياض السنباطى بالضبط ماالذى تساويه أم كلثوم وحدها أو بالمقارنة بالمطربات الأخريات . . لقد رفض المقارنة . . ورفض السؤال من أوله لآخره . .

مع حسن النية ، ولكنه لم يشأ أن يترك هذا السؤال دون إجابة . . أو يرفض هذه المسئولية : أن يزن أم كلثوم وهو القادر على ذلك . .

فعاد يقول : أقارن أم كلثوم بمن ياسيدى . . وردة دى ايه ؟ وردة تختلف عن منيرة المهدية . . وردة لها أغنيات خفيفة تسمعها وأنت تأكل وأنت تشرب أو بتلعب طاولة . صوتها قوى ويطربك ولكن ليس فى صوتها هذا الشىء الذى يشدك . . الذى يجذبك . . أم كلثوم عندها هذه الجاذبية . . عندها هذا المغناطيس . . وهذا شىء غير موجود عند أية مطربة قديماً أو حديثاً . .

– وأين تضع صوت فايزة أحمد ؟

– صوتها جميل وإحساسها أدق من صوتها . . إنها عكس وردة تماما التى صوتها أقوى من إحساسها . . وردة هذه تقول لك أشياء جادة ولكن تمنعك أن تعيشها . .

ونجاة حلوة . . جميلة . . ولكن صوتها أو طاقتها غير منطلقة .

وشادية : حلوة تعجبنى . . تعجبنى جدًّا . . ولكن شادية كان صوتها أجمل من عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة . . وكنت أضعها فى مطربات الصف الثانى الممتاز . . ولكن يظهر أن حصل لها شىء ما لاأعرفه . . يمكن تعب . . حالة عاطفية . . عصبية . . عائلية . .

أما شهر زاد فصوتها جميل قوى . . ويمكن استغلاله فى الأوبريت . . وفى الأغنيات المفردة صوتها جميل . .

أما مها صبرى فهى محدودة . . وسعاد محمد عملاقة . . ولكن بكل أسف الحظ لايواتيها . . ولاتسألنى عن الحظ . . ممكن واحد يدفع جنيه فيكسب خمسة آلاف جنيه . . وممكن يدفع خمسة آلاف جنيه فلايكسب حتى الجنيه . .

أما فيروز فهذه شىء آخر . . إحساس ومشاعر . . بل شىء فوق الإحساس وفوق المشاعر . . تركز فى هذه السيدة . . عندما أسمعها فإننى أستمع إلى صوت من السماء . . ولاأنكر فضل الأخوين رحبانى . . إنهم لون جديد . . لون أحبه جدا . . فيه تطوير للموسيقى . . أما نحن فلم نطور الأغنية . . لاتصدق أن أحدا قد طورها . . إنها هى هى . . وموسيقانا كما هى وكل ماحدث فى موسيقانا أن جميع الملحنين الناشئين اعتمدوا على « الرتم » السريع . . والرقص . . وكلمة حزينة من هنا . . أو كلمة مرحة من هناك . . وهذا هو التطور الذى حدث . . وليست هذه هى الموسيقى العربية . . ولكن فيروز والأخوين رحبانى قد صنعوا شيئاً جديداً جميلا . . ممتاز جدا . . وأكثر من ممتاز . . وبعد ذلك : صباح . . صباح حلوة ودمها خفيف ، صوتها دمه خفيف . .

ومادمنا نرفع غطاء الحزن . . أوغشاوة الحزن أوثقل الحزن عن النفس فكان لابد أن أسأله عن موسيقار فقدناه . . طال مرضه . . وتوقع الأطباء وفاته وعاش رغم أنف الطب ، إنه فريد الأطرش . . ذلك الصوت العربى الحزين دائماً . . ولم يجد الأستاذ رياض السنباطى حرجا فى أن يقول : إنه ملحن من الطراز الثانى وهو محدود وكل أغانيه على وتيرة واحدة ليس عنده تنويع وهناك فرق كبير بين عبد الوهاب وفريد الأطرش . عبد الوهاب إبداع وتلوين وخصوصا فى أغنياته القديمة ، ولكن فريد من ماء واحد ولون واحد ودمعته على خده فى كل وقت ، كل أغانيه حزن ونواح وهذا يجعل المستمع كئيبا دائما إننى أتكلم بصراحة ولايهمنى من يغضب . .

– مادمت لاتخشى صراحتك ولانتائج هذه الصراحة . .

– لايهمنى ولكن يجب أن تجسد نفسك على أنك أخذت منى هذا الحديث . . فأنا لاأتحدث مع أحد ولم أقل رأيى فى أحد . .

وسقط الكوب من يدى فقد حسدت نفسى ؟ !

وسألته لاحرج فى أن تصف لى صوت عبد الحليم حافظ وقبل أن أسمع رأيك فإننى أرى أنه أجمل صوت عربى على الإطلاق . . لاتشبع منه الأذن والنفس أيضاً .

– عبد الحليم كويس . . ولكن فى بعض الأحيان تجد فى صوته رجفة غريبة لاأعرف هل هذه الرجفة يراها نوعا من تطوير الأداء . . أوهل الرعشة خلقة فى صوته . . أنا لاأحب ذلك . . إنه يشبه واحداً يغنى ثم يجىء إنسان من ورائه ويهزه من كتفيه . . لاأعرف لماذا هذه الرجفة . . هلى هى حلية فى صوته ؟

ولكن عبد الحليم حافظ خامة صوتية حلوة . . جذاب . . باستثناء « البتاعة » التى فى صوته . .

وأعدت عليه كل الأسئلة التى وجهتها إلى أم كلثوم عندما أردت أن أعرف رأيها فى كل الأصوات التى تتردد إلى جوارها فى كل أذن عربية . .

قال رياض السنباطى : محمد قنديل ممتاز فهو قادر على أن يؤدى أى لون من ألوان الغناء . . وطنيات ودينيات وغزليات ممتاز . . ثم المطربون الشعبيون : محمد رشدى لون شعبى ممتاز . . ومحمد العزبى لطيف ، لكن ليس له شعبية محمد رشدى . . ليلى نظمى خاصة بطبقة معينة من الجماهير . . مرة سمعتها تغنى : أيوه . . آه . . أظن هذه أغنية عايدة الشاعر . . والله ما انا عارف أصبحت كل الأغانى متشابهة . . على كل حال صوت عايدة الشاعر يعجبنى ففيه أنوثة . . صوت أنثى وخصوصا عندما تغنى لزوجها سيد إسماعيل . . ولكن عفاف راضى هذه ، لاهى غربية ولاهى شرقية . .

رقصت على السلم الموسيقى فلم يرها أحد . . كانت تلميذتى فى الكونسرفتوار . . وكانت مدام رطل تدرس لها . . وبعد ذلك تجيء لكى أحفظها أغنية لأم كلثوم : سلوا قلبى . . فوجدت صوتها محدودا صغيرا . . وكانت تنطق الكلمات كأى خواجة . . ومن هنا يجب أن نشير إلى عظمة أم كلثوم . . مخارج ألفاظها واضحة وقوية . . ولغتها العربية الفصحى سليمة وجميلة . . وتسألنى عن هانى شاكر . . نسيت أقول لك إن سبب نجاح عبد الحليم حافظ هو أنه لم يقلد أحداً قبله . . لا قلد عبد الوهاب ولا أى مطرب آخر . . فعبد الحليم حافظ له طابع خاص . . لون معين . . ولذلك فهانى شاكر لكى ينجح يجب أن يتوقف عن تقليد عبد الحليم . . وأنا أسمعه لماذا ؟ أسمع عبد الحليم أفضل وأجمل . .

قلت له : وهانى شاكر عنده مشكلة أخرى . . هى أن الذين يلحنون لعبد الحليم هم الذين يلحنون له أيضا . . فهو يقلد عبد الحليم صوتا وأداء وغناء . . وهذه مشكلة . .

– صحيح . . لابد للمطرب أن يشق له طريقا فى الأداء . . وأن يحرص على أن يكون له صوت خاص . . ينفرد به . . ولذلك لابد أن يتولاه ملحن خاص . . ومن المناسب أن أقول لك . . إن المطرب الذى يخرج من الريف يخرج معتمدا على نفسه . . لاعلى معهد موسيقى ولاكونسرفتوار ولذلك نجده يقف على رجليه هو . . ويحاول أن يتقدم وأن يتفوق وإلافسوف يضيع . . وهنا فقط تكثر الأصوات الجميلة . . ولا أقول إننا وجدنا الصوت الذى يعوضنا عن أم كلثوم . . هذا مستحيل إلا إذا شاء ربنا وهو قادر على كل شيء .

ولكن كيف نجد الصوت الجميل ؟ من الذى يجده ؟ أين يجده ؟ وإذا وجده فكيف تعرفه وتدفعه وتدافع عنه حتى لايقع أوحتى لايضيع ؟

هناك أصوات تقدم نفسها . . تماما كما يلمع فى السماء شهاب وترتفع إليه العيون . . من الممكن أن نذهب إلى حقول القطن – وهذا رأى السنباطى – وأن نستمع إلى الأصوات الجميلة . . من يدرى ؟ ربما وجدنا أم كلثوم أخرى . . أونشجع صاحب الصوت على أن يظهر لنا . . ويروى السنباطى أن صديقا قال له إن بنت الأستاذ حليم الرومى المطرب القديم صوتها جميل جدا . . وأنه سوف يأتى له ببعض تسجيلاتها . . وهو فى انتظار هذا الاكتشاف الجديد . . وهو يؤمن بهذه الحقيقة : لوكان هناك صوت جميل فسوف يظهر من نفسه . . إن الصوت الجميل نجم يلمع وإذا أخفاه النهار ، فإن الليل سيكشفه ويبرزه . .

ومنذ سنوات جاء السنباطى رجل يريد أن يقدم له زوجة جميلة الصوت ، قال السنباطى : أسمعها أولا . . وجاءت الزوجة . . بيضاء جميلة من كل النواحى . . ولما سمع صوتها قال له : طبعا

أنت تريدنى أن أصارحك ، إن صوتها لايعجبنى ولاأستطيع أن أتولاها . . ولاأنصحك أن تفعل ذلك وإنما يمكنكم أن تتسلوا فى الحفلات العائلية . . . إنها صوت والسلام . . وربما يشفع لها عند سماعها شكلها الجميل !

وأحسست أننا بعدنا قليلا عن أم كلثوم فسألت الأستاذ السنباطى : أنت اختلفت مع أم كلثوم . . ؟

– نعم . . لأسباب مادية ، كنت أطلب منها ثمنا أكبر ، فكانت تقول : أنت تأخذ مافيه الكفاية ، وكنت أغضب وأتركها سنة أوسنتين . . تصالحنى وتدفع لى أكثر مما طلبت . .

– ولم تغضب منها بسبب أنها غيرت لك لحنا . ؟

– لا . . أحيانا كانت تقول : أنا لاأستريح إلى هذا . . فأقول لها : وهذا إحساسى . . فأعود إلى البيت وأغير وأجد أن معها الحق . . وأحياناً كان يعجبها لحن . . وأعود إلى البيت أغيره ولكنها تقول : اللحن القديم أحسن . . وأعود أسمع اللحنين . . فأجد أن الحق معها . . ولكن أم كلثوم كانت تغير كلمات الشعراء أنفسهم . . بمافيهم أمير الشعراء وأحمد فتحى وأحمد رامى وناجى . . إنها لاتغنى إلاالذى يريحها فى الأداء . . مثلا : لحنت لها قصيدة « انتظار » ولم تغنها مع الأسف . . القصيدة لإبراهيم ناجى يقول فيها :

أنا فى بعدك مفقود الهوى ضائع « أعشو » إلى نور الكريم
أشترى الأحلام فى سوق المنى وأبيع العمر فى سوق الهموم
لاتقولى فى غد موعدنا فالغد الموعد ناء كالنجوم

ولم تعجبها كلمة « أعشو » وجعلتها « أهفو » وهذا ألطف . .

وطقطوقة أخرى لمأمون الشناوى لحنتها وسجلتها على الكاسست ولاأعرف ما الذى سأفعله بعد ذلك . . فهى التى كلفتنى . . وهى التى أعطتنى الكلمات . . أما أغنية مأمون الشناوى فتقول : شوف الدنيا . .

– ولم تتلق منها خطابا عتابا . . أو ورقة واحدة مكتوبة . . ولاأنت كتبت إليها . . أوكتبت عنها ؟ .

– خطاب واحد تسلمته . . وكان من محاميها الأستاذ قطب . . يذكرنى بعقد بينى وبينها على تسلم الألحان فى موعدها . . وكنت قد تكاسلت عن ذلك . . هذا هو الخطاب الوحيد . . ولا كتبت مذكراتى وإن كان عندى الكثير جدًّا الذى أستطيع أن أقوله عنها وعنا . . أنت ألا تلاحظ أنك تنقلنى من موضوع لآخر . . ؟

– إننى أحاول ألا تمل الكلام . . وألا أمل أنا أيضاً . . إننى أهون عليك . . وأشغلك عن أم كلثوم بالكلام عن نفسك وعن غيرك . . وإن كانت المناسبة واحدة . . والآن سوف أذهب إلى أقرب شىء إليك . . وأنت لم تتحدث عنه . . ولاحظت أنك لم تذكره . . ويبدو أنك لاتتوقع ذلك . . إن المسافة لاتزال بعيدة . . ورحلة الفن الطويلة الشاقة لم تبدأ بعد . . أو لم تكد تبدأ حتى توقفت . . أو ترددت . . أنسألك عن ابنك أحمد السنباطى . . ؟

– لايزال أمامه الكثير . . لقد غنى . . والجماهير رغم اختفائه لايزال تطلبه وتسأل عنه . . سوف يكون له مستقبل . . وسوف أتولاه بنفسى وأتعهده . . وبدأت فعلا . . وقد لحن لنفسه . . ولحن له بعض الملحنين أيضاً . . واحد عنده طاقة صوتية ، ماشاء الله تؤهله لأن أقدم له ألحانا بطاقتى أنا ، ولو لم تكن عنده طاقة لقلت له : كفى غناء واسكت . . وأنا لاأصلح لك ، اذهب لغيرى . أما خصائص صوته فصوته جهورى ، صوت منطلق . حلو . نبراته جميلة . ولكن فى حاجة إلى صقل . .

وتتابعت السجائر فى شفتى رياض السنباطى ، مع أن الأطباء منعوه من ذلك . لايكف عن التدخين . . رغم أن هذه السجائر تحدث له حساسية فى كل جسمه . . ولكنه عاد إلى الأرق والقلق . . فلم تكن أم كلثوم مطربة تغنى له . . ولكنها جو غنائى . . عام . . فهو يتلقى الكلمات ويدور الحوار . . وهو يذهب والعود معه ليسمعها اجتهاده أو تصويره . . فإذا وجدته مرهقا طلبت إليه أن يكف عن التلحين إلا إذا استراح أو نام أو اعتدل مزاجه . . وكانت أم كلثوم تداعبه . . أو تروى له آخر نكتة حتى تتغير حالته النفسية . فإذا ظهر البشر عليه طلبت إليه أن يبدأ فى التلحين . . وفى إحدى المرات دخن رياض السنباطى ثمانين سيجارة . . وكان ذلك نوعا من الانتحار أسفر عن لحن جديد هو « أقبل الليل » وهو من أعز ألحانه إليه رغم أنه لم ينجح جماهيريا . .

قلت له : من كل هذه الأغنيات التى عددها ٣٠٠ أغنية لأم كلثوم لابد أن واحدة منها قد شيبتك . . أوكانت صعبة عليك . . ولايوجد مؤلف غنائى أو أدبى أوفنى إلا وقف عاجزا حائرا أمام عمل ما . . هذا العمل هو المقياس الفاصل على قدرته على التفكير . . مثلا الأستاذ الكبير عباس العقاد قال لى فى إحدى المرات : إننى ألفت كتابا عن عبقرية محمد . . وكتابا عن عبقرية المسيح وكتابا عن إبليس . . وأردت أن أعرف قدرتى العقلية فلم أجد غير محاولة واحدة وأخيرة هى أن أؤلف كتابا عن « الله » . . وكان هذا الكتاب مقياسا لكل قدرات العقاد . . وبعد ذلك اطمأن على قدرته هذه . . وكانت له محاولة أخرى مضحكة . . فالعقاد كان يأكل المسلوق . . وبين الحين والحين يريد أن

يختبر معدته وقدرتها على الهضم . . وإن كانت سليمة أو مريضة ، فكان يأكل الفسيخ والبصل والليمون والشطة ، وكان يتعذب بذلك . . هذه الطريقة الوحيدة ليعرف قدرته على الهضم ! فماهو اللحن الذى ناطحك حتى نطحك . . أوحتى تغلبت عليه فى النهاية ؟ . .

– ربما كان لحنا واحداً هو : الأطلال . . خفت من هذه القصيدة جدا . . وقلت لأم كلثوم وأنا ألحن هذه القصيدة : يا أم كلثوم أنا خايف . . وكنت ألحن هذه القصيدة وأنا فى العجمى . . وكانت هى فى قصر الضيافة . . وكانت ترد قائلة : ياجدع انت لك حاجات غريبة . . من أى شىء أنت خائف ؟ عيب . . ولكنها كانت تحس باللحن وعمقه . وعلى يقين من نجاحه . . أما أنا فلم يكن عندى هذا الإحساس . . وأجرينا البروفات الضرورية لهذا اللحن ، وتحدد موعد غنائه . . وأجرينا البروفات فى مصروفون . . والفرقة كلها حفظت اللحن بالصورة التى ترضينى وترضيها . . ولكنها همست فى أذنى وقالت لى : يارياض . قلت لها : نعم . .

قالت لى : لاداعى لأن أغنى هذه القصيدة فى الحفلة . . وكانت الصحف قد نشرت أن أم كلثوم سوف تغنى هذه القصيدة . . ولما سألتها عن السبب قالت : أنا أيضا خائفة . . فالأطلال قصيدة عملاقة لا لأنها من تلحينى ولكنها بالفعل كذلك . . ولم تغن أم كلثوم هذه القصيدة . . وبعد ذلك بشهر أجرينا البروفات . .

وقلت لها : مارأيك . . لاداعى لأن تغنى هذه القصيدة أيضا وسألتنى : إذن متى أغنيها . .

فقلت لها : عندما تستريحين إليها تماما . .

وسألتنى : متى ؟ قلت لها : بعدين . . ثم غنتها بعد ذلك وشاء القدر أن تنجح ولم أنم تلك الليلة . . ولانامت أم كلثوم ففى الثامنة صباحا اتصلت بى أم كلثوم وقالت لى مبروك قلت لها : الله يبارك فيك . أنا حاسة أن جبلا قد ارتفع من فوق دماغى . . وهذه هى الأغنية الوحيدة التى أخافتنى . . وأحب أن أقول لك شيئاً غريباً . . فأنا لم أحضر حفلة واحدة لأم كلثوم ولاأستطيع . مرة واحدة قالت لى أم كلثوم : إن الرئيس جمال عبد الناصر . . يحبك ويريد أن يراك فى ذلك اليوم ذهبت إلى نادى الضباط بالزمالك . . وغنت لى أم كلثوم « طوف وشوف » وكنت أقود الفرقة الموسيقية والكورال . . واستمعت إلى أم كلثوم وأحسست بالناس وهم يتجاوبون معها . . ولكن لم أسمعها جالسا فى الصالة بين الناس . . صعب . . ولم يحدث أبدا . . وإنما أستمع إليها فى البيت فى غرفتى وحدى . . مع أجهزة التسجيل الكبيرة التى عندى . . أسمعها وأنا أرتجف . . وجسمى كله مبلل بالعرق البارد . . ولاحتى منيرة المهدية التى لحنت لها أكثر من عشرين لحنا لم أستمع إليها . .

– ما الذى لحنته لمنيرة المهدية ؟

– لحنت لها أوبريت عروس الشرق من تأليف يونس القاضى . . وفى ذلك الوقت تركت المسرح وفتحت لها صالة فى شارع الألفى . . وكانت تغنى وصلة أو وصلتين . . ولكن أين هذه من أم كلثوم التى تغنى ثلاث وصلات ، ست ساعات وأكثر . . وفى الوصلة الأولى : صوتها قائم من النوم الجميل . . وفى الثانية : تشدو وتصدح . . وفى الثالثة : صوتها كالخيول العربية كلما سخن وعرق انطلق أسرع وازداد جمالا . .

– مادمت قد لحنت لمنيرة المهدية فلابد أنك لحنت للمطربة نادرة أيضا . .

– صوتها حاد . . الأصوات أشبهها بجمال المرأة . . فيه ست تلاقيها بيضاء جدًّا وجميلة جدًّا ، جمالها صارخ ودمها ثقيل . . لكن تلاقى فتاة سمراء لم تضع الروج ولاالرميل وإنما لها نظرة . . وهذه النظرة إذا أطلقتها عليك عوجتك . . .

– وإذا طبقت نظرية « التجسيد » الصوتى لكل المطربات . . فأين تضع أم كلثوم فى هذا المتحف ؟

– أم كلثوم جمعت إلى قوة الصوت والرقة والحلاوة عمق التعبير . . أنا لاأستطيع أن أقول إن صوتها هذا صوت . . إنه جوهرة ليست مثلى ولامثلك . . صوتها كالمرأة التى لها قوام جينا لولو بريجيدا وعيونها وأسنانها مثل اليزابث تايلور . . ابتسامتها تعجبنى جدًّا . . ابتسامة غريبة غامضة . . وفيها عمق مثل عمق انامانيانى . . أنا لما أشوفها بتهوس ؟

– أنت رجل ذئب يا أستاذ رياض ؟

– الله يخليك . . أما منيرة المهدية فكانت فتوة . . صوتها فتوة . . لاأجد لها وصفا غير أن لها حنجرة فتوة . . وفايزة أحمد صوتها مثل امرأة مدللة وتتدلع جدا . . صوتها فيه دلال ودلع . . إنها تتدلل على الرجل وتجننه وهو سعيد بهذا الدلال . . أما وردة الجزائرية فصوتها يشبه واحدة بتحب رجلا وتعاتبه وتزعق . . حتى الكلمات التى فيها همس بينها وبينه زعيق أيضا ، حتى لو بكت على كتفه فهى تزعق وهى تبكى . . بصراحة وردة زعيقها كتير . . ولذلك يعجبنى فى عبد الحليم حافظ إن صوته جذاب . . إنه عندما يغنى يوشوشك لكى يوشوشك مرة أخرى وأنت سعيد بذلك . . وشادية كانت أم كلثوم تقول لى : يا رياض أنا أحب أسمع شادية جدًّا ، وتقول إنها مثل البلبل خفيفة الدم . . ونجاة صوت مثل الطفل الصغير الذى يدهشك عندما يقول لك : بابا . . وماما . . إن هاتين الكلمتين لها تأثير كبير على الأب والأم . . وعندما يسكت الطفل يقول له أبواه : شاطر . . شاطر . . صوت نجاة هكذا . .

وكان الأستاذ رياض السنباطى قد أزعجته المقارنة بين أم كلثوم وأية مطربة أخرى وخصوصا منيرة المهدية ، فعاد يقول : عندما كانت أم كلثوم تتقاضى ثلاثين جنيها فى القاهرة كانت منيرة المهدية تتقاضى مائة ومائتى جنيه ذهباً . . وكان مجلس الوزراء ينعقد فى بيتها لا للسماع إليها ولكن للنظر فى شئون مصر . . وفى حفلاتها كان الناس يشعلون لها السيجارة بورقة من فئة المائة جنيه . . وكانت منيرة تردد الأغنيات العارية القبيحة . . والناس حولها يسكرون ويترنحون . . وعندما ظهرت أم كلثوم كانت منيرة قد غنت على الأقل ستين أغنية ، من بينها أغنية مشهورة اسمها « أسمر ملك روحى » ، ولكن أم كلثوم احترمت نفسها جدا وكانت محتشمة ومتدينة . . ورفضت الغناء بأية صورة لا تحفظ لها كرامتها . . وكانت أم كلثوم لا تأكل إلا تفاحة ولقمة عيش قبل أن تغنى . . بعض المغنيات يذهبن مخمورات . . ويشجعن الناس على السكر والعربدة . . ولكن أم كلثوم طراز آخر من خلق الله . . وقد اهتز عرش منيرة المهدية يوم ظهرت أم كلثوم بأغنية « ان كنت اسامح » وأغنية « ياست ليه المكايد » . . بل إن أم كلثوم كانت إذا زارتنى فإنها تطلب إلى أن أسمعها تسجيلا للشيخ محمود صبح . . إنها تحبه جدًّا . . وهذا يدلك على ذوقها الشرقى الدينى الصميم . . وكان من أحلامنا أن ألحن وتغنى سورة « الرحمن » . . إن هذه السورة فى جمالها وعمقها هى القرآن كله . . وقد حاولت شيئا من ذلك . . ولكن خفت . . ففى ثلاثية صالح جودت غنت أم كلثوم آية من القرآن وغيرنا فيها حتى لا تبدو على أنها آية وهى « والضحى والليل » « ما » سجى ولم نقل « إذا » سجى . . حتى لا يقال إننى ألحن القرآن وإنما هى محاولة من بعيد ، يرحمها الله . . .

ورياض السنباطى مثل أم كلثوم من محافظة الدقهلية ، من فارسكور . . ولا علاقة له بسنباط مدينة الغوازى ولم يرها ، ولابد أن أحدا من أجداده كان فيها . . أو ولد فيها والسنباطى قد تعلم الغناء من أبيه وقد بدأ هو أيضا بالموالد وأغانى عبده والخلعى وداود حسنى وهو ثالث ثلاثة لحنوا لمنيرة المهدية « أوبريت واحدة » هو وداود حسنى وكامل الخلعى . . وكان يركب الفلوكة فى نيل المنصورة إلى جزيرة فى النيل . . والجزيرة كانت تغريه بما فيها من خيار وبطيخ ، وفى الذهاب والإياب يردد الأغنيات وراء أبيه .

وهو ليس كأم كلثوم بخيلا ، ولكنه حريص جدًّا . . وهو يغلق كل شىء بمفتاح . . علبة السجائر يضعها فى درج والدرج بمفتاح . . والدرج فى دولاب والدولاب له مفتاح . . والدولاب فى غرفة لها مفتاح مع مفتاح شباك البلكونة . . فالفنان لا يملك إلا طاقته . . والطاقة محدودة فلا هو أرض تزرع ولا هو مصنع يهلك ويستهلك وله قطع غيار . . وإنما الفنان له قدرة على الإبداع ، تنضج وتسقط

معه . . والذى لايملك القرش لايساوى القرش . . وأنت تساوى مافى جيبك . . وجيبك أقرب من جيب غيرك . . والبخل خير من سؤال البخيل . . فاحفظ قرشك يحفظك . . واحفظ طاقتك إلى آخر كلام الناس الذين يعرفون طعم الكلمة الموجودة التى يقولها لك إنسان إذا سألته قرشا ولم يعطك . .

ولم يخل الحديث عن أم كلثوم مع رياض السنباطى من هذه الدعابة ، فأم كلثوم قد ذهبت لتغنى له فى فرحه . . وجاءت مع فرقة كبيرة وغنت حتى الصباح ، ورغبة منها فى تحية السنباطى غنت له أحد ألحانه . . غنت له : ياطول عذابى . .

وقال الناس : ماهذا ؟ ياساتر يارب ، ولما سألوها قالت : طبعا ياطول عذابك الذى سوف تراه فى زواجك . .

وعذابك بعد أم كلثوم !

نحن نتكلم فى وقت واحد ونقيم معرضاً للفن والحب والموت والسلام

هذا الرجل شخصية مغرية . . فهو يغريك أن تعاكسه لأنه متمرد . . أى لأنه يعاكس الآخرين . . وليس صدفة أن يكون شاعراً أو أن يكون محبا لكرة القدم . . فالشعر لعب بالكلمة وبالصورة وبالعواطف . . والرياضة كلها لعب بالكرة ، وبالجمهور وبالتعب والملل وبالحياة كلها . . ولا يشعرك أنه أمير ابن ملك ، لأنه هو شيء آخر . . حريص على أن يؤكد لك أنه شيء آخر . وقد شاهده الناس فى السعودية يظهر على شاشة التليفزيون . . يهاجم أوضاعاً كثيرة ، مع أنه ابن ملك . . والناس يحبون منه ذلك ويتوقعون أن يشتمهم وأن ينتقدهم بعنف .

وهو يفضل أن يذهب بنفسه فيحل مشاكله التجارية ويكون حل المشاكل مناسبة لكى ينتقد الكثير من الأوضاع والقواعد . فالمهم عنده أن يتعرض للمشاكل ويعرضها ، وبعد ذلك تجيء الحلول فى الدرجة الثانية .

وإذا جلست إليه فهو المتحدث الأول والأخير . فعنده من القصص والنوادر والحكايات أضعاف ما عندك . . وهو إذا تحدث يسألك عن رأيك . . وليس الغرض أن تقول أو يستدرجك إلى الكلام ، ولكن أن تعطيه أنت الفرصة لكى يقول هو حكايات جديدة .

ولا تعرف وأنت معه ، إن كان الذى يحدثك هو « الأمير » عبد الله الفيصل أو الشاعر عبد الله الفيصل أو « الولد الشقى » عبد الله الفيصل . . وسوف يتأكد لك بسرعة أنه هو المتمرد الأمير ابن الملك فيصل . .

وتتساءل : متمرد على ماذا ؟

ويكون الجواب : على كل شيء
– مثل ماذا ؟
– على أنه أمير
– والغرض من هذا التمرد ؟
– إن التمرد ليس غرضاً . إنها طبيعة . فقد ولد فى قفص من ذهب أو من فضة وهو يروح ويجىء . . فلا القفص اختفى ولا هو توقف عن الحركة . . ولا أمل فى أن يحدث أى تغيير فى حياته أو طبيعته رغم محاولاته المستمرة أن يفعل شيئاً آخر . .

وتسأله : أنت راض عن نفسك ؟

يقول لك : الحمد لله . . غير راض !

وعيناه الحائرتان تصدقان على ذلك . . فهو حبيس فى قفص وعيناه طائران محبوسان فى نفسه .

وبسرعة غريبة تجد نفسك تسمع منه أنه لا أحد راض عن نفسه . وقصة الإسكندر خير دليل على ذلك . قال الإسكندر الأكبر : لو لم أكن الإسكندر لتمنيت أن أكون الفيلسوف ديوجين ؟

وديوجين هذا الذى يتمناه رجل عريان مفلس نائم على الأرض . وعلى شيء من الفلسفة أو الجنون فقد أمسك فى يده مصباحاً مضيئاً وراح يبحث عن إنسان فى وضح النهار !

ولما ذهب الإسكندر لمقابلة هذا الفيلسوف سأله : هل تريد شيئاً ؟

وأجاب الفيلسوف : نعم . . أن تبتعد قليلا فأنت تحول بينى وبين الشمس !

وتمنى الإسكندر أن يكون كهذا الرجل الذى لا يجد شيئاً غير هذه الشجاعة على القول !

وعندما طلب الملك داريوس من الإسكندر أن يقتسما العالم فكان مما قاله له الإسكندر : إن السماء لا تقوى على أن تدور بها شمسان ، والأرض لا تقوى على أن يكون بها سيدان !

ولما سمع الإسكندر من بعض الفلاسفة أن هناك مساحات كبيرة فى الأرض لم يغزها أحد بعد ، حزن جدًّا – حتى مات !

ومكتوب على قبر الإسكندر هذه العبارة : ضاقت عنه الدنيا واتسع له هذا القبر !

قل يا أمير : هل أنت تغضب بسرعة ؟

وأجاب : اسمع ياسيدى إن الغضب لا يكلف الإنسان شيئاً . ونصيحتى أن الإنسان أفضل له ألا يجعل الشمس تغرب وهو غاضب . . يجب أن يعود إلى حالته الطبيعية بسرعة . . فالذى يغضب يركب حصاناً ، فى استطاعة أى إنسان أن يغضب . . ولكن الحكمة هى أن يغضب فى الوقت المناسب

مع الشخص المناسب وبالقدر المناسب ، وليس هذا فى استطاعة كل الناس ، فالغضب يرفع حرارتك ويحط من قدرك .

ويقول الأمير عبد الله الفيصل فى شيء من الغضب الخفى : أحسن لكل من يسرع فى غضبه أن يقول لنفسه : سوف أغضب اليوم . . ثم أغضب مرة كل يومين . . ثم مرة كل أسبوع – ثم مرة كل شهر . وبعدها تتغير حياتك ، وإذا حدث لك ذلك فاشكر الله على ما أعطاك من الصبر وراحة البال وحب الناس !

– إذن أنت لا تغضب – إذن أنت فى صحة جيدة . . ولكنى لا أرى ذلك ؟

– إنها حكمة الله . . فالذى يجد الطعام لا يجد المعدة . . والذى عنده معدة ليس عنده طعام . . والذى عنده المعدة والطعام هو أسعد الناس .

– كم تشرب من القهوة كل يوم وكم تحرق من السجائر . ؟ وأى الاثنين تلعن كل يوم . ؟ أنا كنتُ أشرب أربعين فنجان قهوة . . واليوم لا أذوقها . . حاولت أن أتعلم التدخين وحاول الزعيم كاسترو فى إحدى الليالى أن يعلمنا أصول التدخين . . وهو عمل وطنى من الدرجة الأولى . . فهو يريدنا أن نتحول إلى داعين لجمال سجائر كوبا . . وتعلمت منه أصول التدخين . . كيف أمسك السيجار وأضع طرفها فى فنجان القهوة ثم أقضم هذا الجزء المبتل ثم ألقى به على الأرض . . وأشعل سيجاراً وأستمتع بالحياة . . وتعلمت كل ذلك ولكن لا أجد أى متعة فى أن أظل أشعل سيجاراً طول النهار . . ولعنت السجائر التى لم أتعلم كيف أدخنها أوكيف أجعلها وسيلتى إلى الاستمتاع بالدنيا . وبينى وبينك ليس صحيحاً أن السماء الصافية هى الأجمل وكذلك الماء الصافى . . ولا الكون الأبيض . . إننا نجلس فى غرفة مغلقة نستمع إلى الموسيقى ونأكل ونشرب وندخن وسعداء . . فأين هو صفاء السماء . . ثم من الذى لا يجد متعة إلا فى الماء الصافى ؟ . . إن فى الدنيا سوائل من كل لون وكلها أروع من الماء . . صحيح أن الماء هو الأصل ولكن الإنسان يعكر الماء ويستعيض عنه بالسوائل الأخرى . . إننا نفسد الماء ونتذوقه . ونفسد الهواء ونشمه . . فالحياة هى الفساد الدائم لصفاء كل شيء . . وبعد ذلك نتوجع من فساد الماء والهواء – وهذا هو الإنسان الذى يضع السم ويمرض ويعالج نفسه من أمراضه !

وقبل أن يجيب الأمير عبد الله الفيصل عرفت أنه سوف يبدأ عبارته بكلمة : اسمع . . فقلت له اسمع أنت حتى أكمل كلامى . فأنا أعرف أن لديك الكثير جدًّا . .

ولم أكمل عبارتى حتى بلغتنى كلمة « اسمع » وبدأت أسمع . قال : الحياة عندى لها معان أخرى كثيرة . . عندك استعداد تسمع منى ؟

قلت : نعم

قال : وعندك صبر ؟ .

قلت : كثير . .

– وعندك ذاكرة ؟ .

– أعتقد ذلك . .

– وعندك شجاعة أن تنقل عنى كل ما أقول ؟ .

– أرجو ذلك . .

قال : الحياة مثل اللوحة اليابانية . . ليس لها أطراف ولا حدود . . ولا هوامش . إنها شيء جميل لا حدود له . . لا الأرض محدودة ولا السماء . . الحياة أغنية نحن نكتب كلماتها . . ونحن الذين نضع لحنها وموسيقاها . . ونحن نجعلها مرحة . . ونحن نجعلها حزينة . . نحن الذين نختار إيقاعها المرح أو إيقاعها الحزين . . الحياة فنجان قهوة . . تشربه بسرعة فتنتهى بسرعة . . أو تشربه على مهل وتنتهى على مهل . . الحياة فنجان قهوة عربية أو فنجان شاى هندى . . إن شئت شربته مرًّا ثقيلاً وإن شئت شربته حلواً خفيفاً . . الحياة مثل العزف المنفرد على العود . . تعزف وتتعلم وتتلفت إلى الذين يسمعونك . . أو لا تجد أحداً يسمعك . . الحياة مثل الحب : العقل يرفضها ولكن القلب يموت فيها . . ونستطيع أن نقول أيضاً : إن الحياة جسر ضيق على نهر الدموع . . الحياة جبل من أشياء صغيرة تافهة . . الحياة ورقة بيضاء نكتبها بحروف سوداء . . الحياة صراع مستمر لكى نجعل المستحيل ممكناً . . الحياة مكتبة ، بعض كتبها من تأليفك والباقى من تأليف الآخرين . . حياتى هذه مثل جسمى تماماً : قليل من اللحم وقليل من العظم وقليل جدًّا من العقل . . والحياة ليست مشواراً نريد أن نفرغ منه ، الحياة حديقة يجب أن نتنزه فيها . . عندك استعداد تسمع منى أكثر؟

قلت : ما الذى تراه منى ؟

قال : إذن اسمع أكثر . . الحياة مثل كرة القدم . . الأهداف لا تهم . متعة اللعب هى التى تهم . . أو الحياة مثل كرة القدم . . لا يهم أبداً «كم» هدفاً أحرزت ولكن «كيف» أحرزت !

قلت : واضح جدًّا أنك تتحدث عن حياة ليست فيها امرأة . . فالمرأة عندما تدخل الحياة تخرج منها أشياء كثيرة . . فالحياة رجل وامرأة ، أحدهما يطارد الآخر حتى يطرده أو حتى يطرد غيرهما . . أو يقترب من الآخر حتى يلتصق به وتزهق روحه . . أو حتى يكونا واحداً . . جسماً واحداً وقلباً واحداً وعقلين . . ويحاول كل عقل أن يأخذ القلب إلى صفه . . ثم الجسم . . ثم ينفصلا ليلتقيا من

جديد . .

– ما الذى تراه أنت ؟

واعتدل فى جلسته ثم تراجع . . كما تتراجع البندقية فى يدى الجندى ليحشوها بالرصاص . . وقال : اسمع . . المرأة . . كلمة «امرأة» ما الذى تراه فى هذه الكلمة . . إنى أرى فيها أن أول حرفين منها هما أم . . فهى الأم لكل الناس . . هى تريد أن تكون أمًّا مدى الحياة . . أمًّا لابنها مهما كبر . . وأما لزوجها مهما كبر أيضاً . . فلا حياة بغير امرأة . . والمرأة خصرها ضيق ولكن آمالها عريضة . . وأقوى سلاحها ضعفها . . وطعامها فستان ومديح . . ولا أعرف اسم الشاعر الفارسى الذى قال : المرأة خلقت من وردة وعصفور وأفعى وعسل وسم . . لتقل فى المرأة ما تشاء فالمرأة هى التى تكسب فى النهاية . فهى التى تحكم ؟

– تحكم الرجل ؟

– نعم .

– ومن يحكم المرأة ؟

– الشيطان !

– وما شيطان المرأة ؟

– غرورها وفستانها ورغبتها المستمرة فى التغيير . . إن المرأة تسجل كل شيء على أرض متغيرة . . فحبها مكتوب على الرمال . وأحلامها منقوشة على الماء . .

قال لى : ما الذى أخف من الريح ؟

– الورقة !

– وما الذى أخف من الورقة ؟

– النار !

– وما الذى أخف من النار؟

– المرأة !

– وما الذى أخف من المرأة ؟

– عقل الرجل إذا صدق كلمة واحدة مما تقول !

– ما الذى تكذب فيه المرأة ؟

– فى شيئين : فى سنها وفى الفلوس التى فى جيب زوجها !

– ومن يحاول ان يغير المرأة ؟

– كالذى يحرث فى البحر ويبذر فى وجه الريح !

– ما الذى تحبه فى المرأة ؟

– أحب جمالها ورقتها وغرورها وأحب صمتها أكثر.

– ما هى أعظم لذة عند المرأة ؟

– الانتقام !

– هل تذكر من قال : فتش عن المرأة ؟

– لا أذكر ولكنها عبارة قديمة جدًّا .

– قالها الكاتب الفرنسى ألكسندر ديماس . . وقالها قبله الوزير الفرنسى فوشيه . . وكان وزير داخلية نابليون وكان يتحدث عن إحدى الجرائم و . .

– طبعاً لابد أن تكون المرأة هناك . . وراء الرجل . .

– ما الذى يجعل الرجل أعمى ؟ .

– الحب !

– وهل الذى يحب أعمى ؟

– الذى لا يحب هو الأعمى !

– بل الذى يحب هو الذى عنده عمى الألوان . . أى يرى من الأشياء لوناً واحداً . . لا يرى إلا جمال حبيبته وصوتها وطولها وعرضها . . ولذلك ، فالمحب ليس أعمى تماماً . . ولكنه أعمى إلى حد ما . .

– اسمع . . اسمعنى . . أنا لا أريد أن تستدرجنى فى الكلام وتوقعنى فى مشاكل كثيرة . . فأكثر مصائبى فى حياتى جاءت من أصدقائى . . وأنت تكلمنى الآن وتسافر . . وبعد ذلك أظل أعتذر لكل الناس من حديث شخصى دار بينى وبينك . . إننى أردد بينى وبين نفسى «قسم بقراط» . . ذلك القسم الذى يتلوه كل طبيب قبل أن يشتغل بمهنة الطب . . والقسم يقول : أقسم بالله ، أن أكون مخلصاً لمهنة الطب ، وأن أكون منصفاً وكريماً مع الأطباء . . وأن أكون أميناً شريفاً . وأى بيت أدخله أكون حافظاً لأسراره . . وألا أعطى دواء ولا أجرى عملية لأية أغراض إجرامية . . وهذا القسم عمره أربعة وعشرون قرناً . . وأنا أريد أن أكون أميناً لا أبوح بسر لأحد ولا أسىء إلى أحد . .

وسكت ليقول : هل تريد أن تقول إن الحياة ممكنة من غير امرأة ؟ .

– أرجو أن تلاحظ أننى لم أقل شيئاً من ذلك . . ربما قلت أشياء كثيرة جدًّا فى كتبى عن المرأة . . ولكنى هنا لم أشرح هذا المعنى مطلقاً . . ولكن حواراً يدور فى نفسه هو . . وأصواتاً تعلو وتنخفض . . وهو يرد عليها بقوله : هل تريد أن تقول إن الحياة ممكنة من غير المرأة ؟ .

الحياة مستحيلة من غير المرأة ومن غير الرجل . . إن الإغريق حدثونا عن جزيرة اسمها « لزبوس » . . فى هذه الجزيرة عاشت النساء وحدهن . . وقررن أن الحياة ممكنة من غير الرجل . . وكانت كل واحدة تشعر بشىء نحو الرجل أو تحلم به ، تلقى بنفسها فى البحر ، وقد تعاهدت نساء الجزيرة على ذلك ، فماذا حدث ؟ . لقد صحت صاحبة الجزيرة فى أحد الأيام فوجدت الجزيرة قد خلت تماماً من النساء– منتهى الصدق . . فكل واحدة أحست برغبتها فى رجل ألقت بنفسها فى الماء . . إنما صاحبة الجزيرة ، ما الذى فعلته ؟ إنها هربت على أول سفينة . . وأسلمت نفسها لكل الرجال بالأصالة عن نفسها وبالنيابة عن زميلاتها . . ثم ما الذى فعلته نساء أخريات اسمهن بنات الأمزون . تعاهدن على ألا تكون لهن حياة مع الرجال . . فقطعت كل واحدة ثديها حتى لا تشعر به . . وقطعت النساء أوصالهن . . حتى تشوهن تماماً . . وظهر رجل فجأة وهو رجل وسيم جميل . . ولما نظر إلى النساء هرب . . فلا حياة للرجال فقط ولا حياة للنساء فقط . . إلا فى السجون أو المستشفيات . . حيث الرجال فقط أو النساء فقط . . وليست هذه حياة طبيعية ، إنها صورة من صور العذاب فى الحياة .

– كلام معقول لولا أننا نرى فى شعرك شيئاً آخر . . فأنت تلعن المرأة وتلعن العذاب معها . . وترى أنها كاذبة خادعة « ظالمة » . . ولابد أنك تغرى غيرك من الرجال بأن يحاسبوها ويعاقبوها على ذلك . . فلست المحب الهيمان لها ، أو حتى الذى تغفر لها خطاياها . . فأى نوع من النساء الذى يستحق العذاب ؟ . . وأى نوع يستحق التكريم ؟ . أو أن نساء الشعر شريرات ونساء النثر من بنات التحرر . . أو أن مادة الشعر يجب أن تكون سوداء ومادة النثر يجب أن تكون وردية . .

– يا أخى اسمعنى . . إننى أتحدث عن نوع ملون من النساء . . نصيبى من النساء هو هذا النوع الرهيب ولكنى فى نفس الوقت عرفت سيدات عظيمات . . يؤدين دورهن فى الحياة . .

– ولكن لا مكان لهن فى الشعر . .

– لهن مكان فى شعر غيرى . . ولكن اللاتى أوجعن قلبى كن شريرات . . والمصيبة أن هذا الوجع لم يخفف منه الزمن . . فالشاعر ينقل ما يوجعه إلى الناس . .

– ليوجع قلوبهم عليه . .

– ليوجع قلوبهم لعلهم يشعرون به

— فإذا شعروا به ؟

— لا شيء أكثر من هذا . فهذا هو منتهى أمل الشاعر . . إنه إنسان مجنون . . فالشاعر يصنع كلماته من ريش الطيور ومن أوراق الورد ومن شعاعات القمر . . ويمضي عمره مشغولا بهذه الصناعة . . لا يهمه كثيرا أن يرى ذلك أحد . . إن البلبل يغرد وحده سواء كان هناك من يستمع إليه . . أو لم يكن أحد . . هذه طبيعة . . بل إن البلبل يزداد صوته جمالاً إذا لم يكن هناك أحد . . كأنه لاينشد شيئاً . . لا يريد هدفا . . إن الفن للفن . . والتغريد للتغريد . . لا يريد من أحد أن يخلصه من قفصه . . ولو أطلقته لعاد البلبل ووقف فوق القفص . . وكذلك الشاعر إنه يغرد فقط . . فإذا سمعه أحد وأعجب به أو لم يعجب ، فالشاعر ليس مشغولا بذلك مطلقا . . وأنا قلت وتوجعت وهذا يكفيني ويريحني . . لأن الفن عموما لا يهتم كثيرا بالأشياء ولا بالناس ، ولكن « بأسلوب » ظهور هذه الأشياء وهؤلاء الناس فى قصائده . . فالفن هو الروح وهى تتكلم بصورة ملموسة . . مرئيا مسموعا مشموما . . الفنان هو الذى يجعل لكل شيء صوتا وضوءا ورائحة . . وبعد ذلك لا يشغل نفسه كثيرا . إن كان ذلك فقد استراحت إليه العيون والأذن والشفاه والأصابع . . إنه كالنحلة تضع العسل ولا تذوقه . . ويجيء الإنسان يأخذ منها العسل . . ولم تتعلم النحلة أن تكف عن إفراز العسل وأن تتوقف عن هذا العمل الجنونى الذى تقوم به . . فهى تصنع ما لا تأكل . . وهى لا تتوقف عن ذلك . . وكذلك الفنان لا يكف عن صناعة العسل وعن التغريد . . ! وأحب أن أقول لك : إن هذا ليس خاصا بالشعر وحده . . وإنما فى كل الفنون . . والفنون كلها إخوة . . كلها أشقاء . . كلها أغصان على شجرة واحدة . .

فقلت له مقاطعا : من يسمعك تقول هذا وتسترسل وتدافع عن نفسك وعن شعرك وشاعريتك وتغريدك المنفرد ، يخيل إليه أنك لا تقوم فى هذه الدنيا بأى عمل . . لا زوج ولا أب ولا صاحب تجارة . . مع أنك مشغول بأشياء كثيرة . وحياتك منظمة جدا . تصحو فى ساعة معروفة وتخرج وتعود فى أوقات محدودة ، أنت الذى حددتها بنفسك فأنت صاحب عمل ولست موظفا عند أحد . ولكنك تروح وتجيء كأنك موظف فى مؤسسة لها مواعيد دقيقة . فهل أنت أب مثلا ؟

— طبعا أب . ومشغول بتربية أولادى . وعلمتهم وهم ناجحون فى حياتهم . ونجاحهم نجاح لى . أو امتداد ناجح لحياتى . وأنا أؤمن بأن الذى لا يعلم ابنه شيئا ، جعله لصا فى سن مبكرة . .وأؤمن أيضا بأن الذى لا يرى فى أولاده صورة أفضل له ، لم يؤد ما هو واجب عليه . وقد أديت واجبى وزيادة . وأنا أحب أن أقول لك : إن أى شيء يروح ويجيء . الفلوس مثلا . الفلوس لا تجعل الغنى

ذكياً . ولكن الذكى الذى يستطيع أن يأتى بالفلوس . . والفلوس لا تعطيك السعادة . . وإنما أنت الذى تجعل الفلوس تسعدك وتشقيك . وقد أعطيت أولادى ما يجعلهم قادرين على الاستمرار حتى لو لم تكن هناك فلوس . .

وقلت له : كأنه لا حياة سياسية لك . . ولا رأى !

قال : كيف يا أخى . لى رأى طبعا . ولكنى أخشى أن أكون مقلقا لكثيرين من المسئولين وأنت تعرف الظروف . . ولكن أريد أن أقول لكم أنتم شيئا . إن مصر ليست للمصريين . إنها للعرب . كرامة العرب من كرامتها . وعزة العرب من قوتها . وأمجاد العرب من انتصاراتها . والعالم الإسلامى كله يدين لمصر بموقفين : ضد التتار عن الإسلام . . وضد الصليبيين . . وأخيرا يوم العاشر من رمضان . فقد نصرت مصر العرب والإسلام عندما انتصرت . . هذه حقيقة يجب ألا ننساها . . وأنا أقول ذلك لعدة أسباب : أهمها أن تعمير مصر هو تجميل للأمة العربية ، وبناء جديد لروحها . . فقل هذا عنى . وليس هذا رأيى وحدى . . ولكن الملايين ترى ذلك صادقة تماما !

وأحسست أنى أبتعد قليلا عن الموضوع الذى هو الفنان نفسه ، أو نفسية الفنان فى ظروفه المريحة جدا بصورة مقلقة !

فقلت له : ألا توجد عندك مخاوف خاصة ؟

– لا مخاوف خاصة !

– ولا مخاوف عامة ؟ .

– عندى مخاوف على بلادى . . فأنا أخاف عليها من التغيير المفاجئ . . أخاف عليها من الطفرة . وأتمنى أن تتغير دون أن تختفى معالمها . أريد تغييرا يبقى لها على عروبتها . . وأعود إلى اليابان : إنها استطاعت أن تغير وأن تتغير ، ولكن بقى دائما طابعها القومى التاريخى الذى تتميز به . فلو استطاعت السعودية أن تكون مثل اليابان فهذا منتهى أملى . .

– ألا تخاف من المرض ؟

– أخاف ؟ فأنا مريض والحمد لله .

– ولا تخاف من الفقر ؟

– لا يخيفنى . . فالإنسان مهما كانت ثروته فهو يأكل رغيفا واحدا وينام على سرير واحد . . وأنا صغير كنت أحلم بحصان . وأنا كبير أحلم بسيارة . . والحمد لله ، الذى آخذه من الدنيا يرضينى . . وأؤكد لك أن كل إنسان عنده ما يرضيه . . ولكن نظر الناس إلى ما فى يد الآخرين هو الذى

يقلقهم . وهو الذى يجعلهم يشعرون بأن الذى عندهم قليل . . وأريد أن أسألك : كم رغيفا يأكل أغنى الأغنياء ؟ . . كم كوبا من الماء يشرب أغنى الأغنياء ؟ . . إنه رغيف أو رغيفان . . كوب أوكوبان . . ولوكانت عنده بحيرة من الماء الصافى فكل ما يأخذه منها كوبا واحدا . . والباقى كأنه غير موجود . . فلوكان عند إنسان جبل من الذهب ، فإن الذى يأخذه ما يملأ يده . . والباقى كأنه ليس موجودا . . كأنه جبل من التراب . . أؤكد لك ذلك . .

– لا داعى لأن تؤكد ذلك . . فلا أنا أتصور الذهب جبلا . . ولا أتصور أن فى يدى قليلا منه . . ولكن المؤكد لك أيضا أن الخوف أصبح طبعا «ثابتا» ، فأنا حيـوان ناطق . . وأنا حيوان خائف . . وأسأل نفسى ما الذى يخيفنى . فأنا خائف والسلام . . من ماذا ؟ من أشياء كثيرة . . ربما لم أناقشها بينى وبين نفسى مرة واحدة . . ولكن خائف . . وأحيانا أخجل من هذا الخوف . . ولا أرى له ضرورة . . وأحيانا أشعر بأننى من آونة إلى أخرى لست إلا الخوف نفسه . . ولكن ما هو الخوف . . ربما كان الخوف هو أن أشعر بأن قلبى يقفز من مكانه إلى حلقى . . ثم يعود إلى مكانه . . ولكن ما هى مناسبة الخوف ؟ ليست له مناسبة كالتنفس ليست له مناسبة . . إننى أتنفس ليلا ونهارا . . ولكن ما تاريخ هذا الخوف ؟ إنه تاريخ قومى ، وأنا شاهد على ذلك . .

وقال : أعتقد أنها عادة سيئة . . كالتدخين . . فالذى يدخن يخاف إن لم يفعل . . أن يقع فى الطريق . . وألا يصبح قادراً على التفكير . . أو ضبط النفس . . ولكن هذا مجرد خوف مبالغ فيه .

– وهذا الكلام الذى تقوله ضد الشعور بالخوف مبالغ فيه أيضا ؟ وعندى سؤال خاص جدا ألا يحدث فى بعض الأحيان أن تضيق بنفسك وبالدنيا ، وتشعر فجأة بأن الأوكسجين الموجود فى الهواء قد اختنى ، وأنك لا تعرف كيف تتنفس أو تعرف ولكنك لا تجد أنفك . . أو تنسى كيف كنت تتنفس فى وقت من الأوقات . . أحيانا أشعر بذلك . . وأحيانا فى نفس الوقت لا أعرف ما الذى أضعه . . إنه ليس ضيقا من التنفس إنه ضيق بكل شىء . . ولا أمل فى أى شىء . . وأن حياتك ودنياك وما صنع غيرك وما صنعت أنت لا معنى له . . وأن كل هذا العذاب والشقاء والبلاء لا ضرورة له . . وأنه لا فرق بين الإنسان والجزمة التى يلبسها . . أو بين الإنسان والحمار . . أو الأرض التى يعيش عليها . . وأن الكل تراب فى تراب . . وأن الفقير والغنى ، والعالم والجاهل ، والطفل والشيخ كلهم أكوام من التراب تختلف فى حجمها ووزنها . . ولكنهم تراب . . ومع ذلك لا أجد ما أفعله ، هل أقفز من هذه الحياة إلى الموت ؟ ولكن ما معنى هذا ؟ هل أستمر فى قرفى عن نفسى وعن الدنيا كلها ؟ . هل أغمض عينى وأذنى وأقفل نوافذ وأبواب حواسى كلها وأكون حجرا جامدا . . أو أجعل جسمى مقبرة لنفسى ؟ لا أعرف . . ولا أجد أحدا سيستطيع أن ينقذنى أو يخرجنى مما أنا فيه . . ومع ذلك أجدنى قد

خرجت من هذا المأزق . لا أعرف كيف . . وأحس كأنه سحابة سوداء قد مرت . . وظهر نور خافت . . ثم أخذ النور يتضح . . وكل شيء أيضا يصبح أوضح . . وأرى فى النور معانى أخرى . . وتتولد فى داخلى مشاعر مختلفة . . وأنسى ما حدث قبل ذلك . . وتغمرنى الحياة وتستغرقنى وتغرقنى . . وأحس أننى قبل ذلك كاد الضياع يغرقنى . . والآن شيء آخر غير الضياع .. عكس الضياع يكاد يغرقنى . . فقبل ذلك كان نقص الهواء يكاد يقتلنى ، والآن كثرة الماء والهواء تكاد تقضى على . . وأظل هكذا دائما غارقا بين فراغ قاتل وامتلاء قاتل . . ولا أعرف مصدرا لهذا العذاب بين الموت والحياة . . أو بين حياة كالموت ، وموت كالحياة . . كم مرة فكرت أن أموت . . كم مرة فكرت فى الانتحار . . كثيرا . . ولأسباب كثيرة . . ولكن ما الذى يمنعنى من تنفيذ ذلك . . كنت أقول لنفسى إذا حدث لى كذا فسوف أنتحر . . وحدث لى أكثر من كذا وكذا ولم أفعل شيئا ، ما السبب ؟ لا أعرف . . إن نفسى لم تهن . . لا أعرف ما الذى أبقانى ؟ إننى كثير جدا اكتشفت أن وجودى لا فائدة له . . لا معنى له . . إن أحدا ليس فى حاجة إلى . . ولا أحد فى حاجة إلى أحد . . كل إنسان من الممكن أن يعيش من غير أقرب الناس إليه . . كم مرة تصورت أن الشمس التى غربت على لن تشرق على مرة أخرى . . ثم تشرق وتغرب وتشرق . . ولا أعرف بالضبط ماذا حدث ؟ إننى أكون قريباً من الموت . . ألمسه ولكنه لا يجيء . . ولكن هذه التجارب المستمرة لم تجعل الموت شيئاً مخيفاً ولا حتى شيئاً جميلاً . . إن الإنسان وهو يهبط السلالم يحاذر أن يقع ؟ هل هو يخاف الموت ؟ . ليس الموت . . ولكنه يخاف الألم . . يخاف أن يقع فتنكسر رجله . . فتعطله عن عمله . . أوليس العمل هو الذى يخاف منه ولكن يخاف أن يتعطل من العمل فيقعد على مقعده آخرون . . أى أنه يخاف أن يدوسه الغير . . فإذا داسوه كانت الحياة أقسى من الموت . . إنه يخاف أن يضيع فى زحام الناس فى مكان تحت الشمس . . ربما كان ذلك . .

– أرجو أن تكون كلمة « ربما » هذه كبيرة جداً ؟

وقال وكأنه فكر فى هذا كله كثيرا قبل ذلك : إسمعنى إذا كان كلامك عن الموت ، فالموت أبسط من ذلك جدا . . إنه لا يخيف . . لا تتعجل الموت . . فسوف يجيء . ولكن متى ، لا أحد يعرف والله تعالى يقول : (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت) . فلا تشغل بالك بالموت . ثم إن الموت على الأبواب . . إنه مثل جمل يأتى إلى كل بيت . . الجمل لونه أسود ، ووقع أقدامه لا يشعر بها أحد . . ثم يجيء الجمل ويبرك أمام كل بيت . . ويخرج من البيت واحد ، يحمله الجمل ويمضى . . قد يكون الذى أخذه رب الأسرة ، وقد يكون أصغر الأبناء ، قد يكون أصح

الأبناء وأجملهم . . وقد يكون أغناهم أو أفقرهم . . لا أحد يعرف . . سيجىء حتما ولكن أحدا لايدرى بذلك . فلا تنشغل به . . ولكن اجعل حياتك كريمة ليكون موتك ، أكرم لاتشغل بالك : فالموت مثل النضج للثمرة . . مادامت قد ولدت الثمرة فلابد أن تنضج فإذا نضجت سقطت . وإذا سقطت انفصلت عن أمها . . وهذا هو الموت . . وقد تسقط الثمرة قبل أن تنمو . . وقد تسقط وهى زهرة . . سوف تسقط ما فى ذلك شك . فأنا لا أفكر فى الموت ولا أنتظره ولا أتعجله . . إنها إرادة الله أعطانا الحياة ويستردها بعد ذلك .

— ربما نحن مختلفان فى النظر إلى الموت . . أنت لا تهتم به . ولكنى لا أهتم به أيضا وإنما أنا مهموم بحياتى . . أحيانا أزنها ذهبا وأحيانا أزنها ترابا . . وأكثر الوقت أجدها ترابا . . هذا التراب يملأ عينى فلا أرى . . أو أعجز عن الرؤية . . ربما لأن الموت من صميم الهيئة المصرية الفرعونية . . فأكبر معالم مصر هى الأهرامات . . وهى مقابر الملوك . وعندنا فى مصر مقابر هائلة . وأنا شخصيا لا أملك من هـذه الأرض الواسعة سوى بضعة أمتار دفنت فيها أمى وأرجو أن أجد لى مكانا فيها بعد ذلك . . من يدرى ربما لا أجد شبرا فى هذا المكان . . وكل يوم أبنى للمقبرة سورا وبابا من حديد وسقفا من الأسمنت وأزرع فيها شجرا وأجعل الماء يجرى حتى لا تموت هذه الأشجار . فأنا حريص على حياة الأشجار حتى لا تموت ، مع أننى لا أستطيع أن أدفع الموت عن حياتى . . ثم إن هذه المقابر فى مكان جاف فى القاهرة . الهواء صحى . . إنه مكان يصلح للأحياء ولا يصلح للموتى . . وننشر أخبار الموتى ونتلقى العزاء ونقيم الصلوات ويجىء من يقرأ القرآن . . فى مكان عام وفى البيت . . وعندنا الخميس الأول بعد الوفاة . . وعندنا الأربعون أى مرور أربعين يوما على الوفاة . . والسنة الأولى . . وزيارة القبور فى أيام الأعياد . . ونأخذ الفطائر والحلوى والفاكهة لكى نعطيها الفقراء . . الذين لا يجدون الرغيف ، فنعطيهم الفطير ، وكلها عادات فرعونية . . أما عندكم فشىء عجيب . . لقد ذهبت معك للتعزية فى الشاعر فؤاد شاكر . . فدخلت ولم يقف أحد لمصافحتى . . وخرجت ولم يقف أحد لشكرنا على التعزية كأننا أشباح لم يشعر أحد بوجودنا . . ثم قبر الرسول فى المدينة . . نحن نرى ذلك شيئا وأنتم لا ترون ذلك . . وعندنا فى القاهرة ضريح لسيدنا الحسين وللسيدة زينب . . ونحن نعلم تاريخيا أنه لا الحسين دفن فى القاهرة ولا السيدة زينب ، ولكن تعال نتفرج على الذى يفعله الناس فى باب وجدران وضريح مسجد الحسين . .

— أعرف ذلك . . ولكننا فى وضع أحسن . نحن أقرب إلى الدين . فلا فرق بين أحد وأحد فى الموت . هذه حقيقة . فلماذا نجعل الموت مناسبة أخرى للتفريق والتمييز بين الناس . مادام الموت

يسوى بين الناس فلماذا نفرق بين الناس . . إنك لو زرت قبر الملك عبد العزيز ، فإنك لا تعرفه إلا إذا قال لك أحد ذلك . وهذا هو صميم الإسلام . أنت رأيت مقابر الصحابة فى المدينة « قبور البقيع » . فماذا وجدت . . لا شيء يميز قبرا واحدا عن الآخر . . ولا قبور الخلفاء ولا قبور الأنصار . . هذا هو الطبيعى . . عندنا حالتان يتساوى فيهما الناس جميعا : فى الحج وفى الموت . . فى الطواف والسعى . . الزحام الشديد . . الكبير والصغير . . من يجد اللقمة ومن لا يجدها . من يجد الملابس ومن لا يستطيع أن يستر نفسه وراءها . الله أراد ذلك . بل إننى أرى أن الناس يبالغون فى الحفاوة بالميت . يجب أن يمضى إلى ربه بلا ضوضاء . ولن ينقذه أحد من ذلك . ويجب أن يكون ذلك بسرعة . بعض الناس عندنا يبطئون فى ذلك . . وهذا ضد الدين ! وهذا هو الإيمان . وأنا مؤمن بالله وبقضاء الله وفى هذا اختلاف بيننا ، هكذا وبلا فلسفة . . وأنت تنظر إلى القضية وتصل إلى نفس النتيجة من الناحية الفلسفية أو النفسية – وأنا أنظر إليها من ناحية العقيدة . . ولكن لا خلاف فى أننا ميتون . والله تعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : (إنك ميت وإنهم ميتون) .

ومن بعيد رأينا عددا من الشبان من بلاد مختلفة وقد ارتدوا ملابس الإحرام . بل رأينا عددا من الأطفال . ونظرنا نحن الاثنين فى اتجاه واحد . وكان لابد أن يكون هذا موضوع تساؤل : وترى فى هذا دليلا على انتشار الإيمان بين الشباب ؟ .

فعلا . الإيمان وليس الدين . فالدين موجود ولكن الإيمان هو هذا الشيء الجديد . فوسائل الإعلام الحديثة قد ساعدت على نشر الدين . وساعدت على تعميق الإيمان به . ثم شيء آخر هام : هذه المحنة التى تمر بالأمة العربية أو تمر بها الأمة العربية . . هذه الكارثة الروحية هى التى جعلت الناس يتوجهون إلى الله يسألونه العون . وهم لا يفعلون ذلك دون أن يصلحوا ما فى أنفسهم . ولن يصلح الله حالهم ، إلا إذا أصلحوا أنفسهم . والله تعالى يقول : (لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . . وأنا أرى هذا الإيمان الشاب أو الإيمان بين الشباب وهو بداية عصر ذهبى للمسلمين فى العالم كله . . أنت نفسك ؟

ولم يكمل هذه العبارة . . حتى وجدت أننى قد تسللت إلى نفسى أقول : أنت نفسك ماذا جرى لك ؟ . فكر فى نفسك . . قبل أن تفكر فى هؤلاء الشبان . . صحيح ما الذى جرى . . أشياء فى نفسى كثيرة تجرى وتتوقف . . وتفيض وتفيض . . شلالات وجنادل . . وقنوات وكهوف . . صحارى وأودية . . شمس تحرق . . وسحب تغرق . . ماذا جرى لكل ما يجرى فى داخلى ؟ صحيح يجب أن أنظر إلى نفسى . . أين ذهب الشك ؟ أين راحت الحيرة وأين ضاعت ؟ أين ذهب الاختناق . . من

أين جاء هذا الأوكسجين للهواء . لقد تعبت من أن أقول : لا . . قلتها كثيراً . ولكن لأى شىء قلتها ؟ ولمن قلتها ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ . . ثم ما الذى أقوله الآن ؟ . إن الذى اهتديت إليه قليل ، ولكنه مريح ، ربما مظلة صغيرة فى يوم حار . . ربما كوب ماء بارد . . ربما غطاء حول عنقى فى يوم بارد . . ربما شمعة فى ليلة مظلمة . . ربما حائط صغير أسند ظهرى إليه . . ربما فرش فى معرض السيارات والطائرات . . ربما كلمتا : الحمد لله . . على ماذا ؟ وما هو هذا ؟ هذا الذى أجده ولا أعرفه . . هذا الذى أحس به ولا ألمسه . . هذا الذى جاءنى ولا أعرف من أين جاء . . هذا والسلام . .

– شكراً لك يا أمير أن أتحت لى الفرصة لكى أفكر وأقول بصوت لا تسمعه أنت : الحمد لله !

أبناؤنا فى البلاد العربية

لا أنسى طفلة صغيرة ركبت إلى جوارى من محطة روما إلى فيينا وفى رقبتها ورقة تناشد كل ذى قلب رحيم أن يعاون الطفلة على النوم والطعام . أما إذا أرادت أن تذهب إلى دورة المياه فألف شكر لكل سيدة تقوم بهذه المهمة . ونامت الطفلة على أكتافنا وصدورنا وقامت ، وعند محطة فيينا استقبلتها جدتها ببعض الحلوى وانتهت رحلة طولها عشرون ساعة لطفلة عمرها سبع سنوات !

ولا أنسى طائرة مليئة بأطفال قادمين من لندن وهابطين فى مطار سنغافورة أكبرهم عمره عشر سنوات وأصغرهم ينام بين ذراعى المضيفات والبزازة فى فمه ، إنهم جميعا تلامذة جاءوا يقضون الإجازة المدرسية مع آبائهم وأمهاتهم فى آسيا !

وليس عندى شىء من هذا . . لأنهم فى الجغرافيا «قالوا لنا . . إن مصر يقع البحر الأبيض فى شمالها والبحر الأحمر فى شرقها والصحراء فى غربها والشلالات فى جنوبها . وأن مصر «محصورة» و«مزنوقة» بين هذه الموانع الطبيعية .

ولذلك فالمصريون لا يحبون الخروج من أرضهم . . وقالوا لنا . . إن مصر هبة النيل . . فالنيل هو صنع وادى مصر ، ونحن لا نكف عن شكر النيل عن هذه الهدية وإننا حريصون على الأرض والزرع . . ولذلك عشنا وعاش أجدادنا الفلاحون نائمين قائمين على الأرض ، ولا نترك سطح الأرض إلا لبطون الأرض ، نعيش عليها ونموت فيها . . فإذا تحركنا فمن المصطبة إلى المندرة إلى المقبرة . . والموت هو شاغلنا الأكبر وليست الحياة ، والأهرام أعظم آثارنا وهى فى نفس الوقت أعظم مقابرنا !

ولأنهم فى التاريخ قالوا لنا : إن مصر مقبرة الغزاة . ما دخلها أجنبى إلا مات فيها . فكأنها بذلك مقبرة لمن فيها . ومقبرة لمن يعتدى عليها . . وإن مصر مفتوحة لكل الغزاة ، وإن مصر يمشى إليها الناس فى اتجاه واحد إليها فقط . . ولا أحد يخرج منها . . ولذلك ليس عندنا الناس الذين يرحلون ويغامرون

ويكتشفون . . ليس عندنا ابن بطوطة وليس عندنا ماركوبولو . . وليست عندنا قصص مثل رحلات «جليفر» ولا مغامرات «روبنسون كروزو» وعندنا المثل الذى يقول : ما فى حد من الغرب يسر القلب . أى أن كل ما يجىء من غرب البلاد أو من شرقها من الأجانب يوجع القلب . فكل ما حولنا عدو لنا . الطبيعة والناس . ولذلك فالبقاء فى مصر هو أحسن من الخروج منها ، لأن مصر هى «أم الدنيا» ومهما حدث لنا فيها فيجب أن نبقى فيها . . وفرق كبير بين أن نبقى فيها وأن نبقى عليها .

ولكننا نرى أن البقاء «فى مصر» هو نفس البقاء «عليها» ، لأننا نرى وجودنا فى مصر . . مهما كانت الظروف هى منحة وشرف نعطيه لبلادنا . . حتى لو كان عبئا ثقيلا على أرضها واقتصادها !

وإذا قررنا البقاء فى بلادنا فنحن نختار العواصم فقط . . أو نختار العاصمة – القاهرة – ونحن نسمى القاهرة «مصر» مع أن مصر هى اسم الدولة كلها ، وهذه التسمية صادقة . . ففى العاصمة كل خيرات بلدنا : فيها الحكومة وفيها المال وفيها المدارس ، أما بقية البلاد فليس فيها شىء ، ولذلك يهرب المواطنون إلى الحياة فى مصر، قريبين من الحكومة . . ومن دواوين الحكومة ، وقريبين من الحضارة أيضا !

ولقد ترسب فى ضمير المصريين الفلاحين أن الله إذا ستر إنسانا . . ستره عندما يموت . . فالستر ليس فى الحياة ، ولكن فى الموت . ولذلك كانت حياة المصريين هى استعدادا مستمرا لموت مستور . . ومن المألوف أن يبنى القادرون من أهل الريف قبورهم وهم أحياء – أى أن هذا القادر يحرص على أن يستمتع برأى الناس فيه وهو لا يزال حيا . . فيقول مثلا ربنا سترها معه . . لقد جعله قادرا على أن يبنى مقبرة أنيقة ! !

ولذلك هان على المصريين كل شىء إلا أن يتركوا بلادهم فى الريف . . أو مصر إلى أى بلد آخر . . وأصبح من شعاراتنا التى ننسى مناقشتها ما قاله الشاعر . .

بلادى وإن جارت على عزيزة   وأهلى وإن ضنوا على كرام

والمعنى . . إن الشاعر يقول إنه مهما فعلت به بلاده من إذلال وتعذيب فهى بلاده . وهو يقبل منها الهوان ولكنه لا يقبله من أى بلد آخر . . ومهما فعل أهله به . . فإنه يقبل ما يفعله الأهل لأن هناك مثلا آخر يقول : إن سكينة الأهل ما تدبحش .

فى حين أن الهوان هو الهوان . . والإذلال هو الإذلال ، بل إن الهوان الذى يجىء من الأهل أقسى من الهوان الذى يجىء من غير الأهل ، وإن الهوان فى الوطن أعنف من الهوان فى أى وطن آخر . .

وأن هناك فارقا كبيرا بين أن تكون بلادنا عزيزة علينا رغم ما نلقاه فيها من هوان وأن بلادنا هينة علينا بسبب ما نلقاه فيها من هوان ولم يكن من المألوف عندنا أن نترك بلادنا لأننا لا نعرف كيف نعيش فيها . . وإنه ليس من الضرورى أن يلقى الإنسان فى بلده كل ما يريده . . وهناك عائلات أخرى . . فالإنسانية كلها أسرة كبيرة . وهناك شعوب عربية كثيرة هاجر أبناؤها من بلادها . وعاشوا ونجحوا فى بلاد أخرى .

ولكن لم يحدث شيء من هذا فى بلادنا . .

فقد ظل المواطن المصرى يتغنى فى الماضى : يا من يرجع لى حبيبى . . هاتوا لى حبيبى . . ويقول . أهلك لتهلك . . وبلدى يا بلدى وأنا بدى أروّح بلدى ، والبر أمان ، وفى البحر لم فتكم فى البر فتونى . . إلى آخر الأغانى والأمثال التى تؤكد أن البلد – أى بلد – هو المكان الذى يعيش فيه المواطن ويموت فيه . . ويموت إذا ابتعد عنه أيضا !

وهناك قصص لا تنتهى عن طلبة البعثات فى أيام محمد على . . وعن الشعور بالغربة والعذاب والنقص الذى عاناه النابهون من أبناء مصر عندما سافروا إلى فرنسا وكيف خافوا من البحر . .

ولكن هذه الروح المتقلصة المقفلة بدأت تنفرج وتنبسط وتتسع لكل ما هو جديد . . ولكل ما يرد إلينا من العالم الخارجى .

وبانتشار التعليم . وانتشار المدارس والمعاهد والكليات فى أماكن مختلفة من مصر . . اتجه المواطنون إلى بلاد أخرى غير بلادهم وغير عواصمهم ، وأقاموا وحدهم ، وحدثت عملية زراعية معروفة اسمها «عملية الشتل» أى نقل النبات من مكان إلى مكان . . ولكنه ظل نباتا أيضا . .

ولكن انتشار المراكز الصناعية هو الذى قام بالعامل الأكبر فى تغيير عملية الشتل الزراعية وتحويلها إلى عملية هجرة داخلية . . فحيث توجد المصانع توجد إلى جوارها المساكن والمدارس والمستشفيات والملاعب ودور اللهو . . وتوجد الإضاءة والمياه النقية والمواصلات وهى المزايا التى كانت تنفرد بها العاصمة الكبرى . . وأصبح من الممكن أن يعيش الناس فى أسوان وكفر الدوار والمحلة وأسيوط والوادى الجديد والمنصورة كما يعيش تماما فى القاهرة والإسكندرية ومديرية التحرير . ولم تعد القاهرة هى عاصمة كل مصر . . وإنما هى إحدى عواصم مصر .

ولم يعد السكن مشكلة مستحيلة . . وإنما مشكلة لها حل ، ولم يعد التليفون والتليفزيون احتكارا لأهل القاهرة . . وإنما هو نصيب مشترك بين كل المواطنين .

وذهب الطلبة إلى الخارج . . وذهب العمال يتدربون فى المصانع ، وأقاموا وتعلموا ، وجاءوا

يتحدثون ويقارنون ويحلمون بالتغيير. وايغيرون من أنفسهم ومن بيئتهم . . ويضعون الخطوط الأولى لتغيير شامل للعقلية الزراعية التواكلية فى بلادنا ، ويخططون لمجتمع قائم على العلم وحسن الإدراك وإنهاء الخزعبلات والخرافات الجغرافية والتاريخية والعقلية التى ورثناها فى نفوسنا ولم يتسع وقتنا ولا عقلنا لمناقشتها والقضاء عليها .

وزاد عدد السكان من عشرين عاما إلى خمسة وعشرين إلى ستة وثلاثين مليونا . . والأرض لم تزد . . وثروات الأرض لم تزد . وصخورها لم تتحول إلى ذهب وأمطارها لم تتحول إلى فضة . . وخرّجت الجامعات مئات الألوف من المتعلمين . . القليل منهم سافر إلى البلاد العربية . . سلعة ثقافية نتقاضى ثمنها بالإسترليني والدولار. ومضت الأمهات يلدن : مئات الألوف من المقاعد فى المدارس والأسرة فى المستشفيات والشقق والأتوبيسات وشرب الزيت والقمح والقطن والسكر . . فما الذى نفعله ؟

يجب أن نفتح الأبواب إلى الخارج . . وليست هذه بدعة . . وليس هذا إفلاسا وليس هذا طردا للمواطنين وإنما هى قواعد التجارة والسياسة . . يجب أن نصدر الفائض من الإنتاج إلى الخارج ، ويجب أن نصدر أحسن المنتجات من المدرسين والأطباء والمهندسين والعمال . لأن هذه السلع البشرية هى دعاية أيضا للبلد . . وهى دعاية للمصانع الثقافية التى أنتجتها وللإدارة التى نظمتها ، ولأنها يجب أن تعود علينا بأغلى الأسعار . . ولأن هذا التصدير هو « تفريج » عن أزمة تكدس السلع فى مصالح الحكومة وعلى سلالم الترام . . ولأن هذا التصدير يقضى بأن تتحول الدواوين إلى مصاطب . . وأن تتحول المصانع إلى منادر . . وأن يتحول المجتمع الصناعى الاشتراكى إلى مزارعين متواكلين بائسين . وإذا عاودهم اليأس استولت عليهم الأفكار القديمة البالية وهى . . أن مصر أم الدنيا . . وأن الذى لا يعمل فى مصر يموت فى أى مكان آخر . . وأن البر أمان والبحر لا أمان له . . وأن الإنسان يجب أن يكون « عجلا فى بطن أمه » . حتى يعبر البحر دون أن يبتل –كما تقول الفزورة الشعبية – فى حين أنه من الممكن أن يعبر دون أن يبتل فى طائرة أو سفينة أو غواصة أو برقية أو مكالمة تليفونية أو برنامج إذاعى . . بل إنه فى استطاعتك الآن أن تدور حول الأرض دون أن تلمس البحر أو البر . . فالدنيا تغيرت . . وسوف تتغير ، ويجب أن نلحق التغيير وإلا لحقنا التعفن . . وإلا تحولنا من بشر إلى حيوانات خائفة وإلى نباتات تولد وتموت فى مكانها !

وقد حاول كثير من المواطنين . . وخرجوا وعملوا فى بلاد أخرى . . ونجحوا ، وهذا يسعدنا . ويشجعنا على أن نفتح الأبواب لمواطنين آخرين . وألا تكون أبوابنا عصبية متشنجة ، تفتح على الآخر يوما . . وتنقفل بالضبة والمفتاح يوما . . يجب أن نفتح الأبواب بوضوح ويكون انفتاح الأبواب هو

الجواب فعلا فى أن يذهب المصريون إلى الخارج ليعملوا أو ليقيموا هناك ، وهل نحن مؤمنون بأن المصريين قادرون على البقاء فى بلاد أخرى وهل نصدق الذين أقاموا ونجحوا ، هل نشجع الذين يريدون أن يقيموا ، وهل نحن حريصون على المواطنين ، وهل نحن فى حاجة إلى أموالهم التى يبعثون بها إلى أهلهم ، هل نحن فى حاجة إلى الثلاثين مليونا . . كل الثلاثين . . كل المئات من الألوف الذين نخرجهم من الجامعات ، هل من الضرورى أن تتحمل الدولة والشعب كل هذه الأعباء التى يمكنه التخلص منها ؟

أعتقد أن هناك أساليب عديدة لمواجهة هذه الزيادة المستمرة ، بعض هذه الأساليب محلية وتتعلق بمضاعفة الإنتاج وزيادة المشاريع العملية فى الزراعة والصناعة والخدمات . . ولكن من المؤكد أن أسرع ما يمكن عمله علنا وفورا هو أن نفتح الأبواب لمن يريد أن يعمل فى الخارج ونحسن اختيار الذين يهاجرون فى المرحلة الأولى .

فإن مهاجرا رديئا فى إمكانه أن يسىء إلى بقية المهاجرين والمواطنين أيضا . ولابد من تغيير قوانين العمل فى الخارج . وقوانين التعاقد على العمل وقوانين الهجرة ، فبعض مواد قوانين الهجرة تدين المهاجر وتجعله أقرب إلى الهارب من مصر المتنكر لخيراتها الكافر بنعمتها . مع أن هذا المواطن ليس هاربا وإنما هو يبحث عن فرص للعمل وعن فرص لخدمة بلاده ، وإنه ليس كافرا بنعمتها . . وإنما هو يريد أن يعبر لها عن امتنانه بالعملات الصعبة وإنه بذلك ييسر على بلاده أن تبنى المزيد من المصانع والمستشفيات والمدارس والشوارع لتتمكن من إنتاج مهاجرين أنفع وأرفع . . وأنا لا أنسى سيدة سورية فى الفلبين ذهبت مع زوجها يبيعان الأقمشة بين الجزر الفليبينية – سبعة آلاف جزيرة – وبعد عشر سنوات أقامت لنفسها مكانا . . وظل الزوج يلف ويدور . . ثم أقامت كنيسة على حسابها . . وجاءت الدولة ورصفت الشارع وأضاءت الشارع ، وارتفع سعر الأرض إلى جوار الكنيسة ، وباعت الأرض بأغلى الأسعار . وأقامت مصنعا يحتكر منتجات العاج واستوردت السيدة السورية عمالا وموظفين من حلب واللاذقية ودمشق ، وبعد ذلك توافد مئات السوريين ، وفى أستراليا توجد أسرة «اسكيف» ، وكان أبوهم رجلا لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه هو الآخر مغامر شريف . ذهب يبيع على ظهر حصان . . وبعد سنوات أصبح الحصان سيارة . ثم أسطولا من السيارات يركبه أبناؤه وأحفاده ، وانتشرت المحلات التجارية فى سيدنى وملبورن وأصبح أبناء لبنان ثلاثين ألفا يعيشون إلى جوار مائة ألف يونانى وربع مليون إيطالى . . ولا نهاية لقصص الكفاح ولنجاح الأفراد والعائلات العربية التى هاجرت وأقامت فى أمريكا اللاتينية .

وهناك قصص نجاح متواضعة لمصريين أقاموا فى كندا وفى أستراليا . . وهى متواضعة لأننا حديثو العهد بالهجرة ، ولأن المهاجرين أفراد معدودون سافروا سرا مغامرين مقامرين . فلا أحد يسندهم ولا أحد يشد أزرهم ولا أحد يؤكد لهم أنهم مهاجرون لا مطرودون ولا مطاردون . . وأنهم سفراء لا سفهاء . . وأنهم أبناء مصر وأحفادها ، مهما غيروا السماء التى يعملون تحتها ، والأرض التى يعيشون عليها ، واللغة التى يتحدثون بها ، والفلوس التى ينفقونها . .

فليست بلادنا التى جارت علينا ، وإنما نحن الذين نجور على بلادنا إذا أقمنا فيها رغم أننا قادرون على أن نعمل ونقيم ونسعد وننفع فى بلاد أخرى . . فالذى يترك أمه لا يتنكر لها . ولا يكفر ببنوتها وإنما هو يحبها أكثر ويعزها أعمق ويترجم حبه إلى مال ورجال وسمعة طيبة .

السرقات الموسمية للبضائع الإنجليزية من المحلات اليهودية

أدين

بحياتى لواحد حرامى عنده أخلاق !

كان ذلك قبل أن أولد وكان أبى يعمل مأموراً لتفاتيش عدلى باشا يكن فى الصعيد ، وفى إحدى الليالى جمع الإيراد واتجه على ظهر حصان ومن حوله الخفراء إلى محطة السكة الحديد . ولم يكن ذلك سرًّا . فقد عرف اللصوص ذلك . وتواروا فى حقول القصب ، ويقول والدى رحمه الله : إنه لسبب ما نظر إلى اليمين فوجد أحد اللصوص قابعاً وراء حجر وقال له : السلام عليكم . . فما كان من اللص إلا أن رد التحية قائلاً : وعليكم السلام .

ويقال إن من «أخلاق» اللصوص أن الذى يعطى الأمان والسلام لأحد ، يجب ألا يخونه . . ألا يقتله . واللصوص جميعا يلتزمون بهذه الأخلاقيات . ولم يشأ اللصوص جميعاً أن يطلقوا النار على والدى . أما اللص نفسه فقد قتلوه لأنه أضاع مائة ألف جنيه !

إلا لصوص هذه الأيام وهذا الموسم وفى لندن من كل عام . ليست لديهم أخلاقيات عامة . ولا اتفاق على شيء ، وإنما الذى يحدث هو أن يسافر بعض الناس إلى لندن . ويتجهون إلى شارع أكسفورد بالذات . وإلى محل واحد اسمه : ماركس واسبنسر . ويسرقون منه . وبلغ من سفالة هؤلاء اللصوص : أنهم لا يعترفون بالسرقة . فهم إلى جانب سفالتهم جبناء أيضاً . وبعضهم يدعى صفة أخرى كأن يقول إنه دبلوماسى لا يصح القبض عليه . أو يدعى أنه لا يحسن القراءة والكتابة وأنه لذلك أخذ ما ليس له . . وينسى أنه يضيف صفات أخرى منحطة مثل الكذب والتزوير فى أوراق رسمية . أو ادعاء صفة ليست له !

ولكن ما الذى يجعل أحداً يسرق ؟

والجواب : أن السرقة مثل الخط المستقيم أقرب طريق بين نقطتين . . أما النقطتان فهما : ما أريد

وما أستطيع . . فكل إنسان يريد الكثير جدًّا . ولا يستطيع إلا القليل جدًّا . ولكن اللص يحل هذه المشكلة : فالذى يريده هو هذه الجزمة ، فيمد يده بسرعة ويأخذها دون أن يدفع ثمنها .

والسرقة أسرع وأسهل من التعب للحصول على المال ثمناً لهذه الجزمة أوهذه السيارة أوهذه القمصان والبلوزات من محل ماركس واسبنسر .

والفرق بين الذى عنده أخلاق والذى لا أخلاق له هو هذه السرعة فى تحقيق ما يريده دون أن يكون له حق فى ذلك . . ولكن لماذا لا يسرق كل الناس ؟ لأن هناك « فرامل » على رغبات الناس ونزواتهم واحتياجاتهم وعجزهم عن الحصول على ما يريدون . هذه الفرامل هى : الدين والأخلاق والتربية والمبادئ . وهذه الفرامل هى التى تجعل المسافة طويلة وصعبة بين الذى أريده والذى لا أقدر عليه . وهذا هو أيضاً الفرق بين الإنسان والحيوان . فالحيوان إذا أراد شيئاً خطفه أو انقض عليه . . والإنسان يفكر فى ذلك ويتساءل : إن كان يحق له ذلك . . وأحياناً يزهد فى هذا الذى يريده . . أو يدور حوله أو يكتفى بمجرد النظر إليه والاستمتاع . . ويرى فى هذا الاستمتاع نوعاً من الطيران فوقه ورؤيته من بعيد . . أى رؤيته صغيراً ضئيلاً لا يساوى أن يتحول الإنسان إلى حيوان بلا قيم ولا أخلاق !

وقديماً جدًّا قال أستاذنا العظيم أرسطو : ليس كل سافل لصًّا ، ولكن كل لص سافل . . ولكن لصوص المواسم فى لندن سفلة ولصوص معاً !

ومن المؤكد أنهم جهلاء : أو شيء آخر . هذا الشيء الآخر هو الذى من أجله كتبت هذا المقال . فهم جهلاء لأنهم لا يتصورون أن أحداً يراقبهم وهم يدورون بين البضائع . أن هناك عيوناً كثيرة تليفزيونية تترصد هؤلاء اللصوص فى كل مكان . فإذا عرف المراقبون الجالسون أمام شاشات التليفزيون أن هناك لصًّا ، نبهوا أحد الموظفين الذى يبدو كأنه زبون . ويلقى القبض على اللص الذى توهم أن أحداً لا يراه . .

وقد حدث كثيراً أن اتهم اللصوص أصحاب المحلات بأنهم معادون للعرب وأنهم لذلك يلفقون لهم التهم . ولذلك حرصت المحلات على أن تلقى القبض عليهم خارج المحل . وتفتشهم وتسألهم عن الفواتير وعن السلع التى اشتروها . وتدل السلع أنها أكثر بكثير مما جاء فى الفواتير – إذن هم لصوص . وفى هذه الحالة تتدخل الشرطة . وينتقل البائع والمشترى إلى القسم . وتتدخل السفارة . ولكن القانون على رقاب العباد . ويدخل اللص السجن . أما السفارة ورجالها فيضعون على وجوههم قماشاً أسود حداداً على الذى أصاب بلادنا على أيدى السفلة من اللصوص !

ويقال إن بعض المحلات تضع علامات خاصة فى كل سلعة . . وهذه العلامة تمتد إليها يد البائع وتنزعها دون أن يدرك المشترى ذلك . فإذا ألقى القبض على لص اتجهت عيون الباعة إلى هذه العلامة . فإن وجدوها فالبضاعة مسروقة ، وإن لم يجدوها فهو الذى نزعها !

وهى حيلة لجأ إليها البطل الإغريقى سيزيف من ثلاثة آلاف سنة ، فقد لاحظ أن اللصوص يسرقون أبقاره دون أن يهتدى إلى ذلك . فأمسك أبقاره كلها وترك علامات فى حوافرها . واختفت أبقاره وأنكر اللصوص أنهم يعرفون عنها شيئاً . فالأبقار كلها متشابهة . ولكن سيزيف اتجه إلى حوافر الأبقار . . واكتشف أبقاره وأنكر اللصوص أنهم سرقوها . ويقال إن إحدى الأبقار اتجهت إلى اللص وركلته حتى الموت — وهذا ما لم تهتد إليه المحلات الإنجليزية بعد !

ولم نلاحظ فى المسروقات هذا العام شيئاً يستحق أن يسرقه أحد ويبهدل نفسه . . فلا أحد سرق سيارة ولا طيارة . . وإنما المسروقات تافهة . مع أن المثل الشعبى عندنا يقول : إذا سرقت اسرق جملاً ، وإذا خطبت اخطب قمراً . . أى إذا قررت أن تسرق فليكن شيئاً يساوى الهوان الذى سيلقاه اللص . وإذا قرر أن يتزوج وأن يضحى بحريته واستقلاله ، فليعط هذه الحرية لفتاة جميلة جداً تساوى هذه التضحية !

وليس فى نيتى — طبعاً — أن أدل اللصوص على أحسن الطرق لكى يسرقوا جملاً ويخطبوا قمراً . فما دام هؤلاء اللصوص لم يفعلوا ذلك ، كان هذا دليلاً على عجزهم . .

والذى يستحق الانتباه هو أن بعض هؤلاء اللصوص ليسوا فى حاجة إلى أن يسرقوا . لأنهم يقدرون على الشراء . بل إنهم اشتروا بالألوف وسرقوا بالملاليم . لماذا ؟

أما الذى يجيب عن هذا الموقف الغريب فهو علم النفس . يقول علماء النفس إن مثل هذا النوع الغريب من اللصوص لابد أن يكونوا أطفالاً محرومين . وعلى الرغم من أن الحياة قد أعطتهم الكثير . . أى أعطتهم القدرة على شراء ما يحتاجون. فإن هؤلاء الأطفال لا يزالون يعانون من حرمان قديم . . ولذلك فهم لم يصفوا حسابهم مع الحياة بعد. فالذى حرمه أهله أن يشترى حصاناً ، فإنه يسرق الحصان عندما يكبر . .

فالسرقة ليس سببها العجز عن الاقتناء وإنما هو عجز قديم عن الاقتناء . .

وعلماء النفس يسمون هذا النوع من السرقة : بأنه جنون السرقة . كلبتومانيا . أى أن هناك فكرة متسلطة على الشخص بأن يسرق ما لا يحتاج إليه . .

وهذه السرقات تجىء كنوع من الانتقام من الناس . . صحيح أن الذى ينتقم منهم ليسوا هم

الذين حرموه فى طفولته . ولكنهم أناس آخرون . فهو انتقام والسلام !

ويقول علماء النفس : وجنون السرقة عند المرأة له معنى آخر . فالمرأة تنتقم من الرجل . أو من رجولة الرجل . أو من الرجل لأنه أكثر امتيازاً منها . . ولأن المجتمع جعله كذلك . ولا حيلة لها فى هذا الامتياز ، ولذلك هى تحاول أن تخطف أى شىء . . أى أن تخطف منه أى شىء !

ومن حالات الاضطرابات النفسية عند المرأة فى أيام الحمل أن تمتد يدها إلى أى شىء فى أى مكان وتضعه فى فمها .

وفى أيام الثورة الفرنسية ، صدر قانون باعتبار السرقة التى تقوم بها المرأة فى فترة « الوحم » ليست سرقة . فالمرأة تتوحم على أى شىء . ولا تقوى على مقاومته . وكان ذلك فى يوم ٢٨ من شهر جرمينال من السنة الثالثة للثورة الفرنسية . ولكن جاء « قانون نابليون » واعتبر المرأة إذا توحمت وسرقت فهى سارقة . وللقاضى أن يحكم بالرأفة بعد ذلك . وإنما هى من الناحية القانونية يجب أن نضمها إلى صف اللصوص !

أخطر من هذا كله : ما معنى أن يذهب عربى أو سيدة عربية إلى محل ماركس واسبنسر اليهودى الصهيونى الذى يملكه لورد سيف ؟ لماذا هذا المحل اليهودى الصهيونى دون بقية المحلات الأخرى فى لندن ؟

قد يقال إن السارق لا يعرف أنه يملكه صهيونى . ولكن ماذا نقول لمن يذهب إلى هذا المحل وهو يعرف ذلك ؟ وأكثر من ذلك كيف نفسر أن تذهب سيدة وزوجة لرجل يعمل فى الجامعة العربية وتسرق من محل يملكه صهيونى وهى تعلم ذلك ؟

أعود إلى علماء النفس . يقولون : إن جنون السرقة من معانيه أيضاً أن صاحبه يبحث عن فضيحة لنفسه . وأن هذه الفضيحة تعذبه . وأنه يجد لذة فى هذا العذاب . . فاللص يريد أن يتعذب بالهوان والاحتقار . . أى بأن يضربه كل الناس بأيديهم وأرجلهم وأن يمزقوه بعيونهم . . فمن أجل هذا الهوان والاحتقار ، إلى أقصى حد ، يذهب إلى محل يعلم أن صاحبه صهيونى . وأنه إذا ألقى القبض عليه قال الناس : تصوروا أنه عربى سافل ، يسرق من محل صهيونى . . هذا هو العربى وهذا هو اليهودى . . هذا هو اللص الذى يعرف أن هذا المحل فى القائمة السوداء . . وأن قرارات الجامعة العربية تحتم مقاطعته . ورغم ذلك يذهب اللص إلى هذا المحل . وتنعقد المقارنة . . ويرتمى العربى فى الوحل . . أما اليهود فإنهم يطيرون فى السماء . أما المناسبة : فهى أن عربيًّا سرق يهوديًّا وهو يعلم انه يهودى . ويعلم أيضاً أنه سوف ينكشف وسوف يفضحه الناس . . ويفضحوننا معه أيضاً . .

ويقول علماء النفس : إن هذا اللص له ميول استعراضية . وهو يريد أن يعرض عيوبه . . وأن يجعل هذه العيوب من أهم المعالم القومية . . أى أنها ليست عيباً فيه وحده ، وإنما هو ذهب إلى لندن ليعرض عيوب كل العرب ، يعرضها ويعرض بها أيضاً ، وهو أولاً وأخيراً سعيد بتعذيبهم له !

ولنا أن نتساءل : ولكن هؤلاء اللصوص لماذا لا يسرقون فى القاهرة ؟

من الممكن أنهم يسرقون . ولكن هذا النوع من السرقات لا يرضى متعتهم . . لا يفضحهم بما فيه الكفاية . . والفرق بين الفضيحة فى القاهرة والفضيحة فى لندن . . كالفرق بين أن تضرب واحداً على قفاه أمام ثلاثة أشخاص وبين أن تضربه بالجزمة فى ميدان التحرير . . أى الفرق بين الفضيحة الشخصية ، وبين الفضيحة العالمية . .

إنهم لصوص . . سرقاتهم بالملاليم ولكن فضائحهم بالملايين . . إنهم أفراد يجدون لذة فى تعذيب أنفسهم ، إن كنا لا نجد هذه اللذة فى بهدلتنا فى العالم كله !

طالب واحد يبيع «فرش أسنان» الملك خوفو؟ !

هات يدك أعتذر لك عن كل ما نشرته الصحف المصرية ، وعن الذى نشرته مجلة «آخر ساعة» التى كنت أرأس تحريرها كذلك . . وإنما أن نقول «بعض» الطلبة المصريين ، فى «بعض البلاد الأوربية» ، بعض الوقت ! . .

ولم يكن هذا شخصاً واحداً وإنما «بعض» الطلبة الذين قابلتهم . لأننى – وأننا جميعاً – أحرص على أن يذهب عشرات الألوف إلى الخارج كل سنة . . وأن يتفسحوا وأن يعملوا وأن يكسبوا وأن يهاجروا – إذا أرادوا – فالدنيا واسعة ، ويجب أن نجعلها واسعة. ومصر لم تعد كما كان يقال لنا أم الدنيا ، وأن العالم كله ليس إلا قرى صغيرة . صحيح نحن «أم الدنيا» ، أم الحضارة . . ولكننا الآن نحاول أن نكون «فى» الدنيا . . وهذا لن يتحقق إلا إذا فتحنا عقولنا وقلوبنا . . وفتحنا حدودنا وجماركنا . . وخرجنا من جلدنا ، لنرى ونقارن ونتعلم ونجيء إلى مصر نعلم الأجيال القادمة !

وفى كل نهضة لأى بلد ، بدأت بأن خرج أهلها إلى بلاد أخرى . . فعل ذلك محمد على باشا فى مصر الحديثة ، وأوقع وأمتع الصور التى عرفناها : قصة رفاعة رافع الطهطاوى وزملائه . وكيف أن حياة هؤلاء الطلاب كانت مفيدة جدًّا . فقد جاءوا من مصر إلى باريس . . جاءو من القيود والسدود إلى ينبوع الحرية والعلم والنور ، جاءوا من الترعة إلى المحيط !

ولا يزال هذا الخوف القديم قائماً ، فكل أب يخاف على إبنه إن ذهب إلى بعيد . . إن سافر أو كان ضمن بعثة يتعلم . ولذلك تولت الدولة الإشراف على طلبة البعثات حماية لهم وحماية لمصر . ولكن الطلبة الذين يسافرون : بلا إشراف من أحد ، وبعيداً عن عيون وآذان الأم والأب شيء مخيف للجميع !

ومنذ سنوات اكتشف أحد أساتذة جامعة الإسكندرية مخطوطة عمرها عشرون قرناً . المخطوطة تقول إن الأب جاء من مدينة دمنهور ليرى ابنه فى الإسكندرية . وقد كانت صدمة الرجل فظيعة

عندما علم من السيدة التى يسكن عندها الابن ، أنه يبدد أمواله فى ركوب الخيل والحمير . . أى أنه لا يذاكر بدرجة كافية !

ولم تضف المخطوطة إلى ذلك شيئاً ، فنحن نعرف بقية القصة . فلا بد أن الأب قد حزن وأن الأم أشد حزناً . ولابد أنه انهال على ابنه ضرباً . ولابد أنه ركع أمام صاحبة البيت أن تغلق عليه الباب بالمفتاح . . إلخ !

أما الآن فالدنيا تغيرت كثيراً ، وسوف تتغير أكثر . فالطلبة يسافرون من أول مصر إلى آخرها . ويسكنون وحدهم . ويعملون فى أوقات فراغهم أو يحاولون . ونحن جميعاً سعداء بأنهم يسافرون إلى الخارج يتفرجون ويعملون ويكسبون . . وحدهم مع حريتهم . وحدهم مع الدنيا الواسعة التى لا يهمها كثيراً أن يطلق أى إنسان شاربه أو لحيته أو أنه نام على الرصيف أو نام واقفاً ، أو مسح البلاط ، أو مسحوا به البلاط . . ما دام لا يضر أحداً من الناس . . ما دام لا يمس حرية أحد . . ولا يهم من يكون أبوه . . إنهم يقرءون فى لندن أن رئيس الوزراء أبوه نجار وأن معظم أعضاء العموم البريطانى كانوا يمسحون البلاط ويغسلون الأطباق ويدرسون فى الجامعات !

وكما يحدث فى الشوارع المزدحمة أن يصطدم المشاة والسيارات . . لابد أن يصطدم طالب بشخص أو بقانون . . لابد . . إنها تجارب جديدة عليهم . وهم يتعلمون بالصواب والخطأ — وهذا طبيعى !

وعندما كنت فى مدينة فرنكفورت بألمانيا وجدت البوليس قد اعتقل أحد الطلبة بتهمة النصب والاحتيال . فالطالب يبيع « تحفاً » فرعونية قديمة مزورة . والحكاية أنه طالب أحضر معه من مصر بعض مصنوعات خان الخليلى ، ومن بين هذه المصنوعات « مشط » باعه لإحدى الفتيات على أنه أثرى . وقال لها : لن أقبض ثمنه اليوم . . اعرضيه على بعض الخبراء وتعالى غداً . وعادت الفتاة لتقول له : لم يتحقق من ذلك أحد . وقال : إنه يخشى أن يعرضه على الخبراء . .

واشترته الفتاة . وألقى البوليس القبض على الشاب لأنه ادعى أن هذا المشط — وعشرين مشطاً أخر — من مخلفات الملك خوفو !

إنها مجرد نكتة لجأ إليها طالب للخروج من مأزق ! وهذا الطالب يعمل الآن مديراً مساعداً لأحد فنادق فرنكفورت !

وظهر بعد ذلك طلبة يبيعون فرش أسنان وأدوات حلاقة الملك خفرع . . إلخ .

وفى لندن سمعت من السفارة المصرية أن طالباً فى طب القاهرة يسكن عند سيدة معجبة به . ومن ضمن الأكاذيب التى أسعدت صاحبة البيت أن الطالب كان يقول لها : ياسلام أنت تشبهين والدتى

التى ماتت أثناء العبور ! وكان هذا الطالب يداعبها كثيراً . ويأتى لها بالورود فى كل يوم أحد . وهى سعيدة به جدًّا . . لولا أنه كثير الصخب . لأن زواره كثيرون . ولكنهم من المصريين الذين يفكرون بصوت مرتفع !

وفى يوم استدعاه البوليس ليقول له إن غرفته ليست نظيفة ، وأنه يزعج السكان الآخرين . . وتقدمت صاحبة البيت تقول : بل أكثر من ذلك أننى وجدت فى شنطته صرصاراً !

وصرخ الطالب المصرى : فى شنطتى ؟ معنى ذلك أنك فتحت شنطتى دون إذن منى ؟ . . هذه جريمة لا يمكن السكوت عنها . . وأخطر من ذلك أن الصرصار الذى وجدته فى شنطتى قد أحضرته أنا من مصر ، فأنا طالب كما تعلمين . . جئت به لكى أقوم بتشريحه هنا . . وهذا صرصار من سلالة مصرية نادرة !

واعتذرت السيدة . واعتذر السكان . وظل الطالب يؤكد أن الصرصار فرعونى وأن هذه خسارة فادحة !

وسأله بعض موظفى السفارة إن كان « الصرصار » فرعونيًّا ، واعترف بأنه صرصار صعيدى مصرى ثم قال : ما الذى تتوقعون أن تجدوه فى شنطة مواطن مصرى من مدينة البلينة ؟

هذا الطالب يعمل الآن مديراً لواحد من مطاعم لندن . وفى العام القادم سوف يعود إلى نفس المكان ، لأنه نموذج للنظام والإخلاص والاحترام !

ونوادر كثيرة فى كل عاصمة . . ولكن ألوف الشبان قادمون – ويجب أن يفعلوا ذلك وأن نشجعهم !

فى لندن تغديت فى مطعم « السربانتين » ، أو المطعم الثعبانى على بحيرة فى حديقة هايدبارك . . كل من يعمل – من الطباخ حتى الفتاة التى تحاسبك – مصريون . طلبة فى الطب والهندسة والألسن ومعهد الفنادق . وهم راضون عن عملهم . وأصحاب العمل راضون عن عملهم . ونحن سعداء بهم . وعرفت من إحداهن أن مرتبها الشهرى مائتا جنيه فيما عدا البقشيش . أما الذى سوف تنفق فيه أموالها فليس سرا : ملابس لها ولإخوتها ، وبعض الأدوات المنزلية !

قابلت اثنين من الأطباء سوف يتزوجان عند عودتهما من لندن . . ولكن ما الذى يعملانه ؟ فالطبيب يقول : أنا واحد من الذين يدوخون الإنجليز هنا . وسألته : كيف ؟ قال : إننى أعمل بارمان ؟ أما خطيبته فهى تعمل فى استعلامات أحد الفنادق ؟

ولا يوجد فندق كبير فى لندن ليس به طالب مصرى يعمل فى الاستعلامات أو فى المطبخ أو فى المحاسبة . كما أننى وجدت بيوتاً كاملة يديرها مصريون من عاملة التليفون حتى مدير الفندق . . مثلاً فندق

« بلاس كورت » وهو من أهم المعالم المصرية فى لندن . . صاحب الفندق باكستانى . مدير الفندق مصرى كان موظفاً كبيراً فى وزارة الشئون الاجتماعية . . وبقية الموظفين من عاملة التليفون إلى الفتيات اللاتى ينظفن الغرف : مصريات . وقد نزلت فى هذا الفندق . ووجدت سفراء ووكلاء وزارات وأساتذة فى الجامعة . . وهناك بيوت أخرى كثيرة !

مثلاً مطعم « العم سام » يعمل فيه عدد من المصريين . واحد منهم هو الطاهى ، وهو طالب فى كلية التجارة ، سألته : أين تعلم الطبخ ؟ قال : لم أكن أعرف ذلك فى حياتى ، ولكننى تعلمت . وبعض الزبائن تجىء إلى حيث أعمل ويطلب منى العناية الخاصة به . فأنا طباخ ماهر .

وسألته : إن كان سيعود إلى لندن أجاب . ولكن لأعمل شيئاً آخر .

– لماذا ؟

– أريد أن يكون عالمى متنوعاً ، لأكتسب المزيد من الخبرات . . وحتى لا أشعر بالملل .

– وفى مصر ما الذى تنوى أن تعمله ؟

– أن يكون لى مشروع تجارى أو . .

– ماذا ؟

– أو أعود إلى هنا بعض الوقت ، حتى أتمكن من أن يكون لى بيت وسيارة وعروساً . . مصرية طبعاً !

وفى مناقشة مع عشرين طالباً من جامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس قالوا :

– ما هو الخوف من وجودنا هنا ؟

– ربما الفضيحة !

– هل كل ما نفعله فاضح ؟

– لا .

– ألا تحدث جرائم فى مصر وتنشرها الصحف المصرية على أوسع نطاق . ولا يقال إن الشعب المصرى من أوله لآخره مجرم . ألا تحدث فى نفس البلاد التى نعمل فيها جرائم من المواطنين وتنشرها الصحف ؟ ومع ذلك لا يخجل المواطنون من أن بينهم مجرمين وسفاحين ؟ إذن نحن نبالغ كثيراً فى كل ما يقال عنا . .

– أنتم تعرفون – إن كنتم قد نسيتم – أننا نبالغ فى كل شىء . . فإذا صرخ طالب لأن مسماراً دخل فى جزمته ، قلنا إنها صناعة الأحذية المصرية . . إنها الجاذبية العجيبة بين المسمار الأوربى والجوارب

المصرية. . يجب أن نوقف صناعة الأحذية . . أونتوسع فى إنتاج الزنوبة . . أو لا داعى لأن يسافر الطلبة . . أو إذا سافروا ألا تكون لهم أقدام . . نحن هكذا عموماً . . لا بالنسبة للطلبة ولكن بالنسبة للطلبة الذين لم يسافروا . . ولصناعة الأحذية .

– والحل ؟

– أنتم الحل الوحيد . . المستقبل لكم . . أنتم تتعلمون ، وبعد ذلك تعلمون الأجيال القادمة. فبعد أن سافر رفاعة الطهطاوى إلى باريس وعاد ، ظلت الأمهات يبكين إذا سافر أبناؤهن من القاهرة إلى طنطا إلى طلخا ، ومن طلخا إلى زفتى . . لماذا ؟ لأن الأم تخاف على ابنها من الطريق ومن «الغربة» وتندب حظها وحظه ، وظلت الأمهات عشرات السنين . . والآن تغيرت الأمهات والأبناء . . وسوف يتغيرن إلى ما هو أفضل . . وهذه رسالتكم.

– ساعدونا .

– لا أحد يقف بينكم وبين الطائرات والبواخر . .

– هذا الخوف المبالغ فيه !

– إنها قلوب الأمهات والآباء .

– غيروها . .

– أنتم الذين تغيرونها بالسلوك المحترم والعمل الشريف . .

– ما الذى تراه ؟

– الذى أراه أعجبنى . . واسترحت إليه . .

– هل تؤدى لنا خدمة ؟

– يسعدنى ذلك .

– أن تحمل هذه الرسائل إلى أهلينا .

– أفعل .

– وشيء آخر !

– لا أتردد .

– أن تكتب ذلك عنا . .

أرجو أن أكون قد قلت ما يرضى الأبناء ، ويريح الآباء ، ويشجع الألوف على العمل والمتعة والكسب فى أى مكان من هذا العالم . فمصر بأبنائها ، أكبر وأوسع من حدودها الصحراوية .

لاأنت عجينة ولاحجر ياأى إنسان !

القاهرة مدينة مليئة بالضوضاء . . ولا أعرف إن كانت الضوضاء هى التى جعلت الناس عصبيين يصرخون طول الوقت . . أو أن الناس عصبيون ، وهم لذلك لا يرفعون أيديهم عن أجهزة التنبيه والراديو ولعب الطاولة . . ثم إن الناس فى حالة دوخة مستمرة ، ولذلك ينبهون بعضهم البعض بالزعيق والعنف . . أو ينبهون أنفسهم بالقهوة والشاى ، أو يتقلبون فى دخان السجائر .

فما الذى يمكن عمله من أجل أن يكون الناس أقل عصبية والقاهرة أقل ضوضاء ؟ رأى يقول : قل للناس يتكلموا بصوت منخفض . ورأى يقول : بل يجب أن تلغى أجهزة التنبيه . ورأى يقول : أسهل من هذا كله أن تسد أفواه الناس . . ورأى يقول : غرامة مؤكدة لكل من يرفع صوت سيارته أو صوت الراديو . . ولا عقوبة على من يسكر أى راديو أو ميكروفون قد ارتفع بشهادة الشهود ، وأزعج الآخرين !

إنها مشكلة أكبر من ذلك : إنها مشكلة كيف يمكن أن يتغير الإنسان . كيف يمكن تغيير « الطبيعة الإنسانية » . . هل يمكن تغييرها بالأمر . بالتخويف . بالعقاب . بالذوق . بالعنف ؟ إن هناك عناداً إنسانيًّا ضد الأوامر والنواهى . . حتى لو كانت هذه الأوامر نافعة للإنسان . . إنه يقاوم من يفرض عليه العلاج ، ويلقى فوقه بالسعادة ، ويحبسه فى الجنة !

مثلاً : ماذا حدث عندما أصدر كل الأطباء فى العالم أن السجائر هى السبب الأول لمرض السرطان ؟ ماذا حدث عندما أعلنت شركات السجائر ذلك ؟ انخفض عدد السجائر التى يستهلكها الفرد . . ولكن صناعة السجائر ازدادت رواجاً . وغيرت كل الشركات فى ألوان وأحجام وطعم سجائرها . وازداد إقبال الناس على ذلك . . ثم تركت شركات السجائر تلوين العلب ، واتجهت إلى

تطوير صناعة الولاعات . . ومعظم شركات السجائر هى صاحبة شركات الولاعات الأنيقة الذ
والإلكترونية . إن شركات السجائر قد عدلت تماماً عن إقناع المدخن بأن يتوقف عن التدخين
اتجهت إلى مغريات أخرى . . ومن بين هذه المغريات . . أن تعاونت مع شركات السينما على
النجوم وهم يدخنون فى أجمل المواقف أو فى أقساها .

فتغيير الإنسان صعب ، ولكن تغيير الظروف حوله أسهل . . ويؤدى إلى نفس النتيجة . و
وزارات الصحة فى العالم ليست عندها هذه القدرة الهائلة على الإغراء !

مثلاً : فى الحدائق العامة نجد لافتات تقول : ممنوع قطف الزهور . . أو . . دعنا نعيش
تعيش . . الله خلق الدنيا جميلة ، فلا تجعلها قبيحة . إلخ .

والناس يختلفون أمام الزهور . . هل نعلق مثل هذه اللافتات حتى لا يقطف الناس الزهور .
نبنى حولها أسواراً من الأسلاك الشائكة . . هل لا داعى للزهور . . هل لابد من الزهور ثم نقطع
الناس ؟ .

بعض الناس يرى أن خير وسيلة لمنع الناس من قطف الزهور ، أن يقف إنسان عند مدخل الـ
ويعطى كل إنسان زهرة . . فإذا أخذها ، فإنه لا يحتاج لأن يقطفها بعد ذلك . . ومعنى هذا الأ
هو : أنك لا تستطيع أن تمنع أحداً من قطف الزهور . . فالإنسان بطبعه طويل اليد ، طويل الل
يحلو له أن يدوس القانون . . وهذه الزهور هى رشوة له حتى لا يفعل ذلك . . أو هى طريقة
لإحراجه . . فما دام قد أعطى زهرة فلماذا يخطف واحدة أخرى ؟

وأنت لا تستطيع إن جاءك زائر أن تقلق وتضطرب لكى يقوم ويتركك لعملك . . أو لا داعى
تلم أوراقك ، وتوهمه بأنك سوف تخرج . . وإنما هناك حيل أخرى . . من بين هذه الحيل . . أن
المقاعد فى غرفتك محدودة جداً . . مقعد واحد يكفى . . أو تجعل هذه المقاعد غير مريحة . . أو
فى مواجهة الضوء . . أو تنظر فى ساعتك من حين إلى حين . . أو تبدأ لقاءه بالاعتذار عن البقا
بضع دقائق . . المهم هو أنك لا تقول له : إنك مشغول عنه . وإنما تعمل كل ما يجعل بقاء
مريح . . فأنت لا تغيره هو ، وإنما تغير كل الظروف حوله . . !

وحوادث السيارات قد حار العلماء فى توجيه أصحاب السيارات والسائقين . . وطلبوا إليه
يتحركوا برفق . أولا يقودوا سياراتهم وهم تحت تأثير الخمر أو المخدرات . . ولكن النتيجة لم
طيبة . . تماماً كتخويف الناس من السجائر . . ولكن لجأ المهندسون إلى وضع أحزمة الأمان حول
السائق . . أو استخدام الكشف الكيميائى على أنفاس السائق عند الحادث . . أو وضع العوائ

الشوارع حتى لا يسرع السائق . . كل ذلك أدى إلى خفض الحوادث بنسبة كبيرة . .

عندما حدثت أزمة السكر فى بريطانيا ونشرت الصحف أن هناك نقصا هائلا فى السكر . وطلبت إلى الشعب ألا يأخذ أكثر من نصف كيلو للفرد . . ذهب الناس وحصل كل الناس على نصف كيلو لا أكثر . . ولم يحدث أن شكا أحد من نقص السكر . ولكن لو قالت الدولة إن هناك أزمة سكر فلا داعى لشرب الشاى يومين أو ثلاثة . . لهجم الناس على المحلات واشترى كل واحد أكثر من نصف كيلو .

وفى نفس الوقت كانت المقاهى فى لندن تضع للناس مع كل فنجان شاى ثلاث قطع من السكر . فكان الناس يضعون قطعة فى الفنجان . وقطعتين فى جيوبهم . . ولذلك لجأت المحلات إلى أسلوب آخر . . فكانت تترك للناس أن يأخذوا حاجتهم من السكر دون تحديد . . ولاحظت أن كل واحد يأخذ قطعة واحدة فقط . . وأكثرهم لا يضع السكر فى الشاى ، مراعاة للظروف العامة ؟

وعندما انقطع التيار الكهربائى عن مدينة نيويورك منذ سنوات لجأت الحكومة بسرعة إلى تحويل الكهرباء إلى نيويورك من ولاية أخرى . . ثم خفضت قوة الإضاءة فى الشوارع . . فلاحظت أن الناس كانوا يتركون المصابيح مضاءة . . وكثيراً ما ينسونها ، ولكن عندما أعادت مدينة نيويورك الأضواء كاملة ، طلبت إلى الناس أن يخفضوا الإضاءة بشكل آخر . فعلقت لافتات فى كل مكان : اقتصد كيلووات كل يوم . . فكان الناس يمدون أيديهم إلى المصابيح ، حتى يسود الظلام قبل أن ينزلوا من بيوتهم . !

أتذكر ونحن أطفال ، كانت تمر علينا فى ريف المنصورة سيارات لشركة باير للأدوية . وكانت هذه السيارات تعرض علينا أفلاما . . وكانت لهذه السيارات طريقة مبتكرة . . فهى تذيع الأغانى من ميكروفونات عالية جدا . وكان ذلك شيئاً عجيباً فى ذلك الوقت . ونلتف نحن الأطفال والكبار حول السيارة إلى جوار جدار . وفجأة نرى أفلاما على الحائط وأشياء تتحرك وأناسا يعطسون ويرشحون ويتوجعون ، إنهم مصابون بالزكام ، والسيارة جاءت تدعو للأسبيرين الذى توزعه مجاناً على الناس .

ولم يكن أحد يقترب من هذه السيارة ، أو يلمس جسمها الأبيض اللامع . . فلا يكاد الإنسان يقترب منها بأصبعه حتى يصاب برعشة شديدة . . وكان الأطفال يخافون من هذه السيارة « المكهربة » ولذلك كان من المناظر الغريبة أن تجد الأطفال قد تزاحموا حول الشاشة ، وتضاربوا فى كل اتجاه . . إلا السيارة ، فقد كانوا يبتعدون عنها دون أن يحذرنا أحد من ذلك !

وعالم المرأة . . ربما كان هذا هو العالم المليان بالمتناقضات . . ولذلك فالذى يعيش فى عالم المرأة

هو أحد أبطال سباحات المسافات الطويلة والقصيرة والغطس والقفز وأول الغرق عادة ! هذا العالم المتغير من أوله لآخره ، كيف استطاع ملوك الأزياء أن يظلوا ملوكاً كل هذه السنوات الطويلة . . إن معظم الملوك يموتون فى المنفى : إلا ملوك الموضة . . فهم يعرفون أن المرأة تحب تغيير كل ما حولها إلا قلبها . . وتكره التغيير فى الرجل الذى تحبه . . وتخاف من علامات التغيير فى وجهها . . تخاف من الزمن . . ولكن هذه المخاوف الغريبة ، استطاع ملوك أناقة الفساتين والأحذية والشعر والماكياج أن يروضوها وأن « يسكتوها » و« يوصفوها » كما تقول السيدة كوكو شانيل إحدى ملكات الموضة : أنا أعرف أننى لن أقول شيئا جميلا . . فالرجال قادرون على ذلك أكثر منى . . ولكن أستطيع أن أقول كلاما عاديًّا بفستان جميل جدًّا ، بتسريحة بديعة . ومن المؤكد أن الرجل يستطيع أن يبتلع أسخف الأفكار من أجمل النساء . . ولا يستطيع أن يحتمل أروع الأفكار من أسخف الرجال . . فلندع الرجال يعلموننا كيف نردد أفكارهم فى إطار أفخم .

إن المرأة تستطع أن تغير حالاتها النفسية ، إذا غيرت جلدها . . إذا غيرت فستانها ولونه ، وإذا غيرت تسريحتها . . وإذا غيرت ملامح وجهها . . إنها تستمد الرضا والسعادة من كل هذه الأشياء ، من كلمة واحدة يقولها رجل ، حتى لو لم يكن يقصدها بالذات . . إن كلمة واحدة جميلة تقال للمرأة فى أى مكان فإنها لا تنساها . . هل هناك أكثر كذباً من الحلاق ومن الخياطة ؟ . ومع ذلك فالمرأة تصدق كل ما يقوله الحلاق والخياطة .

وهذا هو الفهم الصحيح للطبيعة الإنسانية . . فالإنسان ليس خاتما تضعه فى إصبعك الصغيرة ثم تنقله إلى الكبيرة ثم تضعه فى جيبك . . ثم الإنسان ليس قطعة من العجين ، تجعلها قطًّا وكلباً وأسداً إذا أردت ، ولكنه قطعة من الحجر الجيرى أو الحجر الأسود . . والكتابة على هذا الحجر صعبة . . ولكن تستطيع أن تضع الحجر فى ميدان فإذا هو تمثال . . وتستطيع أن تضعه على قبر فإذا هو شاهد . . وتضعه أمام الباب فإذا هو عتبة . .

أنت لا تغيره . . ولكن أنت تغير ما حوله . . أنت تغير موقعه . . وبذلك تتغير المعانى التى لهذا الحجر .

وأنت فى حياتك العادية تقول : إننى فى حاجة إلى تغيير .

فما الذى تستطيع أن تغيره ؟

إنك لا تغير نفسك . . وإنما تغير الظروف حولك . . الوجوه . . الكلام . المكان . الهواء . الطعام . الشراب . أنت أنت . . ولكنك تذهب إلى مكان يعكس عليك أضواء مختلفة . وأصواتاً مغايرة . .

ويهب عليك الهواء من البحر بدلا من الصحراء . . أو من الصحراء جافًّا بدلا من البحر رطباً . . وتمشى بقميص بدلا من بدلة . . وتدوس على شبشب بدلا من حذاء . . ثم إنك قد قررت أن تغير فتذهب إلى مكان آخر مختلف .

ونعود إلى السجائر وإلى القهوة وإلى الخمور.. ماذا حدث الآن ؟ إن كل محاولة لمنع الناس قد فشلت . . لا بالتحذير ولا بالتخويف . . ولذلك لجأ الأطباء إلى اختراع حبوب . . إذا مصصتها زهدت فى السجائر . . وقد نجحت إلى حد كبير . . أما الخمور فقد اهتدى العلماء إلى رفع الكحول من المشروبات ، فأصبح لها اللون والطعم ، ولكن ليست فيها هذه اللسعة التى تفتت الكبد . . وكذلك بالنسبة للقهوة والشاى ، رفعوا منها مادة الكافيين ، فأصبح لها الطعم واللون والرائحة ، ولكن هذه المادة التى توجع القلب وتجفف الرأس وتطرد النوم قد اختفت !

تقول العالمة الأمريكية مرجريت ميد إنها لاحظت أن أبناء جزر المحيط الهادى تظهر على وجوههم بثور ودمامل كثيرة . . ولما عرفت السبب انزعجت تماما . فقد قيل لها إن مظاهر الرجولة عند الشبان أن يسيلوا دماءهم أمام العروس ، دليلا على الصبر والقدرة على التحمل . وكثيرا ما تتفتح هذه الجروح . ويجىء الساحر لكل قبيلة ليعالج الجرحى بالأعشاب ، وبعض هذه الجروح تلتئم . . وكان يحدث فى أوربا فى العصور الوسطى شىء من ذلك . فقد كان الفرسان يتنكرون فى الليل ، وينامون واقفين تحت شباك المحبوبة . وكانت تتفضل وتلقى عليهم الماء البارد والقذر ، ما يوجع الصدر والجلد والقلب . وكان الفارس الشهم يصبر على الأذى ، دليلا على التضحية والحب لها والرجولة . . ولكن السيدة مرجريت ميد وجدت حلا ذكيًّا . . فبدلا من أن تقنع الشبان بالعدول عن ذلك . . فإنها أقنعت الفتيات بأن الذى يفعله الرجال سوف يضعفهم جنسيًّا ، وأن العلاج الوحيد لهذا الضعف ، هو أن ترش الفتاة على الجروح مادة ناعمة بيضاء . . وكانت الفتيات يفعلن ذلك والرجال يصرخون . . فإذا صرخوا امتنعت الفتيات عن زواجهم ، وأخيراً عدل الرجال عن أن يجرحوا أنفسهم . . أما المادة التى كانت الفتيات يستخدمنها فهى ملح الطعام المركز . . ووضع ملح على جرح شىء فظيع . . وأفظع منه ألا يتزوج الشبان والشابات !

وكلها حيل من أجل اللف والدوران حول طبيعة الإنسان التى يصعب تغييرها.. وإنما أسهل أن يغير الظروف حوله ليكون ألطف وأهدأ إقبالا على الحياة والناس . !

فهرست الموضوعات

رقم الايداع : ١٩٨٩/٨٦٨٨
الترقيم الدولى : ٠ ـ ٣٣٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص. ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣